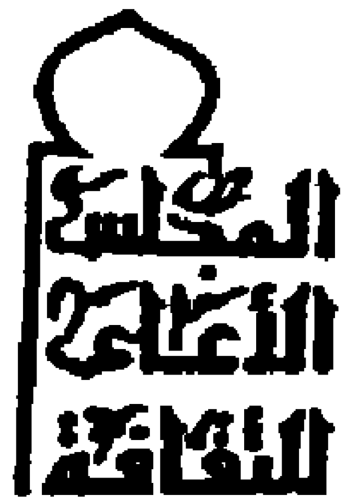


المجلس الأعلى للثقافة

شتاء جريح

رواية

حسنى محمد بدوى



١٩٩٨

كُتِبتْ هذه الرواية فى شتاء ٧٩/ ١٩٨٠

الإشراف الفني : محمد عيد إبراهيم

تصميم الغلاف : عبد العزيز السماحي

شتاء جريح

الفصل الأول
الدكان

يعيش " حَسَّان " وحده فى شقة قديمة واسعة فى حى " أمبروزو " . وهو يستقل باكورة كل صباح الأوتوبيس رقم (٣) ليصل إلى دكانه الواقع فى حى " النزهة " وترعةُ " المحمودية " شريانُ من شرايين النيل شبه المغمورة تجرى مياهُها جنبًا إلى جنب الأوتوبيس الذى يخترق بالقرب من نهاية الخط ، شارعًا طويلاً تلفّة أشجارٌ كثيفة عتيقة ، ثم ينفتح الطريقُ على الخلاء .

فى صباح اليوم ، وبعد عشر دقائق من مغادرته شقته ، نزل فى محطته المعهودة ككل صباح وسط أراضٍ زراعية عراء ، أمام شارع مسفلت يبدو كثعبانٍ أسود يتطوّى فوق بساط أخضر مترامى الأطراف فى هذه الضاحية الهادئة . بساطُ مخملى من الحقول والمزارع الشاسعة يتماوج تحت ريح الشتاء الباردة ، يتخلله عددٌ من المصانع والمبانى المتناثرة وخط سكة حديدية . وترقد فى سفح الأفق الرمادى وراء الشابورة كتلٌ من مساكن الأحياء البعيدة ، يبدو بعضُها كثيفًا ، على حين يلوح بعضُها الآخر متجاوراً أو متباعداً .

سار " حسان " بقامته الفارعة وجسمه القوى النحيف رافع الرأس - بخطوات وئيدة هادئة بجانب سور (حديقة الحيوان) .

... دخل حىّ " النزهة " المتزاحم بالبيوت الواطئة والدكاكين المتفرقة والشوارع المتقاطعة والأزقة المسدودة . التى يسعى خلالها أهلُ الحى وأصحابُ المحال والورش وعمالها الذين يعملون تبعًا لنظام " النوبتجيات " يوم الجمعة ، ثم عرج على شارع " البرازخ " - وهو شارع شبه ضيق ، مترب ملتوٍ كالأفعى . سار فيه حتى بلغ منتصفه ، فتوقف أمام دكانه الذى استأجره منذ خمس سنوات ، ولاستئجاره حكاية تتعلق بظروفه الخاصة وأسباب الحرب التى لم تفلت الأحياءُ المجاورة فى هذه الضاحية من سقوط قنابل العدو على بعض بيوتها ومصانعها . إذ كان يوجد بالقرب منها فى العراء ، بعضُ المنشآت والمواقع العسكرية .

أخرج " حسّان " سلسلةَ مفاتيحه من جيب معطفه الرمادى ، ودسَّ مفتاحًا صغيراً فى ثقب القفل ، وجذب صاجَ الباب بذراعيه إلى أعلى ، ثم فتح البابَ الزجاجى ، المكتوب على لوحته الخشبية بأعلاه " بقالة الاعتماد " . ودخل ...

قام بأداء بعض الأعمال الخفيفة المألوفة . نفض الترابَ عن الرفوف والأركان . وكنس باحةَ الدكان . ورَشَّ نشارةَ الخشب فوق البلاط ، ثم استقر جالسًا إلى مكتبه الخشبى الصغير ، وراجع بعضَ حساباته فى دفاتره . ودخل " شَرَنْبث أبو كُبَّه " محيّيًا ، حاملاً تحت إبطه رزمًا من صحف الصباح . قال وهو يضع على المكتب نسخة من جريدة " الأهرام " :

– خُذْ جورنالك . اليوم آخر يوم أبيع فيه الجرائد ياعم حسان .

فابتسم حسان وقال :

– " لماذا يا شرنبث ؟ " .

كان الرجلُ أحدب قصيراً ، قزمًا قبيح الخلقة . قال باستياء :

– " شُغلة لامكسب من ورائها . تعاركتُ مع المعلم فى كُشْك التوزيع . الشحاذة أكرم من بيع الجرائد . " .

وتناول " شرنبث " القروشَ ، وقال وهو يهمّ بالانصراف :

– " قلة قليلة تقرأ الجرائد ، فى هذا الحى . وماذا يجد فيها هؤلاء حتى يقرأوها ؟ " .

فقال حسان مداعبًا :

– " أنتَ لا تعرف القراءة يا شرنبث ، فكيف تحكم على بضاعتك مورد رزقك بالإفلاس ؟ .

– " أفكّ الخط وأقرأ الحوادث . رجل ابن أصول ، متعلم ، كيف يقتل ويسرق خزانةَ شركة ويهرب ولم يُقبَض عليه ، حدث هذا منذ شهر ويحدث كل يوم ، أين الحكومة ؟ " .

– " طبعًا بحث رجالُ البوليس عنه بكل الطرق ، لكنه هرب .

مجرم ذكى . قُلْ لماذا سرق ؟ ! " .

لوّح شرنبث بكفّه بلا مبالاة وغادر الدكان . ومالبث أن توافد عليه عددٌ من زبائن الصباح لشراء حاجاتهم من جبن وزيتون وبيض ومعلبات وحلوى وغير ذلك من سلع ، ثم عاد إلى مجلسه . كان وجهة هادئًا مشرقًا ينمّ عن الرضا والقناعة . كان معلّقًا على جوانب من الجدران ورق مكتوب عليه بعض الآيات القرآنية : " لئن شكرتم لأزيدنكم " و " استعينوا بالصبر والصلاة " و " فاذكرونى أذكركم " وفوق رأسه صورة لوجه رجلٍ مهيب ذى لحية بيضاء مثبتة على الحائط داخل إطار . نظر حسان إلى ساعته على رسغه . كانت الساعة قد قاربت العاشرة والنصف ، سحَبَ من داخل الدرج العلوى لمكتبه كيسًا صغيراً من القماش وقام . اكتفى بإغلاق الباب الزجاجى بمفتاح صغير ، وقد تعوّد أن يفعل ذلك كلما اضطر لإنجاز بعض " المشاوير " فى أرجاء الحى أو أطرافه . وهناك . خلف مقهى " الخيام " يقوم مسجد الحى . عرج فى سيره على زقاق ضيّق ، ووقف أمام الباب الخلفى للمسجد بيسراه الكيس القماشى ، وبيمناه أمسك بمطرقة حديدية صدئة فى شكل قبضة بشرية . دقّ بها ثلاث دقات رقيقة ، فأطلّ وجهُ صبى قمحى اللون ، من إحدى نوافذ الميضاء ، فسأله حسان :

- " الشيخ عبد المقصود موجود ؟ " .

- " الشيخ عبد المقصود ذهب للقراءة فى بيت المرحوم " الحاج حاتم " ، يرجع خلال ساعة على الأكثر . أى خدمة ياعم حسان ؟ "

- " سأعود إليه .. "

وكاد يأخذ طريقه عائداً إلى دكانه . لكنه تردد هنيهة ، ثم توقف تحت شجرة عارية من الأوراق ، بالقرب من الرصيف الترابى لمقهى " الخيام " فرأى بعضَ سكان الحى يجلسون على الكراسى يحتسون الشاى ويدخنون " الشيشة " يراهم هنا فى الصباح قبل صلاة الجمعة . يهربون من أوقات فراغهم فيتخذون من النظر إلى أجسام النساء أثناء مرورهن تسلية منكرة . ها هو يراهم يختلسون النظرات بعين واحدة إلى عاملات المصانع وعابرات الطريق الرائحات والغاديات . يخشى كلٌ منهم الآخر ، ولايخشون الله . وقعتْ عيناه على ثلاثة منهم وهم يلتهمون بنظرات صريحة اللحمَ الحرام ، تُعَرى عيونُهم المستورَ . وها هو يسمعهم فى نفس الوقت يلعنون كلَّ النساء المتبرجات وهذا الزمن الفاسد . وسمع شابًا منهم يقول صائحًا :

- " علامات القيامة . استغفرك يارب ! "

ورآه يتابع بعينيه في إلحاح شهوى امرأةً عابرةً طويلة بيضاء في معطف أسود . وانتبه حسان باهتمام مجفلاً . استطاع أن يتبيّنها رغم نظارتها السوداء ، فهي جارته الجديدة ! بل هي من أقرب جيران دكانه وزبائنه . رآها تمضي في طريقها بحياء ووقور وحذر مهيب . استغفر الله في سرّه ، وتضاعف شعورُه بالإنكار والاستهجان للمقهى وروّاده . هؤلاء الذين تحفظ ذاكرتُه وجوهَهم التي يراها في موكب المصلين صلاة الجمعة ! غادر المكانَ على الفور ممتعضًا ودخل السوق وتجول في أزقتها الملتوية وبين دكاكينها المتداخلة هنا والمتلاصقة هناك ، حتى مضت الساعةُ فعاد إلى باب المسجد ودقّ ثلاث دقات رقيقة ، فأطلّ من نافذة صغيرة وجهُ كهل ذي لحية رمادية . تبادلا تحية الصباح . ومدَّ حسان الكيس القماشي إلى الرجل قائلاً :

- " خُذ الأمانة يا شيخ عبد المقصود . جمعتُ التبرعات من أهل الخير ، وهم قلة في زماننا الأغبر ! " . تناول الشيخُ الكيس قائلاً :

- " بارك الله فيك يا حسان . أنتَ من أهل الصلاح والتقوى .. " .

- " دعواتك الطيّبة يا سيدنا الشيخ .. " .

- " أنت خير الناس في الحي . مثلك مثل أبيك " الشيخ كريم البكري " . كان نقيّ القلب ، من الصالحين ، يرحمه الله ويحسن إليه . " .

عاد حسان إلى الشارع الهادئ الذي يقع وسطه مدخل دكانه ، ويستكن ضلعٌ منه في زقاق مسدود مهجور . كان يردد : " الحمد لله " . وهو دائم الحمد والشكر . يعبد الله لوجه الله . وكم ابتُلى في أطوار حياته . والابتلاء عنده منّة من منن الله عزّ وجلّ . وها هو يبلغ بداية الكبر سالمًا من كل عكارة ، طاهراً راضيا .

ظل ترديده الحمد والشكر عالقًا بقلبه حتى عصر ذلك اليوم .. حتى وقع حادثٌ .. فسرعان ما انقبض صدره وخفق قلبه وتوهج ، فاكتنفه شعورٌ غامض ثقيل هو خليط من الخوف والزجر والقلق . وحمل جردلَه وملأه بالماء من حنفيةٍ داخل ورشة النجارة الواقعة على رأس الشارع ، ورجع وتوضأ داخل دكانه .. في مغربِ هذا اليوم - وبعد أن فرغ من صلاة المغرب - طوى حصيرتَه المستطيلة ، وأسندها إلى جدار كالح في ركن من دكانه الغائر تحت سقف عتيق . وضغط على زرٍّ أضاء مصباحًا صغيراً مدلى بسلك متسخ ، من السقف فوق الباحة . الضوء خافت لا يظهر ملامحَ الدكان في وضوح .

أشيـاء راكدة كأن لها من العُمر ألف عام ، على حين كان فى جوانب أخرى سلع كثيرة جديدة متراصّة . أما جوالات الأرز والسكر والعدس ، وبرميل الزيت وفنطاس الجاز ، فكانت متوارية داخل مخزن مستطيل معتم كالجبّ ، وراء حاجز خشبى يواجه من الخارج قائماً خشبيًا سميكًا جديداً ، فوقه صندوق زجاجى مستند إلى رخامة الجبن والحلوى وأشياء أخرى ، مطلّ على مكتبه العتيق الذى يجلس إليه الآن ساهمًا متكدراً . أشياء من حوله ، أرخى عليها ضوءُ المصباح غبشًا من الكآبة . فتح الدرجَ لصق صدره وأسند كوعَه عليه . وسرّح بصره إلى الباب والعتبة الرخامية ، وإلى السور العالى المواجه ، وإلى جانب من الشارع الغارق فى متاهة من الهدوء الموحش الراسخ . وراح يعالج وحدته وحيرته بعدّ قروشه داخل الدرج . شرد خاطرُه فى أمور شتى ، وإذ هو كذلك ، دخل عليه شابٌّ ، متوتر الأعصاب ، وسأله فى قحّة :

– " أريد فحمًا وعلبتيْن من دخان : المعسل : ! .. " .

– " آسف . لا فحم عندى ولا دخان المعسل .. " .

– " ولماذا لا تبيع الفحم أو الدخان يا رجل . " .

– " لو كان عندى لبعتُه لك . " .

– " كثيرون من الزبائن هنا يطلبون هذه الأشياء ، ألستَ أنت أيضا من أهل " الكيف والمزاج " ؟ " .

– " وألستَ أنت من طلاّب العلم كما تبدو لى ؟ " .

– " طالب فى المعهد القائم فى أطراف الحى ، فما لك أنتَ ؟ ! .

– " يا بنى . نصيحة لك . احفظ صحتك وانتبه لدروس تعليمك . واتقِ الله ! ".

فغضب الشابُّ من كلام حسان ، إذ عدَّ النصيحةَ فضولاً موجعًا . تكدر مزاجُه لأنه لم يجد مطلوبَه المنشود ، فصاح فى حسان :

– " أأنتَ وصى علىَّ ؟ تنهون عن المنكر ، وأنتم أرذل خلق الله ، مع أن هذا المزاج ليس منكراً ! " .

– " تحشّم فى القول ، فأنا فى سنّ أبيك ! " .

– " ملعون أبوك : .

وخرج الشابُّ منفلتا فى حركة عصبية غريبة . وفار دمُ حسان ، وكاد يلحق به ويضربه ، لكنه كظم غضبَه وردد هامسًا : " سامحك الله " . وفى هذه اللحظة دخل الدكان " خليل كبارة " سائس الاسطبل ، فدار بينهما حديثٌ قصير تعقيباً على ما جرى .

– " فساد وقلة أدب ! " .

– " شاب تالف ، عكّر دَمك . لو كنت مكانك لذبحته بسكينك . " .

– " زملاؤه الطلبة والعمال يملأون البلد بالمظاهرات ، وهذا غارق فى الفحم والمعسل والحشيش ! " .

– " شباب خرع مائع .. " .

– " الدنيا تغيّرت . فما يفعله شبابُ اليوم مجرد شغب وتخريب . كانت مظاهرات زمان من شباب فى مثل سنى يسقطون حكومات . كانوا رجالا .. " .

– " أخلاق الناس تغيّرت .. " .

– " فعلاً ! لا أمشى فى سوق أو أركب أتوبيسًا أو أدخل جامعًا إلا ويتأذى سمعى بألفاظ موجعة ! زمن انقلبتْ فيه كل الموازين .. " .

– " فى الدنيا كلها .. " .

– " زمن تتوتر فيه أعصاب الناس بسرعة غريبة . اجلس يا كبارة ولنتحدث قليلا ، فأنتَ من القلة الطيبة فى هذا الحى ! " .

– " لدى شغل كثير لابد أن أتمَّه . ما أسهل وأسرع أن يحدث العراكُ بسبب وبغير سبب " .

– " فسدت ضمائر الخلق . بل ما أسهل السرقة والغشّ والخداع والزنا ! " .

وندم حسانُ على مانطق به لسانه . زلّ لسانُه بكلمة " الزنا " فأوجعت ضميَره ، فقال :

– " سرقوا النقود من درج دكانى فى الشهر الفائت . تركتُ المحل مفتوحًا دقيقتيْن لا أكثر . ذهبتُ إلى ناصية الشارع ، ولما رجعتُ وجدتُ النقودَ خُطفتْ خطفًا . ماذا فعلتُ ؟ لا شيء . فوّضتُ أمرى لله . اجلس يا كبارة . " .

وكان يقطع قرصاً من الجبن على الرخامة ، ويستطرد :

- " الحمد لله أن الدرج لم يكن بداخله إلا قروش . وقد اسغنيتُ عن معاونة الصبيان في دكاني ، فيكفيني ما لقيتُ من سرقاتهم ! " .

وخرج " خليل كبارة " حاملاً لفافة الجبن الصغيرة . وكان حسان بالداخل متقبّض الوجه . احتقن الدمُ في عروقه . وَدَّ لو مكث السائسُ معه وتحدث اليه حتى يتخفف من جبال الكلام التي تثقل صدرَه . ولكن كيف زلَّ لسانُه هذه الزلة ؟ ! عَصْر اليوم ، حدث حادثُ سرّي . يريد أن يخفيه حتى عن نفسه . يريد أن يهرب منه ، فكيف ؟ ! وراح يعزّي نفسَه باسترجاع بعض ذكريات قديمة عن أهل زمن الخير والفضيلة ، ذلك الزمن الذي مضى وانقضى .. وكأن شريط الخير القصير الدائر في رأسه المغسول بماء الوضوء ، قد تسللتْ إليه من فجَ مجهول بقعُ غريبة وتساقطتْ فلوثتْ شفافيته . بقعُ من سائل نجس - فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم . واستغفر الله مرات . لكن هذه البقع وإن خفف من عكارتها استغفارُه المتكرر ، فكانت كبقع من زيته الملوث ، تساقطتْ فوق عطاف ناصع البياض ، قُدسي مبارك . وحزّتْ ضميرَه أمورٌ شتى حزَّ السكين . واغرورقتْ عيناه بدمعتيْن سكنتا فيهما ولم تتساقطا ، فلاحتْ له شرفتهُا العلوية في البيت المواجه لباب دكانه وكأنها هيكل زورق صغير يلطمه موجُ البحر . الشرفة خالية الآن إلا من قطع الملابس المنشورة منذ العصر . وتمنى لو كانت البقعُ كالدمع تجفّ وتتطاير مع هبّات هواء مغرب الشتاء الغائم ، هبّات شاردة واردة الى وجهه الساخن عَبر العراء العلوي الفسيح السابح تحت السحب الداكنة . وسأل نفسَه : " من أين ينبع الحزن ؟ " . وتسلطتْ على خياله تلك البقع السوداء وهي تتماوج وتتطاير وتلتف ولاتجف ولا يتلاشى سوادُها العكر . تنتشر داخل دماغه المسكين . وينبع ضوءُ أبيض ناصع ويسري في تلافيف السواد الحالك . الليل أسود والنهار أبيض . وفيهما أنتَ وحدك . تُشتَم وحدك وتُسرقَ وحدك .. وتذكر حسان قولاً قديمًا همس به أبوه رحمه الله لصديق له من جلسائه : " الشيطان يحتال ! ويمكنه أن يلقى إلينا بأريج الطيب الكاذب على سجادة الصلاة " . ثم استدار أبوه ببصره وتفرّس في وجه ابنه الغلام حسان الموصوم بعبث صبياني وبذنبٍ كريه ، واستطرد : " والنار لمَنْ يوسوس له الشيطانُ . فلا تظن الطيب كَرما أو كرامة ، فتغترَ نفُسك بسُكْر كاذب ، فتظنه سُكْر الارتقاء إلى مقام وأنت بعد من أهل الأحوال تتقلب في الأوحال ! " وها هو حسان يتطلع اليوم إلى

أول الطريق . يغضّ طرفَه الدامع ، موجَع الضمير ، ويدسّه فى درج قروشه وكأنه ينفضه مما علق به عصر اليوم ، قائلاً لنفسه الآن : " وكذا الضوء الأبيض طيب شيطان ! يريك فى كنف الثوب الأسود بياضًا عجيبًا . أتظنه قبسًا من جنة الخلد ؟ استغفر الله ولا تنشغل به ! " . واستغفره مرات . ولكن الثوب هو الثوب . وساقان من النور العذب الشفاف ، يشقّان خيالَه شقًّا ويقومان فيه عنوة ولا يغادرانه . وأعاد عدَّ قروشه بأصابعه داخل الدرج . لكن رنينَ الفضة والبرونز رنينٌ خدّاع . ورصَّ القروشَ والشلنات وأنصاف الريالات . استطال تحت بصره الغائب عمودُ مرصوص وآخر وآخر حتى صارت الأعمدةُ فى خياله شبيهة بقضبان الشرفة الملعونة . وبين القضبان أطراف ثوب أسود تتماوج . ويتخلل الثوبَ الأسود ضوءٌ عجيب شفّاف .. والنهار ليس كالليل . ومغرب الشتاء فى وحدته الموحشة داخل دكانه يلقى عليه وشاحًا سحريًا من شذى الأحلام . يتقطع السحابُ فى أنسيابه الناعم كغلالات رقيقة لكوكبة من ملائكة الجنة ، لكن أيديًا خفيةً تبسطها بسطًا وتشدّها شداً فتجعل منها ثوبًا واحداً شفافًا ، ثم يتمزق ألفَ مزقا ويتراخى خيوطاً غزيرة تتساقط نَسلاً وتنهمر أمطاراً .

وكان المطر ينهمر خارج الدكان ، وحسان قابع فى ركنه تحت رعشات الضوء الشاحب وكأنه سابحٌ فى حُلم ، يرمق قطرات المطر وهى ترشق العتبةَ الرخامية نصالاً بارقة ! ..



الفصل الثاني

البطاقة

في صباح السبت ، وهو ينثر نشارةَ الخشب فوق البلاط ، دخلت الدكان . دهمتْه بطول جسمها الممشوق المتماسك لصق معطفها الأسود . رآها تقف بالباب ومن ورائها نور النهار ينداح في بهرة ، والدكان من الداخل مغمور في عتمة غبراء . لكن المفأجاة بهرتْ عينيه . وخيِّل إليه لثوانٍ خاطفة أن قد عمي . وجهها الأبيض المستدير صبوح وضّاء . وشَعرها أيضًا يغمره النورُ ولا لون له . غضَّ طرفَه وأطرق ومسح كفيّه . وخَطَا إلى الداخل خطوات ووقف وراء الرخامة وهو يقول لها بصوت خفيض :

- " صباح النور ياست هناء ! " .

ومع أنها هي التي بدأت المقابلة بتحية الصباح ، إلا أن صوتها لم يملأ مسامعه تواً ولم ترسخ نبرتُه الرقيقة العذبة في رأسه ولم يتردد إيقاعُه الحلو الناعم في صدره لحظةَ أن نطقتْ بالتحية وهي تقف بالباب :

- " صباح الخير ياعم حسان ! " .

إلا أن قلبه خفق وذَاق كلَّ هذه الطلاوة واستمرأها لحظةَ أن خطتْ خطوات إلى الداخل . اقتربت والتصق صدرُها وحافة المعطف الأسود بالرخامة وقالت له بود :

- الحقيقة ، أنتَ لكَ عليَّ أفضال لا تُنسى ، ولتكمل جميلك فلي عندك خدمة أخرى . بطاقة التموين ، أريد تحويلها إلى محل إقامتي الجديد هنا ، وتغيير بعض بياناتها بحيث يمكنني الحصول على مواد تمويني من محلك بدلاً من محل البقالة القديم القائم في " الإبراهيمية " .... " .

ومدَّتْ إليه البطاقة التموينية ، فقال لها بسرعة وحماس وهو يتناولها من بين أصابعها الطويلة الناعمة كالحرير :

- " من عيني ياست هناء . أي خدمة . نموذج الاستمارة من مكتب التموين ، والطلب : عرضحال وأقدمهما بنفسي عنكِ لمكتب التموين التابع لجهتنا هنا . الطلب رخيص و .... " .

ولم يكمل عبارته حياء .

- " ألف شكر ياعم حسان . " .

ودسّتْ داخل البطاقة ورقةً بيضاء مطويّة وهى تستطرد :

- " كتبتُ لكَ البيانات اللازمة وأنا لا أعرف هذه الإجراءات و .... " .

فقاطعها بنبرة هادئة كريمة :

- " دعى لى كل شئ . " .

ثم مدَّتْ ورقة مالية على الرخامة تحت بصره وهى تقول :

- " ألف شكر ، لكن اسمح لى إذن ..... " .

كان لا ينظر إليها وهى تحدثه ، إذ كان مستغرقًا فى حالة من الذهول ولكنه قال لها على استحياء :

- " عيب يا ست هناء الحساب فيما بعد . " .

وضاعفت ابتسامتُها الحلوة من إشراق وجهها . وطوّحتْ بشعرها إلى الوراء فى دل رقيق وقالت :

- إذن فيما بعد ، لكن الشرط نور ياعم حسان ، فبيننا حساب .... " .

واستردتْ ورقتَها المالية فى رقة . ورفع عينيه ونظر إليها فوجدها فى لحظة خاطفة قد بلغت العتبة الرخامية . وقفتْ بالباب ضاحكة ضحكة خفيفة فبدتْ له من بعيد فى بهرة النور صَبيّه ملائكية . لكنها قالت له :

- " على فكرة لمحُتك ورائى فى زحام السوق قبل صلاة الجمعة البارحة ! " .

واختفتْ . وقطب حسان وغاص داخل نفسه البائسة ، إذ دهم الشرودُ عينيه مرة أخرى . أحس بوخز فى قلبه ، فكادت سكينُ الحلوى أن تجرح أصابعه ! وطرح بطاقة التموين فوق مكتبه وجلس . ظل جالسًا لا يقرب بأصابعه البطاقةَ الملقاة تحت بصره . ودخل زبونٌ ، فدسَّ البطاقةَ داخل الدرج وقام ليدسّ همَّه أيضًا فى حركة البيع ومخاطبة زبائنه . ولفَّ المطلوبَ فى الورق .

ودخل زبائن آخرون . ولما هدأت حركةُ البيع قليلاً ، جلس مكفهر الوجه . حائر اللبّ .

الفصل الثالث

حادث العصر

وفى ساعة العصر ، ساعة فراغ واسترخاء ، كان جالسًا إلى مكتبه يقرأ الجريدة ومايزال ذهنُه مشتتاً ، وبطاقة التموين تحت بصره ملقاة داخل الدرج نصف المفتوح . يوجعه النظر إليها . يرمقها فى حسرة . ومع ذلك تطيب له رؤيتها بين وقت وآخر .. لماذا نطقتْ بكلماتها الأخيرة ؟ .. لكنه بعد ساعة من التفكير تارة ومن الشرود تارة أخرى ، انتابه شعورٌ كشعوره وهو صبى بين أسرته وأهله يوم حلول العيد .فرحٌ غريب . حزنٌ غريب . خوفُ آسر . خجل موجع ندى .. فقد نطقتْ بعبارة أغضبته .. ونهض وتوضأ وصلى صلاة المغرب . وختم بالاستغفار مرات ، ثم استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شياطين الشارع الكثيرين .. ولكن عاودتْه صورة الحادث ، حادث عصر البارحة . واستولت عليه حواسه . فمَنْ تكون هذه الساكنة الجديدة إلا ..! واستغفر الله على ماخطر له من سوء الظن قسراً .. وقال لنفسه هامسًا : ومَنْ أنتَ يا حسان من كل هذا السواد ؟ أتظن نفسك داخل دكانك وحدك رقعة بيضاء بغير سوء فى هذا الزمن الأسود ؟ وتراءى له فى خياله الخصب المكدود رفلُ ثوبها الأسود يتطاير ويتماوج وتلتف ألسنتُه بين قضبان الشرفة ، فيبين له سراً نور الفخذين فى بياض الحليب . وكأن سيلَ المطر المنهمر فى الخارج قد تجمع كله فى قاع جمجمته البائسة ، وظل حبيسًا فيه ألف عام ، فصار بفعل التحولات الغامضة غموض التاريخ البعيد القديم ، بركاناً تصب فيه ألفُ شمس حممها وجمرها عبر ملايين العصور النارية . وفى لحظة هى الأخرى موغلة فى الغموض : يغلى كل شئ غلياناً رهيبًا . فى لحظةٍ مبهمة يندفق دفعة واحدة جماعُ السيل الحبيس : نافورة جهنمية .. خاطر وخواطر لاتبرح خياله . تفصّد جبينُه بحبات خفيفة من العرق . سمع صريرَ مزلاج . انفرجتْ ضلفتًا باب شرفتها عن شقٍّ يبين منه ضوءُ الحجرة المطلّية جدرانها بلونٍ أرجوانى أغرب من أى لون أرجوانى مألوف .. لون سرى .. ثم .. ثم لاحتْ بقامتها التى دهمتْ بها دكانه صباح اليوم . استقامتْ فى عراء الشتاء . أنحنتْ على الحبَال تنشر ملابسَها وتثبتها بالدبابيس ، واجتاجتْ شعرَها الناعم الكثيف عصفاتٌ من الهواء العابث . كانت ظلال العصر كثيرة

متعاكسة . هل كانت تبتسم أو تخيّل هو هذا ؟ بعض الظلال لم يفصح . وبعضها الآخر لم يبح له تدقيقَ النظر . وبعضها كالغيم اكتنف روحَه وطمس بصرَه . ثم أضاع صرارُ انغلاق الباب سمعَه فى غمار جيشان النبض . نبض عروقه تحت أذنيه . لم يرَ كيف تلاشتْ من الشرفة . كيف انسلتْ داخل شقتها . كيف قبضتْ ببياض يديها ونعومة أناملها على المزلاج لتجذبه إلى الداخل فينغلق الباب . ينغلق على السرّ والمستور . حدث هذا فى لحظةٍ خاطفة . وفى وضح الصباح لم يكن كل هذا السرّ بكل هذا السحر .. امرأة كبقية نساءٍ الأرض . فلماذا يرقب من داخل دكانه بابها طوال نهار اليوم ؟ لم يكن يشعر بها قبل عصر البارحة ، بل دخلتْ دكانه زبونة مرات منذ سكنتْ شقة أمها فى الشهر الماضى . ولم ينظر إليها إلا نظرة يقال لزبونة . نظرة خالية من كل قصد . فماذا دهاك ؟ بل ، ماذا دهاها هى أيضا ؟

منذ الصباح ولم يرفع عينيه عن باب بيتها .. عن نوافذها .. كذلك باب شرفتها لم يُفتح منذ الصباح . فأين ذهبتْ هذه الجارة اللعينة ؟ فما يزال شذا أنفاسها يلفح وجهَه بدفءٍ لذيذ .. بل مايزال يسبح فى باحة الدكان . وسحب بأصابعه النحيفة بطاقتَها من داخل الدُرج . ووضعها تحت بصره . وعكف يطالع بياناتها . واضطرب صدُره وتضاعف تشتتُ ذهنه . وحار : هل يطالع ورقةَ بياناتها المطوّية أم يبدأ بفكّ رموز لغزها من خلال صفحات بطاقتها ؟ تصفح كلّ أوراق البطاقة خطفًا . وفى نفس اللحظات راح يبسط الورقة . وتنقلت عيناه هنا وهناك :

الاسم بالكامل : هناء محروس الاسكندرانى .

عدد أفراد العائلة : اثنان . اثنان ؟ البطاقة باسم : حسام إبراهيم القاضى ، رقم البطاقة : ١٣٢١٣ جهة إصدار البطاقة : باب شرقى . اثنان ؟ ! وطالع الورقة :

" بيانات تغيير البطاقة يكون باسمى بدلاً من اسم زوجى المتوفى ١٩٧٦/٤/٢٣ . وتغيير محل البقال القديم بمحل حسان .. بقالة الاعتماد ، أمام محل إقامتى الجديد شارع البرازخ نمرة ٥٧ - النزهة " .. أرملة ! يرحمه الله ياست هناء ويرحم أمواتنا جميعًا . عكف مكبًا على قراءة كل بيانات بطاقتها وورقها بل راح يتفحص خط الحروف ويتأمل الكلمات المكتوبة على الورقة . لا شك أن الخطّ خطها . حروفه كبيرة ، كتبت بعصبية ، أغلبها بلا نقاط . دعى لى كل شيء ياست هناء . بنفسى سأقدم الاستمارة والطلب لمكتب التموين لعمل اللازم . ووَعْدُ الحرّ دين . وندم على سوء ظنه

وغضبه . صَفَا قلبُه الآن ورَقَّ لحالها . أدى لها بعضَ الخدمات من قبل ، لكنها لم تفصح له عن ترملها . احترم حزنَها . أشفق على وحدتها ونظر إلى ساعته . قام وصلى صلاة العشاء . وطوى حصيرتَه المستطيلة وأسندها إلى الجدار للاستماع بقلبٍ صادق مرهف . كان يهزّ رأسَه ويغمض عينيه . ويكبّر هامسًا بوحي من إيمانه وتقواه . ويردد مستوليًا على وجدانه حبّ الله ... " وما يستوى الأعمى والبصير ، وما تستوى الظلمات والنور " .. وما أن اختتمت التلاوة حتى أدار المفتاح فغمر سكونٌ خاشع الدكانَ وصاحبَه والشارعَ كله ... حتى المطر كفَّ عن الهطول .



الفصل الرابع
الصورة

ظُهر الأحد ، دخلت الدكان .

رآها ، وكانت سحائب البخُور تسبح فى جوّ الدكان . سمعها تقول :

- " صباح الخير ياعم حسان . " .

أثمل صوتُها روحَه . أفعمه بألفةٍ لطيفة ، كما أشاع جمالُها الآسر الزاجر الخوفَ فى صدره .

- " صباح النور ياست هناء. " .

اقتربتْ ووقفتْ بحذاء الرخامة . أمالتْ رأسَها نحوه ، فانضغط صدرُها الناهد وتكوّر أعلاه فأضاء بياضُه المخملى ، عنقَها ووجهَها ، فتبدّتْ شفافة متوردة تحت طرف معطفها الأسود ، كان يجاهد ألا تخونه عيناه . كان يحاصرهما ليمنعهما من اختلاس النظرات . رأى تحت عينيه يدَها الرقيقة وأصابعها الناعمة ، تضع بها على الرخامة شيئاً لم يتبينه تواً . كان لحضورها وهج كهربى أخّاذ ينبض بالحيوية ، ويتفتح فتنة ، ويقتحم كلَّ شىء . انبعث من شعرها شذا عطر ، أريجُ الياسمين . عطر وبخور وسحر ذاب فى متاهة بهجة غريبة .

- " نسيتُ أمس ، أن أترك لك أيضًا بطاقتى الشخصية . أظنها ضرورية لمكتب التموين . " .

وهنا ، أفلت منه بصرُه ، فزحف فى طرفة عين إلى حافة الرخامة ، فسقط فى منزلق ناعم ، فى فرجة هوَتْ به إلى ظلال سحيقة فى مخيلته ..

كل ذلك ، استغرق ثانية واحدة . وفى الثانية التالية ، استجمع أشتاتَ روحه وقال لنفسه فى همس سرى : " تذكر ربَّك ياحسان ! " وحدج البطاقةَ بنظرةٍ إرادية يقظة . وقال بنبرة ثابتة :

- " معك حق . كنتُ سأطلبها منك . " .

فقالت بابتسامة جادة ، ونورٌ حانٍ ناعم يشّع من عينيها :

- " ولو لم أجئكَ بها ، كيف كنتَ تتصرف ؟ " .

ثم ازدردتْ لعابها ، ولم يحر جواباً ، فقالت :

- " أظنهم فى مكتب التموين . يعقدون الأمور ، تمامًا كما فعلوا معى فى هيئة المعاشات .. " .

- " مسألة بطاقتك هيّنة . وبإذن الله سأذهب صباح الغد إليهم وأتمّ كل شئ . تربطنى بهم علاقة طيبة . لا تقلقى يا ست هناء . " .

- " ألف شكر . والله يا عم حسان أنا لا يهمنى مواد التموين .. " .

وسكتتْ لحظة ، ثم هزّتْ رأسها ، وأكملتْ بنبرة ملؤها الحسرة :

- " البطاقة لفرد واحد . لى وحدى ، فلم أنجب أطفالاً .. ماذا يهمنى إذن ؟ .. ربما السكر والشاى فقط .. " .

ثم قالتْ مبتسمة :

- " ولكنى أستبشر بكَ خيراً ياعم حسان . " .

وفرح قلبه لكلماتها هذه ، كما تسرب إلى باطنه خوفٌ غامض . وفى نفس الوقت لاطفته نسمةُ تعاطف عميقة ، وألفة غريبة . تشجّع للكلام ورفع وجهه إلى عينيها العسليتيْن الوامضتين ، فرأى نوراً عذبًا ساحراً . تردد ثوانى ، ثم انفلت لسانُه قائلا بنبرة عتاب وودّ مطرقًا :

- " ست هناء ، أنا زعلان منك . قلتِ لى أول أمس أنكِ رأيتنى وراءك فى زحام السوق . ولم أكن أقصد ... " .

ضيّقتْ عينيها باسمة فى لطف ، وقاطعته متسائلة بتعجب ، مستعذبة شجاعته على الكلام :

- " وأنا أيضا لم أقصد ما يسئ لاسمح الله . أحقًا أزعجكَ كلامى هذا ؟ " .

- " قد تظنين بى الظنون .. " .

وأشرق وجهُها . وقالت :

- " بالعكس يفرحنى أن تحمينى من احتمال عبث العابثين فى الزحام ! . وشهامة منك أن تحمى جارتَك . كنتُ فرحانة فى حمايتك مع أنك كنتَ غير قريب منى ! : .

وضحكتْ ضحكةً خافتةً مهذبةً ، ورددتْ بصوت رقيق :

- " أنتَ رجل طيب القلب ياعم حسان ! " .

وشكرته . وخرجتْ .

*　*　*

ولايذكر كيف شكرته . ولا كيف خرجت . نسمة عطر سحرية ذابتْ فى سحائب البخور . وكنز نادر تركته بين يديه ، ولكن ليوم واحد لا أكثر .. غداً صباحا ، يفى بوعده ، ثم يسلمها البطاقتيْن . فهل له أن يحتفظ بالورقة المكتوبة بخطّ يدها فى حوزته ؟! ... وحسب عمرها من تاريخ ميلادها المدرج بالبطاقة الشخصية . وقف عنده مرات . ستة وثلاثون عاما . وصورتها الجميلة بين يديك . هى كنز نفيس . فلماذا لا تكف عيناك عن استراق النظرات إلى شرفتها .. إلى نوافذها الثلاث . باب الشرفة موارب لا يفتح . ونافذتان مغلقتان تماما . ونافذة نصف خصاصها مفتوح . زجاجها مغلق .. انتبه ! .. فالزبائن يدخلون دكانك ....

وانشغل فى حركة البيع . ومالبث أن عاد إلى صورتها ليمعن النظرَ فى تقاطيعها الدقيقة ، وليملأ من ملامحها الخلابة عينيه ، عذوبه شهية . وأعاد فى مخيلته صورةَ والدتها " الحاجة فهيمة " التى توفيت منذ مدة غير طويلة ، إذ سمع أهل الشارع ذات يوم يقولون : إن " الحاجة فهيمة " ماتت فى بيت ابنتها وحيدتها بعد مرض أضناها طويلا .. نعم يذكرها الآن . سيدة طيبة من أهل زمان الخير كأهله . وكانت تشترى منه بعضَ حاجاتها من الطعام . وفجأة ، لايدرى كيف جالتْ بخاطره فرص الزواج التى أتيحتْ له فى عزّ شبابه . وكان يدقق فى الأمر ويغالى فى الشرط . شرط محاسن الأخلاق . الكمال والجمال . وكان يثنى أهلَه عن مساعيهم متعللا . ومرّت السنوات وهو لا يطمئن إلى قرار ، فلا حظى بالكمال ولا بالجمال . يتمنى الزواج ويخافه . تتوق نفسُه دومًا إلى الزوجة والعيال . يمنى نفسَه أن يملأ شقته يومًا بفرحة الحياة بدلاً من وحشة الوحدة وقبر الأخيلة والوساوس . وكادتْ أمنيتُه أن تصبح فى نفسه حلمًا شائخًا . واستقام قولُها فى مسامعه ملحًا معطراً بأريج الياسمين : " كنتُ فرحانة فى حمايتك

مع أنك كنت غير قريب منى .. " . وأعاد كلماتها هذه مرات ورأسه يدور متسائلاً : "هل وراءها مغزى ؟ ! لا تعكر صفو حياتك ، ما أدرانى ، فأغلب الزوجات فى هذا الزمن الأغبر يبدأن بالطاعة والزهد فى مظاهر الحياة ثم يقلبن بيوت أزواجهن جحيمًا من النكد والغَم ، ثم ينتهين بالغدر ! لكن ماذا وراء كلماتها هذه ؟ " . وقطب متوجسًا . ونفض حلمه من رأسه كما ينفض حفنة من التراب عن رفٍّ من رفوفه المهملة . فما له والزواج وقد بلغ الرابعة والأربعين ؟! فتر فى نفسه حسٌّ التدقيق والمغالاة فى الشرط . لكن خوفَه راسخ . ورحل كُل أهله تقريبا . لكن شوقًا ظامئًا للزوجة والعيال مايزال عالقًا بقلبه الكسير ، مشبوبًا فى حواسه المزموته . رمق صورتَها فى الدرج تحت كوعه مسنداً رأسه الحائر على راحته . يفتنه جمالُ أرملة عابرة . يخطف حواسَّه حادث طارئ . عصفةٌ ريح مجنونة تعبث بالثوب الأسود فتجرّه إلى خواطر زافرة تدفع به إلى تفكير شبه جاد . كيف يستمرئ هذه الفكرة فى أيام شبابه الآفل ، وهو الذى كان يراها من قبل مخاطره لابد أن يحسب لها ألف حساب . تستغرقه صورتُها . كيف تتبدل أفكاره ؟ وفى أى منعطف يسير ؟ وإلى أى مصير ينجرف ؟ وإذا عقد النيّة ، فهل يجرؤ أن يفاتحها فى الأمر ؟ .. لا .. لا .. ليترك المسألةَ تنضج مع الأيام ، مع مزيد من التروى واستطلاع الشواهد .

وسحب من الدرج ورقةً بيضاء ، وكتب الطلب الذى سيقدمه غداً باسمها إلى مكتب التموين . وما أن فرغ منه حتى قال لنفسه :

" لا تتعجل حتى .. لا .. لا تتعجل .. " .

الفصل الخامس

شارع البرازخ

وفى صباح الاثنين ، لم يأخذ طريقَه المعتاد إلى دكانه . استقل الأوتوبيس ، وتوجه إلى مبنى مكتب التموين ... وهناك أنهى مهمته . وانخرط فى السوق . واشترى بعض حاجاته من البضائع الخفيفة ووضعها داخل صندوق من الورق المقوى وأخذ طريقه إلى دكانه ، عبر شارع " البرازخ " . وما أن وضع بطاقتيها داخل الدرج وقد تمت التغييرات اللازمة ، حتى استبد به سؤالها ، الذى حاصره طوال ليلة أمس فى دوامة عاتية من الأخيلة اللاهثة : " وإذا لم أجئكَ بها ، كيف كنت تتصرف ؟ " .. وأحس أنه تواق إلى الإسراع فى تسليمها البطاقتين ، فهما أمانة فى عنقه ، ووعد يجب أن يفى به . البطاقة التموينية الآن لفرد واحد . لماذا لم تنجب طفلاً ؟ هل كان العيب عيب المرحوم ؟ أم .. ؟! ظل يقلب الأمر مرات حتى سئم التفكير ، وأحس بلسعة قلق خفى . وسرعان ما فرغ من هذه المسألة زاهداً فى كل شىء . وفاضتْ نفسُه فجأة بالضجر ، فتاق إلى الوحدة وإلى التفكير فى البقاء عزبًا حتى نهاية العمر . حقًا ، وحده عزب فهو إنسان تعس . ولكن ! ... وتراءتْ له حياته كمياه راكدة ساكنة منسيّة فى أصقاع مهجورة . وإذا هو خاطر وألقى فيها بحجر ؟! .. وإذا هى وافقت ، فهل تختفى كُل متاعبه ؟ أم ينقلب عذابه الصامت بحراً عاصفًا يدمر كلَّ شىء ؟ وإذا لم توافق ، فهل ينسى كل شىء ؟ كيف ، وهو يراها كل يوم تقريباً ؟ طبعًا يستطيع أن ينسى ، وكأنها لم تقطن أمامه .. وكأنها .. وهل تنكشف صبوتُه للجيران والزبائن ؟! ألسنتهم لن ترحم ، وهى تولع بالمبالغة ، وتلوك الكلام بالغمز واللمز . واحتقن الدمُ فى وجهه ، وتدافعتْ ضرباتُ قلبه فرقًا حتى خشى أن يعلو صداها ويدوى فى باحة الدكان فيفضحه ... " يا لطيف ! " ..

.. وتحاشى استراق النظرات إلى الشرفة والنوافذ طوال نهار الاثنين حتى حلَّ المساء ولم تظهر . لكن (شرنبث) دخل فجأةً ملقيًا السلام . وجلس قائلاً :

– " يا فرعون مَنْ فرعنك ؟ قال : ما لقيتُ مَنْ يردّنى . حلمتُ لكَ حلمًا ياحسان . " .

– " خيراً يا شرنبث .. قبل أن تحكى لى حلمك ، قُلْ لى : فِيمَ تعمل الآن ؟ "

– " ربك كريم لم يأمر لى بأى عمل بعد . أفكر فى تركيب مرجيحة صغيرة لعيال الحارة . " .

– ألا تجد غير هذه الشغلة ؟ " .

– " الدنيا لعبة يا حسان والأرزاق على الله . ربنا لا يخلق عبداً ويتركه " .

– " اسعَ ياعبد وأنا أسعى معك . " .

– " الكلب يجد رزقَه . الحشرة تلقى لقمتَها . لا يجوع إنسان على الأرض . " .

– " سبحانه مقسِّم الأرزاق . " .

– " والله عن نفسى ، أنا لا يهمنى . اللقمة هى اللقمة . إذا لم أجد الرغيفَ أمصّ الظلط أو عود قصب فأشبع ! : .

– " خلنا إذن فى المهم ! .. إحك لى حلمك ... خيراً ... " .

– " رؤيا . وخيراً بإذن الله . شفتك ياحسان وأنتَ تتعارك على باب الفُرْن . كل الناس تشترى وأنت ما فى جيبك مليم . " .

– " الفقر فى الحلم خير . لكن الفُرْن ؟! " .

– " اسمعنى يا سيدى ... " .

– " أكمل .. خيراً .. " .

– " شفتك شقّيت زحامَ الخلق ودخلت نار الفُرن ! " .

فقال حسان متضاحكاً :

– " ياساتر يارب ! " .

– " النار كلها صارت ذهبًا ! " .

– " الذهب فى الحلم ذهوب العمر ... سوء ! .

– " صار الذهب ملكك . تغيّر حالك . أصبحتَ أغنى أغنياء البلد . لكَ فى مصر ألف قصر . صرتَ سلطانا . شفتك تقف على مئذنة جامع " .

– " بشرى وخير " .

- " تحت الجامع رعيتك . قلتَ لهم : اسجدوا لى . قالوا لك : نحن عرايا وجوعى ومرضى يا سلطان حسـان . لم تَرْمِ إليـهم إلا الفتـات . أذنتَ أذان المغرب ونمتَ على الحرير وسط الحريم " .

- " يا شيخ ! حرام عليك ! " .

- " همستَ فى أذن وزيرك : قُلْ لى يا وزيرى ، هل من الأفضل لهم أن يشبعوا ويكتسوا أم من الأفضل لنا أن يبقوا نائمين هكذا تحت الأسوار ؟ فقال وزيرك : لندعهم نائمين ! دخل عليك رجلٌ عالم محترم ، وقال لكَ وأصبعه فى صدرك : (أنتَ نسيتَ أهلكَ وناس بيـتك يا سلطان حسـان !) وشفـتك تعلو وتعلو وهم فى قاع من الطين يخدمون كلابك ويسفون التراب . وشفت نفسى فى قصرك الكبير ، ألبس حريراً فى حرير .. أنتَ تعلو وتعلو ... وهُبْ ! .. هُبْ الدنيا انقلبتْ .. أنتَ تهبط وتهبط .. يعطيك المولى يا حسان فلا تنسَ ! " .

- " أضغاث أحلام يا شرنبث ! " .

وقام شرنبث ، ودار على عقبيه فى باحة الدكان ، ثم اقترب والتصق بكتف حسان الذى دسَّ فى جيبه شيئا . وغادر شرنبث الدكان ...

وقبيل منتصف الليل ، راح يغلق دكانه . ولحظةَ أن كان منحنيًا على القفل أسفل الباب ، تراءى له شارع " البرازخ " مهجوراً ملتويًا عفراً كجلد ثعبان قديم . مشى كسير القلب ، ثم هبط إلى الأرض العراء ، واتجه إلى محطة الأتوبيس قاصداً بيته ! .

الفصل السادس

ذو الندبة

فى اليوم التالى ، بعد ظهر الثلاثاء ، كان واقفًا يلمّع زجاجَ الباب ، فإذا شاب طويل ، عريض الكتفيْن ، يرتدى بذلة رمادية ، يقف بجانبه ويلقى سلامًا بصوت هادئ وانتحى به جانبًا خطوتيْن داخل الدكان مشيراً إشارة خفية خاطفة إلى البيت الذى تقطنه " الست هناء " سائلاً :

– " أهذا البيت ، رقمه ٥٧ ؟ أغلب البيوت هنا بلا لافتات أرقام ؟ " .

فانتبه إليه (حسان) مقطباً ، ونظر فى وجهه ، فلفت نظرَه فيه أثرُ جرح قديم – ندبة تشقّ حاجِبَه الأيسر :

– " هو كذلك ، رقم ٥٧ . " .

– " وما اسم مالكه ؟ ومَنْ سكانه ؟ " .

– " حسب معلوماتى ، مات صاحبُه منذ عشرين عامًا مذبوحًا أو مخنوقا بيد ابنٍ له كان لصاً وبلطجيا . كان بينهما خلاف على مال أو ميراث . حدث بينهما عراك . قال الأب لابنه : أنت لست ابنى ، أنت ابن حرام . تربص الابن لأبيه وقتله ، وأعدم شنقاً ، وللأب ابن آخر صالح ، سافر وعمل فى الخارج وعاد إلى بلده وتزوج ، ويسكن هو وزوجته وأمه فى حى راقٍ بعيد . وما يزال البيت ملكًا له ولأمه ولعمته العجوز . اسمه (خميس الحبشى) ! " .

– " ومَنْ يحصل القيمةَ الإيجارية الشهرية لشقق البيت ؟ ومَنْ هم سكانه ؟ " .

– " عمته العجوز . وهى تسكن فى " حارة الدلالة " فى نفس الحى هنا . : .

– " ألا تعرف كم مجموع القيمة الإيجارية الشهرية ؟ " .

– " لا . ولكن لايزيد عن خمسة جنيهات ! " .

وسكت (حسان) ، فجذب الشاب نفسًا عميقاً من سيجارته ، ثم أعاد سؤاله الملحّ :

- " لكنك ، لم تقل لى مَنْ هم سكانه ؟ " .

- " يعدّون على أصابع اليدّ الواحدة . فتاتان عاملتان فى مصنع الغزل " كوثر " و " زوبة " . تعيشان بمفردهما فى الدور الأول العلوى . ماتتْ أمهما . وأبوهما متزوج ويعيش مع زوجته فى بيت آخر . ويسكن الدور الأرضى تمرجى اسمه (سيد عليان) . يمضى أغلب وقته فى عمله بمستشفى بعيد عن الحى . ويكاد أن يكون مقيماً به ، ويترك بشقته هنا زوجته " الست أنيسة " ، عوراء بائسة ، لاحول لها ولاقوة . ولا ولد لها ولا بنت . " .

- " وبعد ؟ " .

فازد رد حسان ريقَه ، وتفرّس فى وجه الشاو قائلاً :

- " ولكن قُلْ لى أنتَ ، لماذا تسأل ؟ " .

- " طبيعة عملى ، واجبى يحتم علىَّ أن أسأل ، هيه . وبعد ؟ " .

- " وبالبيت أيضا شقتان بالدور الثانى ، إحداهما مهجورة ، سقفها مهدم ولا يصلح للسكن وموصدة بكتلة من الخشب ، مسمّرة بمسامير صدئتْ بصدأ السنين . وأمامها شقة تطل على الشارع وتسكنها " الحاجة فهيمة " ... وماتت يرحمها الله .." .

- " ومَنْ يسكنها الآن ؟ " .

- " كما ترى مغلقة ! " .

وتفاقم ضيقُه من الشاب والحديث معه عندما أجابه بهذا الجواب ، إذ شعر شعوراً غامضًا بضرورة الكتمان ، وكأنه أدرك بغتةً فى هذه اللحظة ولأول مرة ، أنها تحيط وجودَها هنا بالحذر . وهزَّ رأسه ومطَّ شفتيه كأنه يقول له : لا أعرف أكثر من هذا . صمد ساكتًا لحظات. ورأى الشاب يختلس نظرات جانبية خاطفة إلى شرفتها ونوافذها . ثم سأله :

- " وما اسم سيادتك ؟ "

فقال حسان بحسم :

- " لن أقول لك إلا إذا قلتَ لى : مَنْ سيادتك ؟ وما وظيفتك ؟ ولماذا تسألنى؟!" .

- " قلت لك ما يكفى . اسمع . يكفى هذا . أنا مستعجل الآن . هذا يكفى . شكراً " .

وغادره على الفور ، وسار فى الشارع مسرعًا لا يلوى على شئ . ولكنه عندما بلغ سور (المجيرة) طوح بعقب سيجارته ، وانحنى مسنداً حذاءه على حجر ، وظل هناك ثواني يحكم رباطه وهو يرمى ببصره إلى البيت !

* * *

فى المساء كان مقتعداً كرسيه داخل الدكان ، يدخن سيجارته فى هدوء . وقال لنفسه أنه كان خالى البال ، لايهتم بظهورها خلف نوافذها أو بخروجها من البيت أو دخولها إليه . لكنه لم يرها اليوم تمّر أمام دكانه أو تدخل إلى بيتها .. ربما بسبب انشغاله مع زبائنه أو بسبب غبراء الشارع . ولحظ أن بعض ضلفات نوافذها تظل أغلب النهار والليل مغلقة ، فلم يعرف إن كانت موجودة بالداخل أم غير موجودة . وها هو الليل قد بدأ يوغل ولا يسطع أى ضوء ، ولا يبين أى بصيص داخل شقتها طوال ساعات المساء التى قضاها بدكانه . ومن حسن الحظ أن الشاب ذا الندبة جاء فى الوقت الذى كانت النوافذ كلها مغلقة . وساءل نفسَه فجأة : " لماذا : " لماذا يقول من حسن الحظ ؟ " . ولكن مَنْ يكون هذا الشاب ؟ وما الغرض الحقيقى من وراء زيارته الغريبة المريبة ؟ وأين هى منذ يوم الأحد ؟ وظل يقلب هذه الأمور ، ويتشاغل عنها بالحركة هنا وهناك داخل دكانه بين زبائنه . يناولهم ما يطلبون شارد الخاطر . ودخل إلى المخزن المستطيل فى الجُبّ العميق ، وأعدل بعض جوالات الأرز والسكر المائلة . وأحكم إغلاق صنبور فنطاس الجاز ، ثم خرج إلى الباحة واقتعد كرسيه ، وتصفح الجريدة على الضوء الشاحب - وسرعان ما استرخى مسبلاً عينيه ، ينشد الراحةَ من عناء خواطره الداهمة . وكأنه يريد أن يعيد النظر فى كل شئ .. " اللهم الهمنى القوة لمغالبة نفسى الضعيفة يا ربى ... " .

وكان الشارع قد غام فى وشاح الليل الشتوى . وفجأة ، استرعى بصرَه شعاعٌ من الضوء قد سطع لحظة وراء خصاص نافذة شرفتها ، ثم أطفىء مرة أخرى . فسحب بحركة عصبية دفترَ حساباته وعكف يجمع ويطرح ويضرب ...

وفجأة ، سمع صوتَها الرقيق يتردد كالهمس فى حُلم :

- " مساء الخير ياعم حسان ! " .

ومسَّتْ أنفاسُها الدافئة المعطرة وجهَه . رآها قبالته في شحوب الضوء بدراً خلابًا :

- " مساء الخير يا ست هناء ... " .

كان وقعُ حضورها آسراً مكهربًا . قاوم في دخيلته دوامةً من المشاعر كان كمَنْ يسدّ قنينةً سحرية ، خائفًا كل الخوف أن ينطلق من داخلها مخلوقٌ حبيس في الأعماق منذ ألف عام . فوجد نفسَه مدفوعًا للكلام وقلبه يدقّ دقات متلاحقة :

- " وَعْد الحر دين يا ست هناء . عملتُ لك المطلوب . غيّرتُ البيانات . كل طلبات التموين تحصلين عليها من دكاني . وها هي الأمانة أردّها إليك و ... " .

فقاطعته شبه لاهثة وهي تأخذ منه البطاقتيْن في عجلة :

- " ألف شكر ياعم حسان . لم أجيء إليك الآن بسبب هذا . "

ووضعتْ البطاقتيْن في حَجرها ، ثم استطردتْ بقلق هامسة :

- " جئتُ إليك لأمر خطير ... "

- " خير ياست هناء .. "

- " جاءك بعد ظهر اليوم شابٌ قمحي اللون . دار بينكما كلامٌ بمدخل الدكان . رأيتكما من وراء نافذتي ماذا قال لك ؟ وماذا قلتَ له ؟ " ..

وقطب بغتةً . وكاد أن يتريث لحظات حتى يتفكّر فيما يقول ،كيف يبدأ . لكنه سمعها تقول برجاء :

- " أرجوك طمئنني ! " .

- " سألني عدة أسئلة عن اسم مالك البيت الذى تسكنينه وعن سكانه . قلت لنفسي : ربما هو مهندس التنظيم . "

- " وماذا أيضا ؟ "

- " وسأل عن القيمة الإيجارية الشهرية للبيت وعمَنْ يحصلها . فقلتُ لنفسي : ربما هو محصل عوائد قديمة . "

- " وبعد ؟ "

- " وكان يحوم ويدور بسؤال ملحّ عمَنْ يسكن شقتك . فلم أجبه بأى جوابٍ كاف . لكنى قلتُ له أن الشقة مغلقة . وكانت تسكنها المرحومة " الحاجة فهيمة " .. " .

فقالت مرددة وكأنها تحدّث نفسها :

- " كانت تسكنها المرحومة الحاجة فهيمة ! هو يعرف ذلك ! هيه ؟ وماذا قلتَ له أيضا ؟ " .

- " والحّ على فى السؤال ليعرف مَنْ ساكنها الآن ، ولم أرد عليه بأى جواب ، فرمانى بنظرة غاضبة وظل يرمق نوافذك . اسمحى لى ياست هناء أن أسالك : مَنْ هذا الشاب ؟ ! " .

وكانت ترهف السمعَ بكل حواسها ساهمة .

- " أهذا كل ما دار بينكما ؟ ألم يقل أنه سيعود إليك ؟ " .

- " لا . لكنه سألنى عن اسمى . فقلتُ له : لن أقول لك إلا إذا قلت لى مَنْ أنت ؟ وما وظيفتك ؟ ولكنه مشى متعجلاً .. " .

- " ألم يفصح لكَ عن شئ آخر ؟ " .

- " أبداً . لم ينطق بكلمة أخرى . قال هذا يكفى . مَنْ هذا الشاب يا ست هناء ؟ " . نظرتّ إليه نظرة طويلة ، تستجمع خلالها أشتات نفسها المضطربة . ثم قالت بروية :

- " اسمع يا عم حسان . خيراً ما فعلتَ مع هذا الشاب من تحفظٍ وكتمان . ألف شكر . أنت فعلاً رجل ذكى القلب . ولك الحق أن تسأل وأن تعرف . وستعرف .. ولكن ليس الآن .. " .

كانت جالسة فى تعب على حافة الكرسى ، واضعة ذراعها ويدها على المكتب . استدارتْ برأسها . وألقتْ نظرات متوجسة إلى الشارع المظلم ، ثم أستطردتْ تقول له :

- " ياعم حسان . أنت رجل توسمتُ فيكَ حبَّ الخير والشهامة . أرجوك أنا فى حاجة لخدمة . أصارحك .. أخشى أن ... ليس الآن .. " .

وهزّتْ رأسَها استنكاراً ، ثم قالتْ باستدراك وحيرة :

- " ساحكى لك فيما بعد .. فيما بعد ! .. "

وظلتْ صامتة لحظات . ثم نهضتْ مجفلة وهرعت نحو الباب ، ومرقتْ فى الظلام صوب باب بيتها .. واختفتْ ..

الفصل السابع

الجُـرْح

واختفتْ طوال نهار الأربعاء . وظلتْ جميع نوافذها مغلقة .... وفي المساء ، رأى شقتَها غارقة في ظلام حالك أثقل قلبَه وأوجعه . وضاعف أختفاؤها من حيرته وتساؤلاته ..

وظل ساهراً بالدكان ، وقد استغرقته أيضا زيارةُ الشاب القمحي اللون ذي الندبة ما هي حكايته . بالطبع هي تعرفه ، وهو يعرف أن أمها " الحاجة فهيمة " كانت تسكن الشقة هنا . ولماذا يلفّ ويدور ويداوره ؟ هل هو أحد أقربائها ؟ هل بينه وبينها نزاع على ميراث ؟ هل هناك علاقة ما بينهما ؟ هل تورطتْ المسكينة في أمر ما ؟ كم كانت قلقة ومضطربة ... وقام وارب البابَ الزجاجي ليقيه من تيار الهواء البارد .

.. ومضى الوقت في هدأة الليل وهو يتفكر ويتساءل .. وفجأة ، خطف البرقُ في ظلام الشارع . وقعقع الرعُد وقصف . ولم يبدّل تغيّرُ الجو المفاجئ من سكنات حسان ، وكأنه غاب ألف عام في أجواء أخرى غامضة . ووقف بالباب شحاذ مهلهل الثياب . وقف لحظات ينظر نظرات ذليلة دون أن ينبس بكلمة . ويبدو أن (حسان) قد لمحه ، إذ بدرتْ من يمناه حركةٌ خفيفة داخل الدرج وعبثتْ أصابعه بالقروش .. وربما لم يلمحه .. إذ زحفتْ يده بحركة لا إرادية إلى ركن شاغر بالدرج ، وهو الركن الذي كانت تشغله بطاقتاها . لكنه ظل خافض الرأس ، عيناه إلى داخل الدرج ، في غيبوبة ، سارح الخاطر ، ساهمًا . لم يسحب قرشًا .

لم يقم . لكنه أراح عينيه بحركة ناعمة لا واعية ، فاستقرتا لحظات على بلاط باحة الدكان المفروش بنشارة الخشب .. وظنّ الشحاذ أن الرجل قد أنكره ورفض الإحسان ! .. ومرّتْ ثانيتان من الإنتظار المتململ . ثانية من الأمل الأخير ، وثانية من اليأس النهائي . ثم تحرك الشحاذ واختفى وجهُه الذليل وراء زجاج الباب . ثم توارى ... وفجأةً ، تنبهتْ عينا حسان في عقب الثانية الأخيرة .. فقام وقد دبَّ فيه حماسٌ غريب . تطلع بالباب يمنة ويسرة . حدق في غيهب الشارع الخالي .. كان

الشحاذ قد مضى واختفى تماماً فى ركن مظلم . دقق ببصره الحاد فى الحلكة بلا أمل فى العثور عليه . استعاذ بالله من الكسل الرجيم . ووارب بابه مرة أخرى . ورجع وجلس إلى مكتبه . ثقل صدره . ندم على مطاوعة كسله فى لحظة غفل فيها قلبُه فحزن . شعر بهوان الشحاذ الشيخ فى مواجهة البرد والبرق والرعد . وتصوّر حاله : شيخا معدمًا ، وحيداً بلا مأوى ، يتضور جوعا ، وينتفض بردا . وحبس فى عينيه دمعتين .. أمضَّه خليط من المشاعر الموجعة . قال ان الله لطيف بعباده . وحمده مرات على نعمته ، ودعا ربَّه أن يبارك له صحته ورزقه وأن يقيه شرَّ الناس وذلّ العوز ، وأن يصونه من غواية الشيطان والفتنة .. اللهم ارحمنا فى الدنيا والآخرة .... وغَفَا رأسُه غفوةً لايعرف لها حسابا من الزمن .... سمع صريراً ورفع رأسه فرأى الباب الزجاجى قد فُتح فجأة !

ورآها .. رآها مقتحمة ، مشعثة الشعر ، مضطربة الأنفاس ، مكفهرة .. هرعت نحوه مندفعة ، مشمرة عن ذراعها اليمنى البيضاء وقطرات من الدم تتفصد من لحمها المتورد فوق رسغها ، وتحاول أن تكتمها بقطعة من القطن مبللة بالدم القانى . هَالَه ما رأى فأجفل مأخوذا وقالت بصوتٍ خفيض موجع :

- " أنقذنى من شره ! "

نظر إليها وكأنه فى حلم ، وقال :

- " ماذا جرى ؟ كيف جرحت ياست هناء ؟ . "

- " جُرح بسيط . لا تهتم بالجرح . هناك ما هو أخطر ! " .

وقف حائراً وهو يردد :

- " أجلسى .. أجلسى يا ست هناء .. هدئى من روعك . سآتيك بقطعة من القطن والميكروكروم لدى بعضه هنا ... "

وجلستْ على الكرسى لصق مكتبه وهى تقول :

- " نزلتُ من شقتى إلى الدور الأرضى .. إلى جارتى " الست أنيسة " فلم أجد عندها إلا قطعة من القطن .. لا تتعب نفسك .. الجُرح بسيط . أسفة على إزعاجى لك .. "

وجاءها في ارتباك بقطعة من القطن مبللة بالمطهر . نزعتْ عن الجرح قطعة القطن الدامية ، والقتْ بها على الأرض فوق نشارة الخشب . ووجد نفسه وقد أمسك بساعدها برفق بالغ وكتم خيطَ الدم الرفيع المتقطر . وقال :

- " كيف جرحتِ ؟ ماذا جرى ؟ " .

- " الشاب الملعون إياه كان يراقب البيتَ ويحوم حوله .. ولما تأكد أننى ألوذ بشقة المرحومة والدتى انتظر حتى انتصف الليل ونام كلُ الجيران . تسلل وصعد وطرق بابَ شقتى طرقات خفيفة . عرفْت أنه هو . وتعمد تغيير نبرة صوته . لكننى لم أفتح له الباب . فطرق طرقات عصبية عنيفة .. فلم أفتح البابَ ولم أردّ على شتائمه بكلمة لم أنبس بحرف واحد . لمح خيالى وراء زجاج الباب . راح يرجّه ويدفعه . حاول كسره فانشرخ . وسقطتْ شظيةٌ صغيرة منه فوق ذراعى هنا . قاومتُ البابَ وهو يرتجّ . أنحشرت الشظيةُ سريعًا بين مزلاج الباب وبين ساعدى فجرح هذا الجرح . وفجأة تصاعد صوتُ « الست أنيسة " قائلة : " مَنْ يخبط الباب ؟ مَنْ فوق ؟ من تريد ؟ " فاختفى ظلُّه الملعون فى لمح البصر وساد البيتَ كله سكون موحش . ظللتُ قابعة داخل شقتى أرتعش فى الظلام . لا أجرؤ على إضاءة مصباح أى حجرة أو حتى شمعة . كما كنت أفعل أغلب الليالى الفائتة . منذ سكنتُ هنا الشهر الماضى وأنا أعيش فى الظلام كما عشتُ فى ... " .

وأمسكت عن الكلام لاهثة الأنفاس ، فنظر إليها حسان نظرات إشفاق وألم وتساؤل . واستطردتْ تقول :

- " أعيش فى خوف ! "

كان يستمع إليها مقطباً . لم يشأ أن يقاطعها بكلمة حتى يلمّ بأبعاد حكايتها الغامضة . لكنها صمتت لحظة ومدّتْ أناملها البيضاء الناعمة ووضعتها على حافة المكتب . كان يشعّ من عينيها وميضُ صَبّية كلها طُهر معذّب وبراءة شقية فى عالم وحشى مفجع ! تركتْ راحتَها لحظات بالقرب من يده التى لم يجرؤ على سحبها فبدتْ وكأنها قد تجمدتْ . لكنه شعر بالدفء يسرى تحت جلده وسخن عمودُه الفقرى . وأحمرّ وجهُه والتهب . ونظر فى عينيها الواسعتيْن فرآهما عينىْ إمرأة جميلة ناضجة . قاوم إضطرابَ نظراته . وغضّ طرفَه غارقًا فى خجل مربك .. حاول أن يبث فى عقله فكرةً طيبة نقية ليخمد فورانَ حواسه وتشوّش ذهنُه ، وسمعها تقول وهى تسحب راحتَها :

- " خائفة ياعم حسان ! "

وكانت نظراتُها تتردد في هلع إلى الباب . إلى الشارع . وإلى وجهه . وحانتْ منها نظرةٌ إلى المخزن الداخلي المحجوب بحاجز خشبي . كان يقف جامداً غائبا ، لكن باطنه كان يرتعد . هزّتْ رأسَها وقالت :

- " لا أظنه يعود الليلة مرة أخرى . عم حسان ! سأصعد إلى شقتي وأمري لله . آسفة على إزعاجك . الوقت متأخر الآن . بعد منتصف الليل .... " .

وكان لسانه عيّيًا وعقله ملجماً . يشعر بالف سؤال يمور في باطنه . لكنه عاجز عن صياغة سؤالٍ واحد أو النطق بعبارة محددة المعنى . لم يستطع إلا أن يقول لها بصوتٍ مرتعش :

- " أبداً .. أبداً ياست هناء .. لا إزعاج .. لا .. لا داعي للأسف . ألف سلامة .. لا تخافي . " فقالتْ وهي تنتزع ابتسامةً باهته من دوامة الانفعال التي تستبد بوجهها المحّمر :

- " ألف شكر .. أنت أنسان قلبك كبير .. حدثني قلبي بهذا في الوهلة الأولى عندما دخلتُ دكانك أول مرة .. " .

قامتْ في عصبية متأهبة لمغادرة الدكان ، فوجد نفسه يسألها بقلق :

- " ست هناء ! زجاج بابك المكسور ؟ "

- " وجدتُ قطعةَ خشب وحشرتُها بين قضبان الباب فغطّتْ الكسر تماما . "

كاد أن ينطق بكلمات ترامتْ إلى طرف لسانه . لكنه أسرع بحبسها فجأة ! .. قالت وهي تقف بالباب وتحكم كمَّ معطفها الأسود والهواء يتلاعب بأطرافه :

- " سأحكي لكَ صباح الغد .. ربنا يلطف ! " .

واندفعتْ صوب ظلام الشارع كغزالةٍ سوداء شاردة مذعورة واختفت ...

الفصل الثامن

الغربان

وندم على كتمانه لأسئلته المعذِّبة . كان أثناء الحديث محاصَراً بمشاعر مسيطرة . آسرة . وكان يخشى أن يفلت منه سؤال ، وهو فى حالة شعورية غير رائقة فيخدش به حياءها أو جانبًا من حياتها الخاصة ، فتركها وبلا اختيار حُرّ منه ، تسترسل بلا مقاطعة ، مكتفيًا بالسؤال العادى : " ماذا جرى ؟ كيف جرحت ؟ " . ولم يسألها عن فحوى الخدمة التى كادتْ أن تفصح عنها فى لقاء أمس . ظلَّ ساهراً فى الدكان إلى مابعد منتصف الليل . وفكّر أن يغلق الدكانَ عليه ويبيت ليلته فى مخزنه ، فالساعة الآن تجاوزتْ الواحدة وفاتَه موعدَ آخر أوتوبيس . وخطر له أن يسرع إلى " عم عفَّان " صاحب الفُرْن . ليقترض منه دراجته حتى صباح الغد ، لينطلق بها إلى بيته ، كما فعل ذلك من قبل مضطراً .. أم يبيت ليلته فوق الجوالات داخل مخزنه فى جبّ دكانه . وقال لنفسه : " هذا أفضل . " وقد يشعرها نورُ دكانه ببعض الأمن والائتناس قام ورمى ببصره فى ظلام الشارع . تفحصه بنظرات مستريبة يمنة ويسرة . وجذب نصفَ صاج الباب الخارجى . وأكتفى باغلاق الباب الزجاجى وترك ضوءَ المصباح ساطعاً ، يلقى بخيوطٍ شاحبة إلى عرض الشارع . واستدار داخلاً إلى مخزنه . بسط عدةَ جوالات فارغةً فوق الجوالات المملوءة بالأرز والسكر وطرح عليها جسَمه المتعب وتغطى ببعض الجوالات الفارغة . وتهيأ للنوم وهو يردد آيات قرآنية بهمس خافت . ولا يدرى كيف طفرتْ فجأةً فى ذاكرته كلماتُه للطالب التالف : " لا فحم عندى ولا دخان معسل ... تحشّم فى القول .. " وعاوده وجُع قلبه لحظة أن ترددتْ فى مسمعه شتيمةُ الطالب " ملعون أبوك ! " .. تألم .. وندم أنه لم يضرب هذا الولد الفاسد ضربًا مبرحًا لتأديبه .. وتصور أنه يصفعه ويركله .. وسرعان ما حمد الله أنه لم يفعل شيئاً من هذا ... وتراءى له طيفُ الشحاذ .. كسير القلب ، واقفًا فى شرفة ، تتطاير فى العراء البارد أسماله الرثّة المهترئة تحت عصف الرياح . لاحَ له فى طرفة عين وجْه الشحاذ ، رآه وجهًا شبيهًا بوجهه . بل وجهه هو فعلاً .. ومدَّ قبضتيه فى الفضاء الأرجوانى ، يحاول أن يمسك بهما رقعًا متطايرة من ثوبٍ أسود ، بدَتْ أسرابًا من طيور .. من غربان ..

الليل الجارحة . تحوم فوق رأسه الساخن . تنقضّ عليه بمناقيرها كالنصال الحادة . تحاول أن تنهش لَحمه الحى العارى ! و .. و .. صَحَا من غفوته يتصبب عرقًا . قام . انسكب فى عينيه نورُ المصباح الشاحب غبشاً رملياً ، فاغمضهما . ولم يعرف ماذا يفعل . وقعتْ يده على قميص قديم معلق على الحاجز الخشبى . تناوله وجفف عرقه . وكأنه يغوص فى نفق أو زنزانة مظلمة ضيّقة تلفظ صهداً لاهبًا . بلا نسمة هواء ، ترشح قاراً كثيفًا لزجًا ، وعجينًا من الزيت الأحمر المتسخ . وحاصره سربُ الغربان . تخبط فى الظلمة ، ولا يستطيع الهروب .. و .. وحبال الشرفة ! .. حبال ملتفة حول عنقه . والغربان تنقضّ عليه إنقضاضا كاسراً . لمح من ورائه شَقًا بين ضلفتىْ الباب . ينسكب منه خيطُ نور أرجوانى . يتسلل من الداخل ويملأ كيانَه بوهج غريب . تحسس ملابسه وجسمه ظنًا منه أنه يحترق بنار غير مرئية . تشبّ فى بدنه كله ، ولا يراها .. أمسك بقضبان الشرفة . تربص به ألفُ منقار ، حملقتْ فيه ألفُ عين لألف غراب .. تعثرتْ خطاه . أنفلتَ إلى الداخل . وجد نفسَه وسط غرفة معبّقة بسحب يتضوع منها أريجُ عطر وطيبُ بخور وذفرُ . أثاثُ غامض الملامح . جدران وسقف وشقوق ، تموج كلها فى لون أرجوانى أخذ يتثاقل فى ثوان سريعة .. وتشقق لَحم جسمه العارى . ألف جرح أنبجس منه شلالُ دم قانٍ . طفح بالغرفة كلها وأغرقه حتى بلغ عينيه ، ففتحهما رعبًا . رأى برميل الزيت والحاجز الخشبى والجولات مبللة بالعرق . هَبّ بلا وعى ووقف وسط باحة الدكان والسلك الكهربائى يتدلى من السقف العتيق والمصباح الصغير تعبث به عبثًا هينًا تياراتُ الهواء المتسربة من عقب الباب ... ودائرة من غبش النور الشاحب تحوم فى أرتعاش ، فتؤرجح ظلّه القاتم على الجدار المقشور كجثمان مشنوق !

نظر إلى ساعته . وانحنى على الجردل . توضأ هامد الروح ، مهدود الكيان . ورفع نصفَ صاج الباب المفتوح ، وخرج ثم جذبه بذراعيه إلى أسفل وأغلقه بالقفل .. ومشى فى الشارع الموحش الذى خيّم عليه سكونُ المقابر . وكان بصيصُ الفجر منبلجًا .. !

الفصل التاسع

الكــنز

بعد صلاة الفجر ، لم يغادر المسجد . اتخذ ركنًا قصيًا ، وأسند ظهره إلى عامود يرتفع فوق رأسه فى شموخ ، رفع وجهه الخاشع فى هدأة مهيبة إلى زجاج النوافذ المغلقة ، واستغرق فى الابتهال والدعاء . لاذ بالصمت الجليل فى ركنه حتى طلع نورُ الصبح ، فقام وصلى . ثم عاد وقبع مقرفصًا ، يسبح ويحمد الله ويردد الشهادة . لم تكن به رغبة فى النهوض . تمنى أمنية . أن يبقى هنا بين يدى الله إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً . وتسللتْ أنوارُ الشمس الوانيةَ وملأتْ الدنيا بالخارج . فقام وأنتعل حذاءيه وقفل راجعا إلى دكانه ..

* * *

فى الصباح ، قالت له وهى جالسة بجانب مكتبه الصغير ، وعيناها على المصباح المدلّى فوق الباحة :

- " هل نسيتَ إطفاء النور أمس ؟ هل بتَ ليلةَ البارحة فى دكانك ؟ . "

- " نعم . لكنى لم أذق طعم النوم ! قلقتُ عليك وفكرتُ فى خوفك ! "

- " أقول لكَ الحق . أنا أيضا لم أنم ساعةً واحدة من فرط الخوف . "

ونظرتْ إليه فى حيرة ، وتابعتْ كلامها وهى تضع راحتها على رباط جرحها :

- " لن أثقل عليك بكلام كثير ، باختصار سأحكى لكَ . أولاً ، أنا جئتُ إلىْ شقة والدتى هنا مضطرة . ظلت مهجورة طوال شهور مرضها . ومنذ سكنتُها فى الشهر الماضى وأنا لا يغمض لى جفن و .. " فقال لها وعيناه فوق رباط الجرح :

- " أسف لمقاطعتك . أولاً : هل ما يزال الجُرح يؤلمك ؟ ؟ "

- " لا أشعر بأي ألم . ففى حياتى آلام أخرى . وأنا التى أعتذر لكَ ، أسفة لأننى أثقل عليك وأعطلك عن شواغل عملك .. "

- " أبداً يا ست هناء . بالعكس ، فنحن ما نزال فى بدء الصباح ، لا زبائن ولا شواغل على الاطلاق . وأصبح أمرك هو شاغلى الشاغل . "

- " ألف شكر . لن أنسى خدماتك الجليلة لى . "

ووضعتُ ساقًا على ساق بحركة عفوية ، فأحس بالضيق . وأنحسر ثوبُها الأسود تحت طرفىْ معطفها ، بضعة ملليمترات ، عن إحدى ركبتيها ، فبانتْ مكتنزة . وقد تشرّب بياضُها الأملس بتورد حيوى نضر . فتمنى أن تنتهى سريعًا من سرد حكايتها ، وأن تنهض مغادرة الدكان . ولكنه قال :

- " لاشكر على واجب . الجار للجار . سألتُ نفسى أكثر من مرة كيف تطيق الست هناء العيشَ وحدها فى شقة كهذه ... "

- " عزائى الوحيد هو أنفاس المرحومة أمى التى تتردد فى أرجاء الشقة فتملأ قلبى أنسًا وحنانًا . أحبها ياعم حسان حبّ العبادة . أعود فأقول لك أننى جئتُ هنا خلسة وخفية . هاربة من عذاب الجحيم .. "

وأمال رأسه قليلاً نحوها وأسند ذقنه على راحته يستمع إليها بكل حواسه :

- " ومن أسباب هذا الشقاء ، هذا الشاب الوغد الدنىء الكاذب . أوهمك أن طبيعة عمله تحتم عليه طرح أسئلة عليك . أنتحل شخصية أخرى . جئتُ إلى شقة أمى ولم يكن أحد يتوقع أننى سألوذ بهذا المكان القصى . وكنتُ أنوى أن أسكنه قبل ذلك فور وفاة المرحومة . بل بالفعل جئتُ مرة منذ شهور ، واستطلعتُ المسكن ، ودلّونى على عمة ابن صاحب البيت . ذهبتُ إليها ودفعتُ لها قيمة الإيجار المتأخر عن شهور مضت ، وسبق لى أن ذكرتُ لك هذا .. ولم أطق المكوث فى بيت عائلة المرحوم . ولكن هذا الخبيث ظل يبحث ويستقصى ويقتفى أثرى ويراقب حتى عرف . وأن كان بذكائه الشرير قد توقع وحده مجيئى هنا . ثم أراد أن يقتحم علىّ الشقة عنوة . حاول كسر زجاج الباب ليدخل يده ويجذب المزلاج الداخلى . لكنه كان أبعد كثيرا عن متناوله . فهو مزلاج نحاسى سميك ضخم . وسمعتْ جارتى " الست أنيسه " أصواتَ دقّ الباب ورجّه ، ثم شتائمه العصبية ، ففتحتْ بابَ مسكنها ووقفتْ ببئر السلم ونادتْ .. وسألت .. وهنا لاذ الجبان بالفرار ... " .

وكاد حسان أن يقول شيئًا . كاد لسانُه ينفلت بأكثر من سؤال ، فتنبه لأسباب حذره المعهود .آثر الاستماع دون مقاطعة حتى لايضاعف من تشوش ذاكرتها فتنسى طرفًا من الحكاية ، لا سيما وأنها تحكى بدقة وانفعال ...

- " ظللتُ ساعة أو أكثر أتردد خفية وبحذر شديد كمجنونة وراء الباب تارة ، وقد سددتُ الشرخَ بقطعة من الخشب صغيرة ، وتارة أخرى ، أهرع خلف النوافذ هنا وهناك ، وأرمى ببصرى إلى كل أرجاء الشارع ، وتارة ثالثة أنظر إليك وأنت داخل دكانك وقلبى يدق صدرى بلا رحمة . كدتُ أصرخ . لكن رعبًا قاتلاً تملكنى وأصابنى بالشلل والذهول .. وبعد فترة ، شعرتُ أنه أختفى ولن يرجع على الأقل هذه الليلة . هذا ما حدث أمس ... باختصار .. " .

وأزدردتْ لعابها ، وجذبتْ طرف ثوبها بحركة تلقائية إلى أسفل ركبتيها وقد عدلت ساقيها جنباً إلى جنب فى أحتشام وعاودت حديثها :

- " هذا الوغد اللئيم يا عم حسان هو شقيق المرحوم زوجى الذى توفى منذ تسعة شهور . وهو يريد أن .. "

وهزّتْ رأسها هزةً عصبية وقالت بصوت خافت متهدج :

- " أن أعيش معه فى الحرام . حاول ذلك مرات ، حتى قبل موت شقيقه .. صددتُه . شتمتُه .. و .. وها هو مايزال يطاردنى ويهددنى إن لم أرضخ لرغباته ... إنسان دنئ .. قذر . متوحش .. " فسألها على استحياء وهو يستغفر ربه :

- " .. ولماذا اضطررتِ للمجئ إلى هذه الشقة الكئيبة .. حقا .... ومع احترامى .. لك .. للمرحومة والدتكَ .. لكن .. أقصد .. لماذا تعيشين وحدك ؟ ! ... لم لا تلجئين إلى أحد من أهلك أو أقربائك ... " .

فقال مطرقة :

- " هجرتُ البيت الذى كنت أعيش فيه مع المرحوم زوجى ، بسبب سوء العلاقة بينى وبين أهله وشقيقه الحيوان هذا . لم أجد أمامى ملاذاً إلا شقة المرحومة أمى لأنها أحب مكان إلى قلبى ، حيث رائحتها الطيبة وأنفاسها الكريمة الذكية . " .

- " لكن ! .. "

فرفعتْ إليه وجهها مبللاً بالدموع ، وقالت ناشجة :

- " ولأننى بصراحة .. ياعم حسان ، أكاد أكون مقطوعة من شجرة ولا عمل لى . ولا دخل لى إلا معاش المرحوم زوجى ! فأين أذهب ؟ ! " .

قال لها وقد رقّ قلبه وتوجع :

- " ست هناء ! هدئى من روعك . أنا أيضا مثلك مقطوع من شجرة وفى الدنيا أناس كثيرون مثلنا ، بل أطفال صغار ليس لهم إلا الله ، وهو رؤوف رحيم وهو خير الراحمين . والمؤمن الذى يعمر قلبه ذِكر الله وحب الله وخشيته ، لا يشعر بالوحدة ، ولايخاف سوى الله ، وهو سبحانه معنا بلطفه ورحمته .. " .

مرّتْ بينهما فترةُ صمت قصيرة ، كان حسان خلالها لا ينظر إليها . كان ينظر إلى الخارج فى تخوف .. هدأتْ خواطرها فقالت بصوت هادئ :

- " ألف شكر . أنت أطيب أنسان قابلته فى حياتى .. "

قال لها بنبرة ثابتة :

- " لكن المسألة توجب عليك تبليغ شرطة " المحمودية " . لابد من عمل محضر أو مذكرة ضد هذا الوغد الشرس . ما اسمه يا ست هناء ؟ "

فقالت بارتياع :

- " لا ! أرجوك .. اسمه (وصفى) ! "

- " وصفى ! وإذا لم تتخذى أنتِ هذا الاجراء الضرورى ، فاسمحى لى أن أفعل أنا ... " قالت على الفور :

- لا .. لا .. لن أفعل ، ولن تفعل أنت شيئا من هذا على الإطلاق . أرجوك . لا تفعل .. إياك أن ... " .

- لماذا يا ست هناء ؟ كيف يحدث هذا ولا ... "

- " لا ياعم حسان . أنا سيدة يهمنى حُسْن سمعتى ، أنا ساكنة جديدة فى الحى ، فإن كان الجيران هنا يعرفون المرحومة والدتى ، فلا أحد منهم يعرفنى . فأنا لا أريد فضائح . وإذا شكوته للشرطة فان هذا سيفاقم من عداء أهله ضدى . وإذا كان عدوى الآن شخصاً واحدا فسيصبح كل أفراد عائلته أعدائى ، ومن أجل خاطر روح المرحوم زوجى ، وهو شقيقه على أى حال ، ولن أكون أنا سببًا لادخاله السجن .. وبأى تهمة ؟! لا أريد فضائح .. سأصبر كما صبرتُ .. سأتحمل حتى يكفّ من تلقاء نفسه عن عبثه وطيشه إذا يئس ! " .

فقال حسان متفكراً :

- " تعيش جارتك " الست أنيسة " زوجة " سيد عليان " التمرجي وحدها معظم الليالي . لماذا لا تقترحين عليها أن تؤنسك .. أن تنام معك في مسكنك أو العكس .. لا أعرف ماذا أقول لكِ في هذه الأمور .. أو تنام معك .. مثلا " كوثر " أو " زوبة " ، وهما جارتاك ويتيمتان يتركهما أبوهما وحدهما في مسكنهما ، فهو متزوج من امرأة أخرى . الجار للجار في المحنة .. في السراء والضراء يا ست هناء .. وأظن ... " .

- " حاولتُ كل هذه الحلول في الليالي الفائتة تحت ضغوط خوفي القاتل ، بالتلميح مرة ، وبالتصريح مرات .. وبالفعل نامت " الست أنيسة " في شقتي .. معي .. ساعات قليلة ذات ليلة . لكنها نهضتْ من نومها قبل الفجر تعاني أرقًا شديداً ، ونزلتْ مسرعة إلى شقتها وهي تقول لي أنها إذا غيَّرت فراشَها لا يجيئها النومُ أبدا .. أما " كوثر " وزوبة " فهما منطويتان أشد الانطواء على أحزانهما ، ورفضتا مخالطتي أو مخاطبتي لأنني غريبة عليهما .. لا تحبّان الاختلاط .. لا أعرف ما بهما على وجه التحديد ... " .

كان حسان يهزّ رأسه أسفًا ، ولا يني عن التفكير برغم اضطراب ذهنه . كان ينبش في رأسه عن فكرة أخرى وحقيقة الأمر ، أن فكرة أخرى ، كانت طوال استماعه لحديثهما ، تراوده مرةً في مكامن خواطره وتساوره ، مرة أخرى ، مع جيشان قلبه ومخاوفه . فكرة أخرى تبرق في دماغه . تخترمه . تندفع إلى طرف لسانه فيبتلعها . كان يقول لها :

- " هذا الشاب الفاسد ، صورة من الشباب الطائش . شباب هذا الزمن الأسود . فكيف نوقفه عند حدّه ، كي يلتزم حدود الأدب والحياء ؟ " .

فقالت له :

- " وإذا أنت تدخلتَ بأي صورة ، سيتقّول الناسُ هنا عنا الأقاويل .. إياك ...!"

- " نعم . معك الحق ! أعلم ذلك جيدا .. أعرف أساليبهم .. سيشيع أهلُ الحي عنا الإشاعات . وما أسهل هذا وأقساه . وسمعة الأنسان كما تقولين ياست هناء هي كنزه .. إذا ساءتْ خسره . حُسن السمعة هو أغلى كنوز الدنيا . وأي تلميح بهذا يخدش الكرامة ويهلكنا .. أنا أعرف طباع الناس هنا ... " .

وسكت برهة ، ثم نظر إلى وجهها النضر ، وقد إرتاح قلبُه لمجرى الحديث إرتياحًا غريبا . ابتسم أبتسامةَ اعجاب خفيّة ، ثم نظر إلى حُسْنها البديع الوضّاء نظرةً متعجلة بطرف مستتر . وقال بحماس طارئ :

- " ولا أخفى عليك ، أنني أخشى أن يظنوا بنا السوء برغم علمهم أنكِ زبونة المحل ، وأقرب الجيران إليَّ .. وأعرف المرحومة والدتك ! لكن هناك عيونًا أشعرَ بها . ستلوك ألسنتُهم الأقاويل . سيلفقون الأكاذيب ! وأنا .. أنا رجل شديد الحساسية .. وقدوة حسنة للخلق الطيب .. يحترمونني ! .. وأنت سيدة شريفة رقيقة أصيلة .. فلا أنا أو أنت .. بصراحة .. أقصد .. لا يستطيع كلانا تحمل قسوة وساوسهم أو مواجهة ظنونهم .. أنا أعرفهم .. حدث من قبل هنا فى الشارع .. لا .. ليس ما يدعو لأحكى هذا . أنتِ لا تستطيعين إلا أن تعيشى - مثلى - فى جوٍّ نقى آمن .. وإذ هم أساءوا الظن لاقدرَ الله ، ستجدين نفسك آخر الأمر .. لاقدر الله ، مضطرة لهجر مسكن المرحومة والدتك ، وهو ملاذك الوحيد الآن .. " .

وأحس أنه ثرثر بكلام جرئ ، قد يثير الحرج ، فاشعل سيجارةً أخرى من عقب سيجارته التى أحترقت فصارت رماداً دون أن يدخن منها شيئًا . جذب نفسًا عميقا طويلا ، ثم قال بنبرة ملؤها الثقة وهو لا ينظر إليها . شحذ ثقته بنفسه من ركام هشيم احتراق أعصابه وشعوره العميق بالحرج والحياء :

- " الله وحده الذى يدبر أمور عباده ومصائرهم ! "

همَّ أن يقول لها كلاما هاما . لكنه سكت فجأة ، ثم رمقها بنظرة خاطفة فرآها تصيخ إليه بمسامعها فى اهتمام بالغ ، فاندفع يقول :

- " يفرحك أن أحميك من احتمال عبث العابثين . ويفرحنى أن تكونى فى حمايتى و ... " .

وما أن نطق بهذه الكلمات ونظر إليها حتى أثقل صمتُها لسانَه . ووجد نفسه ساكتًا مثلها .. بلا حماس .. بلا ثقة . فعاوده اضطرابُ ذهنه ، وساورته أخلاطٌ من مشاعر متضاربة . وأخذ مزاجه يظلم ، وكأن قلبه ينهار . لكنها قطعتْ الصمت الثقيل وقالت بنبرة هامسة عذبة :

- " اعتز بثقتك وتقديرك .. " .

وابتسمت ابتسامة حلوة خلّابة ، فابتسم .. وضحك قلبه .

وقالت متنهدة :

- " متى ييأس الوغد اللئيم ! " .

الفصل العاشر

طبيعة عفان

طوال نهار الخميس ، ظلت نوافذها مغلقة ، على حين كان هو مشغولا داخل دكانه ، كما كان مأخوذاً داخل نفسه . ويستبد برأسه صداع موجع . ومع ذلك كان بين الحين والحين - فى الفرص المواتية - يسترق نظرات بالغة الحذر إلى نوافذها تارة ، وإلى باب بيتها تارة أخرى ، وكان يشعر وكأنه ولى نفسه حارساً شرعياً سرياً على هذا الباب ! هذه الكوّة المقوسة السوداء ..

وهبط المساء متثاقلاً ، وتوشح الشارع بوشاح رمادى مغبر .. وهبّتْ رياح عاتية باردة ، فتاق لرؤيتها أشد التوق . تمنى أن تظهر وتجئ . وأن يتحدث إليها وأن يسمع صوتها .. أحرق الشوقُ قلبه .. وبسبب شعوره المضنى بغيابها عنه ، تمنى فى نفس الوقت أن ينساها .. أن يزايله عذابه .

ودخل دكانه (عم عفّان) صاحب الفُرن - دخل بخطوات متكاسلة ، واقتعد الكرسى الشاغر الموضوع لصق المكتب ، قائلا :

- " مساء الخيريا حسان "

- " مساءالنور يا عفّان . كيف حالك ؟ "

- " والله ، أشعر بتعب شديد . "

- " ألف سلامة . الجو سئ . تنتهى نوة " الفيضة الكبيرة وستبدأ نوة " الغطاس " ...

- " طوال ليلة أمس وأنا شبه محموم وأحس بمغص فى معدتى " .

- " الشافى هو الله . استعن بالله . خُذْ قليلا من " الكمون " أو " اليانسون " المغلى .. ومصّ ليمونتين !

- " رحتُ إلى " عم هنداوى " العطّار . أعطانى الدواء اللازم والحمد لله على أى حال . " سكت لحظة ، ثم عاد إلى الكلام . قال :

- " قلتُ أجيء وأجلس معك قليلا .. "

- " أهلا وسهلا يا عفّان .. "

- " لا ارتاح لأحد فى شارعنا كما أرتاح لك . "

وبعد دقائق من حديث عابر ، أجال " عم عفان " ناظريه فى أرجاء الدكان كأنه يفكر فيما يريد أن يقول وأطرق ثم قال :

- " قُلْ لى يا حسان ، ما حكاية الست جارتك الجديدة ؟! "

وأشار بابهامه إلى بيتها . بُوغت حسان بالسؤال . أجفل . وتهالك قلبه فى صدره . ولم ينبس بكلمة .

- " الست جارتك الجديدة ؟! بنت " الحاجة فهيمة " الله يرحمها ، التى تلبس الأسود . وتعيش وحدها .. هنا .. أمامك . "

وأثار بسبابته مرة أخرى . وسكت برهة ، ثم عاود كلامه وحسان ينصت باهتمام وتركيز ، ومع ذلك ، شعر أنه يتضاءل ويتصاغر فى عينى صاحبه ، وشغله هذا الشعور المباغت وعطّل عقله :

- " الحقيقة ، جئتُ اليكَ لأفاتحك فى موضوع بخصوصها ! " .

وتوجس حسان من الكلام خيفة وهجس قائلاً فى سِّره : " إذن ، لم يأتِ للاسترواح ! " .

- " تعرف أننى لا أكذب . ولا أطيق الكذب . ولا أكذب على إنسان محترم عزيز إلى قلبى . بخصوص الست جارتك الجديدة سمعتُ كلاما يردده بعضُ جيراننا هنا . أولاً : هى سيدة لا رجل لها .

ثانيا : هى تعيش وحدها . وثالثا : هى جميلة جدا .. ! " .

وتوترتْ أعصابُ حسان ، وتفاقم اضطرابه ، فاندفع يقول :

- " أولا وأخيرا : هى سيدة شريفة جداً ! "

- " لا سمح الله . قطع لسأن من يمسّها بسوء . لم يقل أحد غير هذا ! " .

وطلب من حسان سيجارة ، فقدمها إليه وأشعلها له بأصابع مرتعشة كما أشعل لنفسه أخرى وتصاعدت فى جّو مكهرب سحائب من الدخان . وتمنى حسان ، فى هذه

اللحظة ، لو استطاع أن يتوارى خلفها شعر أنه يتقبض و يتضاءل وينحف . نفث دخاناً كثيرا وتمنى لوكان أكثر كثافة .. لوكان جداراً ..

- "سيدة شريفة جداً . وجميلة جداً لكنها بلا رجل . وحدها . والأمركذلك بالنسبة لك . أنت أيضا بلا زوجة وتعيش وحدك . ولاتؤاخذنى ياحسان . فأنا جارك وأحبك واحترمك ، وأقول لك بصراحة أن جسم الرجل منا له أحكامه ، كما للضرورة أحكام " له قوة " طبيعتى كرجل تتغير أمام سيدة كهذه . وما أجتمع رجلٌ وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما . ولا يَدْ لنا فى هذا . أقصد وأنت سيد مَنْ يعرف .. أنت فاهم . أسمع يا صاحبى . بصراحة ، الجيران يتساءلون : لماذا تتردد هذه الست كثيراً على حسان داخل دكانه ؟ لماذا تجلس عنده ؟ ! " .

فضبط حسان أعصابه وتمالك نفسه قليلا ، وردد :

- " سوء الظن .. سوء الظن مرض فينا كالفقر والجهل .. أعوذ بالله ! إن بعض الظن اثم ! .. هى جارة وزبونة كأى زبون من زبائنى .. " .

- " كان هذا هو ردّى على كلامهم . " .

- " مَنْ هم هؤلاء ؟! "

- " لا داعى لذكر أسماء . وهل جئتُ إليك لأثير كلامًا أو عراكًا .. جئتُ إليك للمصلحة وللخير ولأنك رجل طيب .. ولكنهم يخافون عليك من الشيطان . " .

- " الشيطان يسكن رؤوسهم ! " .

- " ويسكن جسمَ كل رجل وكل امرأة يا حسان ! . " .

هزَّ حسان رأسه الذى كاد أن يترنح . كان يشعر بدوار وصداع . قال :

- : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا .. " .

شعر (عفّان) بتأثر الرجل ، فقال له مواسيًا :

- " دعك من كلامهم ، فأنت رجل تقىٌ نقى القلب .. " .

ورمى ببصره إلى ظلمة الشارع ، وأبصر دوامةً من التراب يثيرها إعصارُ الرياح على عتبة الباب ، فتنهد وقال :

- " الجو مقلوب ! "

لم يرد حسان بكلمة . وجذب عفان نفساً عميقًا من سيجارته ثم ألقى بالعقب على نشارة الخشب . وداس عليه فى عصبية بحذائه الضخم الملوّث بالطين والعجين ، ثم كوّر كفّيه ونفخ فيهما استجلابًا للدفء وهو يقول :

- " البرد شديد هذا العام . اللهم أرحمنا برحمتك ! "

فردد حسان هامساً بحزن :

- " أمين يارب العالمين .. "

وشعر أنه لابد أن ينطق بكلمتيْن فأضاف بصوت ضعيف مضطرب :

- " ضاحيتنا هنا شديدة البرد ، تقوم وسط مزارع وأرض عراء واسعة " .

- " نوة تفوت ولا أحد يموت ! " .

ورفع عفّان ياقةَ معطفة الأصفر المجّعد ، تأهبًا للخروج وهو يقول :

- " إعطنى نصف كيلو جبنة بيضاء ، وعلبة " مربة " اللارنج ، وخمس بيضات . "

وقام حسان وجاء بالمطلوب ملفوفًا فى ورقة . تناولها منه الرجل وهو ينفحه بثمنها ويقول بنبرة ظاهرها التحاب والنصح :

- " لم يفتك قطار الزواج بعد . أكمل نصف دينك ، فتحصّن نفسك من مكر الشيطان ! ولا تزعل يا حسان من كلامهم . قلبك أبيض كالدقيق ! " .

وخرج الرجل متضاحكًا !

الفصل الحادي عشر

إيجاب وقبول

فى صباح الجمعة ، أغلق البابَ الزجاجى وأتجه نحو المسجد . وفى ركن قصى داخل المسجد ، قال للشيخ عبد المقصود :

- " جئتُ إليك بتبرعات متواضعة هذه المرة . " .

- " الحمد لله . يكفى هذا ، وقد حلّت تقريبًا مشاكل تلاميذنا الفقراء . "

وسارا جنبًا إلى جنب على الحصير . وما أن بلغا أول عمود ، حتى همس حسان فى أذن الرجل :

- " وجئُتك فى أمر خاص " .

وما أن أقتعد الشيخُ الحصيرَ حتى أقعى حسان بجانبه ، مسنداً ظهره إلى العامود ، قائلا :

- " أسمح لى من وقتك بدقائق . أريد أن أتحدث إليك قليلا .

- " خيرا إن شاء الله . "

- " ما رأيك يا شيخنا الكريم فى زواج رجل مثلى أوشك على بلوغ الخامسة والأربعين ، من جارة أرملة . "

- " جارة أرملة ؟ ! "

- " مات زوجها منذ حوالى تسعة شهور . وإذا كان من نصيبى الزواج منها ، فلن أعقد عليها ألا بعد مضى عام الحداد على وفاة زوجها .. وأنت أدرى الناس بحالى وأقربهم إلى قلبى .. أنت الخير والبركة .. أنت صديق المرحوم والدى ، وأستطلع رأيك .. "

- " رحم الله والدك " الشيخ كريم البكرى " ... "

وبسط راحتيه ورفع رأسه ، وقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة ، ثم قال متضرعاً :

- " اللهم أرحم جميع أمواتنا يارب العالمين .. "

وحدّثه حسان عن توقة لانجاب أطفال ، وعن شعوره بالوحدة ومتاعب معيشته بمفرده . وألمح له بخواطر الشيطان وخيالات لياليه المضنية ، وعاد يحدثه عن جارته الجديدة فحكى له طرفًا مختصراً من حياتها وظروفها .. وقال له أنها سيدة طاهرة .. قليلة الحيلة .. وحيدة . وأشار أشارة خاطفة إلى كلام " عم عفان " ، وما تضمنه من سوء ظن الناس . فهزّ الشيخُ عبد المقصود رأسه ومسح على شعر ذقنه بأصابعه وقال "

- " نعم يا ولدى ، الزواج نصف الدين . حصن المؤمن . وأعرف أصلها من فصلها قبل أن تفاتح أحداً من أهلها ! " .

تردد حسان ، ثم قال بضيق :

- تكاد أن تكون مقطوعة من شجرة ! " .

- " مقطوعة من شجرة ! " .

- " المحُت لها برغبتى فى الزواج منها . " .

- وهل ألمحتْ لكَ بالقبول ، أم قبلتْ صراحة ؟ فالزواج إيجاب وقبول " .

- " ظروفها لا تسمح الآن بأى تلميح أو تصريح . "

- " لا تتسرع يا ولدى ، تريَث . وأدعُ ربك . قُلْ اللهم طهّر نفوسنا يا حَى يا قيوم . اللهم أغفر لنا ذنوبنا . يا مَنْ يعلم ما فى ضمائر الصامتين ، أيقظنا من نوم الغفلة ! " .

ورَنَا إلى أذن حسان وهمس فيها بنبرة عتاب :

- " أفهمتَ ؟ ! "

ونهض الشيخُ وتركه ومشى ، فقام حسان مهرولاً وراءه . فتوقف الشيخُ وقال دون أن ينظر إليه :

- " أدعونى أستجب لكم " ..... ! "

وخَطَا خطوتيْن ، ثم قال :

- " تفَكر يا حسان ! "

وتركه الشيخُ واقفًا وحده فى صحن الجامع . وأختفى .

وقبل أن يغادر حسان المسجد . قال لنفسه : " بعد صلاة الجمعة سيهدأ قلبى وأدعُ ربك .. " وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان " ... وجَالَ جولةً فى السوق ، شارد العقل ، مضطرب القلب . كان قد أنتوى شراء بعض حاجاته ، وسرعان ما شعر بالزهد . كما شعر شعوراً مبهمًا ، كأنما هو فى حاجة ملحة غامضة ، إلى شئ ما لا يدرى ما هو .. لكنه كان متأكداً أنه يميل الآن للانفراد بنفسه . كان لسانه معقوداً حبيسًا ، وكأن مرضًا رهيبًا قد أستولى على قلبه . أحس بهذا إحساسًا قويًا عندما التقى وجهًا لوجه بأحد التجار داخل مصنع للصابون . كيف دخل ؟ لم يشعر إلا وهو داخله .. لماذا دخل ؟ أراد أن يشترى كمية من الصابون ؟ . لكنه أقتضب الكلامَ وحسم الموقفَ بكلام متضارب ، ولم يشتر .. حتى عجب الرجل ، وتركه حسان ومشى . وبعد خطوات ، بعد أن خرج من الزقاق عجب بدوره .. عجب لنفسه كيف أضطرب حالُه كل هذا الاضطراب على حين فجأة . ومع ذلك ، حشر نفسَه فى أزقة السوق . كيف دفع بنفسه فى زحام الناس ، وهو كاره ، ضائق الصدر ؟ بل فاضتْ نفُسه بالتوق إلى الوحدة . شعر بذلّ نفسه . وقفل راجعًا إلى دكانه ، خافض الرأس .. دفع البابَ ودخل وأستكان فى ركنه قابعًا .. ثم دخل زبون وخرج .. ودخلت زمرةٌ من عمال المصانع الخلفية ... ومضى الوقت وهو حبيس نفسه المتأذية . ونظر إلى ساعته على رسغة فجأة ، ثم توضأ بماءٍ من جردلة على عجل وأغلق باب دكانه الزجاجى وهرع عائداً إلى المسجد مهرولا .. ورأى من بعيد مواكب المصلين خارج المسجد ، وقد تأهبوا لأداء الصلاة ، فأسرع بحشر جسمه ، كيفما أتفق ، فى فراغ ضيّق بينهم .. لحق بهم .. وواكبهم ..

وما أن أختتمتْ الصلاة ، وسلّم يمنة ويسرة ، حتى رأى يداً ممدودة إليه من خلفه وسمع صوتًا خفيضًا يقول " حرما .. " ، فأجاب حسان الصوتَ تلقائيًا " " جمعا .. " ، وما أن التفت إلى وجه محدثه حتى بُوغت فرأى وجهَ الشاب القمحى ، ذى الندبة !

الفصل الثانى عشر
وصفى يتوسل

نهض حسان وأنتعل حذاءيه ومشى خطوات ، فإذا بالشاب ذى الندبة يتبعه من خلفه على بُعد ذراع ويناديه هامسًا :

– " عم حسان ! "

توقف حسان دون أن يلتفت إليه ، ودون أن ينبس بكلمة ، فلحق به الشابُ ومال عليه وهمس فى أذنه :

– " أريد أن أتكلم معك فى مسألة خاصة . "

فالتفت إليه متجهمًا ، وقال له بانكار وحنق :

– " وأنا لا أريد أن أتكلم معك . "

– " عم حسان ! أسمعنى أرجوك .. "

تلفت حسان من حوله فى حذر ، وأبتعد عن العابرين بهما وقال بصوت واهن وبلا تردد :

– " أمثالك من الشبان : كلامهم كلام فارغ ! "

– " لا تتسرع فى الحكم علىًّ دون أن تعرفنى . "

– " أعرفك . "

– " تعرفنى من كلامها . "

– " ومن فعلك . "

– " أنت رجل طيّب القلب ياعم حسان ، فلا ... "

– " القلب الطيب ينكر أمثالك . "

– " والتقى لا يظلم الناسَ . "

– " أنت تظلم نفسك . وهل جئتَ لتصلى بقلب سليم أم لتسعى سعى الفاسدين ؟ !

– " ياعم حسان ، ستلوم نفسك على سوء ظنك بى .. "

– " أبعد عنها ! "

وترامقا ترامقًا قويا منذراً . ولمح حسان بريقًا غريبًا فى عينى الشاب ، فتفرس فى وجهه متحديًا ، وأمسك بكتفه فى شئ من العنف وتنحى به جانبًا ، وقال بغضب ، ولكن بصوت خافت :

– " ماذا تريد من ملاحقتك لها ؟ .. أقول لك : إبعد عنها ! "

– " أريدك أن تسمعنى دقيقة واحدة . قُلْ لها أننى نادم على كل ما فعلت . طهّرت قلبى من كل سوء . لم أعد أريد منها إلا أن تسامحنى ، فهى سيدة طاهرة . بريئة من كل ذنب ، قُلْ لها أننى كنتُ فظّاً وواهمًا . قُلْ لها أننى لن أسعى إليها أبدا . فهى حُرة أصيلة . قُلْ لها : لن يريك (وصفى) وجهَه الكئيب مرة أخرى ، ويتوسل إليك أن تصفحى عنه وتسامحيه بكل صدق قلبك البرئ النقى . "

وهنا ، قطب حسان حاجبيه . أنفرجتْ أساريره قليلا ، ونظر إلى الشاب نظرة طويلة متسائلة ، ثم قال له :

– " كُنْ صادقًا فى توبتك .. وأذكر الله .. قُلْ : اللهم أغفر لنا ذنوبنا .. " سبحانه مجيب الدعوات .. وهو الذى بيده الغفران .. "

– " أسف على إزعاجك يا عم حسان . ويشرفنى أن أعرف إنسانًا طيبًا مثلك . وأرجو أن نلتقى يومًا ما لقاء الأصدقاء الأصفياء .. آسف ! "

– " عفوا .. بل يأسف قلبى على ما نطق به لسانى ... "

ومدَّ الشاب يدَه فتصافحا ، وأنفلت منصرفًا على عجل ، وأندسَّ بين زحام موكب المصلين الذين أخذوا يتفرقون هنا وهناك ، ولكن حسان ظل يتبع الشابَ بنظرات ساهمة حتى توارى داخل زقاق من أزقة السوق ..

بعد ظهر ذلك اليوم ، أسترعى أنتباهَه فجأةً أن إحدى ضلفات شرفتها كانت

موازبة . وفى لحظة خاطفة دقق بصرَه خلسة ، فرأى طيفَها الهائم يتردد وراء الزجاج المغبّر . كان يقف فى تلك الساعة داخل دكانه وحده ، على بُعد متريْن من بابه ، وكمن متوارياً فترة قصيرة يسترق خلالها النظرات . يحدّ بصرَه بنظرة حانية تارة ، ويختطف المشهد محملقًا تارة أخرى - ثم أمسك بقميص ممزق متسخ ، وأخذ ينفض به التراب عن زجاج بابه . لم يكن يتبين من طيفها ملمحًا واضحا . كان زجاج شرفتها يعكس نتفًا من السحب الزاحفة ، وكانت الضلفة الخشبية غير عريضة . كانت مواربة بشكل يطمس الأشياء داخل مسكنها . وكانت حجرتها غائبة فى الظلال .. حتى خيّل إليه أنه واهم ، وأن الطيف ليس طيفًا ، بل ليس إلا جانباً من أثاث الحجرة أو طرفًا من ملابس مكوّمة فوق دولاب .. لكنه فجأة ، وبفعل إدامة النظر فى الظلال ، أستطاع أن يتبين شكلاً منها .. من رأسها .. ثم أبصر فجاة ذراعها .. كفّها ترمى إليه باشارة ؟! .. بتحية ؟! .. خدَّره ذهولٌ مباغت ، لكن قلبه توثب في مرح غامر حتى همَّ أن يرفع كفَّه ليبادلها التحية .. ولكن كفَّه جمدتْ بجانب ساقه فى حركة عصبية . وحدَّ بصرَه مرة .. مرتين .. فتأكدتْ له الأشارة . فَغرفاه كأنه على وشك أن ينطق .. أدار عينيه فيما حوله بالخارج يمنة ويسرة . ثم رفع كفَّه محييًا تحيةً متعجلة مسترقة ، وأنهى حركة كفِّه بإيماءة خاطفة تعنى مناداته لها ، إيماءة حذرة تقول لها : (تعالى .. أنزلى .. فى الدكان !) ثم أرتبك على حين فجأة لحظةَ أن لمح " غلوش " العامل بوكالة الخضر ، يمّر فى الشارع فاستدار وتوارى وأنسحب إلى الداخل حيث جلس إلى مكتبه الصغير فى العتمة ينتظر ..

الفصل الثالث عشر
وضحكَ القلبُ

لم تنزلْ إلا بعد صلاة المغرب . دخلت الدكان في هدوء ونعومة . وكان بداخله بعض الزبائن . ألقتْ تحيةَ المساء . كان يقف وراء الميزان فَردّ التحيةَ ببرود مصطنع وباقتضاب ودون أن يلتفت إليها . واقتعدتْ الكرسى ، وتشاغلت بالنظر إلى رباط الجُرح على ذراعها فى حياء . وانصرف الزبائنُ فى غضون دقائق معدودات . وسرعان ماجاء حسان بوجه يتطلق بالبشر وجلس قائلاً لها بابتسام وتأدب :

- " مساء الخير ياست هناء ! " .

ثم أوما إلى ذراعها متسائلاً :

- " كيف حالُ الجرح الآن ؟ "

- " آلمنى طوال ليلة أمس . فلم أنم . يبدو أن المطهر كان غير كاف ، فاندمل الجرحُ متلوثا . "

- " يحتاج لمزيد من التطهير والتغيير . "

وأكبّتْ على الرباط وطفقت تفكّه ببطء . وجاء بزجاجة " صبغة اليود " وما أن قاربتْ على الانتهاء من فكّ الرباط ، حتى بَدا طرفه ملتصقًا بالجلد حولَ شقّ الجرح الذى بانتْ من حوله هالةُ حمراء وأثر المطهر القانى . وحاولتْ أن تشدّ الطرفَ وتخلصه من الجلد ، لكنها تألمتْ وعضّت شفتها السفلى وتقبّض وجهها من الوجع . كان يقف قبالتها منحنيًا . ومدّ إليها يده ممسكاً بقطعة من القطن ، مبللة بالمطهر ، فإذا بها تعطيه ذراعها وتدير وجهها نحو الحائط . أمسك ذراعها مسكاً رفيقًا أشبه باللمس . كان ذراعها أبيض متورداً أملس . لم يكن يحس نعومته . لم يحس منه بأي إحساس . ساوره خوفٌ مبهم داهم أضاع منه الأحساس باللمس . وكأنه رأى مسام جسمه أو جسم ما حيث منابت الشَعر ، رآها رؤية خاطفة وقد قفّتْ ونتأت كرؤوس الشوك فوخزته وخزا خفيا . وصَحَا بصرهُ ، فرأى أصابع يسراه تمسك بذراعها ، وظل يبلل بقطعة القطن طرف الرباط الملتصق بأشفار الجُرح . ولم يطق السكوتَ المريب ، فقالَ بوجه محمّر ندى :

- " شفاك الله .. " .

وتأوهتْ آهةً خافتة ، فقال :

- " خلاص . "

ومسح على الجرح بقطعة القطن ثم تركها فوق الشقّ ، ولفَّ الرباط حوله في سرعة . أثناء ذلك ، سقطتْ نظرةٌ من عينيه الغائبتين على ركبتيها . تردد بصره ، في نظرة واحدة ، وفي ثوان قليلة ، بين طرف المعطف الأسود ولحمها الأبيض المخملي ذي المسام الهادئة الناعمة . وعاد إلى كرسيه . وما أن جلس حتى شعر أن كيانه من الداخل يتهاوى . وما أن شكرته ونظرتْ في عينيه حتى وجد نفسه مدفوعًا إلى الكلام دفعا ، فقال :

" ست هناء ! بعد صلاة الجمعة اليوم ، قابلني الشاب أياه ، " وصفي " ، أراد أن يتحدث معي فقلت له لا كلام بيننا . إبعد عنها ، فأنتَ ولد فاسد . لكنه فاجأني بكلام طيب ! " .

- " كلام طيب ! ؟ "

- " قال أنه طهّر قلبه من الشوائب وتاب ، وأنه لا يريد منك إلا أن تسامحيه على ما بدر منه . "

- " أسامحه ؟ ! "

- " وقال لي قُلْ للست هناء أنه لن يريها وجهه الكئيب مرة أخرى وراح يعدد فضائلك . وهو يستعطف قلبك الطاهر أن تغفري له . فقلتُ له : أدع الله أن يغفر لك . وصافحني ومشى . وطلبتُ منك النزول إلى دكاني لأطمئنك بهذه الأخبار ، فهل إطمأن قلبك الآن ياست هناء ؟ " .

كانت تستمع إليه بتركيز وشغف وأنتباه وتتفرس في وجهه بعينين بارقتين بالقلق والتساؤل . ولما طرح عليها سؤاله ، ظلتْ ساكنة ساهمة ولم تنبس بكلمة ، فنظر إلى وجنتيها المحمّرتيْن كخوختيْن وقال :

- " لا داعي للخوف إذن ؟ ! " .

وبعد هنيهة ، قالت فجأة :

- " أبوح لكَ بسر يقلقنى ! .. لنأخذ حذرنا من " وصفى " ! " .

وفرح قلبُه فرحًا مستترا - وشعر أنها الآن تشركه فى همومها . ولكنه أنتبه بتوجس ، فهى تستطرد قائلة :

- " كذب عليكَ . وهو لن يسكت . لن يهمد ! : .

- " وما دوافعة للكذب ؟ " .

- قال لكَ قُلْ لها أنه لن يرينى وجهه مرة أخرى ! قال لك هذا الكلام لسبب يضمره .. " .

- " ما هو ؟ " .

- " سبب خسيس ! قال لكَ هذا ليوعز إليّ بأمان كاذب . لكنى لا آمن جانبه . إنه ثعلب . سئ النيّة . مجنون أيريدنى أن أصدق كلامه ؟ ! بالطبع لا أصدقه . وإذا صدقته فمعنى هذا أننى أسقط من أعتبارى حرصى ! أقصد تبصرى . فما أن أخرج من سجنى . من شقتى هنا . من الحى ، إلى أى مكان هنا أو هناك حتى يقبّ برأسه من مخبأه أو من جُحره كثعبان أسود . وإذا أنا أردتُ التوجه - مثلا - إلى وسط المدينة لأى غرض مثل قبض معاشى الشهرى من البنك ، فهو لابد من ورائى مراقبًا متلصصًا متربصًا ، وأخاف أن يؤذينى ، فهو مجنون . وفى نفس الوقت ، أنا أكاد أموت وأختنق من الخوف والحبس ، بين جدران شقتى هنا ، لو توجهتُ إلى البنك - غداً مثلا - فأنى أخاف أن ينتهز فرصة أضطراب المدينة هذه الأيام فيختطفنى فى زحام الفوضى .. مجنون وشرس .. لِمَ لا ؟ فهو عبقرى فى تدبير الكمين وإحكام المكائد ! " .

وسكتت برهة ، ثم قالت بغتة :

- " عم حسان ! أصارحك بهذه الحقيقة : أرجوك لا تحمل همّى .. لا أريد أن أزعجك . لا أريد أن أتعبك معى ، أقول لكَ بكل صدق .. " .

وسكتت هزّتْ رأسَها بتأثر عصبى بالغ ، وتهدج صوتُها ، وهى تقول بحسم :

- " دَعْك منى ! "

وأطرقتْ فى حزن . وأسندت رأسها على راحتها . وأنساب شعرُها وتهدّل . لكنه لمح دمعةً كقطرة الندى تسيل ببطء على خدِّها التفاحى . وكأن مرضًا أصاب أذنيه على

حين فجأة . سمع فيهما دويًا ثم طنينًا طافحًا موجعًا ، وكأنهما خلية تكاثر عليها حشدٌ من الزنابير السامة الضارية . وكان قلبه يدق دقات متلاحقة منتفضة . وكانت ما تزال تتابع كلامها .

- " دَعْك مني ! فهذا ثعلب يزيد من تعاستي ، ويقلب حياتي جحيمًا لا يُطاق . فكم أنا سيئة الحظ ! " ولم يعِ حاله وهو يقول بصوتٍ أقرب للصياح :

- " كفى ! "

وبعد لحظة صمت مروعة ، قال بلا تردد وبصوتٍ هامس مكدود :

- " لا تقولي هذا الكلام ياست هناء . وهدئي من روعك . إنك تحملين نفسك أكثر مما تحتمل . الموضوع يمكن معالجته ببساطة . فاذا تعرض لك هذا الوغد ، فلنؤدبه .. وليؤدبه رجالُ الأمن ! " .

فقالت على الفور بتوسل حار :

-" لا .. لا .. قلتُ لك أنني لا أريد فضائح . أرجوك . أعصابي لا تتحمل أي إجراء من هذا النوع ! " .

- " إذن ، دعيني أصارحك بدوري ، كنت أتصوّر أن السرّ .. أن المسألة أخطر من هذا كله لا قدر الله . ولكني أكتشفت الآن .. أرى الأن أن الموضوع يمكن حسمه بالحكمة ! " .

- " كيف ؟ " .

- " كل ما تحتاجين إليه سواء من الحي هنا أو من خارجه أنا كفيل بإحضاره إليكَ ، بتوفيره لك . وهذا حلّ مؤقت .. أما .. أقصد .. أرجوك أن تخففي من شعورك بأنك سجينة بين جدران أربعة .. كل عقبة يمكن تذليلها بالمصارحة ، فلا تتحرجي مني .. أما هو ، فيما أعتقد ، فلن يجرؤ على المجئ هنا مرة أخرى سواء خلسة أو صراحة .. نعم ، هذا حلّ مؤقت ، أما الحـ .. " .

فقاطعته ضائقة الصدر :

- " كم أثقلتُ عليك ! وكم كنتَ أنت كريمًا ! .

فأحزنه قولها . كان يريد أن يبوح لها بأمر ما .. أمر هام .. وجد نفسه مدفوعًا في هذه اللحظة للافصاح عن هذا الأمر ، ومع ذلك كله ، قال لها :

- " أستغفرى الله يا ست هناء ، فما يزعجك يزعجنى ، وما يفرحك يفرحنى . أنا متفائل ... " .

- " أستبشر بكَ خيراً ... " .

- " ستزخر أيامنا القادمة بالفرح بأذن الله . ستسير أمورنا فى مجراها الطبيعى .. " .

وسادهما صمتٌ طويل ثقيل ، وهدأتْ نفسُه ، وصَفَا ذهنُه صفاء غريبًا ، فقال :

- " أذكرك أنك كدت تفصحين ، مساء الثلاثاء الماضى ، عن طلب خدمة ما .. وأى طلب منك إلَى لا أعتبره خدمة بل هو واجب ! " .

قالت بتردد :

- " لا .. ليس الآن .. ألف شكر . كل ما يشغلنى هذه الأيام هو خوفى ! " .

فقال بتفكر :

- " عُزلتك وصدمات القدر ، بالطبع - كان لها تأثير عليك فالأنسان منا ليس سوى حفنة من اللحم والدم . أستبدت بك المتاعبُ وتملكتك فأوقعتك فى حصار رهيب بسبب حساسيتك المرهفة وأعصابك المرهقة .. وإياك والوَساوس .. أنَا مجرّب .. إهتمى بصحتك يا ست هناء . ولا يغيب عنكِ أن يقَيننا بالله يقينا من كل وسواس ! .. " .

- " كلامك يطهر قلبى من الخوف . ولكن عندما أجد نفسى وحدى أشعر بقلبى يختنق خوفًا .. " .

- " الصلاة ! بالصلاة يأتى الفرجُ .. نتخلص من كلّ كرب وضيق وتعسير ، وننال كل خير وتيسير . الصلاة تشفينا من الأوجاع والأسقام ، وتخلصنا من المخاوف والأوهام وتحفظنا فى اليقظة والمنام ! .. بالصلاة تنشرح صدرورنا .. " .

أنطلق فى الحدث وقد غمرتْ قلبه غبطة صافية . وبعث شعوره بالصفاء فى نفسه إحساسًا عذبًا بالتوازن والثقة وطلاقة اللسان ، وكأنه قد تطهر فجأة .. كأنه قد تطهّر تمامًا بماء من الجنة ، من عذاب مذل . وأجالتْ فى جوانب الدكان عينيها العسليتيْن الرائقتيْن ومن حولهما رموش وطفاء سوداء ، تطرف فى مودة وعذوبة - فأبصرتْ عدداً من الكتب متراصبًاً بجانبه فوق أحد الرفوف ، فأومأتْ إليه متسائلة :

- " أتحب القراءة ؟ " .

- " هوايتى المفضلة منذ صغرى . "

- " وأحبها إليك الكتب الدينية طبعا . " .

- " نعم الكتب الدينية والتاريخية - وفى عهد دراستى كنت أقرا بنهم .. " .

- " فى أى مرحلة أنتهتْ دراستك ؟ " .

- " حصلت على الشهادة التوجيهية ، والتحقت بكلية الآداب ، بقسم الفلسفة ومكثتُ بها عامين ، ولم يكن من نصيبى أن أستمر بها .. لأسباب عديدة .. كانت حياتى مضطربة آنذاك أشد الأضطراب وقد غرس فى نفسى ، أبى رحمة الله حبَّ العمل الحرّ والتجارة . كان أبى من تجار الجملة . ومات .. وظللتُ أحاول عبثًا إحياء تجارته ، ولكنى لأسباب كثيرة فشلت .. بعض الناس خرب الذمة .. ولم أجد أمامى إنذاك إلا طريق الوظيفة .. عملتُ موظفاً فى شركة فترة قصيرة ، وأستقلت ، ثم التحقت بوظيفة فى الحكومة .. فى التموين . وظللتُ بها عشر سنوات ، وكم عانيتُ من متاعبها ومفاسدها ثم قدمتُ أستقالتى على أثر معارك ، وحصلتُ على مكافأتى ، وبعتُ حصة عقارية - نصف بيت - ورثتُها عن المرحوم والدى ، وحدثت بسببها مشاكل وقطيعة بينى وبين بعض أقاربى وصار فى يدى مبلغ كبير .. أنا أعتبر التجارة حرية وترويحًا عن النفس ، وأخيراً وجد لى (الشيخ عبد المقصود) هذا الدكان فاستأجرتُه منذ خمس سنوات ... " .

- " من هو الشيخ عبد المقصود ؟ " .

- " إمام المسجد هنا ومدرس مادة الدين فى مدرسة الحى .. (مدرسة الشيخ محمد عبده) .. وهو صديق المرحوم والدى .. " .

- " أنت هنا منذ خمس سنوات . إذن أنت لا شك عرفتَ والدتى ؟ " .

- " طبعا ، تشرفتُ بمعرفتها . كانت زبونه عندى . أطيب مَنْ عرفتُ من سيدات الشارع هنا ، يرحمها الله رحمة واسعة . وكنتُ قلقًا عليها طوال مدة مرضها . وكم آلمنى نبأ وفاتها .. ألف رحمة .. " .

- " أدخلتُها المستشفى حيث بقيتْ مدة تحت العلاج وأجريتْ لها عمليتان خطيرتان .. و .. ولكنها ماتت بين يدى .. " .

ولاذتْ بالصمت لحظة ، ثم أمتدتْ أصابعها إلى كتاب وقلّبتْ صفحاته بين يديها ، وقالت في أسى :

- " كتاب قيم ! "

- " كان في بيت المرحوم والدى مكتبة تحوى عشرات الكتب .. لم تشغله التجارةُ عن الاطلاع . وكان من نصيبى بعضها ، أما بعضها الآخر فكان من نصيب شقيق لى أستشهد في الحرب ... " .

- " زوجي .. المرحوم .. كان يشترى كتبًا ومجلات كثيرة ويلقى بها في البيت . كان مولعًا بقراءة كتب التجارة ، والكتب النفسية ، وقرأتُ منها الكثير و .. " .

وأمسكت عن الكلام برهة ، وترددتْ قليلا ، ثم قالت :

- " ثم شغلتُ بأعمال البيت ... " .

وصَحَا بين جنبيْه سؤال فطرحه :

- " كم دام عُمر زواجك من المرحوم ؟ " ..

- " ثلاث سنوات . " .

وأندفع إلى سؤال آخر :

- " ودون إنجاب أطفال ؟ ! " .

فقالت محَمرة الوجنتيْن :

- " كنتُ أتمنى أن أنجب طفلاً وطفليْن وثلاثة .. وترددتُ على أطباء كثيرين وأجمعوا على أن العيب ليس من جانبي . " .

وضحك قلبُ حسان متوثبًا في صدره . وتمالك فرحتَه بين ضلوعه ، وسألها بثبات :

- " وهل توفى المرحوم في حادث ؟ ! " .

فاجفلتْ مطرقةً في ارتياع وأسى ، وقالتْ ووجهها يتوهج إحمراراً :

- " مات على أثر هبوط في القلب ! "

ورانتْ دقائقُ من الصمت طويلة ثقيلة . وشعر بحرج بالغ وندم ممض ، إذ أدرك أنه أثار حديثًا ذا شجون على غير وعى منه ، ولكنها هزّتْ رأسها وسألته بنبره مغايرة :

- " لكنك لم تسألنى عن نوع الكتب التى أحب قراءتها . " .

- " الكتب النفسية فيما أظن . " .

- " زوجى هو الذى كان مولعًا بقراءتها ، لكنى أحب الشعر . " .

- " فى عهد دراستى كنتُ أحب قرض الشعر ، ولكن محاولاتى الشعرية لم تكن موزونة ... " .

كانت تريد أن تلطف ما خيّم عليهما من جوّ يسوده كدرٌ طارئ ، وجدية خانقة ، فشحذتْ فى نفسها روح الدعابة وقالتْ متضاحكة :

- " ولو عدتَ لقرض الشعر ، فبأى ميزان تزنه ؟ ! "

فأسعفه الجوابُ ، وقال متفكهًا ضاحكا :

- " أزنه بميزان الجبن والحلوى ! " .

.. تضاحكا ضحكات شبه مفتعلة .. ثم قال :

- " ليس زماننا زمن الشعر يا ست هناء .. " .

وقالت بابتسام وهى لا تكف عن تصفح الكتاب :

- " أتسمح لى أن أقترضه منكَ ، فالفراغ فى شقتى قاتل .. " .

- " خذى ما تشائين من هذه الكتب . إحتفظى بها .. وسأشترى لكِ بعض الدواوين .. " .

- " هذا يكفى ! ألف شكر ! " .

وطلبتْ منه بعضَ المأكولات من جبن وبيض وزيتون وعلبتيْن من اللحم المحفوظ . وأعَدّ لها المطلوب أحسن إعداد وأضاف إليه من عنده الكثير . وجاءها أيضا بكيس من " البلاستيك " ، ووضع فيه عدداً من أرغفة الخبز الطازج ، كما وضع كل هذه الأشياء فوق المكتب وأسندها إلى الحائط بجانبها .. ودار بينهما حديثٌ قصير خاطف ، ثم أخرجتْ من حافظة يد صغيرة بعضَ النقود وأصرت على دفع الأثمان ، وكان يقول لها بتأدب :

- " ليس الآن .. فيما بعد . " .

لكنها عاودتْ إصرارها على الدفع قائلةً :

- " ولك حساب قديم أيضا .. " .

ودفعتّ له ، وحملت الكيس واللفائف وقامتْ وصافحته قائلة :

- " ألف شكر ! شغلتك بعض الوقت عن عملك ... أسفة ! " .

فقال بحماس :

- " أبدا ، على العكس ، أغلب وقتى فراغ خاصة ساعة العصر .. أو بعد صلاة العشاء .. " .

وكانت قد بلغتْ الباب ، فاندفع قائلاً :

- " هل أنتظرك قريبًا لنتحدث قليلا ! ؟ " .

فطرفتْ برموشَها وأمالتْ رأسها ، وأسندت حافة الكيس تحت ذقنها وقالت :

- " قريبًا باذن الله " .

وغادرتْ الدكان ، وهو يتبعها بعين الأعجاب وبقلب ضاحك ...

الفصل الرابع عشر

مناجاة على جوالات السكر

وأنحنى على جردله وتوضأ وبسط حصيرته وأدى الصلاة متأخراً . ! وأغلق البابَ الزجاجى ، ودخل إلى مخزنه وطرح جسَمه على بعض الجوالات الفارغة المفروشة على كوم من الجوالات القائمة المليئة بالسكر والأرز طلبًا للراحة والنعاس .

كان جسمه متعباً ، ولكن النوم بعيد عن جفونه . وكان رأسُه مزدحماً بالخواطر والأطياف . واستعاد ما دار بينهما من حديث قال لنفسه كيف تبخرتْ من دماغه الاسئلةُ التى كان قد أعَدها فى ذهنه ، وكيف لم يقل لها ماكان قد انتوى قوله . إن وجهها المستدير الجميل وعينيها الساحرتين وشعرها الأصهب المسترسل الذى يسيل على كتفيها - كل ذلك أشعَ قُوى غامضة آسرة .. حقاً ، إنه عندما ينظر فى وجهها الحلو لايريد أن يرفع عينيه ، ولا يعرف مكمن الجاذبية فيه على وجه التحديد ، ولايعرف مصدر فتنته وعذوبته على وجه الدقة ، فكل ملمح فيه له سحره الخاص . وهو عندما ينظر يشعر شعوراً قويًا بعدم القدرة على الاستمرار فى النظر إليها ، على الرغم من أن نظرتَه عادة لا تستغرق أكثر من ثلاث ثوان ، وسرعان ما يجد نفسه قد غضَّ الطرفَ عنها كردّ فعل جبرى ، أما الفعل نفسه الذى يعتمل فى دخيلته فهو غامض لايعرف كنهَه ولا علّته ، إلا أنه يدرك بوضوح أنه إنسان يتمتع بالحياء ، والحياء تأدب وأجب . ومع ذلك ، فهو كثيراً ما يضيق به عبئاً ثقيلاً ثقل جبل ، ويعانى من أشواكه وخزاً جارحًا ، يضجره ، ويعذّبه عذابًا يذل كبرياءه . وتساءل : كيف يظل طوال ليلة أمس صاحيًا مؤرقًا يتقلب فى فراشه ، ولم ينم إلا عند طلوع الفجر .. وعندما سألها السؤال ، أحمّر وجهُها فتضاعف سحرُه وبهاؤه ، وأجابته فى لطف عذب : كنت أتمنى أن انجب طفلاً وطفلين وثلاث ! وكم رق قلبه الضعيف لحالها وهى تتمتم " كم أنا سيئة الحظ ! " .. وأشد ما يضايقه منها أنها كادتْ تسرّ إليه بأمر ما لكنها فيما بَدَا له أستدركتْ على الفور لسبب ما ، فامسكتْ عن البوح به .. وكادت مساء الثلاثاء أن تطلب إليه خدمة قالت : " أنا فى حاجة لخدمة . أصارحك .. " . وخشيت أن تصارحه بكنهها .. ماهى تلك الخدمة ؟ لا يعرف .. غلبها الحياء .. وتضاعف ضيقُه عندما

قالت له : " ليس الآن ... سأحكى لك فيما بعد .. فيما بعد .. " ! وكم سأل نفسه : " ما هى كل الأسباب التى أضطرتها أن تغادر البيت الذى عاشت فيه مع المرحوم زوجها ؟ " سأل نفسَه هذا السؤال منذ فترة ثم عاوده مرات وأفترض له أسبابا كثيرة . وكاد أمس أن يوجهه إليها ، لكنه تردد طويلا وتريث ثم أحجم ، فهو سؤال له جواب ، وجوابه يخصها وحدها ، ويتطرق لحياتها الزوجية السابقة ، وإن هو شعر أن من حقِّه أن يعرفه منها يومًا ما فهو لابد أن يعرفه معرفة كاملة . وقد ذكرتْ له طرفاً منه يتعلق بخوفها من (وصفى) الدنئ الذى أغرقها فى حالة نفسية سيئة لا تسمح له الآن أن يطرق معها موضوع هذا السؤال . وماذا يهمه هو من أسباب هجرها لبيت المرحوم زوجها ؟ وقد آثر ألا يطرح عليها هذا السؤال . إن جراحها لم تندمل بعد . وأستبدتْ به دهشةٌ مباغتة . دهش من أمره حتى شعر بالخجل من نفسه . فكيف دفعتْ به جراته وهواه وتعلقه بها إلى .. آه .. كيف تجاسر ؟ ! إنه يكاد أن يكون قد باح لها برغبته فى الزواج منها .. ولِمَ لا ؟ ! .. لا .. لا .. إن أقتناعاً باطنياً متبادلاً بينهما جعل الأمر سهلاً وترك الباب أمامه مفتوحًا ، فهى أحوج منه إلى الزواج .. زواجها ضرورة وعلاج لمحنتها . وهو يدرك ذلك إدراكا قويا . وعندما فاتحها فى هذا الموضوع ، فهى إذ ذاك لم تغضب .. لم تتبرم .. لم ترفض .. سكنتْ وفكرت ، ولابد أن تفكر .. أمر طبيعى أن تفكر .. ثم ، هل هى قبلتْ صراحة ؟ ! بالطبع ستقبل ! حقًا ، كم هى سيئة الحظ ! ولكنها عاقلة لاشك . فكيف تترك نفسها ألعوبة فى أيدى قدر غاشم ؟! فهل ترضى لنفسها أن تعيش بقيةَ حياتها فى وحدة وحرمان وحزن .. وخوف ؟ .. هل تترك جمالها الباهر ونضارتها الزاهرة وشبابها المتفتح لفرحة الحياة الخصبة ، هل تترك كل هذه الكنوز ألعوبة هشّة هيّنة فى قبضة الزمن الغادر القاسى لتعبث بها وتسحقها ، فتذبل وتتجعد وتجفَ ثم تسقط فيواريها الترابُ تحت التراب . لا شك ، أنها فكرت فى كل هذه الأمور بعقلها وشعرت بفطرة شبابها وبمعاناتها .. وبألامها وآمالها .. تتردد عليه فى دكانه من قبل أن يفاتحها فى الأمر ، وهى لاشك تجد فيه أنساناً طيباً ووحيداً مثلها . ولابد أنها وجدتْ فيه منقذاً من سجن خوفها . وبعد أن فاتحها فى الأمر ، وبعد أن توثقتْ علاقتهما بدافع حُسن الجوار ولطف المودة وشوق المحبة ، لابد أنها شعرتْ فى باطنها بشرعية النيّات .. بصفاء الصلة ونقاء العلاقة ، وهذا نوع من الرضا ، نوع من القبول الصامت ! وإذ هو الآن يتأمل طهرها فهو يقول لنفسه : " بل هى أنقى منكَ وأصفى . هى أصيلة لا شك . " ولو لم تكن كذلك ، لاستجابتْ لرغبات

شاب يركع تحت قدميها ولا يكفّ عن ملاحقتها ، وهو أنضر منه شبابًا . " وحيوية وتفاؤلاً . وضجر من نفسه وهتف في باطنه : " أنا غير طاهر ! " . وهذا الشاب أيضا كاذب العاطفة . بل هو حيوان دنيء لا يعيش إلا بنصفه السفلى ، ولا يستعذب الحياة إلا في جحيم الحرام ! فهو شيطان . وهي ملاك ، تحب الشعر . نعم ، تحب الشعر . وقد خلقها الله سبحانه وتعالى في صورة جميلة ، فهي باطنًا وظاهراً : براءة وجمال .. وطهر زهرة من أزهار الفردوس ، أريجها من طيب جنة الخلد .. وقال لنفسه ، وقد نهض مغادراً جوالات الأرز والسكر : " واجبك الواجب هو أن تنقذها مما هي فيه من كرب الخوف وكدر الحزن . يجب أن تصونها وتحميها .. أو لم تقل لك : (شهامة منك أن تحمي جارتك) . فما بالك وهي الآن في حكم شرعية النيّات زوجة ! .. في حكم روح الشريعة زوجة ! وقالت لكَ أيضا : (كنتُ فرحانة في حمايتك) . نعم ، الست هناء زوجتك يا حسان ! وهي غداً تكون أمّاً لأولادك ! ما أعذب الحُلم عندما يوشك أن يصير حقيقة مفرحة !

* * *

وفي التاسعة والنصف مساء ، أغلق دكانه وأتجه نحو المحطة . وقف في العراء ينتظر قدومَ الأوتوبيس ، كان لليل مذاق ورائحة .. وكانت السماء والأرض ذائبتيْن معًا داخل وشاح واحد غريب ، وشاح ليل شتوى تنساب في حضنه مساحاتٌ شاسعة من المزارع والحقول ، تغيم معالمُها في الظلمة ، وتنفث أريج السماء والثمار ... ياربي ! ما أصغيتُ إلى صوت حيوان ، ولا إلى حفيف شجر ولا إلى خرير ماء أو ترنم طائر أو صُوُّة ظل ، أو قعقعة رعد ، إلا وجدتُها جميعًا شاهدة على وحد انيتك . وهناك في البُعد ، أنوار نوافذ بيوت ومصانع وكأنها نجوم وامضة أو كواكب حائرة تلطمها أمواجٌ من الظلمات ... وحدك يا حسان في غياهب ليل يلبس الحداد . ولكن تساقطتْ أسراب غربانه جثثًا تحللتْ وصارتْ سماداً وسباخاً يخصب الأرضَ في أحشاء الليل ، فاذا طلع عليها الصبحُ بشمسه الذهبية أثمرت ملايين الثمار .. بعدد حبّات الرمال على اليابسة وفي البحار .. بعد حين لن يطول يأتي الربيع .. أنتَ ياربي وحدك جَلّ شأنك ، مَنْ تهب الكونَ كله قوى الحركة والاستمرار والاخصاب .. بيدك وحدك مفاتيح الأسرار !

الفصل الخامس عشر

أولاد برقوق

أستغرقه العملُ فى الدكان . كان يتوافد عليه تباعًا بعضُ الجيران وسكانُ الشارع والأزقة ، يجئ إليه رجالٌ ونساء ممن لم يحصلوا بعد على مواد التموين الشهرى من سكر وشاى وأرز وعدس وزيت وصابون وكبريت . فانشغل بالبطاقات والتدوين فى سجل التموين الشهرى وبالتوقيعات والختم فى خاناته ، وأنكبَّ على برميل الزيت والجوالات ، يملأ منها فى القراطيس والأكياس والصفائح ، ويعبئ ويزن ويلفّ ، ويعمل حساب الأثمان ويضرب ويجمع .. ويسلم السلعَ ويتناول النقود .. وكان أثناء ذلك ، يبادل زبائنه الكلام فى شتى المواضيع العابرة أو مشاركتهم الممازحة أو الاستماع إلى نكاتهم ضاحكاً . وكان كثيرون منهم هذه المرة يصيحون بالشكوى من أرتفاع أسعار هذه السلع ، فيجاوبهم فى تبرمهم - وغالبا ما كان بعضُهم ينهى الثرثرة بالدعابة اللاذعة أو بالضحكات السمحة أو بالكلمات اللامبالية ، كما كان بعضهم يكتفى بالصمت المحزون والنظرات الواجمة وكان بعضهم يردد آيات قرآنية متوجهًا بالدعوات إلى الله اللطيف الرحيم بعباده الفقراء .

وفى صباح اليوم ، وقفتْ بالباب سيدةٌ من سكان الشارع يعرفها . أنتظرتْ حتى خَلاَ الدكانُ من الزبائن ، ثم دخلتْ فى تخاذل . هى سيدة من زبائنه ، سمراء قصيرة نحيلة تبدو فى حوالى السابعة والأربعين من عمرها ، كانت تندس فى ملاءة لفّ قديمة باهتة . دخلتْ فى هدوء خافضة الرأس ومدَّتْ إليه يمناها وصافحته ، على حين كانت بيسراها بطاقة التموين . وقفتْ لحظات مترددة دون أن تنبس بكلمة ، فنظر إليها وقال :

- " كيف حالك يا (ست جليلة) ؟ تحت أمرك ! " .

- " الحمد الله ... "

ثم تمتمتْ بكلمات غير واضحة ، وبَدَتْ مرتبكة . ولم تمدّ إليه البطاقة كما يقتضى الأمر ،

وهزّتْ رأسها وأضافت بصوت مهموس :

- " عم حسان ! أنا .. أنا خجلى من الكلام .. ولا أعرف ماذا أقول لك ؟ " .

- " خيراً .. خيراً إن شاء الله .

- " خيراً وكل شئ بأمره .. أتعرف زوجى " الأسطى أحمد برقوق " ؟ .. " .

- " الأسطى أحمد برقوق من أفضل رجال الحى ، وهو يأخذ منى كل شهر تموينكم ؟ ما به يا ست جليلة ؟ ! .. خيراً .. " .

وتهدج صوتُها وهى تقول :

- " بيته ؟ خُرب بيته يا عم حسان ؟ " .

- " يا لطيف ! كيف ؟ اجلسى يا ست جليلة .. " .

وجلستْ على الكرسى الشاغر أمامه ، قائلة بحزن :

- " تعرف أنه عامل فى شركة بحرية كبيرة ؟ " .

- " أعرف . "

- " وله مدة خدمة طويلة ؟ ! "

- " أعرف . "

- " قُبِض عليه فى ميدان " المنشية " .. فى مظاهرة .. " .

- " هل ثبت عليه أنه نهب أوَ أحرق .. " .

- " قالوا أنه أحرق مع غيره مبنى الاتحاد الاشتراكى ونادى المحافظة فى " الشاطبى" وأغلب كباريهات اسكندرية .. وهو ليس له فى الحرق ولا فى النهب .. أخذوه من الدار للنار .. سجنوا رجلى ، ولا نعرف عنه شيئا .. " .

وأجهشت فى البكاء وهى تقول :

- " ترك لى أربعة عيال . ثلاث بنات وولداً صغيراً ، ولا عائل لنا ولا معين إلا الله ... " .

- " إذا كان بريئاً سيفرج عنه .. اطمئنى يا ست جليلة .. فرج الله قريب .. " .

وأخذ من يدها البطاقة قائلاً :

- " تحت أمرك . الناس لبعضها ... " .

وقالت وهى تنهنه باكية :

- " الأولاد فى حاجة للسكر لأعمل لهم أكلة " المفتقة " ولبعض الأرز على سبيل " السلف " ، حتى يصلح الله حالنا .. لا تؤاخذنى يا عم حسان ! " .

- " تأخذين منى الآن تموينك الشهرى كاملا . " .

فاندفعتْ فى حرارة قائلة بامتنان وهوان :

- " بارك الله فيكَ ياعم حسان ، ويجبر خاطرك . ليس فى بيتنا مليم ولا حبة أرز .. " .

وبحث عن زجاجة كبيرة فارغة وملأها بالزيت من برميله الكبير ، وهو يقول لها :

- " والحساب فيما بعد . فى أى وقت حتى تتعدل الظروف ويفرجها المولى . لا تعكرى دمك أبدا .. " .

- " يسترك المولى ويبارك لك .. " .

- " وبإذنه تعالى ، سيفرجون عن زوجك مادام بريئا .. " .

- " برئ ! وقلبه على الخير ! .. مرتبه موقوف . سعيتُ فقابلتُ بعضَ زملائه فى العمل ورؤسائه . قالوا لى ما باليد حيلة ، موضوعه بين يدى النيابة أو الحكومة لا أعرف ... ولا أعرف مصيره .. " .

- " اطمئنى ... " .

وأسندتْ قرطاسيْن إلى صدرها وهى تقول بصوت ضعيف :

- " لا أخفى عليك ياعم حسان ، فكرت فى حلّ للخروج من الضيق الذى نحن فيه . فكرت أن أعمل شغّالة وغسّالة فى بيوت الناس الطيبين . وستعمل ابنتى الكبيرة (سعدية) فى مصنع الغزل ، أما (سعاد) الأصغر منها فسأسعى لأجد لها عملا .. " .

وانخرطتْ فى بكاء مرير ، ثم أستأنفتْ كلامها منهنهة :

- " وابنتي الثالثة صغيرة على العمل والشقاء . عمرها تسع سنوات وابني (بلبل) آخر العنقود لم يدخل المدرسة بعد .. طفل .. لا يصلح حتى ليعمل صبيًا في دكان .. " .

تأثر حسان تأثراً عميقًا هزَّ قلبه . وتمالك نفسه التي فاضتْ بالحزن والكدر وربت على كتفها في رقة بالغة ثم ناولها ثلاثة أكياس أخرى ممتلئة بالزاد ، والدموع تكاد تطفر من عينيه ، وهو يقول لها :

- " أولادك أولادي . والأسطى أحمد برقوق كأخي . وسيرجع إليكم سالمًا قريبا . سيفرجها المولى . أستبشري خيراً يا ست جليلة . وأنا مثل أخيك .. " .

وكان لسانها يلهج بالشكر ، على حين التقط هو بطاقتها دوَّن عنوان بيتها في قصاصة ورق . أحتفظ بها في درج مكتبه الذي سحب من داخله ورقة مالية ، طواها ودسَّها في كفّ السيدة البائسة ، وراح يهدئ خاطرها ويروّق دمها بكلمات طيبة ، ثم قال بحرارة صادقة :

- " لكن لي عندك رجاء يا ست جليلة .. أرجوك واستحلفك بالله العظيم ألا تقولي كلمة واحدة مما دار بيننا هنا الآن لأحد في هذا الشارع أو في الحي كله ، ولا لأحد أولادك .. أرجوك ... " .

وخرجتْ الست جليلة حاملة القراطيس والأكياس والزجاجة ولسانها لا يكفّ عن الشكر وإرسال الدعوات الطيبة إلى السماء وجسمها الضامر القصير ينتفض ثناء وأمتنانًا تحت ملاءتها الكالحة ، وتبعها بعينين دامعتين ، وهي تمضي لصق سور الخربة بخطى شبه عرجاء . وقال لنفسه وقلبه يتفطر ألمًا :

" أنت تشبهين أمي .. رحمها الله ! " .

* * *

وفي نفس تلك اللحظة التي تخطتْ فيها الست جليلة عتبة دكانه ، دخل رجلان " خليل كبارة " سائس الأسطبل ، و " حميدو الضلم " صاحب المجيرة ، قال الأول :

- " كان الله في عونها .. اعتقل زوجها " برقوق " . كان على رأس مظاهرة ياسيدي .. تبكي عليه .. كيف حالك يا عم حسان ؟ ! مَنْ سرق نقودك من درج مكتبك أحقّ بدخول السجن ! " .

فقال حسان :

- " والله يا كبارة ، لايعرف أحدٌ من خلق الله الظالم من المظلوم فى زمننا هذا إلا الله سبحانه وتعالى . " فقال " حميدو الضلم " :

- " زمن قطران بعيد عنك . وبصراحة أحمد برقوق غلطان ! ماله هو والمظاهرات والسياسة ؟ ! يخلى السياسة لأصحابها . ! " .

فقال " كبارة " :

- " صَحْ ! خلّه فى حاله ! . لكن برقوق شهم .. يكره الظلم ! "

فأضاف " الضلم " :

- " خلّه لبيته ! ها هو ترك أولاده للذل والبهدلة ! "

فقال حسان :

- " الله أعلم ، هل من احتجوا هم الذين أحرقوا ونهبوا أم اختلط الحابل بالنابل .. فهل هى " انتفاضة حرامية " ؟ ! "

فقال " الضلم " :

- " لكن خلاصة الكلام : مَنْ الخاسر ؟ الشعب ! "

فقال كبارة :

" الشعب ؟ ناس تحت المداس ! وناس فوق .. فوق .. والحكومة راكبة الكُلّ ! " .

فقال حسان :

- " الحكومة تطّهر البلد من الحرامية والشيوعيين الكفار ! " .

فقال " كبارة " :

- " كلام جرائد ! " .

فقال : الضلم " :

- " عين العقل ! كلهم لصوص ! لكنهم يقبضون على الكافر والمؤمن إذا هدد الكرسى ! " .

فقال حسان :

– " أتريدون الحق ؟ كل الشيوعيين يستحقون الحرق .. كفّار ملاعين .. ! وبينى وبينكم ، فى الحكومة رجالٌ مثلهم ! " .

– " صَحْ ! وربنا يلطف ببرقوق .. لأجل أولاده الغلابة ! " .

وتناول كلٌ منهما طلبَه من حسان ، وخرج " حميد والضلم " لكن " خليل كبارة " وقف بالباب وقال لحسان بابتسام :

– " سمعتُ أخباراً سارة ! "

فقال حسان بشئ من الدهشة :

– " أخبار سارة ؟ "

– " يتوقع الجيرانُ هنا إقامة حفل زفاف بهيج ! الأخبار السارة تجرى فى الحارة كالبرق ! " .

وغادر الرجلُ الدكانَ ... وأثارتْ الكلماتُ فى نفسه ارتباكاً وحيرة وتساؤلات متوجسة كثيرة .. لكنها على أية حال بُشرى وفألُ حسن ، إلا أن البشرى قد شابتْها خواطرُ مبهمة مقلقة ..

وأوغل الليلُ . وانقضى ذلك اليوم ولم تأتِ . فأغلق دكانَه وقال لنفسه متصبراً وهو يضرب فى الظلام البارد عَبر الشارع الملتوى :

" ربما غداً تجئ .. فى العصر أو بعد صلاة العشاء ! " .

الفصل السادس عشر

الجــردل

وفى صباح اليوم التالى - وكان الجوُّ بارداً وصحواً بلا غيوم - غادر مسكنه متأخراً . واستقل الأوتوبيس المتجه فى طريق مغاير . ونزل فى ميدان «محطة الرمل»، ودخل محل « تريانو » الكبير واشترى منه علبة فاخرة مليئة بمربعات الشيكولاته . مشى خطوات فى شارع « سعد زغلول » ينظر بعين حالمة إلى معارض المحال حيث ألوان عديدة من السلع المستوردة وراء « الفتارين » الزجاجية - ثم عرج على مكتبة (دار المعارف) ، وصعد إلى الطابق العلوى واندس بين رفوف الكتب ، واشترى كتابيْن مجلدين تجليداً أنيقًا . . وشاهد حشوداً من قوات الأمن المركزى بخوذاتهم وأسلحتهم يسدّون منافذَ الميدان ، كما سمع بعضَ الناس فى الطريق يتحدثون عن فلول المتظاهرين فى الشوارع الخلفية وعن فرض حظر التجول . وما أن بلغ رأس الشارع حتى اشترى جريدة « الأهرام » ، ثم استقل الأوتوبيس رقم (٣) ووصل إلى دكانه . واستأنف عمله مستغرقًا فى إجابة مطالب زبائن الصباح ، ولكنه لمح نافذةً واحدة نصف مفتوحة . ومضى الوقت ولم يظهر طيفُها . ولم يلمحها خارجة من باب بيتها أو داخلة .

وبعد الظهر ، رأى بعضَ جوانب من ضلفات نوافذها الثلاث قد فُتحت . . وكانت مواضعها تتغيّر لضرورة السماح بتسلل أشعة الشمس الوانية أو لمنع تيارات الهواء البارد . ومع ذلك لم تسنح له الفرصة لرؤيتها . ولكن ، حدث أنه كان راجعًا وسط الشارع الهادىء من ورشة النجارة يحمل جردله الطافح بالماء ، فلمحها واقفةً فى الشرفة تنشر قطعًا من الملابس . ورشقت عيناه رفلَ ثوبها الأسود . واصل خطاه فى ثبات بين نفر قليل من السابلة والغلمان الذين يلهون ويتصايحون هنا وهناك . اقترب من دكانه خافض الرأس . مضطرب النفس . فتح البابَ الزجاجى بالمفتاح ودخل كقطٍ هاربٍ من خطر داهم ! ولم يطق الاختباء ، فخرج بعد لحظات حاملاً جردله مرة أخرى

ووضعه بجانب الباب حيث يقوم سور ملاصق مهدم تقع وراءه أرضٌ خربةٍ واسعة تُلقى في طرفها البعيد أكوامُ القمامة التى تجلبها عربة يجرّها حمار من أماكن قصّية . كان قد رأى كومًا من القمامة ، ألقى به مجهول بالقرب من بابه ، وتفوح منه رائحةٌ نتن . أزاحه بالمكنسة وانحنى على الجردل وراح يأخذ من مائه بكوزٍ ويرشُّ على الأثر ، ثم طوّح ببقية الماء على سور الخربة . في هذه اللحظة الخاطفة ، وهو يستدير على عقبيه أدار عينيه واختلس نظرةً دقيقة سريعة . . رآها . . لمح ساقيْها وقد برقَ بياضُهما الصاعد في وهج كهربى تحت دائرة الثوب الأسود ، لمحهما يتحركان فى سرعة إلى الداخل . اختفتْ خفيفة كالنسمة . . كجناح طائرٍ مذعور ، ولم يبقَ فوق رأسه إلا قضبانُ الشرفة وحبال الغسيل وفراغ يقبض القلب . . وهواء . . هواء أهوج يعبث بالقطع المنشورة من ملابسها . شعر كأن بخارَ ماءٍ مغليّ يسرى تحت جلده وتلفح سخونتُه صدرَه وأعضاءَه كلها ، فتفصّد العرقُ من مسام وجهه . وكان بالباب شاب طويلَ القامة ، أحمر الشَعْر . رآه مرصوداً على حين فجأة . دخل قائلاً :

- « السلام عليكم . . . »

فردَّ حسان التحيةَ بصوت نعسان :

- « وعليكم السلام يا « غلوش » . . . »

والتقط حسان جردله بيسراه ، على حين كانت بيمناه مفاتيح دكانه ، فقال (غلوش) :

- « أنت على وشك أن تغلق دكانك ؟ » .

- « تلزم خدمة ؟ سأملأ الجردل من الورشة . . . » .

- « يشرفنا أن تحضر حفل زفاف ابن معلمنا (هلال الدرديرى) ، فهو يدعوك لحضوره مساء الخميس القادم . . عقبى لك قريبًا بإذن الله !. . . » .

ومدَّ يده إلى حسان ببطاقة الدعوة ، فتناولها هذا قائلاً بذهن غائب :

- « مبروك . باذن الله ! » .

وغادر (غلوش) الدكان ، واستبدتْ بحسان رغبة جامحة في الحركة والمشي ، فتوجه إلى ناصية الشارع . وأتاح له رجوعهُ من ورشة النجارة بجردله الممتلىء بالماء فرصةً مريحة لاستراق النظرات من بعيد دون أن تلحظ ذلك العيونُ الخبيثة التي يقدّر في باطنه أنها تتلصص خفيةً من داخل جبوبها المجهولة المعتمة . لكنه رجع من الورشة خائب الرجاء ، كسير القلب . وشعور قديم يجثم على حواسه ويملك زمام دخيلته فيملأها خوفًا وتوجسا .

وفتح الباب ، ودخل ووضع الجردل في ركن ، ونشّف يديه . ورمق بطاقة الدعوةَ الملقاة على مكتبه بنظرة ساهمة ، ثم تناولها وقلّبها بين كفّيه ، ثم فضّها وقرأها . كانت البطاقة في لون وردي فاتح قال لنفسه :

« متى أتحرر من ذُلِّ الشوق الظامئ ؟ . . متى ؟ ! » .

★ ★ ★

وفي تمام الساعة الثالثة بعد الظهر ، أغلق دكانه إغلاقًا تامًا تأكد من إغلاق القفل بإحكام . ومشى في الشارع وهو يسمع هرجَ الناس ومرجهم . . وهرع يبحث عن سيارة أجرة ، وسرعان ما استقلها عائداً إلى مسكنه في حي « امبروزو » ! .

الفصل السابع عشر
القلب سيد اللسان

فى صباح اليوم ، فتح دكانه مبكراً ولحظ أن قطع الملابس التى نشرتْها على حبال شرفتها ما تزال فى مكانها تعبث بها رياحُ الشتاء . وتوقفتْ عربة « كارو » يجرّها حمار ، أمام دكانه محملة بالسلع فى صناديق وعلب . دبَّ فى كيانة نشاطُ وحيوية . وجد نفسه شابًا خفيفًا يمتلىء غضارة وفتوة ، مَّيالاً للأخذ والرد فى الكلام مع الحوذى الشيخ وتابِعه ابنه الشاب ، ومع كل زبائن الصباح وساعة الظهيرة .

وبعد أن أدى صلاة الظهر ، هدأتْ حركته ، واستكان لصمته المعهود . اعتكف فى ركنه بادى التفكر بعد أن غادرتْ العربةُ عتبة بابه ، رأى الحبال خالية تماما ، فمتى خرجتْ إلى شرفتها ؟ ! .. وتذكر الليلة التى نام خلالها فى الدكان حتى قبيل الفجر . تذكر كيف ظلتْ قطع ملابسها منشورة منذ العصر وحتى الفجر . ولما رجع من المسجد يومذاك من بعد الفجر لم يجدها منشورة ، إذ ذاك تساءل : « إذن قامت بلمّها فى تلك الساعة التى تكون فيها الدنيا كلها نائمة ، وهى صاحية ؟ ! هل تظل صاحية طوال الليل ؟ وكيف تقضى ساعات ليلها الطويل ؟ أتقرأ ؟ أم تستمع إلى الراديو ؟ ! هل تمكث بين جدران شقتها طوال الليل ساهرة مؤرقة كما هى حاله أغلب هذه الليالى ؟ ماذا تفعل فى الليل والنهار أرملةُ جميلة وحدها فى شقة قديمة .. فى بيت يحوم فيه شبحُ مالكه الذى ذُبح بيد ابنه ؟ أتراها تفكر فيكَ يا حسان ؟ أو على الأقل ، هل هى تفكر فى الموعد ؟ ألم تقل لك « قريبا بإذن الله » .. قريبا نلتقى ونتحدث ! ..

ومَّرتْ بقلبه سحابةُ من الكآبة ، ما لبثت أن انقشعتْ عندما سحب الكتابيْن من الكيس ، وعندما خطر له أنهما ساعة اللقاء قد يستغرقان فى الكلام عن محتوى الكتابين ، فأخذ يرمق بإعجاب غلاف أحدهما الملوّن فى رسوم رقيقة جميلة ، ثم طفق يطالعه بأناة . أخذ يقلّب الصفحات ، ثم اختطف مطالعته اختطافا . وما أن اكتفى بما طالع منه حتى ردَّ الغلاف ومسح عليه براحته فى رفق . وكأن الكتاب جناح حمامة

ملائكية يغرى ريشُه الأبيض المخملى باللمس ، فمسَّ بياضَه النقى الوضّاء بأطراف أصابعه كما النسمة الربيعية الحانية وأعاد الكتابين داخل الكيس ، وفتح درج مكتبه . وعبث بأوراق صغيرة ورصَّ بعض النقود . ونظر إلى ساعته وأخرج من جيب معطفه الداخلى زجاجة صغيرة وجذب سدادتها ووضع طرف سبابته على فوهتها ، فتصاعد عطر الياسمين .. ومضى الوقت . وأدى صلاة العصر .. ولم تأت .. قالت له : « قريبا .. » . قال لها : « .. أغلب وقتى فراغ خاصة ساعة العصر أو بعد صلاة العشاء .. » ... ودخل زبائن . وكان يحرص - كلما جرَّه زبونٌ إلى الكلام - على ألا يجاريه خشيةَ أن ينزلق معه فى ثرثرة تطول فال يتمكن من الفكاك من إسارها فى سهولة ، أو قد يتكدر دمُه أو يتشوش ذهنُه فتختلط الأمورُ المرتبة فى دماغه كان توقعه بديهيًا . الزبائن طوال النهار يثرثرون ، فهم يحبون الكلام ، ولديهم من الظروف الخصبة والجوّ العام المتوتر ما يلهم ويوحى ويدفع إلى الثرثرة . لكنه فى هذه الساعة أطبق فمَه ولاذ بالصمت ، فصان دماغه من الصداع ، وصدره من وجع القلب . أما القلب نفسه فكان مستكينًا بين الضلوع الحريرية ، سلطان زمانه ، متنعما بالأمل ، متوحشا بالشوق اللذيذ .. ومضى الوقت ، وانقضتْ ساعةُ المغرب التى تكثر خلالها أقدامُ الزبائن فى دكانه ، طلبًا لحاجات العشاء .. ولم تأت ! ظل جالسًا ، لا يرفع عينيه عن باب بيتها المظلم . حفظ فى ذاكرته كلَّ ما كان يتراءى لعينيه من معالم الباب الذى كان من فرط إدامته النظر إليه يتطوى تارة ، ويغيم فيتلاشى فى الحلكة تارة أخرى ، تارة ثالثة يقع فى بؤرة العين الواحدة ويتباعد فيبدو وكأن أطرافًا من ثوبها الأسود توشك أن تظهر فى تلصص - ثم رآه فى لحظات لاحقة وكأنه شقّ قبر مفتوح ثم هو أشبه بباب مخزنه ... وحاول أن يستجمع فى رأسه من جديد بعض الكلمات والأسئلة التى كانت تزاحمها صورةٌ مقتحمة أو يشتتها خاطرٌ داهم أو شعور جامح أو أنفعالٌ طارىء ... وردد فى همس : « يا أرحم الراحمين » ! وفجأة رآها ! .. رآها تخرج من باب بيتها وتتجه نحو دكانه بخطى وئيدة ، خافضة الرأس ، ومع ذلك ، كان مطلعها يشعّ وهجًا جذابا . ونهض يستقبلها بترحاب حارصافحها مبتسمًا كطفل :

- « أهلا ... أهلا ... مساء الخير ياست هناء .. » .

- « مساء النور ياعم حسان » .

وتبادلا كلمات متناثرة بتأدب رقيق ، وجملا غير كاملة مما يستهلك عادة ، وفى ظاهر الأمر ، لغرض التحية ، إلا أنها كانت وسيلة لفكّ عقدة البداية فى حبل الكلام ، وسبيلاً يمهد لهما توثيق الكلام بينهما . ثم حكى لها فى كلمات عابرة كيف قضى وحده حبيس شقته ، ساعات فرض حظر التجول الأربعة عشر ، من الساعة الرابعة بعد ظهر الأربعاء وحتى السادسة من صباح الخميس ، ساعة أن تنفس كلُ الناس الصعداء ، وكيف بدتْ المدينةُ مرعبة رهيبة مثل قرافة مهجورة . . فقالت له بارتياع :

- « أما شارعنا هنا ، فكنتُ أراه من خلف نوافذى كما هو فى سكونه ووحشته ، إلا أنه خَلاَ تمامًا من كل إنسان حتى من الأطفال والقطط والكلاب . . أعوذ بالله ! » .

- « وكم كنتُ قلقا عليكِ أشد القلق ! » .

ومدَّ إليها فى رفق وابتسام علبة الشيكولاته الفاخرة قائلاً :

- « شئ بسيط متواضع ، أقل من أن يُهدى . . أرجو قبوله ! » .

فابتسمت عيناها تحت رموش وطفاء ، وهزَّتْ رأسها هزّة من يفعمه كرم الكرام ، وقالت :

- « هدية عزيزة مقبولة . ويعجز اللسان عن الشكر » .

فقال بلطف :

- « أشكرك على حُسن قبولك » .

وكاد يندفع إلى كلمة ، فابتسم طلبًا للروية ، ثم قال :

- « وكيف تقضين وقتك فى البيت ؟ » .

- « أقـوم بتنظيـف الشقـة وترتيبهـا . أنصرف إلـى شُغـل « الكانفاه » أو « التريكو » . أقرأ اسمع الراديو . أنظر من خلف النافذة . أنام » .

فقال بفرح :

- « على فكرة ! وبمناسبة القراءة . كنتُ ماراً بالقرب من إحدى المكتبات فاخترتُ لك هذيْن الديوانين » . وسحب من داخل الكيس الكتابيْن وقدمهما إليها قائلاً برقة :

- « من الشِعر الحديث . . . » .

- « الشعر الحديث جميل . . . » .

- « قرأتُ ثناء عليهما في « الأهرام » . . ولم أشأ أن أثقل عليكِ بالشعر القديم ، وأصارحك بأن القديم أفضل عندى من الحديث » .

- « رأيى أن الشعر واحد ، سواء كان قديمًا أو حديثا ، لكن الحديث أسهل . والأهم أن يكون صادقا » . وقطّب حسان فى إعجاب وسكت مبتسمًا . وأطرقتْ تطالع غلافَ الديوان الأول ، على حين انصرف هو يتأمل جبينها العريض المنير وشعرها المتوهج المسترسل . ورددتْ بإعجاب عنوان الديوان :

- « (أفراح البيت الصغير) . . إختيار موفق ! » .

وأشرق قلبه . فقال :

- « الشاعر فيما يبدو لى يحلم ببناء عالم سعيد وسط عالم مضطرب يسوده الخوفُ والاكتئاب » .

- « الإنسان يعرف الخوف منذ عهد آدم » .

فقال متفكها :

- « الأصح ، أن الخوف كان منذ عهد حواء » .

فقالت متضاحكة :

- « إذن كان الخوف منذ عهد حواء بسبب بطش آدم ! » .

وأخذتْ تقلب صفحات الديوان الثاني :

- « صاحب الديوان الأول يحلم . أما الشاعر صاحب هذا الديوان ، أيمكن الحكم عليه بأنه متشائم من عنوان ديوانه ؟ » .

- « ربما ، فهو يتصّور أن زورقه قد غرق ، وأن حطامه يطفو على أنهار الجنة . . » .

- « مفارقة غريبة من الشاعر . لكن جنّته بالتأكيد ليست جنة الله التى كلها أمن وأمان وطمأنينة ! » .

- « حقًا ، إن حسّ التذوق للشعر طبع ولا يكتسب بالتعليم أو سعة الثقافة . فهل لى أن أسألك : ما هو مؤهلك ؟ » .

- « حصلتُ على الثانوية العامة ثم دبلوم معهد السكرتارية . وكنتُ موظفة بإحدى الشركات .. » .

وجرى بهما الحديثُ فى مجرى آخر ... حتى قالت :

- « لكن زوجى .. المرحوم .. صمم على أن أقدم استقالتى من وظيفتى ، ففعلتُ وتفرغتُ للبيت ! كان ميسور الحال ، صاحب مكتب استيراد وتصدير بالمشاركة مع شخص آخر . كما كان موظفاً فى نفس الوقت بإحدى المؤسسات . » .

- « من الصعب أن يجمع المرء بين الوظيفة وبين العمل الحر ، أنا لم أطق قيود الوظيفة ، فقدمتُ استقالتى . لكن بودى أن أسألك سؤالاً : هل حدثتْ قطيعة بينك وبين أهل المرحوم زوجك ؟ » .

- « الخلاف كان بينى وبينهم قبل وفاة زوجى ، واستمر سبعة شهور بعد وفاته

حتى هجرتُ بيتَهم وهرعت إلى مسكن أمى هنا .. » .

- إذن ، كنت تعيشين فى بيت واحد مع أهل زوجك ؟ » .

- « بيتهم عبارة عن « فيللا » صغيرة تتكون من طابقين تضمّ أمه وشقيقه وشقيقته . » .

- « لكن ، ماسبب هذا الخلاف ؟ » .

فقالت بصوت متهدج :

- « السبب أنهم قوم أثرياء وأنا رقيقة الحال .. » .

وأمسكتْ عن الكلام ثوانى ، فندم على سؤاله ، إذ لمحها وقد احتقن وجهُها حزنًا . لكنها أضافتْ بصوت شبه مختنق :

- « وكم عانيتُ من شقيقة زوجي الأمرين ، فهى عانس حقود ، عاطلة من أى جمال ، كما كانت أمه تعيّرنى دائما بفقرى تحملتُ عذاباً منهما عذاباً لا يوصف . حتى عاد شقيقُه (وصفى) من الخارج فور انتهاء مدة بعثته . وزاد الطينُ بلّة أنه .. » .

وازدردتْ ريقَها وأضافتْ :

- « إنه شخص لا يُطاق . كان هو السبب المباشر الذى دفعنى إلى هجر بيت زوجى .. » .

- « وأين موقعه ؟ » .

- « بيتهم فى حى « الإبراهيمية » من آثار الأحياء الراقية . أما أنا فأنحدر من حى المعدمين البؤساء ، حى « غربال » حيث كنتُ أعيش مع أمى - وبهذا كانت أمه وشقيقته تعايراننى ! » .

وتوتر صوتها . ولكنها ضبطتْ أعصابها ، وكأنما كانت تود أن تفرّ من إسار الحديث الدائر بينهما ، فسكتتْ وسمعته يقول لها :

- « كلامهما هذا كلام أناس ضعفاء النفوس . كنت تعيشين مع المرحومة والدتك هناك قبل زواجك ، ووالدك ؟! » .

- والدى ! والدى مات وأنا طفلة . » .

وران صمت ثقيل أشبه بلحظات الحداد . واستبد به ضيقُ واستياء من نفسه أشدّ الاستياء ، إذ شعر أنه مسئول عن إثارة المواجع نتيجة لأسئلةٍ كدرتْ الجوَّ بينهما وعكّرتْ صفوّهما . وأدرك أنه أسرف فى حب الاستطلاع فشعر بالخجل إلى حدّ الخزى . اندفع بفضول وبلا وعى إلى إحراجها . ورآها غائبه فى ذهول غريب وصمت حزين . قال لها هامساً :

- « آسف .. آسف جدا أن الكلام جرّنا إلى الأحزان . » .

فغمغمتْ بسماحة :

- « وما ذنبك أنت ؟ .. أنا .. قلبى يتقطع لأننى تذكرتُ الآن كيف ضاع عمرى نهباً للخوف والهوان .. » .

فقال على الفور :

- « ضاع عمرك ؟ ! كفى الله الشّر ياست هناء . بارك اللهُ فى شبابك وصحتك . أزعل أن أسمع منك كلاما لاشك يؤثر على أعصابك وحالتك النفسية .. »

فقالت ملتاعة :

- « الخوف قَدَرى ! » .

تكلّف الابتسام ليشجعها على الخروج من أساها الطارىء وقال :

- « استعينى بالله أولا ... » .

- « الحمد لله . لكن الخوفَ قَدرى ومصيرى حتى يأتى الله بالفرج ! » .

ولم يفهم ما تعنى بالفرج قطب فى تساؤل . ظل ساكناً مطرقا ، ثم سمعها تستطرد بأسى :

- « أتمنى أن أسعى بعد أن أخرج من محنة خوفى من الوغد الذى يتهددنى بمطاردته .. بمراهقته .. أنا أسعى لإعادتى موظفة فى الشركة التى كنتُ أعمل بها .. أو أسعى للحصول على أية وظيفة فى أى مكان ! .. » .

وشعر بانكسار قلبها فتكدر أشدّ الكدر . لكنه ظل محتفظا بالابتسامة العريضة العضلية ، وقال بثبات :

- « ست هناء ! ؟ . لدى رأى ! . أتسمحين ؟ ! » .

- « تفضل ... »

فقال بشىء من الحماس :

- « بل هو طلب ! . وفى رأيىّ أن هذا الطلب ينطوى على الخير بإذن الله .. الخير لكِ ولى .. »

فتساءلتْ :

- « خيراً ؟ ! » .

- « بل فيه الفرج إ وإذا شاء الله فهو أمر الله .. » .

وبسمل فى همس ، ثم قال بثبات :

- « عهدتُ فيك الصدقَ والصراحة ورقة القلب ، ولذلك ياست هاء أفاتحك بطلبى الآن بصراحة وبوضوح . وآخذ فى اعتبارى قبل كل شىء ظروفك ، واحترم حزنَك وذكرى المرحوم ... إننى أطلب يدك للزواج ! . » .

كانت مطرقة وهى تستمع بانتباه . ولما سكت ، لم ترفع رأسَها . ولم تنبس بكلمة . نظر إليها بقلق وشغف ، وقلبه يدقّ صدرَه وصدغيه . وساوره خاطرٌ غريب شعر كأنه فى جمع من قوم أصلاب يحاكمونه متهمًا بتهمة شنعاء ، وهو يدافع عن نفسه موزّعًا بين اليأس والأمل قبيل لحظة النطق بالحكم الرهيب ، وكأنه ، فى نفس اللحظة أيضا ، يعرف منطوقَ الحكم مسبقًا ، بل هو يشعر شعوراً عميقًا فى هذه الثوانى أنه مسوق بقبضة جلاد تمسك برقبته إلى منصّة الإعدام . بالرغم من ذلك كله كان يستطرد قائلا :

- « والزواج إيجاب وقبول . . ! » .

فسمعها تقول :

- « أنت أكرم مَنْ عرفت ، وأطيبهم خُلقًا . . » .

- « فلا داعى أن تحملى نفسك ما فوق طاقتك . ولا داعى لعودتك لمشاق الوظيفة ومتاعبها . . لا داعى للإرهاق . . وإن شاء الله ، فلندبر أمورنا لبناء عشٍّ يضمّنا وذلك بعد انقضاء عام الحداد . . » .

- « كل شيء قسمة ونصيب يا عم حسان .. »

- « الزواج إيجاب وقبول ! و حتى نعّد العدة منذ الآن على النيّة السليمة الصادقة والعزم المبارك من الله أرجو .. أقصد ليس بيننا أطراف من الأهل أو الأقارب .. ولكن الله وحده سميع بصير . فلا أدرى هل أنت صراحة موا .. »

فقاطعته مقاطعة ملؤها اللطف والرقة ، إذ مدّتْ راحتَها الجميلة كجناح طائر السلام ، ورفعتْها بالقرب من شفتيه ، حانية مبتسمة ، فسكت فى رجفة . رفعتْها لحظَة فتاهتْ حواسُه فى خدر شذاها .. ثم أفاق من سحرها على صدى صوتها يترنم به قلبه الحالم :

- « وإذا قال القلْب نعم ، فالقلب سيد اللسان .. »

ومع أنها سحبتْ راحتهَا إلا أنه لم يفق تماما . وكانت ما تزال تستطرد :

- « .. واللسان إذا أطاع أو عصى فالقلب منزّة عن هذا وذاك .. نعم - بعد عام الحداد نتدبر أمورنا على بركة الله .. » .

دخلت قلْبه كلمةُ « نعم » فركض فى نعمةٍ وارفة .. ولم يلمحها وهى تدارى بكفِّها الناعم طيفَ ابتسامة !

الفصل الثامن عشر
ساعة مع شعبان أفندى

وافترقا مرة أخرى على غير موعد ، اذ أترع القلب بالقرب ، ووعى أن اللقاء مستمر وأن الدنيا بدأتْ تضحك . وكانت الساعةُ قد بلغتْ حوالى التاسعة مساء ، فشعر بالرغبة فى المشى بعض الوقت والتحدث إلى أحد مَنْ يعرفهم . وشجّعه على ذلك أنة تذكر فجأة أن صديقه « شعبان أفندى » مدّرس اللغة العربية قد وعده منذ أسبوع بالمجىء إلى دكانه بعد مغرب اليوم . وعلى الرغم من أن المدارس معطلّة فإنه يعرف أن مدرسة الحى ، « مدرسة الشيخ محمد عبده » فى مثل هذة الظروف وفى العطلات لا تغلق أبوابَها عادة دون معلميها الذين يترددون عليها لإنهاء أعمالهم أو هكذا تعودوا . .

خطر له أن يذهب هو إليه ليسأل عنه ويجلس معه ساعة . وهذا أفضل ، فقد يجئ صديقُه إلى دكانه فجأة وهو يشعر شعوراً غامضًا أن جلوسهما معًا هنا فى الدكان وفى هذه الساعة سيبعث فى نفسه ظلالاً من الكآبة أو قد يزايله صفاءُ ذهنه أو هدوء باله . لم يستطع أن يسبر غورَ توجسه هذا ، إلا أنه وجد نفسه يؤثر مغادرةَ الدكان والمشى قليلا فى الهواء الطلق المنعش فى هذه الليلة الشتوية الصافية . أبصر نجوما وامضة فى السماء فوق السور العالى المواجه الذى تتكدس من ورائه بضائعُ جمركية كثيرة ، فاستحثه هذا المشهد على النهوض . شعر أنه مدفوع إلى صديقه « شعبان أفندى » الذى يولع بالحديث والتنكيت . لم يطق المكوثَ ، واستبدّ به تململُه وشغفُه بالحديث مع صديقه والاستماع إليه فى حجرة هادئة تطلّ على فناء المدرسة . أدرك أن هذه الجلسة ضرورية له . ولعله يسترجع ما دار من كلام بينه وبينها ، ويراجع ما أثير من أمور ، ويفحص ما كان سببًا للتكدر ، ولعله أيضا ينعم بفرحته ويشحذ همّتَه الخاملة وشجاعته النائمة للمضى بثبات ووضوح فى طريق جديد نحو عشّ الأحلام . فأغلق بابه ، ولم يرفع رأسه إلى نوافذها . واتجه صوبَ المدرسة التى كانت تقع على بُعد كيلومتر تقريبا من دكانه .

وهناك ، اجتاز الفناء الغارق فى هدأة المساء ، ودخل الحجرةَ التى تعوّد أن يزور صديقه فيها بين حين وآخر . ورآه داخلها مكبًا على مكتبه الخشبى القديم يصحح كومة من الكراسات . وما أن لمحه حتى نهض رافعًا ذراعيه مرحبًا . وتعانقا بحرارة . وبادره صديقُه بالاعتذار عن تخلفه فى الحضور إلى دكانه ، قائلا :

- « والله يا حسان أنا لستُ مقصراً ، وليس السبب هو انشغالى هنا . فإن تعطل الدراسة أتاح لنا الفرصة لالتقاط الأنفاس . والحمد لله أن مدرستنا بعيدة كل البُعد عن شبهة الشغب . ليس لنا دخل فى هذا الشغب . . السبب هو أننى غارق طوال اليوم تقريبًا فى مشكلة أحد زملائنا المعلمين (برهام أفندى) ، مدرّس الحساب . أظنك تعرفه ؟ » .

- « أعرفه . . . » .

- « مشاكل فى بيته ! » .

ونحى (شعبان أفندى) بيده كومةَ الكراسات جانبًا . ورأى حسان فى ركن بعيد أحد زملاء صديقه يهمّ بالانصراف . وصفق (شعبان أفندى) قائلاً :

- « لنشرب الشاى أولاً . . . » .

فسأله حسان مبتسما :

- « وثانيا ؟ ! » .

فقال الرجل متضاحكا :

- « وثانيا : ندردش ونفرج عن نفسينا بقليل من الضحك ! ولكن قبل كل شيء ، دعنى أشكرك وبالنيابة عن أسرة المدرسة على مساعيك الخيرية ، وأنت وزميلنا « الشيخ عبد المقصود » الذى جمع بنفسه مزيداً من التبرعات . . أما عن الضحك فلا تحدث ! أتستطيع آن تتحدث فى نفس اللحظة التى تضحك فيها ؟ ! » .

فقال حسان مبتسمًا :

- « سؤالك مضحك ! » .

ثم قال بعد لحظة :

- « مضى الزمنُ الذى كنا نضحك فيه من القلب ! » .

- « لكل زمن مذاقه . وفى زمننا اليوم نضحك من البطن ! » .

كان به توق للمرح . وصديقه إنسان بشوش الوجه . ساخر بسيط . صريح . يتمتع بصفات قد تنقصه ، خاصة فى هذه الساعة . ودخل عليهما ساعى المدرسة يحمل كوبيْن من الشاى . وأشعلا سيجارتين . واحتسى حسان حسوةً من كوبه ، ثم سأل صديقه :

- « ما حكاية (برهام أفندى) ؟ »

- « شَرُّ البليّة ما يضحك . حدثتْ مشادةُ بينه وبين زوجته (القرشانة) ، وألقتْ من نافذة بيتهما مجموعةً من كراسات التلاميذ إلى الزقاق ، فأمسك بمكنسة وضربها ، فانتابتْها نوبةُ هستيرية من الصراخ والشتائم . وهو يعرف أنها إذا جنَّ جنونها تضرب ضربًا أعمى ، فأخذ ذيلَه فى أسنانه وهرب من الشقة ، لكنها لحقتْ به على السُلم وقذفتْه بغطاء حلَّة شجَّ صلعتَه ونزف دمُه ! » .

- « لا حول ولا قوة إلا بالله . » .

- « وعلمنا بالحادث وأسرعنا إلى المستوصف حيث أُجريتْ لجُرحه عدَّه غُرَز » .

وقهقه الرجلُ حتى دمعتْ عيناه وحسان يشاركه الضحك ، ثم تنهد واحتسى حسوتين من كوب الشاى ، وقال وهو يدخن سيجارته :

- « والله يا حسان ، صدقنى ، ليس فى زماننا هذا إنسان مرتاح ! » .

وصمت الرجل برهة ، فانتهز حسان الفرصةَ وسأله :

- « لا المتزوج ولا العزب ؟ ! » .

- « بصفتي متزوجًا أقول لكَ أن المتزوج مهموم بألف همّ ، أما العزب فحمله خفيف . ليس مسئولا إلا عن نفسه ! » . فقال حسان وهو يمهد لطرق موضوعه :

- « ونفسُ العزب تنوء بألف هَم ! خصوصًا إذا كان فى مثل حالى وظروفى ! » .

- « أنتَ تقول هذا الكلام لأنك تحلم بالزواج والْحلم يجمّل الواقع ! » .

- « أحلم بإنجاب أطفال . تقتلنى الوحدة . إذا مرضتُ لا أجد صدراً حنونًا . والــزواج نصــف الديــــن . . » . ثم قرّب فـــاه من أذن صديقــه وأكمل هامسًا بأسى وشجاعة :

- « وبصراحة ، ولا أخفى عليك . الحرمان يذلّنى فى صحوى ومنامى ! » .

- « أنت تقول الصدق ! وشعورك بالصدق يرمى بك إلى أرض أخرى يصوّرها لكَ خيالُك الحالم المعذب ملاذاً وخلاصًا وجنةً ، ثم ما تلبث أن تصحو وتفيق بعد ليلة الزفاف ، أو بعد أسبوع العسل على الأكثر ، فتكتشف أنك فوق بركان ثائر أو على أرضٍ ملغّمة بالقنابل ، لا قدّر الله . . أنا لا أخّوفك . . هاها . . هاها . . . لكن ، المشكلة : أين هى بنت الحلال فى زماننا الحرام المعوّج ؟ وهل توجد بنت حلال فى الدنيا كلها اليوم ؟ ! » .

ونظر حسان بطرفٍ خفى إلى الركن ، فتأكد له أن زميل صديقه قد انصرف من الحجرة ، فشعر بارتياحٍ غامر أنهما أصبحا وحدهما . وكاد حسان يفصح له عن عروسه الجميلة ، إلا أنه تناول كوب الشاى ، وأخذ يرتشف منه مداريًا تردده . ولمح حسان صديقه وهو يبتسم أبتسامة غامضة ويقول :

- « نعم ، إذا بانتْ لكَ بنتُ الحلال فاسرع وتمتع بالدنيا يومين ، فكل من عليها فان . لكنى أحدثك عن ظاهرة ملموسة تتجسد فى حوادث وجرائم تقع في مجتمعنا هذه الأيام » .

- « فى كل زمان تقع الجرائم يا شعبان » .

- « جرائم زماننا يرتكبها الآباءً والامهاتُ على السواء . والأطفال ضحايا . ألستَ معى فى أن إنجاب الأطفال اليوم حرام ؟ ! . . دَعْك من أسباب الجرائم ومبرراتها . فهى غير خافية ولكن كل هذا لا يثنيك عن عزمك . تزوج . . تزوج وتمتع يا عم ! » .

ثم أضاف متضاحكًا :

- « لكن إذا استغثتَ بى يومًا ما وصلعتك تغطيها « باروكةٌ » من الشربات الأحمر فلن . . . » .

ولم يكمل ، إذ جلجلتْ ضحكاتُهما ، ثم رانتْ دقائقٌ من الصمت . ونظر حسان نظرةً خاطفة إلى ساعته وتململ قليلا . وهنا سأله صديقُه مبتسمًا فى خبث :

- « لكنك لم تقل لى بعد ؟ . . أم أراك تعاملنى بطبعك الكتوم المعهود يا ماكر ؟ ! أنتَ إذن عزمتَ على الزواج . فَمنْ هى العروس بإذن الله تعالى ؟ ! » .

فابتسم حسان ، وهزّ رأسَه قائلاً :

- « أبداً والله ، فأنا لا أخفى عليكَ سرّاً يا شعبان أنتَ تعرف كم أحبك وأثق بك » .

فقال الرجل ممازحًا :

- « صُمتَ دهراً فلا تفطر ببصلة ! » .

فاندفع حسان قائلاً باعتزاز :

- « حاشا لله . . أتعرف مَنْ هى ؟ . . هى . . » .

فقاطعه صديقُه ناظراً إليه مَن تحت حاجبيه الكثيفين فى خبث وزهو :

- « أعرف ! » .

- مَنْ ؟ ! » .

- « هى جارتك . الساكنة الجديدة أمام دكانك . البيضاء الطويلة . . غزال ! هنيئًا لكَ يا حسان . . أعرف طبعا . . هى ملكة جمال بلا شك . أتظننى غافلاً عن أخبارك أو كالزوج آخر من يعلم ؟ ! » . عقلتْ المفاجأةُ لسانَه ، فنظر إلى صديقه نظرةً طويلة متعجبًا . ولما ظلَّ (شعبان أفندى) صامتًا متأملاً وجهَ حسان ، قال هذا بدهشة :

- « كيف عرفتَ ؟ » .

- « يا حسان يا أخى . عندما دخلتْ السيدةُ جارتك شارعكم بجمالها الباهر منذ شهرين تقريبا فى « عزّ نوة المكنسة » جذبتْ إليها أنظارَ الجيران وفتحتْ شهيةَ حبِّ استطلاع الناس . وهى أرملة وتسكن وحدها شقة مهجورة . يقولون أنها غريبة الأطوار قليلا . . أهذا صحيح ؟ ! » .

- « أبدا . . . » .

- « وأنها تدخل دكانك وتخرج منه كزبونة طبعا . . لا تؤاخذنى يا حسان ! ولكن الناس لا تترك أحداً فى حاله . فضول غريب من نساء الشارع خصوصًا . . فأنتَ عزب وهى أرملة . أنتَ عطشان للزواج . والأرملة الجميلة لا تلجأ إلا اليكَ لحلِّ مشاكلها . . أعرف أخبارك ، فأنتَ سعيتَ لإعادة الكهرباء والماء إلى شقتها ، كما أرسلتَ إليها فى الأيام الأولى من مجيئها امرأةً نظّفتْ لها مسكنها وهذه تعمل « فرّاشة » عندنا هنا فى المدرسة . . هل نسيتَ يا حسان ! واستنتج بعضُ

جيرانك من ترددها عليكَ وجلوسها معك فى دكانك احتمالاً كبيراً هو أنك قد تتزوج منها . فأنتَ عريس وسيم وموظف سابق محترم وتاجر كسَّاب . ولا بد أنك مدخرُ تحت البلاطة « تحويشة » العُمر والنساء يحببن الرجلَ الميسور الكريم . . هذه هى كل أخبارك على حدّ علمي . فهل هذا لاستنتاج صحيح لأقول لك : « مبروك » . ولكى أستعد منذ الآن للتشرف بالشهادة يوم عقد قرانك . . » .

- « مَنْ منا الماكر ! ؟ » .

وتوهج قلبُ حسان فجأةً بنور فرح غريب استخفّه طربُ حلمه العذب . فقال لصديقه بعزم الرجال :

- « هذا صحيح بيني وبينك وإذا لم تكن أنت أحد شاهدىْ عقد قراني ، فمَنْ يكون ؟ ! » .

ولكن . . ولكن الست . . . » .

وأمسك بغتةً عن ذكر اسمها . وازدرد ريقَه ، ثم قال بلا تردد :

- « ولكننا نرى أن الزواج بالطبع لن يتم إلا بعد انقضاء عام الحداد على المرحوم . . وذلك عين العقل . . . » . وبعد أن نطق بهذه الكلمات ، شعر فجأة أنها تنطوى على سرٍ له قداسته فى ضميره ما كان له أن يبوح به بكل هذه البساطة . وسأله صديقه :

- « ومتى تخلع هى سلابَ الحزن ؟ ! » .

- « بعد شهرين ! » .

- « إذن بعد شهرين تصبح عريساً ؟ مَنْ كان يصدق . . سبحان الله . . . » .

وقال حسان وهو ينفث سحائب الدخان فى فضاء الحجرة :

- « وعلى فكرة ! هى ذوّاقة للشعْر بذكاءٍ وجدانى حساس ! » .

- « عظيم ! » .

- « ويعجبنى فيها صدقها وصراحتها وسماحة قلبها » .

- « يا قلبى ! يا عينى ! » .

فسكت حسان ، وإذا ذاك تحدث صديقه إليه حديثًا على هامش الموضوع . . ثم ما لبثا أن انخرطا فى الكلام عن ارتفاع الاسعار والأحداث الجارية - ثم شعر حسان فى دخيلته بزُهد فى الكلام . ونضبتْ نفُسه من رُوح الفكاهة التى سعى إليها عند صديقه المرح ، كما تخللتْ جلستهما فترات من الصمت متقطعة . خطرتْ له فى أثنائها خواطرُ متشائمة وتساؤلاتُ كئيبة . وتشكك فى أن تكون سنُّه غير مناسبة للزواج ! فأحسّ بضيق يكاد يبلغ به حدّ الاختناق فقال وهو ينهض متكلفًا الابتسام مرة أخرى :

- « أشكرك يا شعبان على هذه الجلسة اللطيفة . وأرجو ألا تحرمنى من لقياك . » .

فقال الصديق متفرسًا فى وجه حسان متضاحكا :

- « عفواً . وألف مبروك . قُلْ لى : أليس للست الهانم شقيقة حلوة مثلها تناسْبنى لأكمل أنا أيضًا نصف الدين ؟ ! . . » .

فهزّ حسان رأسَه مبتسمًا تجاوبًا مع دعابة صديقه :

- « يا رجل ! بارك الله لك فى زوجتك وأولادك . . » .

- « زوجتى ! زوجتى شيطان بعيد عنك . ومَنْ يعاشر الشيطان ، هل تتوقع له أن يعيش فى جنة ؟ ! أعيش فى نار . . » .

فقال حسان مبتسمًا وهو يصافحه :

- « إذن لك الجنة فى الآخرة . . » .

فقال « شعبان أفندى » مقهقًا :

- « أما أنت فلكَ الجنةَ فى الدنيا وفي الآخرة ! » .

الفصل التاسع عشر
الاعتراف

ظُهر اليوم التالى ، فى أثناء وجود عدد من الزبائن داخل الدكان ، رأى حسان من وراء رخامته جاره (سيد عليان) التمرجى مندساً بين الواقفين ، ثم أبصره وقد جلس على الكرسى الملاصق لمكتبه ، ومكث فى مكانه منتظراً حتى يفرغ من زبائنه . قال له محيِّيا وهو يقطع بسكينه قُرصًا من الجبن التركى خلف الميزان :

- « كيف حالك يا عم عليان ؟ » .

- « الحمد لله كيفك أنت يا عم حسان ؟ » .

- « عال . الحمد لله » .

ولمحه حسان من مكانه يقلّب بين كفّيه بطاقةَ الدعوة إلى حفل زفاف ابن المعلم (هلال الدرديرى) ، وكانت ما تزال ملقاة على المكتب . كان من الواضح أن الرجل لا يريد أن يفصح عن طلباته إلا بعد أن يغادر الدكانَ كلُّ الزبائن ، سواء مَنْ دخلوا قبله أو بعده . وشعر حسان أن وراء الرجل أمرًا ما . ولما فرغ من زبائنه وخَلاَ الدكانُ منهم ، جاءه يقول :- « عاش من رآك يا رجل . أقرب الجيران إلى دكانى ولا أراك فى الشهر إلا مرة أو مرتين . »

- « أعمل فى المستشفى ليل نهار كما تعرف . وتأخرتُ فى الحصول منك على تموينى الشهرى . اليوم وجدتُ الفرصة متاحة ، فجئتُ لآخذه . . . . »

- « ربنا يقويك . . »

- « والله نادراً ما أنام فى بيتى بسبب « نوبتجيات » العمل ، وبسبب زوجتى لنكدة و المتاعب التى يثيرها كلامُها بإيعاز من أهلها الطمّاعين . كل النساء متعبات ينقصهن العقل والدين . أنت رجل عاقل . إياك أن تتزوج من أى امراة ! . » .

فقال حسان ضاحكًا ضحكة مفتعلة مداريًا قلقه الطارىء :

- « تنصحنى ألا أتزوج من أى امراة ؟ ! »

فقال الرجل بلا تردد :

- « آ .. طبعا .. وعروستك لابد أن تكون طيبة وصالحة مثلك ! »

فقال حسان مازحًا :

- « أعندك عروسة لى ؟ ! »

هرش (سيد عليان) شَعْرَ رأسه الفضى القصير ، ثم قال بخبث :

- « عندى ! »

ورآه حسان يشير بأصابعه المشوّهَة إلى بطاقة الدعوة ويقول :

- «العاقبة عندكم فى المسرات . أى مسرات؟.. هل نويتَ حقًا أن تطلق حياةَ العزوبية ياعم حسان ؟ ..

فقطب حسان حاجبيه الوسيمين وبسط البطاقةَ تحت عينىْ الرجل قائلاً :

- ألم تعلم ؟ ! هذه بطاقة دعوة من المعلم (هلال الدرديرى) صاحب وكالة الخضر والفاكهة ليلة زفاف ابنه (سالم) مساء الخميس القادم . »

وقام حسان وجهّز التموين المطلوب للرجل الذى وقّع بالاستلام فى السجل . وأخذ حسان حسابه ، ولكن الرجل أسند قراطيسه إلى الحائط فوق المكتب ، وعاود سؤاله فى مكر :

- « أحقًا ، نويتَ الزواجَ ياعم حسان ؟! »

فقال حسان بتوجس :

- « كل شئ بأمر الله .. »

فاعتدل الرجل في جلسته ، ثم مال برأسه إلى حسان وهمس في أُذنه :

- « سمعتُ كلامًا بيني وبينك ! .. »

- « خيراً .. ! »

- سمعتُ أنك تسعى للزواج .. اسمع ياحسان ، أنتَ رجل طيب . ونحن جيران من زمان . سأقول لك سراً حكَتْ لي زوجتي حادثاً .. »

- « قُلْ ! » .

- « في منتصف الليل ، في الشهر الماضي ، تسلل داخل بيتنا شخص وصعد إلى شقة الست هناء ، الساكنة الجديدة .. حكاية غريبة . وظل يطرق بابَها فلم تفتحه له . وظل يضرب البابَ ويخبطه وهي لا ترّد . ثم بدأ يهددها بكلام . ومن حُسْن حظّه أنني لم أكن موجوداً في البيت . لو كنتُ موجوداً لضربته وقبضتُ عليه وأدخلته السجن .. »

فقال حسان بلا وعي :

- « ماذا قال لها ؟ »

- « سمعتْ زوجتي صوتَ الطرق والخبط ، ففتحتْ بابَ شقتها دون أن تحدث أي صوت ، وكمنت في الخفاء تتصنت ثم صعدت على أطراف أصابعها درجتيْن وتسمعتْ متشجعة بظلام بئر السلم . سمعتْ صوتَه . صوت شاب . قال لها : (افتحي . أتهربين ؟) وشتمها وسبَّها . . » .

- « وماذا قال لها أيضا ؟ » .

- « وقال لها : (سأجبرك على الكلام . . سأجبرك على الاعتراف .) . » .

فقال حسان بدهشة :

- « الاعتراف ؟ ! » .

- « وحاول كسرَ الباب فزعقتْ زوجتى زعقةً واحدة (انزل يا حرامى) . ثم جرتْ داخل شقتها مذعورة وأغلقت بابَها بإحكام واختبأتْ خلفه تراقب وهــى ترتعــش ، ثم لمحتْ خيالَه من وراء الزجاج وهو ينفلــتْ نازلاً بخفّــة القــط وسرعة الغــزال وبـلا أى صوت .. » .

وسكت الرجلُ ، ولم ينبس حسان بكلمة . سادهما سكوتُ ثقيل . وكان الرجل ينظر فى وجه حسان تارة وإلى قراطيسه تارة أخرى ، ثم رفع حمله على صدره وبين ذراعيه ، وهو يقول متخابثًا :

- « أهو لص » ؟ ! لا أظن ذلك يا عم حسان ! » .

فسأله حسان مأخوذاً:

- « وهل سمع أحدُ من الجيران ما حدث ؟ » .

- « لا ! كانت البنت « كوثر » وأختها « زوبة » نائمتين طوال ذلك الأسبوع خارج البيت ، فى بيت زوجة أبيهما . لم يكن بالبيت أحد غير زوجتى والست الساكنة الجديدة .. حكاية غريبة . وما غريب إلا الشيطان ! مضبوط يا عم حسان ؟ ! طبعًا أنت فهمتَنى ! ؟ »

ولم يردّ حسان . وقبل أن يغادر (سيد عليان) الدكانَ ، قال متضاحكًا :

- « زوجتى الملعونة ليست طرشاء . هى عوراء ولكنها ترى بعين واحدة ما لا تراه ألف عين ! » .

الفصل العشرون

ادخل بيتك

فى المساء بعد أن أغلق دكانه جمحتْ به الرغبةُ فى المشى « تجول تحت أشجار ترعة المحمودية ، حيث يغرق عالمٌ من أناس معدمين داخل أكشاك وغُرَز وبيوت واطئة وجحور موبوءة ، فى سكون الليل وبرده . رفع ياقةَ معطفه ومرَّ تحت شجرة صفصاف كثيفة الأغصان والأوراق ، فأحس وكأن عباءة سوداء مرشوقة بنصال أشواك طُرحتْ فجأة على كيانه فغطتْه ووخزتْ جسَمه وخزاً ، ثم راح يسير بمحاذاة الترعة ناظراً إلى نجوم السماء الواهنة كعيون بعيدة تتلصص من وراء وشائح السُحب الخفيفة الرقيقة المتناثرة .

ودَعَا ربَّه أن يلطف بـه وبكل عباده . واخترق بعض الحارات عبر طرقات وُحفر وبـرك تركـد فيها مياهُ المطر . وانغرز حذاؤه مرات فى الطين وتلوث سرواله . دخل زقاقًا من أزقة السوق التى تتجاور أبوابُ حوانيتها وتتلاصق إلى حدّ التداخل واختلاط بعضهـا ببعض ، وتفوح فى دروبها ومسالكها روائحُ ألف صنف من العطارة خـردل وكافور وزعفران وعنبر وبخور عبق عتيق آسر يثير فى أعماق النفس ذكريات من عهد الصبا الغائم البعيد تموج روحُه الآن عبر أكوام السمسم والذرة الذهبية البّراقة وأكداس الحلبة والكمون والحبهان والمستكة والبرغل . تمور نفسُه الحالمة وهو ينظر ببصرٍ غائب إلى ما تحت ألواح الزجاج من سلاسل وأساور وخواتم وأقراط وخلاخيل وتمائم وتعاويذ وألف حجاب . أحراز فى رسم جعران أو خنفس أو صرصار أو ناب فيل أو قرن غزال . أشياء زرقاء وصفراء وحمراء وخضراء . ومن داخل « مقلى اللّب » هبّتْ فجأة فى وجهه هبوةٌ من نار متوهجة فاغبرّ جِلْده وسخن . وَطَفا شعور دفين غامض على زبد ذاكرته فى حشد من صور مخضّلة بأريج قديم أبلغ القدم طوّح به فى متاهة آماد أزليه لمُ يولد فيها بعد ، فى زمن قاحل لم يتخلق فيه خلقٌ ولا آدم بعد . وعجب لأعاجيب

الذاكرة . وزايلته خواطرُه لحظةً أن وقف داخل دكانٍ ليشتـــرى زجاجةَ عطر صغيرة وبعض البخور الهندى .. وانفرجتْ على مرمى بصره الأزقةُ الضّيقة الكالحة عن حارة عتيقة مظلمة فوقعتْ عيناه فى عينىْ صبى بائس مهلهل الثياب ، يقفقف من البرد ، يسند ظهره إلى جدار بيت واطئ مائل غائب فى غيهب . تحركتْ عيناه الزيتونيتان الرمصاوان فى خوف ، وتراجع خطوتين مجفلاً . كانت أصابعه صغيرة نحيلة أشبه بأعواد « البازلاء » الجافة الصفراء كان يمسك بها حفنةً من الطين ويعبث بها ككلب مريض ذليل يلغ فى البرك الآسنة المليئة بالديدان . كان بدنُه ضامراً هزيلاً ، وجلده ذابلاً ملتصقا بعَظْمه المزّرق . وشمَّ حسان رائحةَ نتنه تفوح . كأن جيفة ملقاة فى مستنقع تهرهرها ريحُ الليل الباردة يمنة ويسرة تسمّر حسان فى مواجهته ومدَّ إليه راحتَه فى رفق . دنَا بها من رأسه المتسخ وشَعره المتهدل ، فاجفل الصبى مرة أخرى . انتفض وانكمش وتراجع كفأر مذعور .

وما أن مسَّتْ راحتُه زغبَ شَعره ومسح عليه مرةً بحنان فيّاض ، برقةٍ وعطف قلبى رحيم حتى خَبَا بريقُ الذعر فى عينيه وغاض رويداً ولاَنَ بدنُه المتيبس الهشّ ، فلا طَفتْ أصابعُ حسان خدَّه الضاوى وربت بيده على كتفه العَظْمى . وابتسم حسان ابتسامةً متكلفة بوجهٍ مقطب يقطر حزنًا وإشفاقًا . واطمأن قلبُ الصبى وانفرجتْ أساريُره وأدار يدَه فسقطتْ منها حفنةُ الطين على أصابع قدميه الحافيتين ومدَّ أصابعه ولمس بأطرافها معطفَ حسان ثم بسط كفَّه الهزيل المتسخ ونطق بكلمة واحدة : « قرش ! » - نطقها بغمغمة مريضة وذُل . واحتفنِ حسان من جيب معطفه حفنةً من القروش ، وبيده الأخرى ساعده على تكوير قبضتيه ، ثم دسَّ القروشَ فيهما فغاص بعضُها فى رقائق بقايا الطين ، وقال له بصوتٍ مرتعش خافت « ادخل بيتك ! » . وأحكم الصبى إغلاق قبضتيه على الغنيمة مثل فكّىّ ضفدعة ، وانطلق مثل فأر وغاب داخل باب مظلم أشبه بجُحر قنافذ واطىء . ومضى حسان . . وألف ستار يلفح وجهَه

وهـو يمرّ بدكاكين ساحـة « الروبابيكيا » . . كانت هناك ملابس قديمة يطوّح بها هواءُ بارد . كانت قائمة معلقة هنا وهناك على الأبواب كألف مشنوق تصفعه أكفُّهم وتركله أقدامُهم . . وخرج من الساحة إلى شارع . . ثم آخر . كان يرغب فى المشى رغم الليل الصَرد . وطفق يسلك طرقًا تباعده عن السكة التي تؤدى به إلى دكانه الذى كاد أن يندفع إليه راجعًا . . لكنه بلغ محطةَ « الترام » . أول الخط ، فاستقله وجلس . . وانطلق الترام . ولم تزايل مخيلتَه طوال الطريق الكفُّ وهى تبسط مقرونة بالغمغمة والقبضتان وهما تطويان بإحكام على القروش . وبلغ محطة « امبروزو » . ونـزل . . ثم هبط منحدر شارع « ابن البوّاب » إلى قاع الحى . وما أن وصل إلى عتبة باب بيته حتى أغرورقتْ عيناه بالدموع ولاحَ له وجهُ بائس . . تَبدّى له فى مخيلته وهو يرتقى الدرج ، وجه الست جليلة . . وقبل أن يفتح باب شقته سعل سعالاً جافًا شديداً . واستكان فى فراشه الدافىء تحت اللحاف ، وقال لنفسه : (« سيد عليان » لا يعرف شيئًا . وكلامـه لا يعنى شيئا !) ، ثم عاوده صوتُها يقول : « مساء الخير يا عم حسان ! » وتراءتْ له حركاتُها اللطيفة وإيماءاتها الرقيقة وهزّة رأسها البريئة ، ثم تموّج شعرُها فى مخيلته . وفكر فى اهتماماتها . أنها تهتم بتنظيف مسكنها وترتيبه ، وتجيد أشغال «التريكو» و « الكانفاه » . أنها لا شك « ست بيـت » ممتـازة . صـادقـة . فلم تخف عنه أنها تنظر بلا تلصص ولا مواربة ، من وراء نافذتها إلى الشارع عندما تشعر بالملل والوحشة والوحدة . . والخوف قَدَرها ! لكنه لم يفهم تعقيبها على قراءتها لعنوان الديوان الأول « أفراح البيت الصغير » لحظةَ أن قالت :

« . . اختيار موفق » . لم يفهم مرماه تمام الفهم لحظةَ أن نطقتْ بهذا التعقيب . ظن أنها تثنى على الشاعر ، لكنها كانت بغير شك تمتدح اختياره هو لهذا الديوان . ترى ما سبب ثنائها هذا حقا ؟ ! السبب أن الديوان يحمل عنوانًا وجدتْ معه فى نفسها صدى . هى أيضا تتوق إلى بيت صغير تشيع فيه الأفراحُ والبهجة . هذا حُلمه هو . أتراها حقًا تحلم هذا الحلم ؟ مَنْ يعانى الخوف يحلم بالأمن والسلام . وخطر له

فجأة أن خوفها ليس من المحتمل أن يكون مصدره ذلك الوغد « وصفى » ، بل ربما ترجع نشأته فى نفسها إلى فترة أبعد وأقدم . ربما قبل زواجها ، أو فى سنوات زواجها .. حكَتْ له أسراراً من حياتها قبل الزواج ، تنطوى على هموم كفيلة ببث الخوف فى قلبها .. وربما ضاعفتْ من هذا الخوف حياتُها الزوجية .. ربما .. إذ فلتَ لسانهُا بكلمة . ألم تقل له أن زوجها « صمّـم » على أن تقـدم استقالتهـا من وظيفتها ؟ إن « تصميمه » هذا إنما يعنى أنها كانت تتمسك بالبقـاء فى وظيفتها مصدر شعورها ببعض الأمن . لماذا ؟ ! لا شك أن كل إمراء فى الدنيا إنما تشعر فى دخيلتها الرهيفة بالتوجس . ولابد أن زوجها كان غيوراً فلم يطق أن يكون جمالها معروضاً لعيون الزملاء والرؤساء فى العمل . ويعرف حسان بتجربته أيام كان موظفاً الكثير مما يحدث من مفاسد وراء الستار .. فى دواوين العمل . لا بد أنه كان غيوراً غيرة جنونية .. وهذا هو سبب تصميمه ! .. فهل أتعستْها غيرتُه هذه آنذاك ؟ ! ولكنه كان ثريا ، وربما كان كريماً فأراد أن يريحها من عناء الوظيفة ، أن يعفيها من همومها . لا سيما وأنها كانت تشغل وظيفةً متواضعة بحكم مؤهلها المتوسط وعلى رأسها ألف رئيس . ويعرف حسان طباع بعض هؤلاء الرؤساء وأهواءهم ! ولكن كان الأجدر بها أن تفرح بهذا الثراء والكرم فترحب ببقائها فى البيت عزيزة بعيدة عن ذُل الوظيفة . ترى ، هل تكون كلمة « التصميم » أو الإصرار مفتاحاً لفهم صورة الحياة التى كانت تحياها فى بيت زوجها المرحوم ؟ هل هى صورة من النكد وسؤ التفاهم ؟ هل كان بخيلاً ؟ هل كانت لا تشعر بالاستقرار النفسى فى كنف زوجها ؟ إذا كان الأمر هو ذاك ، فأى عذاب لاقتْ محبوبتُه المسكينة ! وهى بطباعها الصريحة حدثته عن الخلاف بينها وبين أهل زوجها فهى بلا شك غير كتومة . عذبوها بالحقد وبالقسوة والكبر والتعالى . عيّروها بالفقر . أشعروها بالضعة . صرخوا فى وجهها الطفلى البرىء : (أنت بنت حى المعدمين .. حى « غربال » .. !) فأى قسـوة . وأى جبروت ، وأى محنة ؟ ! تحملتْ بصبر طويل بلايا كثيرة ، خاصة هذا الشيطان الشهوانى « وصفى » الذى

أدخل فى قلبها الرعبَ ! حقاً ، إنها سيدة شريفة الخصال . وهذا ما اعترف به ذاك الوغد نفسه متندماً . لكنها من فرط خوفها وفظاظته وقحته ما تزال تتوجس منه خيفة ، وتظن أنه متربص بها ، وأنه يتحيّن الفرصةَ متحفزاً للانقضاض عليها . وكم بلغ بها انفعالُ الضيق والكدر والحزن مداه . عندما انفلتَ لسانُه بلا وعى منه وسألها عن أبيها ، فقالت : (مات أبى وأنا طفلة !) .. ولكن هذا الكلام الذى جاءه به (سيد عليان) اليوم ، ماذا يعنى ؟ ! أى اعتراف هذا الذى حاول الدنىء « وصفى » أن ينتزعه منها ؟ فيمَ يدور موضوع هذا الاعتراف الذى أراد أن يجبرها على الإدلاء به ؟ ! سيعرف .. سيعرف منها كل شىء ... وهى بالطبع لن تخفى عنه أمراً . لكنها لم تُشر إلى هذا الكلام أية إشارة ! لماذا ؟ .. سيعرف .. غداً يعرف ويرتاح القلب .. !

وملأ مسامعَه صريرُ مزاليج النوافذ ، تئن تحت عزف الرياح ، فغطى وجهَه باللحاف كطفلٍ موجع مذعور يهرب من شبح عفريت ... ونام ! .

الفصل الحادي والعشرون

البكــاء

مساء اليوم التالي ، كان لا يعرف على وجه التحديد حقيقةً مشاعره . هل هو فرح بما هو آت أم راض بما هو عليه من حال ؟ لكنه يعرف أنه لا يطيق أحزان الماضي ولا طريقة عيشه قبل أن يعرفها . بل لم يعد يحتمل الآن الحياةَ بدونها . وصلّى صلاة العشاء . وكان طيف (وصفى) يغزو مخيلتَه بإلحاح ، ويتبدى له وجُهه طيباً مرة وشريراً مرات ، بندبته فوق الحاجب . وفكر أن يغلق باب دكانه ويذهب إلى صديقه « شعبان أفندى » ليجلس معه بعض الوقت ، فليس له من صديق يأنس إليه غيره . لكنه تردد .. ثم عدل شعر بالضيق يستبد به ، إذ تصور أن صديقه هذا قد يأخذ الأمر مأخذ الدعابة ، ومن ثم فهو قد لا يفلت من لسانه الساخر . كما أن حالته النفسية الآن تعجزه عن مجاراة مرحه . واستبعد كذلك أن يذهب إلى (الشيخ عبد المقصود) ، فهذا أيضا قد يحاصره بأسئلة كثيرة تضاعف من ضجره ، وقد تفلت منه عن غير قصد كلمةٌ تغضب الرجل . وهذا ما يخشاه ويتحاشاه . بل من المحتمل أن تعمق مقابلته للشيخ عبد المقصود شكوكه وهواجسه فيعيد الشيخ على مسامعه حكاية : « إعرف أصلها من فصلها » وإذن فهو لن يحتمل ظلمه ولن يسكت . مال إلى التفكير في الانطلاق بعيداً خارج الحى .

لكنه تساءل : « وإلى أين إذن ؟ » - ليس فى الحى الذى يقوم فيه مسكنه مَنْ يستطيع أن يفاتحه فى أمر من أموره الخاصة ، فهو كالغريب فى ذلك الحى . أغلب سكانه القدامى هناك يعرفونه ويعرفهم . لكن ليس بينهم شخص واحد وثيق الصلة به ليأنسه إلى حدّ مكاشفته بأخص أسراره الشخصية . أما البقية القليلة من أقاربه هم بالفعل كالعقارب ، وليس بينهم مَنْ هو أقرب إليه فى الصلة من جيرانه هؤلاء ، إذ انقطعتْ بينه وبينهم الوشائجُ وصلة الرحم منذ سنوات . وتملكه شعور مضنٍ بالوحدة

والقلق . وساورته الحيرةُ وتسلطتْ على ذهنه تساؤلات شتى . وشعر بصداع موجع ..

وكان الجوُّ خارج الدكان عاصفاً قارس البرد . وإذا بها تفاجئـــه بلا توقـــع . رآها تدخل عليه كهالة من نورٍ حانٍ ، على حين كان هو قابعًا في ركنه ، غائصًا في متاهة من الأسى . حيَّته بصوتٍ رقيق ، وجلستْ ووضعتْ برفق على مكتبه كتابًا من الكتب التى اقترضتها منه . ثم قالت وقد أضفى وجودُها علَى جوّ الدكان ألفةً ودفئًا :

- « لم أذق طعم النوم طوال ليلة أمس . ولم أجد ما يعزّينى عن الوحدة والخوف والفراغ إلا كتبك الطيبة والضوء المنبعث من دكانك » :

« وخير جليس فى الزمان كتاب »

- « هلٍ أعجبك حقاً كتاب « كيمياء السعادة » ؟ .

- « جداً وأيضا كتاب » المنقذ من الضلال ». وعلى فكرة قرأت ديوانيْ الشعْر ، وهما أجمل ما قرأتُ من شعر . . ألف شكر ؟ »

- « عفواً . ولكن يقلقنى قولك أنك مازلتِ خائفة ! »

- « أقول الصدق ! » .

- « هل عملت بنصيحتى تحصينًا لنفسك من خوفك ؟ . »

- « نعم . أصلى وقتًا بوقت . ولكنى لا أخفى عليك أن خوفى لا يزايلنى . »

- « من يقرأ كتابًا لحجة الإسلام الإمام الغزالى ، يشرح الله صدره . »

وتقبض وجُهه ثوانى ثم عاود افتعاله الابتسام . لكنه فجأة قال وكأن قلبه قد انفلق فى صدره :

- « ســت هنــاء ! بـــاح لى لسانُـــك بسرّ . ولكــن قلبـك لم يَبُـح لى بكـل السرّ ! » .

وقطبت تقطيبة حادة مشوبة بدهشة متوارية وسألته :

- « ما هو ؟ ! »

- « بخصوص محاولة اقتحام « وصفى » لمسكنك فى منتصف الليل ! لم تحكِ لى كلَّ ما حدث ! »

سكتت برهة متفكرة . ، ثم قالت بثبات :

- « يا عم حسان ! أنا لا أخفى عنك أمراً إلا ما قد يجلب لكَ وجعَ الدمـــاغ . ولا أرى خيراً فى الإفاضة .

ومع ذلك لا اذكر أمراً تعمدتُ كتمانَه عنكَ . »

- « طبعًا يا ست هناء إن ما بيننا هو الصدق والصراحة .. »

وصمت لحظة ، ثم قال باندفاع ، والصداع يدّق دماغه كمسمار ساخن :

- « قال لِك (وصفى) كلامًا ليلة أن حاول اقتحام شقتك ولم تذكرى لى منه كلمة . »

فسألته محتقنة الوجه :

- « هل اذكر لك شتائمَ هذا الوقح ؟ ! »

وهناك أطلق سهمه صوبَ بيت القصيد :

- « قال لك : (سأجبركِ على الاعتراف !) أى اعتراف ؟!» .

فطرفتْ عيناها برموشها الوطفاء ، وأطرقْت لحظة وهزّتْ رأسها بأسى ثم قالت ببساطة ولكن بوجهٍ ممتقع :

- « قلتُ لك أنه طائش . والطيش من صفات مراهقة الشباب .. أما أنتَ فرجل ناضج . حنكْتَك لا شكِ تجاربُ الحياة ، وتدرك بشفافية روحك ، وبأفق عقلك الواسع خبايا النفوس المعقدة وجموح الرغـــ .. » .

فقاطعها متمالكا زمام أعصابه :

- هل كان يريد أن يجبرك على الاعتراف له بعاطفة كاذبة ! ؟ » .

فقالت بلا تردد :

- « هو هذا .. »

- « بالطبع خطر ببالي هذا ، ولكن هل يعقل ؟ ! أنه مجنون » .

- « هو مجنون فعلاً »

كان جوابُها مقتضبًا وكافيًا ، فَبدَا على وجه حسان بعض الارتياح . لكنه ظل في صميم باطنه غير مرتاح البال . وعاودتْ حديثها معه عن خوفها من جنون « وصفى » وشذوذه وتهوره . وقال لها حسان وهو يشعر بأوجاع في عظامه : - « أنتِ تخافين من نفسك أكثر مما تخافين من عدو . تخافين من أوهام . والخوف الحقيقي هو الخوف من الله . ومن يخاف الله يحبه الله . ومَنْ يحبه الله يرضى عنه ، ومَنْ يرضى اللهُ عنه اطمأن قلبهُ .

اذكرى الله وواظبى على الصلاة ،ولن يمسك ضرٌ ...

فقاطعته قائلة بحزن رقيق :

-« أنا غارقة في ظلام خوف يحرق روحي . وكتبك وكلامك ينير قلبي . لكنى أحملك الكثير من متاعبى ! .

فقاطعها بدوره ، بصوت واثق :

- « استغفرى الله ! »

ودعكَ جبهتَه بأصابعه مطرقا ثواني ، ثم رفع رأسه قائلا برجاء :

- « ست هناء ! حبذا لو تتردد عليك إحدى قريباتك أو صديقاتك حتى تتخففى مما أنتِ فيه من وحدة ووحشة »

فاطرقتْ ولم تنبس بكلمة ، فاستطرد :

- « وحبذا لو تمَّ تعارف بينى وبين أحدٍ مَمنْ تربطك به صلةُ القرابة ، فأود أن يعرف الناسُ هنا فى الشارع والحى أننا نترابط برباط حميم يتسم بالشرعية ، رباط « العائلة الواحدة » أقصد ما يجرى به العُرْف بين الناس فى مثل هذه الظــروف . وذلك ضرورى فى هذه الساعة ! »

فقالت بأسى عميق :

- « قلت لكَ أننى مقطوعة من شجرة ! »

-« نعم ، لاتؤاخذينى ياست هناء .أنا مقطوع من شجره بمعنى من المعانى . وربما كل إنسان مثلى ، مثلنا . لكن ، مع ذلك ، لابد لنا أن ... »

وأمسك عن الكلام فجأة وتحيّر قلبُه .وسعل سعالاً قويًا ثم أضاف مستدركًا :

-« أنا بلا أهل ولا أقارب بمعنى أن لى عدداً قليلا منهم ولكن انقطعتْ صلاتى بهم لأسباب . ذكرُت لك بعضها ،فهل الأمر كذلك بالنسبة لكِ ؟ آسف ياست هناء ، إذ أسالك هذا السؤال . ولكننا نحاول معالجة أمورنا بكل حسن النية .

فضاعفتْ من أطراقها فى حزن بالغ ، واعترتْ جسمَها رعدةُ عصبية ، ثم قالت بنبرة خافتة متهدجة دون أن ترفع إليه رأسها :

- « عم حسان ! طُبعتُ على الصدق . وأبوح لكَ الآن بحقيقة طالما عذبتنى عذابًا أليمًا. أقولها لك الآن ، ولك أن تعيد النظر فى الأمر كله رغم ثقتى فى حُسْن تقديرك للأمور .. » .

ورفعتْ رأسَها ، فلاحتْ عيناها الجميلتان مغرورقتين بالدموع ، وقالت بقلب جريح :

- « دَعك منى ! .. دَعك منى ، فأنا تربيت منذ مولدى فى ملجأ للأيتام ! » .

وسالتْ دموُعها على خدّيْها المحمّرين ، وارتعش صوتُها ، وقالت بانفعال وشجن :

- « فأما اليتيم فلا تقهر ! » .

وانخرطتْ فى بكاء مرير ! .. وراح يهدئها وقلبه يتقطع ويبكى وما أن هدأتْ حتى طفقتْ تحدثه حديثاً طويلاً روت له خلاله قصةً يُتمها !

الفصل الثانى والعشرون

الأبواب الموصدة

الليل خارج بيته قارس البرد . وعاصفة من الرياح الهوجاء تهب فى سرعة مروعة ، وهو وحده طريح فراشه فى ركن داخل حجرة قديمة عالية السقف . يرتدى « بيجامة » ومعطفًا قديمًا من الصوف ، ويغطى جسمَه حتى الرقبة لحافُ ثقيل ولفٌ « كوفية » حول رأسه وعنقه . وكانت بجانب سريره مائدة بيضاوية صغيرة فوقها كوب من « الليمونادة » وشريط من أقراص « النوفالجين » وعلبة من دواء المضاد الحيوى « الميسيكلين » وعلبة أخرى من أقراص « فيتامين ب ١٢ » وزجاجة من سائل « الغَرغَرة » . وكان يسعل سعالاً حاداً مرات عديدة متلاحقة ، فيحتقن وجهُه المحموم ، وأنفه محمّر ملتهب . كان ، فى هذه الساعة ، يسند ظهرَه ورأسَه على وسادة مربعة منتفخة ، وفى حِجره كتاب وعلى جانبيه كتب أخرى . يقرأ تارة ، ويهمس بالدعوات تارة أخرى : « اللهم أغفر لنا ذنوبنا اللهم طهّر نفوسَنا يا حى يا قيوم . آنس بذكرك يا مجيب الدعوات واستوحش ما سواك » . يحس بالحمى تلهب دماغهَ وبدنه كله ، وسرى صهدُها فى نخاع عظامه التى توجعه أشدّ الوجع ، كأن أحجاراً ضخمة تراكمتْ عليها وضعضعتْها . كان يحس بحلقه متورماً محتقناً بالصديد وبأنفاسه الزافرة وقد ضاق بها صدرُه المخزوم . وكان ، مع ذلك ، يشعر بنفحات من الراحة الباطنية تنير ذاكرته ، وتتوالد فى ومضات صوُر وأفكار بعيدة موغلة فى القدم ، وتطفو من أعماق طفولته وصباه ، فيهزّ رأسه متفكراً فى شىء من الغبطة الصامتة ، ثم يبتسم إذا حدس أن فكرة من الأفكار صادقة ، مسّه خاطر متدثر فى عطاف شيطان يفرّ منه مذعوراً ، رآه وقد تراجع فتعثر فى طرف سجادة مفروشة وسط الحجرة ، ويكاد ينكفىء خوفًا من تدافع كلمات يهتف بها قلبُ حسان الذى يحملق فيه متحدياً مستغرقاً فى نشوة فوزه عليه . ابتسم فى طرب عندما لمحه وقد

وثب من عشرته وجرى نحو باب الحجرة متقبض الجسمُ مذلًا مخذولا وكأنه استحال قبضةَ ورقٍ حقيرة تتطاير تحت زفيره وتتأرجح بتردد شهيقه ، وتصطدم بعقب الباب . رمقه حسان من علو وهو منطرح فوق سريره وداعبه كأنه كائن ضئيل وشرس عاق . ناداه بهمهمة خافية ، فجاء وامتثل تحت قدميه وركع على الأرض خاشعاً مستعطفاً باكيا ، فقَرِّص أذنه مقَرعاً ثم لمصها وشدَّها شداً هيّناً . وانّبه وزجره ثم رفع رأسه كسلطانٍ في حفل تتويج وهتف به ، بلا صوت : « انصرف ياملعون ! » وقبل أن يكمل حسان صيحته الباطنية هذه ، كان الآخر قد فرَّ في ذعر واختفى من الحجرة .. وقال حسان لنفسه وقد اغرورقتْ عيناه بالدموع : «لا يدخل النارَ مَنْ بكى خشية من الله تعالى حتى يلج اللبن فى الضرع ، والخوف من الله هو رجاء فى الله ...» وكان الكتابُ مفتوحاً على حِجره ، فوق اللحاف ، يقرأه بقلبه ولا ينظر فيه . حقاً ، .... « علامة الأنس ضيق بالصدر من معاشرة الخلق والتبرم منهم ، ومن عدم الإحساس بعذوبة الذكر فى مجلسهم . وإذا اجتمع الانس بالناس فأنت وحيد مع الجماعة وجالس بينهم فى وحدة ، وكأنك غريب فى مدينة وحاضر فى سفر ، وشاهد فى غيبة ، وغائب فى حضور ، تخالط الناس بالبدن . لكنكُ منفرد بنفسك وبقلبك مستغرق فى عذوبة الذكر ... اللهم ... اللهم ... يا أبا سليمان من أين لك هذا الانشراح ؟ قال : اعطونى الصباح شرابا يقال له شراب الأنس ، فاليوم يوم عيد أسلمت نفسى للابتهاج فيه . . . . » ...

وفجأة ، ترامى إلى سمعة رنينُ الجرس بباب شقته ، ولا طَم عرفُ الرياح الرنينَ ، فأسند رأسَه المحموم بكفّيه وأرهف سمعهَ وهو طريح الفراش فسمع الرنينَ يتلاحق أقوى وأشد ، فاتكأ على ذراعيه ونهض . ومشى فى الحجرة الواسعة بجسم نحيف هشّ يتمايل فى دوار . وجذب المزلاج وفتح البابَ ، فإذا بوجه « الشيخ عبد المقصود » يطالعه ، معتمراً عمامة قديمة ، ودخل مسرعًا هاربا من عصف الريح والبرد ، ملقيًا

السلام .. وأعاد الشيخ عبد المقصود حساَن إلى حجرته مسنداً إياه من مرفقه وجنبه حتى أقرّه فى فراشه ، وشدَّ اللحافَ على جسمه فغطاه حتى عنقه وهو يحدثه ويحكم غطاءه من حوله .. إلى أن قال له :

- « سمعت أن دكانك مغلق منذ خمسة أيام . نزلة برد شديدة ؟ ! .

ألف سلامة . جئتُ لأطمئن عليك . شدّة وتزول . »

فقال حسان بصوت مريض :

- « شكراً .. يا شيخ عبد المقصود ، ومالك حق أبداً .. تعبتَ نفسكَ فى هذا الجوّ ! »

- أنتَ لا تعرف كم أعزك واحترمك يا حسان . فأنت ابن صديقى وحبيبى « الشيخ كريم البكرى » « رحمه الله . »

ورمق الشيخُ الكتابَ على حِجر حسان فساله :

- « ماذا تقرأ يا حسان ؟ » .

فقال حسان وهو يشير إلى الكتب من حوله :

- « أحاول أن أقرأ بقدر ما أستطيع ... قُلْ لى يا شيخ عبد المقصود .. »

- « نعم »

- حدّثنى عن معنى « إنما الأعمال بالنيات »

- يردد الناس هذا الحديث الشريف ترديداً سهلاً ، وأغلبهم لا يعرفون معناه العميق . أنت تمشى على جسر الحياة وللجسر شاطئان . الأول : النيّة . والثانى : العمل . النيّة هى الصدق والعمل هو ما ينفع الناس .. »

- والعلم ؟ . »

- العلم ! العلم بين هذا وذاك . وهو المصباح المنير على الطريق . »

- وهل ينفع الناسَ عملُ .. عملُ يؤتى بنيّة صادقة .. عمل بلا علم ؟ ! »

- القلب الصادق لا يخطىء عملاً نافعا ... »

- والعلم ؟ ! »

- العلم علمان . العلم اللّدنى . وعلم تحصيلى دنيوى يُكتسب . »

وبعد لحظات من الصمت ، سأله الشيخ عبد المقصود :

- « أتشغلك هذه المسألة وأنتَ مريض طريح الفراش ؟ .

أنت كأبيك رحمه الله . يمنّ اللهُ عليكَ ببعض منّه . بارك اللهُ فيك . »

- شكراً .. ولكنى بصراحة مثل بابُ يفتح ويوصد ... » .

- ولكنك تدعو اللهَ صادقًا أن يفتح باب قلبك على الدوام ، فجاهد ألا توصده أنت بيديك ! ؟ » .

- « وإلى الله ترجع الأمور ! » .

يريد حسان أن يتكلم ودماغه يدور ، كأنه يحاول أن يقاوم مرضَه بالانخراط فى الحديث ، فقال :

- « الناس فى زماننا كأبواب موصدة ، والحق - أنا لستُ أفضل منهم ! . » .

وعرج بهما الحديثُ على بعض المسائل العامة وسأله حسان :

- « قُلْ لى ياشيخ عبد المقصود . ما الأخبار ؟ لا أقرا الجرائد منذ أيام ؟ » .

- لا جديد . هدأتْ العواصفُ . فماذا تتوقع ؟ نحن قوم نتحدث فى القضايا العامة من باب التسلية وهناك منا مَنْ يقول الله تعالى عنه فى كتابه العزيز « استخف

قومه فاطاعوه ! » وعن نفسى ، أنا لا أتسلى ، أنا مشغول هذه الأيام بقضية العودة إلى حجاب النساء والبنات .. والله ياحسان يا بنى أنا لا أتمنى لك إلا الزوجة المسلمة التى تعرف معنى الحجاب والحشمة فى تعاليم الإسلام وآدابه ! » .

وتساءل حسان فى سرِّه : « الحجاب ؟ ! الفضيلة ؟ ! العفّة ؟ ! الحجاب ليس مقياسًا للفضيلة الحقة ! » .

الفصل الثالث والعشرون

العزلة

... وتبادلا حديثًا قصيراً في أمور شتى .. حتى قال حسان وهو يحاول النهوض :

- « والله يا شيخ عبد المقصود ، ردَّتْ إليَّ الروح رؤيتك وحديثك » .

وحاول مغادرة فراشه ، فطلب منه ضيفُه ألا يفعل فقال له حسان أنه يستطيع الآن أن يقوم ، وأن يعدّ كوبيْن من الشاى ، فحلف الشيخ عبد المقصود يمينًا بالله العظيم ألا يفعل ، فرضخ حسان وظل فى فراشه قاعداً . وبعد دقائق سأله الشيخ عبدالمقصود :

- ماذا تَّم فى موضوع مشروع زواجك من السيدة الأرملة جارتك ؟ » .

فقال حسان بلا تردد :

- كل شيء نصيب .. » .

وسعل سعالاً حاداً متصلاً . ومسح أنفَه المحّمر ، ثم قال :

- الحق أن مَنْ كان فى عمرى ليس له الزواج ! » .

-« وكم عمرك يا حسان حتى تقول هذا الكلام ! ؟ » .

- تجاوزتُ الرابعة والأربعين . »

- « وهى ؟ » .

- « فى السابعة والثلاثين . » .

- « نعم الزواج يصونك من الآفة . ولو كانت اليوم فى بيتك الزوجة الصالحة الطيبة لقامتْ بخدمتك ورعايتك فى شدتك أووعكتك هذه . وكان أملُ أبيك أن

يزوجك قبل وفاته يرحمه الله . وكم حدثني في ذلك ولكنك كنت دائماً ولداً خجولا محبًا للصمت والعزوف عن مخالطة ذوى القربى . فكم من فرص طيبة للزواج أضعتها بتهيبك وترددك ، وأنا لا أجادلك في اختيارك ولكن اختيارك يجب أن يتسم بالتروى والحكمة . وإن شاء الله يوفقك المولى .. وإن ذاك لك عليَّ أن أجيء إليك هارعا بالشيخ متولى عبد العال مأذون الحى ليكتب . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ! » .

وعاوده السعالُ ، وتمخط مرات ، فقال الشيخ عبد المقصود وهو ينظر اليه بمودة :

- « شدّة وتزول ، وتنزل إلى دكانك ، الناس هناك يحبونك ويحترمونك ، فابقَ على هذا الحب والاحترام بينهم ! » .

وسادهما السكوت فترة غير طويلة ، ثم قال الشيخ عبد المقصود :

- « أنتَ من الصالحين الأخيار يا حسان .. » .

فقال حسان باندفاع وهو يهزّ رأسه الغائب في دوار الحمى :

- « أبداً .. أبداً ياشيخ عبد المقصود . أقول لك الصدق ، أنا لستُ رجلاً صالحا .. » . فجزع عليه الشيخ عبد المقصود وقال بحدة :

- « لماذا تقول هذا الكلام عن نفسك يا حسان ؟ قولك هذا غير أفعالك فيما أعلم ، وأفعالك تشفع لك بأنك من الصالحين الأخيار . . » .

- « أفعالى ؟ ! . . أنا غير راض عن نفسى . . . » .

- « أن تكون غير راض عن نفسك أفضل من أن تكون راضياً . . »

- « أريد أن يرضى الله عنى . . »

- وأن ترضى عنه . والله الذى يريد . . وبيده وحده كل أمر . . » .

- « كيف ؟ ! » .

- « كيف ؟ ! لا إله إلا الله . أن تحب الله ولا تحب نفسك يا ولدى ! » .

- « النفس أمارة بالسوء يا شيخ عبد المقصود . » .

- « نعم » .

- « كل إنسان يحب نفسه بالطبع ، وأنا أحببتُها . . ! » .

- « إذا أنتَ هويتَها هويت ! » .

- « أنا متقلب فى أحوال » .

- « والنفس لوّامة يا حسان ! وباب التوبة مفتوح . وإن كنت من السالكين ، تُلهم نفسك فتطمئن وترضى عنه عزّ وجل ، ويرضى عنكَ جلّ شأنه ، والطريق كله منن ونعم وعطايا . . » .

وأخذ الشيخ عبد المقصود يحكم أزرار جبّته ويستطرد :

- « لكن قُلْ لى يا بنى ، لماذا تقول أنك لست من الصالحين ؟ ! » .

تنحنح حسان . وكان مرضُه يبث فيه أنفاسًا من الشجاعة فقال بلا تردد وكأنه يعاتب محدثه :

- « لأن . . من الأسباب أن نفسى الأمارة أساءت إليها ! » .

- « إلى مَنْ ؟ » .

- « إلى السيدة التى ستكون زوجتى بعد شهرين ! » .

- « كيف يا حسان ؟ » .

- « ظننتُ بها الظنون وهى بريئة كل البراءة . . » .

- « إن بعض الظن إثم . . » .

فقال حسان بضيق :

- « لم تسلم المسكينة من ظلمنا يا شيخ عبد المقصود ! » .

وشعر حسان فجأة أنه لا يعرف ماذا يقول ، وأن شجاعته تخونه ، فآثر السكوت . لكن الشيخ عبد المقصود قال :

- « وكيف ظلمناها يابنى ؟ ! » .

فقال حسان بلا تردد وكأن جبلا يجثم على صدره :

- « صعد إلى شقتها ذات ليلة ، شخصُ مجنون فظّ وطرق بابَها فلم تفتحه . وحاول . . » . وصمت حسان هنيهة متردداً متلعثمًا ، ثم قال :

- « لم تفتح له الباب ولم ترد عليه بكلمة فحاول كسر بابها . ولما صرختْ فيه جارةٌ بالبيت لاذ بالفرار . . » . ثم سكت حسان ، وكأن غصّة أصابتْ حلقه المحتقن . واستبد به شعوُر بالندم على ما قال الآن وحاول أن يدارى ارتباكه وتردده فى أعراض مرضه . راح يتمخط بمنديله ، ويزدرد ريقَه بصعوبَه ، ويرتشف رشفة من كوب « الليمونادة » والشيخ يسأله :

- « وبعد ؟ » .

فقال حسان وقد ساوره كدرُ غريب شوَّش عليه ذهنَه :

- « هرب ولم يعد مرة أخرى ! » .

- « أهو لص أراد أن يسرق شقتها ؟ ! » .

فقال حسان باندفاع عصبي وهو يسحب طرفَ اللحاف على ذقنه وفمه ، ويرجع برأسه إلى الوراء مسنداً إياه على الوسادة على حين كان وجهه يتصبب عرقًا :

- « لم أظن أنه لص أو مجنون ! . . وهذا ظلمى ! » .

وراح كيانه فى شبه غيبوبة وهو يقول :

- « وأنت ، ألم تقل لى : (إعرف أصلها من فصلها) ! أنت تشك ، ودفعتَنى إلى الشك ! » وأغمض عينيه فى إعياء وشجن ، وأضاف كمَنْ يهذى :

- « عذبتْنى ظنونُنا . لكن أبداً . . أبداً . . هى سيدة شريفة عفيفة . . . » .

- « أهى ثرية ؟ ! » .

- « أبداً . . أبداً . . فقيرة . ولِدَتْ يتيمة . ضحية ضعف إنسانى ! » .

- « ولكنى سمعتُ أنها تعيش فى عزلة تامة ! لماذا ؟ ! » .

وشعر حسان بثقل كالجبل يجثم على صدره ، وأحس ببدنه كله مكدومًا ويرتعش ويرشح بالعرق وأضاف :

- « عزلة ؟ لماذا ؟ ! ما قصدك ؟ أنت تظلمها . . حرام . . . لماذا لا يحنو قلبك على الضعف الإنسانى . . آه . . عزلة ! هل العزلة مريبة ؟ ! عزلتها ترفعها إلى مصاف الملائكة ! » .

وخنقه ضجرٌ لم يتحمله ، فقال بحدة :

- « كفى ! كفى يا شيخ عبد المقصود .. كلنا ضحايا ضعفنا .. كُنْ عطوفًا ! » .

كان بدنه المسكين المريض يرتجف ارتجافًا وهو يردد :

- « هى أطهر نساء الدنيا كلها . وطهرها فوق كل أصل وفصل ! أطهر منى .

هى التى تصلح من حالى . فمَنْ أنا ؟ ! . . مَنْ أنا ؟ . . حسان الكَّذاب ! . . النّية صادقة . . وأنتَ . . . أنت ! . . » .

ولم يكمل كلامه . ومع ذلك ، لم يكف لسأنه عن الغمغمة بكلمات كثيرة غير مسموعة . وكاد يبكى ، فتمالك نفسه ، ثم فغرفاه ، وكاد أن يقول شيئًا ، لكنه أطبقه فى رعشة وسكت . . لم يسكت تمامًا . طفق يتمتم ويهمس ويردد آيات قرآنية ويذكر الله . . . أنتابته نوبةُ هذيان . وكان الشيخ عبد المقصود يقول له وهو يحكم غطاءه بين جنبيه ويمسح براحته شعره المخضل ، ويتحسس جبينَه بظهر كفّه :

- « ثَمْ ! عَرقَ جسُمك . وهذه علامة طيبة . الحرارة المرتفعة تهبط . . » .

وكان صوتُه المريض يردد وحباتُ العرق تسيل على فمه المرتعش :

- فأما اليتيم فلا تقهر ! . . سأتزوجها . . سأتزوجها . . إقرار . . منى . . أعتراف ؟ ! . . أننى . . أنا . . نويتُ . . تبذر البذرة . . العُزلة فى . . الملجأ . . سأتزوجها . . هى زوجتى . . النيّة . . صادقة . . سأتزوجها . . . سأتزوجها . . . » .

وظل الشيخ عبد المقصود جالسًا إلى جواره فترة طويلة بعد أن خَفتَ صوتُه وَخَبا . وكان يمسح عنه عرقه ، ويحكم طرفًا من الغطاء كلما تقلّب منتفضًا . وما أن هدأ تمامًا وأدرك الشيخ عبد المقصود أنه نام وإن فى النوم راحة وشفاءًا وشيكًا حتى قام وترك مصباحَ الحجرة مضاءًا ثم غادر المكانَ متسللاً فى هدوء . وما أن فتح باب الشقة وخَطَا خطوة إلى الخارج حتى أنفلت من يده البابَ وردَّته رياحُ العاصفة العاتية فى قوة فأوصدته بصفق عنيف - على حين كان بدنُ حسانَ فى هذه اللحظة قد تقلّب جانبًا وكانت عينه اليمنى نصف مفتوحة فوق الوسادة وعاودتْه الغمغمةُ والهمس بكلمات هادئة مبهمة . وعند عقب الباب كانت هناك وريقات صغيرة تتطاير وفأر صغير يجرى منطلقًا صوب جُحره . وكأن فجوة الجُحر أخذت تتسع وتتسع حتى صارت مسلكا أشبه

بالدرب وتراءى صبى وحيد عارى البدن إلا من سروال أبيض قصير يستر عورته . أنطلق الصبى جارياً وسط الدرب ، تدفعه موجاتُ ريح عاصفة سريعة حتى لتكاد أن تطيّره وتقذف به إلى بعيد أميالا عديدة . والصبى يجرى جريًا جنونيًا والدرب ضيّق موحش خال تمامًا مثل نفق يمتد فى حلكة مرعبة عميقة بلا قرار . وهو لا يكفّ عن الجرى مذعوراً ينظر إلى النوافذ والأبواب السوداء ، إلى الجبوب والأكنان المجهولة ، ولا إنسان ولا حيوان ولا حشرة ! صمتُ قبور راسخ على القلب يعتصره اعتصاراً . وفجأة ، فتحت دفعةً واحدة كل النوافذ والأبواب المتهالكة فامتلأتْ برؤوس سكانها . مخلوقات عجيبة جاحظة العيون جحوظًا مخيفًا مروّعًا . ونتأتْ محاجرها وتكوّرتْ . أخذتْ تنتفخ وتكبر حتى غطّتْ وراءها ملامحَ الرؤوس التى انكمشتْ وتضاءلت . وشاع سوادُ حالك يتخلله بريقُ أشهل ، وخطف بياض أشهب متوهج . ووجد الصبى نفسَه يجرى وسط ليل كله أبلق . وفى طرفة عين ، أحس بأكوام من النفايات الكريهة الرائحة تنهال عليه سيلا ثقيلاً لزجا . وإذا بالدرب كله جثث وجيف مقطعة الأوصال ، وبدنه العارى النحيل يرتعد ، وانسلخ منه الرأس وسقط على صدره معلقًا برقاقة من الجلد المذبوح . وانتفض جسمُه انتفاضةً هلعٍ رهيب ، فهبَّ ناهضًا وطوّح باللحاف عند قدميه . فرأى السجادةَ على الأرض والمائدة البيضاوية بجانبه وفوقها عُلب الأدوية وكوب « الليمونادة » ، والكرسى الذى كان يقتعده الشيخ عبد المقصود خاليا . وأنساب رأسُه إلى الوراء وغاص فى الوسادة . . ونام . . . » .

ومضى وقُت طويل ، حتى كانت الساعة التى نظر فيها إلى خصاص نافذته ، فرأى نورَ الفجر منبلجًا ومالبث صوتُ المؤذن أن ترامى فى الفضاء :

« الله أكبر . الله أكبر . حى على الصلاة . حى على الفلاح » .

وكانت كلماتُ قليلة تتردد على لسانه بالحاح مسيطر :

« الصلاة خير من النوم . . قُمْ . . قُمْ . . وما يستوى الأعمى والبصير ، وما تستوى الظلماتُ والنور . . . » .

الفصل الرابع والعشرون

المـلـَّــــة

عصر اليوم التالي ، هدأتْ العاصفُة . وانخفضتْ حرارتُه وزايلته بعضُ أوجاعه . وكان فى تلك الساعة يتمشى في أرجاء حجرته تنشيطًا لجسمه . ونظر من خلال فرجة نافذته فلاَحَ له الجُو وقد صَفَا ، ورأى السابلةَ فى الشارع يسعون فى هدوء . وعاد فقعد فى فراشه وما تزال بعض كتبه من حوله متناثرة والأوراق مبعثرة . وما كاد يمسك بقلمه ويدّون ما فاته من حساباته ، حتى سمع رنينَ جرس الباب الخارجي ، أخفى الاوراقَ تحت الوسادة وقام على مهلٍ وفتح البابَ ، فإذا بالزائر صديقه «شعبان أفندى» دخل ووضع على حافة مائدة موضوعة بالمدخل كيسًا ممتلئًا بالبرتقال . وشاع صوتُه المرح العالى فى أرجاء الحجرة فملأها حياةً وبهجة وجلسا على كرسييْن وجهًا لوجه بجانب فراشه .

قال شعبان أفندى بوجهه البشوش مداعبًا :

- « كيف تغدر بنا كل هذا الغدر . تمرض بلا إذن منا وتغلق دكانك وتترك الناسَ بلا طعام ولا تموين ! » . وانخرطا فى حديث قصير ، ثم قام حسان وغادر الحجرة دقائق ، ثم عاد حاملا « صينية » فوقها ثلاثة أكواب من الشاى بينها ليمونة واحدة مشطورة نصفيْن . ووضعها على حافة السرير ، فنظر إليها شعبان أفندى نظرة متسائلة وقال ضاحكا :

- « كوبٌ لك وكوبٌ لى ، فلمَنْ الكوب الثالث ؟ ! » .

فابتسم حسان وقد بَدَا متفتح الشهية لوجبة دسمة من الفكاهة :

- « للشيطان ! » .

فاستغرق الصديقُ فى الضحك وقال :

- « معك حق . لا تؤاخذنى . ما اجتمع رجل وإمرأة إلا والشيطان ثالثهما . لكن الشيطان عينه فارغة لا يشبعها كوبُ واحد . . » .

- « خلاص ! آخذ أنا كوبًا واحداً . وخُذْ أنتَ نصيبك ! » .

وقهقها سويا . لكن الصديق الظريف عاد ينظر إلى الأكواب الثلاثة فى استغراب وتوجس . وقال :

- « لا تحيّرنى يا حسان ، لَمنْ الكوب الثالث ؟ ! » .

ثم مال برأسه على أذن حسان وهمس فى هذر :

- « عرفتُ ! كم أنت ماكر وخبيث . أهى هنا بالداخل ؟ ! » .

فلم يضحك حسان . ويُوغتَ بممازحته الثقيلة . لكنه أكتفى بقوله :

- « أستغفر الله يا رجل ، أستغفر الله . . » .

فقال صديقه مستدركًا بذكاء :

- « أقصد : هل تزوجتَ من ورائنا ؟ ! . . فربما . . ربما تكون قد تزوجتَ بلا إذن منا ، وليس مرضك هذا إلا تمارضا ، إلا ذريعة لقضاء شهر عسل رائق سرّى فى عزّ البرد . . فى صميم « نوة الكرم » ! . . . » .

فقال حسان آخذاً الموضوع مأخذ الجدّ :

- « بالعكس ! عند ما أتزوج أعلن ذلك على الملأ . . . » .

ثم قال متضاحكا :

- « وإلا ظنَّ الناسُ أننى مريض فيتكاثر علىَّ الزوارُ كلَّ يوم . . . » .

- « وهل يمنع زواجك تكاثر الزوار عليك هنا ؟ » .

- « وأنا مريض لا أستطيع أن أغلق باب بيتى علّى . » .

- « وفى حالة زواجك ؟ » .

- « أتوقع أن يأتى فى الوقت المناسب كلُ مَنْ يهمهم الأمر لتهنئتى فى دكانى . أما بيتى فيخلو لى ولعروسى ! » .

فقال الصديقُ ضاحكا :

- « يا ماكر ! غير معقول أن تفعلها ! » .

واستغرق الرجلان فى ضحكات مجلجلة - ثم مسح حسان دموعَ عينيه بمنديل وهو يقول :

- « والله زمان ! لم أضحك من القلب منذ مائة عام ! » .

- « تقصد منذ ولدتَ ! » .

- « صيغة مبالغة يا رجل اللغة العربية ، وهى من صيغ حياتنا ! » .

- « لكنك لا تستطيع أن تكون حراً ، فتبالغ مثل هذه المبالغة فى حضورها ! . . أهى تميل للفرح والمرح ؟ » .

هزَّ حسان رأسه الذى أمتلأ بطيف وجهها الجميل وهى تجهش فى البكاء ليلة لقائه الأخير معها قبل مرضه وقال بنبرة حادة :

- « أبدا يا شعبان ، فهى لم تضحك مرة فى حياتها من القلب » .

- « أهى قالت لكَ هذا ؟ ! غريبة ! تحب النساءُ الضحكَ والرجل الضحوك الضحّاك ! » .

- « نعم ، قالت لى هذا » .

« آه ، لو رأتنى وتحدثت معها إذن لجعلتها تضحك من القلب ضحكًا متواصلاً يطيل عمرَها ويزيده نصف قرن ! » .

وداخل حسان شعورُ طفيف بالضيق أشبه بلفحة ساخنة من لفحات الغيرة . ولكنه قال ليجاريه :

- « إذن ، ستعيش زوجتك المصون مائة عام ! » .

- « يا ساتر ! سأبطل الضحك إذن ، من اليوم ! » .

ثم قال حسان بنبرة جادة :

- « هى تأخذ الدنيا بجدّية وحزن ! » .

- « مَنْ يأخذها هذا المأخذ ينتحر . . . آه . . كلُ أنسان بما طُبع عليه : . . . » .

- « وبما وسمته صروفُ الدهر ! » .

- لستَ معك فى هذا . فلا يوجد إنسان على وجه الأرض واجه من المصائب والكوارث مثل ما واجهتُ أنا . لكن . . آه . . حقا ، هى أيضا . . ماتت أمها ومات زوجها . . » .

ووجد حسان نفسَه يقول بسرعة :

- « لا . لا . ليس هذا ولا ذاك فحسب ! » .

- « هيه ؟ ! » .

وتنّبه حسان لنفسه وهو يتكلم فتذكر أن لسانه قد يزل بكلمات غير محمودة قد تكدره أشد الكدر ، فنهض وانحنى على فراشه ودسً يدَه تحت الوسادة والتقط ورقتيْن وقال لصديقه :

- « أسمع . . أسمع . . أريد الآن أن آخذ رأيك فى موضوع أهم ! » .

- « ما هو ؟ ! » .

- « كما تعرف ، سيكون عقد قرانى بها بعد شهريْن تقريبا ، ولا بد لى منذ الآن أن أشرع فى تجهيزات وشراء لوازم وإعداد أشياء . أولا ، أنا أنوى أن تكون شقتى هنا بيت الزوجية . » .

- « عظيم ! نحن نعانى أزمة مساكن ، ولن تجد أفضل من شقتك هذه اتساعًا ورخصا فى قيمة إيجارها . . . » .

- « ثانيًا : سأعمل على إصلاحها وتجديدها وطلائها كاملا . واحتاج لدهًان ماهر . » .

- « يمكن أن يسهل لك جارك صاحب المجيرة هذه المسألة . » .

- « وسأستغنى بالبيع ، عن القديم من أثاث شقتى ! » .

- « طبعًا بما فى ذلك سريرك العتيق هذا الذى تشاركك فيه البراغيث ! » .

- « وسنختار أنا وهى أثاثًا جديداً لثلاث حجرات . » .

- « أهمها طبعًا حجرة النوم ! » .

- « أعددتُ كشفًا بما يلزمنى من طلبات وآخر خاصًا بحساب التكاليف علي وجه التقريب . . نعم ، يلزمنى دِهان كل الجدران والسقوف بألوان مختلفة قليلا .. » .

- « ومالون حجرة النوم ! ؟ » .

- « اللون الوردى . . . » .

- « يا عينى ! » .

- « كُنْ جاداً معى الآن . أما بقية الحجرات فتطلى باللون الرمادى الفاتح . وكذلك الأبواب والنوافذ ونوع الدهان الزيت « اللوكس » ! . . » .

- « لوكس ! . . كله لوكس ! . . » .

وأستخفَّ حسان طربُ غريب ، فاستطرد ملوِّحًا بالورقتيْن فى يده :

- « أما أدوات المطبخ فقد حددتُها هنا . . أنظر . . أخشى أن أكون قد نسيتُ شيئا . . » .

وراح الصديق يستقرئ ويراجع أسماء لوازم المطبخ المدّونة فى الورقة - ويمعن النظر فيها - ثم قال ضاحكا :

- « آه ! طبعًا أنت نسيتَ شيئًا هاما . . » .

- « ما هو ؟ » .

- « طست الحمام والكوز ! » .

- « آه حقا . كيف نسيت هذا . علي أي حال أنا سأشترى أيضا سخّانا . . » .

- « ولكن يا حسان الكوز والطست لا يغنى عنهما السخّان ! » .

فضحك حسان وأضاف :

- « أعرف ! وهناك طلبات أخرى . ملابس : بدلة كُحلى وبدلة رمادى وقمصان وكرافتات . وبيجامات وملابس داخلية وغير ذلك . » .

- « ونسيت شيئًا هامًا آخر ! » .

- « جدّ أم هذر ؟ ! » .

- « جد ! » .

- « ما هو ؟ ! » .

- « نسيتَ «مُلّة» السرير يا شاطر ! أتعرف معنى « المُلّة » في اللغة العربية ؟ .

- « ألواح السرير الخشبية ! » .

- « هى فى العامية كذلك . ولكنها فى العربية تعنى (عَرَق الحمّى) ! أعرفتَ حكمة التزاوج بين لغة النـــاس فى بلادنـــا وبين اللغــة العربيــة ؟ ! فاللوح سرعان ما يصير عرقا . . . بالشفاء « يا حسان ! » . وبعد دقائق من الضحـــك . أضـــاف « شعبان أفندى » :

- « أتعرف كم لوحًا يحتاج إليه السرير ؟ » .

ورفع سبابته ليعّد . سدّدها إلى صدر حسان وقال ضاحكا :

- « واحد . . . » .

ثم أشار إلى نفسه بسرعة :

- « اثنان . . لوح . . إثنا عشر لوحًا يحتاج إليها السرير الكبير . . . » .

وراحا يرتشفان الشاى ويدخنان وهما يواصلان حديثَهما بمرح وصفاء . . ولكن حسان سرعان ما ساورته بعضُ الخواطر ، فشرد ذهنُه وقطب وجهه . ولحظ صديقُه هذا فسأله :

- « يا حسان ! أنتَ لست معى . لماذا لا تحب المرحَ مع أننا شعب يهدّ جبال الهّم بالفكاهة والمزاح ويعالج مشاكله بالنكتة ؟ ! » .

- « يهدّ جبالاً فى البّر القبلى لتتراكم فى الوجه البحرى . أعتقد أن حياتنا تقوم على فكاهة طيبة ولكنها سوداء ! » .

- « إذا كانت هناك فكاهة بيضاء وفكاهة سوداء ، فربما كانت فكاهتنا بألوان الطيف ! . . آه . . أنت تقصد . . فهمتُ ما تقصده . . أنا خلطتُ فأخطلت . المرح الأبيض الصافى لمَنْ يعيش حياةَ بنّاءة منتجة سوّية . . » .

- « أما ضحكنا وحالنا عدم ، فهو عدوانى . . » .

- « آه . . أنت فى مرضك أصفى عقلاً يا حسان . . عفارم ! لكن ما هو سرّ وجد اننا المأساوى الضاحك ؟ » .

- « رواسب قديمة ومنغصات حديثة . . وعلمى علمك . . . » .

فقال الصديق ضاحكا :

- « سّر مأساتنا يرجع إلى منشور الحاكم بأمر الله بمنع طبخ الملوخية فى بلادنا . . ! » .

وسرعان ما أصاب الفتْور حديثَهما وضحكاتهما . وكان وجه حسان لا ينم عن الارتياح لمجرى الحديث . . حتى تحين الفرصةَ ، فقال :

- « نحن نثرثر ونهرج ، ولا أعرف كيف أتحدث معك حديثا جاداً . . . » .

- « أنا معك . . تحت أمرك . . ساعة . . ساعتين . . ثلاث . . أخليت نفسى لكَ من كل شاغل . معك حتى الصباح . . » .

الفصل الخامس والعشرون

سر الأم

واشعلا سيجارتين . وجذب حسان نفسًا خفيفًا وازدرد ريقَه بصعوبة ، ثم قال :

- « احكى لك الآن حكاية السيدة التي سأقترن بها . أبوح لك الآن بسرٍّ هو أمانة في عنقك ، وأنت صديقي الوحيد الذى أثق به . أتعرف أنها ولدتْ ونشأتْ يتيمة ؟ قبل أن تُولد هجر الأبُ أمَّها دون أن يعقد قرانه عليها . سافر خارج البلاد واختفى إلى الأبد . حياة كلها شقاء

- « هل حكتْ هى لك قصتها ؟ » .

- " نعم ، حكتْ لى منها أطرافا كثيرة ، واستنتجتُ أنا بعض الجوانب . قالت لى إن من حقى أن أعرف كل شيء عنها ، ولا تقوم حياة زوجية سعيدة إلا على الصدق والصراحة مهما كانت أسباب الكتمان ! واجهتْ أمُها مأساةً رهيبة . وجدتْ نفسَها وحدها بلا زوج ولا أهل ، بلا مال ولا بيت . . " .

- " لا حول ولا قوة إلا بالله . الدنيا مليئة بالأسرار والمآسى ! " .

- " أودعتْ ابنتَها أحد الملاجىء لأنهـــا كـــانت فى ذلك الوقـــت معدمة تماما ولا تستطيع حتى أن تعول نفسها . وهامتْ على وجهها تعمل خادمة فى بيوت الناس . من بيوت فى العطارين إلى " الأزاريطة " إلى " اسبورتنج " إلى " سموحة " . . إلى " الشاطبى " ، ثم عملتْ فى ردهات المحطة البحرية التابعة لميناء الإسكندرية . وكانت دائمة التردد على ابنتها فى الملجأ . ولما كبرتْ وليدتُها وأصبحت صبيّة تعودتْ أن تصحبها إلى الحدائق المجاورة ، أربع مرات شهريا . صباح الخميس من كل أسبوع . كانت تشترى لها لعبا وملابس وحلوى . وتعلقتْ بها الصبيةُ تعلقًا جنونيًا . وكان قلبُها الصغير اليتيم يحترق شوقًا طوال أيام الأسبوع ، وتظل واقفة وراء زجاج وقضبان نوافذ الملجأ ساعات طويلة تنتظر مجيئها . وكانت تفرح فرحًا غامراً عندما تلمح فى البُعد طيفَها يقترب ، فتنطلق كالعصفور هابطة السلم . وبالباب تلقى بنفسها فى أحضانها باكية .

ولمح حسان أثناء استطراده سمات التأثر بادية على وجه صديقه وهو يستمع إليه باهتمام بالغ .

- " وعلى مدار السنين كانت البنتُ تتلقى تعليمَها بالملجأ . وكانت الأم تشترى لها الكتب والكراريس والأقلام وكل ما تحتاج إليه من أشياء وتحملها إليها فى الملجأ ، والبنت تتمتع بقسط كبير من الذكاء والخيال ، فاستطاعتْ الحصول على مؤهل طيب . وكانت الأم قد استطاعت أن تستأجر حجرتين مستقلتين ، هما عبارة عن شبه شقة صغيرة متواضعة جداً فى حى من الأحياء المترسبة فى قاع المدينة بين الأقبا ءالمنحدرة الرطبة تحت " كوم الشقافة " القريبة من " عامود السوارى " ، ولكنها فيما بعد انتقلتْ إلى مسكن آخر فى حي " غربال " ، ولم يكن ذلك المسكن أفضل من الأول ولا أقل بشاعة ورطوبة . عاشتْ الأمُ هناك حياة كادحة شريفة ومعها ابنتها حيث هيأتْ لها كل الظروف المناسبة للمذاكرة حتى حصلتْ الفتاة على "دبلوم معهد السكرتارية" ، والتحقتْ بوظيفة متواضعة في إحدى الشركات . المهم ، وباختصار ، أصبحت الفتاةُ مطمع كثير من الشبان ، إلا أنهم كانوا يكتشفون فيما بعد بساطة حالها وفقرها . وكانت هى من جانبها ترفض شرط التخلى عن أمها .

كانت تأبى أن تعيش أمها وحدها مما دفع بكل من فكّر فى خطبتها إلى الإعراض عنها . ومضتْ سنوات من العذاب والهوان وداخلَها شعورُ بأنها توشك أن تصبح عانساً وهى الجميلة كالزهرة التى كلما تفتحتْ زادتْ فتنةً ونضارة . وفى النهاية تزوجها شابُ كان يتردد على الشركة التي كانت تعمل بها ، بحكم وظيفته ومهنته كصاحب مكتب للاستيراد والتصدير وأسرعت الأم فوجدتْ حلاً لمشكلة السكن وحدها . سكنتْ الأم مع صديقة قديمة لها ، سكنت معها بالمشاركة فى هذه الشقة التى تقطن فيها الآن « الست هناء » فى مواجهة دكانى ! » .

ورشف حسان رشفتيْن من كوب الشاى ، ثم أردف قائلا :

- « أما ألست هناء فقد عاشتْ فى كنف زوجها . وكانت تعين أمَّها من مرتبها بمعونة مالية شهرية ، إلا أن الزوج أجبرها على الاستقالة من وظيفتها ، لكن الأم لم تكفّ عن كدحها حتى أُصيبت بمرض خطير وماتتْ ثم مات الزوجُ بهبوط فى القلب . ونشب خلافُ بين الست هناء وبين أهل زوجها فآثرتْ أن تعيش وحدها فى سلام بعيداً عن وجع الدماغ . هربتْ من النكد والنقار إلى شقة أمها فى هذا البيت أمام دكاني . » .

- « إذن عاشت الأم فترة فى تلك الشقة مع صديقتها حتى ماتت هناك ؟ » .

- « قبل أن تموت الأم وجدتْ نفسها وحدها في الشقة ، إذ انتقلتْ صديقتها إلى شقة فاخرة استأجرها أبنها « رضا » فى حى راقٍ ، بعد أن عاد هذا الابن من الخارج وقد عمل هناك عدة سنوات وأدخر أموالاً وفيرة وعاش مع أمه وزوجته فى الشقة الجديدة كما افتتح معرضًا لبيع قطع غيار السيارات . لكن الأم . . أم الست هناء ماتت فى « المستشفى الأميرى » بين يدى ابنتها ! » .

- « مأساة ! » .

وأشعل حسان وصديقه سيجارتين ، ثم ألقى الصديقُ « شعبان أفندى » بسؤال جرئ :

- « وهل كانت حياتُها سعيدة مع زوجها . . المرحوم ؟ ! » .

فنظر إليه حسان نظرة ساهمة ، ثم قال بحزم :

- « الحقيقة أنا لم أسألها هذا السؤال ، ولا أى سؤال يتعلق بحياتها الزوجية السابقة . أنا أحترم أسرار البيوت وذلك أمر خاص جداً ويمسّ قداسة حياتها السابقة مع المرحوم زوجها وأنا بصراحة أستحى أن أخوض فى مسائل شديدة الخصوصية ! » . فاحمّر وجهُ الصديق حرجًا وندم على سؤاله ، وأدرك أن حسان لم يكن يقصد تجريح سؤاله بهذا الجواب ، لكنه كان يبرر به ، سكوته فى مواجهة الست هناء بأسئلة محرجة حساسة تدور حول هذه الأمور السرية . لكنه قال مداريًا شعوره بالحرج :

- « أنت محق فى هذا الموقف النبيل ! محق بلا شك . . أنا آسف . . » .

- « أبداً . لا داعى للأسف ، فأنت تودّ لى أن أقف على كل كبيرة وصغيرة . وأنا كصديق أحكى لك كل شئ ، ما عرفتُه منها وما استنتجته من كلامها . فالصديق لا يخفى عن صديقة سراً . . » . وسكت حسان قليلاً ، ثم قال بنبرة مفاجأة وأشفاق ووله :

- « ومع الأيام ستحكى لى كل شئ ما بطن وما ظهر . . يتيمة . . ضحية . . سيدة فاضلة طاهرة القلب . درّة أنعم بها اللهُ علىَّ بعد طول صبر . بل هى أفضل منى ألف مرة ! » .

- « بارك اللهُ لك فيها . ومن أعماق قلبى أقول لك صادقا : مبروك . ألف مبروك . حقًا ، صبرت وصمت يا حسان ما يقرب من نصف قرن تقريبا لتفطر علـى . . . » .

وكاد أن يفلت لسانُه بكلمة مرحة مازحة ، إلا أنه أمسك عن الكلام احترامًا منه لروح الجدية التى أشاعها فى الجّو كلام حسان عن مأساة الست هناء وأمها . وتنبّه حسان إلى هذا ، ومع ذلك كان كريمًا مع صديقه الذى يحبه ، فقال متضاحكا :

- « لكنك ظلمتَ عمرى بست سنوات زيادة ! أتقولُ نصف قرن ؟ ! وهل أنا حقًا أبدو بملامحى أكبر من سنّى الحقيقية ؟ ! » .

- « قلت : تقريبًا ! وأحسدك فأنتَ فى نشاط وحيوية شابٍ لم يبلغ الثلاثين بعد ! » . وفجأة ، قال له حسان :

- « اسمع يا شعبان ! تحسنتْ صحتى والحمد لله ، وسأفتح الدكان غداً ولى رجاء حار . أرجوك أن تتكتم موضوع زواجى هذا » .

- « أعدك بهذا وعد الصديق . فلن أبوح لأحد بكلمة ، وإن كان جيرانك يتوقعون هذا الزواج كما قلت لك . . . » .

وأضاف حسان :

- « التوقع غير الخبر . ليكن الموضوع سراً حتى يحين الوقتُ المناسب ! » .

الفصل السادس والعشرون
الكوب الثالث

بعد قليل ، نظر الصديق « شعبان أفندى » من خلال نافذة نصف مفتوحة ، فرأى غيمة المغرب قد اكتنفت جدران ونوافذ البيوت المواجهة ، فسأل حسان :

- كم ساعتك ياحسان ؟

السادسة إلا الربع .

وقام حسان وغادر الحجرة . غاب دقائق ثم عاد مشمراً ذراعيه و « بنطلون بيجامته» عن قدميه . وأخذ يجفف رأسه ووجهه بمنشفة ، ويقول :

- سأصلى المغرب ..

ووقف على السجادة المبسوطة وسط الحجرة وصلى . وما إن فرغ من صلاته حتى التفت إلى صديقه وسأله :

- لماذا لا تصلى ياشعبان ؟ !

« أنا أصلى صلاة الجمعة . مرة كل أسبوع . ألا يحقق لى ذلك الوقوف بباب الجنة ؟ ! إنى قانع أن أكون خادما لرضوان ! » .

- حرام عليك يا رجل . صلّ وقتاً بوقت !

فلم ينبس الصديقُ بكلمة . لكنه بعد برهة ، سأل حسان وهو ينظر الى الكوب الثالث وكان ما يزال ممتلئاً بالشاى :

- لم تَقُل لى يا حسان ! حقًا ، لِمَنْ هذا الكوب الثالث ؟

فقال حسان مبتسما :

- كنت أختبر به جرأة الشيطان ! إذا نقص الشاى فى الكوب يعنى هذا أنه كان حاضراً بيننا .. ولكن الحمد لله !

فسأله الصديق مبتسمًا :

- واذا زاد ؟

- طفح !

فضحك « شعبان أفندى » ، ثم سأله متحيِّراً :

- « هل تؤمن بهذه الخرافات ! ؟ »

- أؤمن بوجود الشيطان ، أعوذ بالله منه وبوجود الجنّ . فهذا وارد فى القرآن الكريم ولكنى الآن أداعبك يارجل ! جئتُ بالكوب الثالث لأعصر فيه ليمونة . وقد أنسانى الحديثُ أن أفعل ..

ولم يَبْدُ على وجه الصديق أىُ ملمح من ملامح التصديق لجواب حسان . لكنه سرعان ما أهمل اهتمامه بملاحظته هذه . وكان يتمشى فى الحجرة ، فنظر من النافذة إلى الشارع ، ثم قال :

- « راقَ الجوُّ وَصَفا ، وأنتَ حبيس بيتك طوال أسبوع تقريبًا ، وأراك تماثلتَ للشفاء ، فما رأيك فى النزول سوياً لنجلس ساعة داخل المقهى القريب من بيتك . لن نسهر حتى لا ترهق ، فأنا والله لا أريد أن أتركك فليس أحب إلى نفس من الجلوس والحديث معك .

- « والله ابن حلال . يكاد لسانى أن ينطق بهذه الفكرة . فكم ضجرتُ من البيت ومللتُ الفراشَ و (حَبْسَة) المرض . أشعر أننى شفيتُ الآن . ولا مانع عندى من أن نلوذ بركن هادئ من المقهى ونسهر سويًا ونكمل حديثنا . فأنا أتوق حقًا للاسترواح والتغيير . » .

وعاودتْ الصديقَ روحُ الفكاهة ، فقال :

- « سئمتَ من الاستلقاء فى الفراش وحدكَ ! » .

فضحك حسان ، فلاحقه صديقُه متمادياً فى الهذر :

- « أما بعد دخول الجميلة الساحرة زوجك هذه الحجرة ، فلا أظنك ستفكر فى الخروج منها ! ولن تخرج منها إلى أى حجرة أخرى ! فمَنْ ذَا الذى يفكر فى هذا الخروج بعد أن وجد نفسه قد دخل الجنة . غرفة وردية اللون بداخلها ملاك يخلب القلبَ ويقلب الخُلبَ ؟ مجنون آدم لو فعلها مرة أخرى ! » .

فسأله حسان وهما يغادران الشقةَ ويهبطان الدرج :

- « وما معنى كلمة (الخُلب) ؟ » .

- « فى لغتنا الجميلة (الخُلب) له معان كثيرة : حجاب القلب ، أو الورقة التى تخفى تحتها عناقيدَ العنب ، أو ظفر السبع . فأنت سبع فى كرمة وإياك أن تكون كبرقٍ خُلّب ! فتخذلنا يارجل ! » .

- «أنت أستاذ فى اللغة العربية وأنا على قَدْ حالى لا أجاريك ، فما معنى «كبرقٍ خُلّب ؟ ! » .

- « أقول لك : اذا كنت فى البيت سبعًا من السباع وتعدنا كفارس فى الساحة بالوعود وتلعب الجمباز ولا إنجاز ، فإياكَ أن تسوِّد وجوهَنا ! إياك .. إياك ياحسان ..

فهم حسان طرفاً من كلام صديقه ، وتفكّر فى أطرافه الأخرى . وسارا فى الطريق جنبًا إلى جنب فى عتمة المغرب وسط السابلة . عَبرا أزقةً بلا أرصفة وبركاً طافحة بمياه الأمطار الراكدة . ودبَّ النشاطُ رويداً فى كيان حسان وانعشتْ نسماتُ الشتاء الرطبة وجهَه ، وتفتحتْ نفُسه لحب المشى فى صحبة صديق يحب الحياة . كان يختار خطاه بمحاذاته واعترضتهما جذوعُ أشجار ضخمة وأروم مجتثة تطلُّ على الترعة ، فأوسع خُطاه ولم يسمح لأى جذع أو لعابر من السابلة أن يفصل بينهما . كان سعيداً بزيارة صديقه له ، فرحا بصحبته وبالائتناس به وبالحديث الذى دار بينهما مشى خفيف الصدر ، صافى الذهن ، طلق الوجه وقد ملأ روحَه بَشُر غريب رحب لم يعهده من قبل ، وتأبط ذراعَ صديقه بحرارة وإعزاز ، وقال له :

- « حقًا ، أنا سعيد بكَ وبزيارتك الكريمة . أنت صديق مخلص .. » .

الفصل السابع والعشرون
فى المقهى

وانتحيا ركناً داخل مقهى يقع فى مواجهة ترعة (المحمودية) . كان المقهى فسيحًا ومكتظاً بالناس ، بعمال المصانع وسائقى سيارات « اللورى » وبأرباب الحِرَف والمهن من سباكين ونجارين وتجار وطلبة وموظفين ، يلعبون الطاولة والدومينو والكوتشينة ، ويشربون ويدخنون ويتكلمون . وكان للمقهى أبواب كثيرة وأركان عديدة تعج بالحركة والجلبة .

وطلبا المشروب ، وانخرطا فى أحاديث مختلفة ، بعضها على هامش موضوع الزواج ، وبعضها عن أحوال البلد وغلاء الأسعار والسياسة والمظاهرات ومناهج التعليم ، وبعضها عن التبرعات التى يجمعونها لصالح التلاميذ الفقراء .. إلى أن سأله حسان :

- « وكيف حال زميلكم « برهام أفندى » مدرس الحساب ؟ » .

فتهلل وجهُ صديقه وقال :

- « آ .. حضر إلى المدرسة ، وانتظم فى الحصص . والتأم جُرحه . وهو مع زوجته الآن حسب كلامه سَمْن على عسل ! واسألنى ما السبب فتضحك ! » .

- « ما السبب ؟ » .

- « السبب يا عزيزى ، أنه اشترى لها حَلّة من النحاس جديدة بدلاً من تلك التى كُسرتْ فوق صلعته ! » .

- « زوج شجاع لا شك ! لكنه كيف يضمن .. » .

فقاطعه الصديقُ مستغرقًا فى الضحك :

- « مدرس الحساب لا يُلدغ من حلّة مرتينْ .. أقصد لا يُبطح ! .. » .

وفجأة ، حانتْ من حسان نظرةٌ إلى رأس شخص مندس بين الرؤوس وراء جماعة من الزبائن ينهمكون فى لعب الطاولة على بُعْد خطوات خلفه جذب انتباهَه صاحبُ هذا الرأس الذى لمح من وجهه ، فى طرفة عين ، بعضَ تقاطيع عارضه . دقق النظر فرأى الوجهَ كله يتوارى خلف رؤوس الزبائن ، فاختلس نظرة أخرى إليه ، فتبين أنه ينظر اليه

خفية بنصف وجهه . قطب حسان تقطيبة خفيفة ، ورمى نظرةً سريعة فاحصة إليه اخترقتْ سحائبَ دخان السجائر الملتوية ، فانجاب عنها أثرُ جرح قديم على حاجبه الأيسر ! فأجفل .. وشرد ذهنُه . وظل يردد إليه نظراته المختلسة ، فأيقن أنه هو « وصفى » ! وتبادلا نظرة واحدة . لكن الشابَ وصفى حدجه بنظرات جانبية خفية . ارتاب فى الأمر ، وتشتت خاطرُه ، على حين كان صديقه ينطلق فى الحديث إليه . وكأن صوتُه قد تباعد وكأنه يترامى فى مسامعه من مكان سحيق ، فلم يعد يسمع منه كلمةً ولم يفهم حرفًا . استبدتْ به وساوس . وتكدر دمُه وانقلب وجهُه . وفجأة ، لحظ صديقُه شروده فسأله :

- « ما بكَ يا حسان ! فِيم سرحتَ ؟ » .

فقال له باتزان :

- « دوار خفيف ! » .

- « إذن ، نقوم » .

- « من الأفضل » .

وقاما ، واتجه حسان إلى الجانب الخلفى من المقهى حيث توقف لحظات ليدفع الحسابَ . وإذ ذاك لم يكفّ عن استراق النظر إلى وصفى ذى الندبة ، والذى كان هو الآخر ما يزال ينظر إليه بطرف خفى وبدا كأنه على وشك أن يهّم بالنهوض وتبين حسان بنظرة أخيرة فاحصة أن وصفى لم يكن واحداً من أفراد جماعة الطاولة ، كان يجلس لصقهم ليبدو فى صحبتهم ، وضاعفتْ ملاحظتُه هذه من جِدة شعوره بالارتياب والاكتئاب . تأبط حسان ذراعَ صديقه ، وانفلت به خارجًا من أقرب باب صادفه . وملأ صدره بهواء بارد منعش مشى بجانب صديقه يثقله صمتٌ مفاجئ . شعور غريب طارئ أعجز لسانَه وحبسه . وسأله صديقه عما به من تغيّر مرة أخرى . فقال حسان :

- « أحس ببعض التعب . وأريد أن أنام لأستريح ! » .

وتاق فجأة للوحدة والانفراد بنفسه . وعلى ناصية أحد الشوارع ، شكر صديقَه وودعه وداعا حاراً ، ثم انطلق عائداً إلى بيته وهو لا يكفّ عن الالتفات خلفه واسترق نظرات تريّب وتوجس وقلبه يدّق فى صدره كدراً وتطيراً .. !

الفصل الثامن والعشرون

الغريمان

فتح بابَ شقته في سرعة ودخل وأغلقه وجذب المزلاج فأوصده بأحكام واندفع نحو النافذة ورمى ببصره خلسة إلى الشارع تحته . رأى الناسَ يسعون في كنف الظلال والأضواء أخذ ينقب بنظراته في الجوانب والأركان . حدَّ بصرَه في السابلة وفي الواقفين على أبواب الحوانيت وبمداخلها المضيئة . وقف دقائق يستطلع ويدقق النظر بحذر بالغ حتى لا يبين جانبٌ من رأسه أو جسمه . ورأى رذاذا خفيفًا من المطر بدأ يتساقط ويرشق زجاجَ نافذته المغبّر . ورفع وجهَه إلى قطاع مستطيل من السماء يلوح له من بين أعالي وسطوح البيوت الكالحة ، فرأى سحبًاقاتمة تزحف في بطء وتخفي وراءها النجومَ الوامضة ، وسرعان ما غام المشهدُ ، فأدرك أن الجوّ ينذر بالمطر الثقيل وحلول « نوة » جديدة عاصفة .

وخلع ملابسَه وارتدى « بيجامته » وتناول من دولاب المطبخ قطعة من الخبز وأخرى من الجبن . وعاد إلى حجرة فراشه وابتلع قرصْين من الدواء ، ثم أخذ يبحث بين الأوراق الملقاة على السرير عن شيء ما والتقط بعضها واستلقى على فراشه وغطى جسمه باللحاف . لكنه بغتة وثب منتفضا وهرع إلى الحمام وتوضأ وأدى صلاة العشاء ، ثم انشغل بقراءة ورقة من هنا وورقة من هناك ، وما لبث أن انكب على كتاب وطفق يطالعه في هدوء قرابة عشر دقائق . لكن بصره غاب في لا شيء ، شرد ذهُنه وتململ ، ووجد نفسَه أسير أفكار ملّحة لا يعرف كيف يخلص دماغَه منها . هذا الوغد الخسيس كيف جاء إلى المقهى ؟ بأى دافع ؟ ولأى غرض اندس بين لفيف من لاعبى الطاولة ؟ التصق بهم ليوهمه أنه واحد منهم . تبين له ذلك . وهذه لعبة من ألاعيبه . فما هو هدفه ؟ أما يزال يحوم ويراقب ويستطلع لغرض ما ؟ ولماذا يستهدفه هو هذه المرة ؟ بالطبع هو كاذب فيما قال ، وها هو ينكث ما وعد به . لم يكن إذن صادقاً في تندمه . لم يتطّهر مما تسول له نفسه . لم يعد غرضُه خافيًا . لم يكف إذن عن الملاحقة والمطاردة . لكن ماذا يبغي منه ؟

استبدّبه شيطان الغواية . حَام وراقب واستقصى الأخبار . لا بد أنه سأل أحداً هناك في الحى بوسائله اللئيمة فاستولد منه خبراً ثم راح يستوضح أبعاده ومن الطبيعى أن تحرق صدرَه نار الغيرة ، فيمتلىء قلبه الأسود بالعداء . العداء لغريمه حسان ! وهذا هو سبب ظهوره ووجوده فى المقهى عن عمد ، وليس مصادفة .. التقط خبرا من شخص ما يرصد الدكانَ بعينِ صقر من جبّ مظلم خفى ، ألم يقل له (سيد عليان) أن زوجته عوراء ولكنها ترى بعين واحدة ما لا تراه ألفُ عين ؟ ولكن عين زوجته (أنيسة) ترى ولا تسمع ؟ فماذا ترى ! ومَنْ الذى سمع ؟ ! وربما كان مَنْ استنتج مسألة عزمه على الزواج منها هو نفسه الذى نقل الكلام إلى هذا الوغد ! لم يبدر منهما ما يشين أوما ينّم عن أمر يكشف عن علاقتهما الحميمة الخاصة . وكل ما يمكن أن يقال أو يشاع أن عقد قران (حسان وهناء) وشيك . ولكن هذا الاستنتاج يمكن أن تضخمه بعضُ الألسنة المولعة بالمبالغة والكذب والتهويل والافتراء . ألا يكون كل هذا كافيًا حتى يطيش صواب « وصفى » الوضيع ، وتعمى الغيرةُ بصيرته ويطفح قلبه الأسود بالحقد والعداء ، فيندفع نحوه للمواجهة أو الكيد أو الدسّ ؟ ! هذا غرضه إذن ؟ ! أما إذا كان لديه كلام فى اتجاه آخر ويريد أن يبوح به ، فلماذا لم يتوجه إليه .

ليقول ما عنده ؟ بدا فى المقهى وكأنه على وشك النهوض كاد يهّم بالتقدم نحوه والتحدث إليه . لكنه تردد قليلا . كاد يقوم . لكنه بالطبع لم يجرؤ لأنه كان يريد التحدث معه على انفراد . وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يهرع فى أثره بعد أن ودّع صديقه وحالَ أن مشى وحده فى الطريق إلى مسكنه ؟ .. حقًا .. كان حسان يسرع خُطاه فى الطرقات ، فربما لم تكن لدى الوغد فسحة من الوقت . وكان حسان يتلفت وراءه بحذر ولم يلمح له أثرا . هل يئس فى تلك اللحظات من سنوح الفرصة لتبادل الحديث معه ؟ وما هو موضوع ذلك الحديث الذى يتوقع أن يفاتحه فيه ؟ ! ماذا يريد أن يقول له ؟ هل يريد أن يقول له: (إبعد عنها !) لكنها لا تطيق رؤية وجهه ، فبأى حق ؟ ! وقد وعد هو ألا يريها وجهَه الكئيب فلماذا يعاود محاولات ملاحقته الحمقاء ؟ ! ولماذا لم يسعَ إليه قبل الليلة ؟ ربما لم يعلم بخبر زواجه الوشيك

إلا اليوم ، فدفع به ذلك الخبر نحوه الليلة ؟ أم تحين فرصة مرضه وانغلاق دكانه ، فسعى إلى الشارع هناك ، يستقصي ويسأل ؟ هل قابل « أنيسة » زوجة « سيد عليان » هنا أو هناك ؟ أم التقى بشخص من أهل الشارع مجهول ، واستحثه على الكلام ؟ وربما قيل له كلام كاذب ، سيما وأن بعض الناس هناك يحلو لهم تضخيم الأمور ، وإشاعة القيل والقال . هل افترى أحدهُم على حسان أوهناء بكذبة ، فأراد الوغد أن يستوثق مما قيل له ؟ ! لا شك أن الست هناء صادقة فيما قالت له عن هذا الحيوان الشهوان ! وكيف توقع ذهابه إلى المقهى والجلوس فيه ؟ هل دلَّه أحد الجيران على محل سكنه ، ثم سعى وراءه خفية إلى المقهى ؟ ! ودار رأس حسان ، وأحس به ملتهبًا - فقال لنفسه : (وربما كان الأمر كله محض مصادفة !) . وأين يقع مسكن هذا الشاب التالف ؟ يذكر أن الست هناء قالت أنه يقطن نفس « الڤيللا » الصغيرة في حي « الابراهيمية » حيث كانت تعيش مع زوجها ، فهذا المسكن إذن بعيد عن مسكنه هنا . ومن المؤكد أنه ليس من سكان الأحياء المجاورة . أهناك سبب آخر دعاه للمجيء إلى المقهى ؟ هل جاء بدافع مصلحة ما أولإنهاء مأمورية تتعلق بشئونه الخاصة ؟ هل كان على موعد مع صديق أو زميل له في العمل ؟ وما هو عمل هذا الفاسد ؟ لا يعرف حسان كنْه عمله ولا مقره . فهل يعمل موظفًا في إحدى الشركات أو أحد المصانع القريبة من هنا ؟ وواجه حسان بغتة افتراضا اقتحم ذهنه اقتحاما : ماذا لو نزل الآن مرة أخرى وذهب إلى المقهى ؟ فهل يجده هناك ، هل ما يزال جالسا في ركنه لصق جماعة الطاولة ؟ وسرعان ما شعر أن هذا الافتراض صعب بل هو مستحيل التنفيذ ! أيسعى برجليه إلى ولد فاسد كهذا فيثير شبهات أو يفضح قلقه ومخاوفه ، فتُجرح كبرياؤه ؟ ! ولكن ، إذا لم تبدر منه في المقهى تلك الالتفاتات الخفية والنظرات المختلسة من وراء لفيف لاعبي الطاولة ، لسهل على حسان القول بأن المقابلة كانت محض مصادفة . ولو لم يكتشف بنظره الثاقب وحدسه الصادق أن ذلك الخبيث لم يكن من جماعة الطاولة ، لكان تفسير الأمر على أنه مصادفة هو الأرجح . وانتبه حسان فجأة إلى شعور بالضيق ينتابه . شعور ثقيل بلغ به حد تأنيب نفسه ، فحدثه ضميره

هامسًا : (لماذا تسيء الظن به إلى هذا الحّد ؟ ربما يكون الشاب مظلوما وقد تابَ فعلاً عن طيشه . وربما جاء إلى المقهى لأى سبب يخصّه . وربما ود أن يجدد معه الحديث الطيب ليؤكد حُسْن نياته . فعندما بادله النظرات ، تراءى له وكأنه يتودد إليه . ولكن حسان نظر إليه شزرا ، وربما أخجلته التقطيبة التى ارتسمت على وجه حسان فصّدتْه خصوصا أن صديقًا كان بصحبة حسان . وربما كان وجود الشخص الثالث هو الذى عاق « وصفى » عن التقدم إلى حسان ، فإن الموضوع الذى يربط بينهما خاص وسرّى . فكيف يجرؤ ؟ ! وربما آثر الفتى نتيجة لهذا الارتباك الطارىء فى تلك اللحظات - أن يخفى وجهَه عن حسان حتى يتخفف من وطأة الأمر سيما أنه يعلم مدى الأثر السئ الذى تركه فى نفس حسان ، وفى نفسها من جراء فعلته الخسيسة وطيش سلوكه وسوء اندفاعه ، فى منتصف تلك الليلة على الرغم من أنه أفصح عن توبته وتندمه وطلبه الصفح والتسامح ، إذن الأرجح أن الشاب ، يشعر لحظة أن وقع بصره على حسان فى المقهى ، يتأنيب ضميره ويثقل وجهه الكئيب فآثر أن يخفى عنه هذا الوجه ، وأن يتوارى كلما نظر إليه حسان . هذا هو الأرجح ، بل هذا مايفسر عدم تعقب الشباب له بعد خروجه من المقهى . كان حسان يحد بصرهَ فى الطريقْ كما فتش عنه بنظراته الثاقبة من خلف النافذة فور دخوله شقته إن حُسن الظن بالناس أفضل لأنه يجنبه ارتكاب إثم جديد فى حق شخص أفصح عن ندمه ! ظلّ حسان يتفّكر ويقلّب الأمور على هذا النحو حتى ارتاح باله عند هذا الحد وهدأ صدُره حينما بلغ به تفسير الأمر فى ذهنه إلى أن لقاءه بالشاب كان مجرد مصادفة وعاد إلى فراشه وسحب بعض الأوراق الملقاة من حوله على اللحاف وعاود مراجعتها بهدوء وروية .وبعد دقائق ، نهض من فراشه ورفع « الصينية » وحملها وتوجه بها إلى المطبخ واخذ يغسل الاكواب الثلاثه بالماء والصابون ، ثم عاد إلى فراشه ، واستقر فيه خالى البال من كل خاطر وتناول الكتابَ وانكبَّ عليه يقرأه بشغفٍ وحبّ على حين كان البرقُ يخطف والرعدُ يقصف فى الخارج !

الفصل التاسع والعشرون

ما وراء غلوش

في الصباح ، حلق ذقنه وتوضأ وصلّى الصبح . وقبل أن يغادر شقته ، فتح بمفتاح صغير دولابًا في حجرة نومه ، وجَثَا على ركبتيه فوق خشب الأرضية . ودسَّ يديه في قلب أكداس من الملابس واللفائف والصُرَر والكتب ، ورفع أكوامًا منها . وفتح صندوقًا خشبيًا عتيقًا مودعًا في ركن من قاع الدولاب وسحب صُرَّة كبيرة من قماش الكتان السميك ، وأخذ يفك عقدةَ رباطها حتى فضَّها ، فكشفتْ عن بضع رُزَم من الأوراق المالية الكبيرة . وبلل سبابتَه وإبهامه بريق لسانه ، وظل يعد بعضها ودون أرقامها في ورقة صغيرة ثم سحب عدداً من هذه الأوراق المالية ، وطواها ودسها داخل محفظة جيبه ، وأعاد كل شيء إلى مكانه في هدوء وسَوَّاه بكفّيه وأغلق الدولاب بالمفتاح .

واستقل الأوتوبيس . وجلس إلى النافذة ينظر من وراء الزجاج إلى الدنيا من حوله نظرةً جديدة ... هبط في المحطة المعهودة وسط الأراضي العراء التي كانت تجتاحها رياح باردة وتجثم عليها سحُب كثيفة وهناك سلك طريقًا آخر خلفيًا إلى قلب الحي الذي وصل إليه اليوم متأخراً . كانت الساعة قد بلغتْ الحادية عشرة صباحا . واندسّ في السوق الزاخرة بالدكاكين المتلاصقة التي تعلوها بيوت قديمة واطئة ، وجال جولة سريعة في الطرقات والأزقة الضيقة المزدحمة بالناس والحركة والجلبة ، دخل دكانًا هنا ودكانا هناك.

وتبادل التحيات والسلام مع أصحابها . واشترى بعض البضائع والحاجات ، وحملها وخرج من السوق وما إن بلغ ناصية « شارع البرازخ » حتى عرج على «المجيرة » ودخل إلى حوشها المليء بأكوام من الجير والرمل وأكياس كبيرة من الأسمنت ورأى «المعلم حميدو الضلم » جالسًا وحده على كرسي داخل حجرة ضّيقة وسط المجيرة . حياه وركن حمله واقتعد كرسيًا قبالته وبادله الحديث . كان وجه المعلم في أول اللقاء بادي التجهم ، إلا أنه سرعان ما أشرق بالابتسام بعد أن خاضا

سويًا فى الكلام ، ثم استغرقا فى الضحك إذ ذاك كان حسان يتعجل الذهاب إلى دكانه الذى ظل مغلقًا مدة أسبوع .

وما أن فتحه وفرغ من نفض التراب وكنس الباحة ورصّ بعض السلع هنا وهناك ، حتى وقف بالمدخل وراح يمسح بقميص قديم زجاج الباب . ورأى خصاص شرفتها مواريًا . كما كانت إحدى النافذتين نصف مفتوحة ، على حين كانت الأخرى مغلقة .

ودخل « شرنبث » وهو يكاد يترضرض فى خُطاه مثل حَجَر منبعج قائلاً بصوت ممطوط :

- " صباح النور على الغندور ، وألف سلامة عليك يا حسان يا أحسن الخلاّن ! "

-" أهلاً أهلاً .. الحمد لله . كيف أنت يا شرنبث ؟ ! "

- " عال . فاتتك يا قمر ليلة السمر . شارعنا من أوله إلى آخره كان كله نور وطبل وزمر ، وملبس وشربات وتمر ، وغناء ورقص وتعميرة من أحسن خميرة . زَفّوا « سالم » ابن الدرديرى » كانت ليلة ! عقبى لك يا حسان ! "

- " بارك الله فيك يا شرنبث .. "

- " على باب دكانك رقصتْ الست أحلام .. عوالم ومولد وفرقة « أبو دراع » يا سلام على هزة بطنك يا ست أحلام ! "

- " اجلس يا شرنبث ! اجلس .. "

- " لا . ورائى شغل ! "

- " شُغْل ! ؟ ما شُغلتك هذه الأيام يا شرنبث ؟ ! "

فدَعَك أنفهَ الأقعن ورفع وجهه الدميم إلى سقف الدكان وقال :

- " حلمتُ حلمًا « لزكريا الباشا » . سأذهب إليه لأفسّره له . رأيتُه واقفًا وسط ورشة النجارة . تحته بحر وعلى ذراعه صقر ، أعطيتُه السَرج الأصفر . وركب الفرس الأحمر . طار طاريه فى السماء السابعة .

اسكت . اسكت . هنا سِّر الصنعة ! "

نطق عبارته الأخيرة وهو يشير بأصبعه إلى دماغه . واستدار على عقبيْه فى حركة رشيقة فدسَّ حسان فى كفِّه شيئا . وغادر شرنبث الدكان مهرولاً ، وحسان يقول مبتسما :

- " ربنا يسهل لك يا شرنبث ! "

وما لبث أن توافد عليه نفرٌ غير قليل من الجيران والزبائن ، حتى اكتظ بهم الدكان جاء بعضهم صادق الشعور للطمأنينة والسؤال عن صحته وطرح عليه البعضُ الآخر أسئلة لا تخلو من اللف والدوران ظنًا منهم أن هناك أسبابًا أخرى وراء غلق دكانه وقصده آخرون ليشتروا منه حاجاتهم . وانصرف الجميع . كلٌّ إلى سبيله حتى خَلاَ الدكان ، إلا من شخص واحد ظل جالسًا على الكرسى الملاصق لمكتبه واضعًا ساقًا على ساق . اقترب منه حسان فرمقه الرجلُ بنظرات غريبة تخلو من الود . قال له حسان على استحياء :

- " أهلا . كيف حالك يا (غلوش) ؟ "

- " الحمد لله كيف الكيف ؟ ! "

فنظر إليه حسان نظرةَ عتاب ولم ينبس بكلمة . فقال غلوش وهو يشير بكفّه إشارة فاحشة ذات مغزى :

- " إذن ، كيف المزاج ؟ ! "

ووخزتْ صدرَه هذه الايماءة الغامزة الجارحة وأساءته قحتُه . لكنه تغافل عن هذه ، وتجاوز تلك بسماحة قائلا :

- "لعلكعلمتَ أننى كنت مريضًا ،ولم أستطع حضور حفل زفاف « سالم » .. "

- " المعلم هلال درديرى زعلان منك . "

- " له الحق فى هذا ، لكنه لو عرف السبب .. "

فقاطعه غلوش بحدة وتهكم :

- " السبب ؟ ! "

فقطب حسان حاجبيه متكدراً وقال باستياء :

- " لا دخل لك أنتَ ! سأذهب بعد صلاة العصر لأبارك له ولابنه ! "

- " الرجل يعتّز بك . وكان يشرفه حضورك فى حفل زفاف ابنه الوحيد ! أغلى مَنْ عنده فى الدنيا . "

- " وأنا أعتز بمعلمك وبدعوته الكريمة وسيقبل عذرى ، ولا دخل لك أنت ! "

فقام (غلوش) متأهبًا للمغادرة ضاحكًا ضحكة مقتضبة صفراء . وقال ببرود وخبث :

- " على العموم ، نحن نقول لك ألف سلامة على الصحة والعافية . لكنى أنصحك أن تصون صحتك وتحفظ عافيتك ولا تكلف نفسك مشقة الاعتذار . ولهذا أرسلنى إليك معلمى ! "

- " معلمك رجل مؤدب ويعرف الأصول ! "

وخَطَا « غلوش » خطوتين نحو الباب ، ثم قال بصوت ينمّ عن غيظ وكمد ، موليًا ظهره لحسان :

- " كان فرحًا كبيرا . أقيم فى سرادق بطول شارع البرازخ . وحضره أهلُ الحى كله ، وأهالى أحياء كبيرة فى الاسكندرية فضلا عن الأهل والأقارب من الصعيد . "

وما أن بلغ عتبةَ الدكان حتى استدار وقال بتهكم لاذع :

- " وأنتَ ؟ ! الأستاذ المؤدب ! متى تزف إليكَ صاحبة العصمة المصون ! ؟ "

واقترنتْ كلمتُه الأخيرة بإيماءة من إصبعه الوسطى إلى بيتها . وقبل أن ينطق لسانُ حسان بكلمة ، كان « غلوش » قد اختفى ومضى بعيداً مسرعًا .. !

الفصل الثلاثون

دقائق فى الوكالة

بعد صلاة العصر فى المسجد ، جلس جنبا إلى جنب الشيخ عبد المقصود فى صحن الجامع مسنداً ظهره إلى عامود حجرى ودار بينهما حديث عابر - بعد أن توجه حسان بالشكر إلى الشيخ عبد المقصود على زيارته الكريمة له فى بيته والسؤال عن صحته ، ثم جرّهما الكلام إلى مسألة الزواج ، فقال له حسان :

- " وفى النيّة يا شيخ عبد المقصود أن أجّهز ما يلزم . وسأتفق معها خلال الأيام القادمة على تحديد موعد عقد القران . وليس فى نيتى بالطبع أن أقيم حفل زفاف ، فلا تسمح بذلك السنّ ولا الظروف ، فضلاً عن أن طباعى لا تميل إلى الجلبة ووجع الدماغ بالطبل والزمر . وبعد عقد القران ستنتقل الزوجة إلى بيت الزوجية فى شقتى بهدوء تام . "

كان الشيخ عبد المقصود ينصت إليه مطرقًا ويهزّ رأسه ويفرك حبّات مسبحته .. إلى أن قال حسان بقلق :

- " ويشرفنى أن تكون أنتَ وصديقنا « شعبان أفندى » شاهدىْ عقد القران على أيدى « الشيخ متولى عبد العال » مأذون الحى .. "

فقال الشيخ عبد المقصود بحسم :

- " اسمع يا حسان ! عندما زُرتك فى بيتك منذ يومين كنتُ مشجعًا لكَ على الزواج ، لأن زواجك يصونك وقبل أن أتركك فى فراشك سمعتُك تهذى بكلام . ولا أخفى عنك حدسى ، فقد فهمتُ من هذا الكلام أموراً أستطيع أن أفسّرها تفسيراً معينًا ، فأنتَ فى دخيلة نفسك لا تريد أن تتزوجها لأسباب أنت تعرفها جيداً ، وكأنى بروحك الشفافة تقاوم فكرةَ الزواج منها ، بل وكأنك مقدم على ارتكاب حماقة ! فهل باطنك مزعزع متحيّر حقا ؟ ! وفى تلك الليلة نزلتُ من عندك أضرب فى الليل وسط العاصفة وأنا أفكر، فعقدتُ العزم على معاودة نصحك بالتروى .. "

فانقبض قلبه وقال بحرارة :

- " قرأنا أنا وهى الفاتحة ! وتوطن عزمُنا على الزواج إيجابًا وقبولاً .. ! "

- " تَرَدُّد ضميرك يدفعنى لنصحك بالتفكر والتروى ! "

- " أشعر أن أواصر المودة والألفة قد انعقدتْ بينى وبينها ، وهو شعور صادق قوى ! "

- إعرف كلَّ شيء عنها ! "

فقال بثقة :

- " عرفتُ ! ؟ "

فرماه الشيخ عبد المقصود بنظرة مبهمة ، ثم قال بحدة :

- " هل عرفتْ أصلها من فصلها ؟ ! "

فغضب حسان أشدَّ الغضب من قسوة كلمات الرجل . لكنه ضبط أعصابهَ وقال بخشية :

- " حَكَتْ لى تاريخ حياتها ، فزادنى ذلك ثقة فى طهر قلبها ونقاء سريرتها : "

- " قلتَ لى أنها مقطوعة من شجرة . إذا لم يكن لها أب ، أليس لها عم أو خال أو .. "

فقاطعه حسان بعصبية واندفاع :

- " اسمع يا شيخ عبد المقصود ! أنا يهمنى مَنْ تكون هى ؟ هى ! "

فقطب الشيخ عبد المقصود جبينه المتغضن وقال :

-"أنافى منزلةالمرحوم والدك سنا وحكمة وتجربة .. إذن . أنتَ حُرّ يا حسان ! :"

فقال حسان استجابةً لهاتف داخلى اقتحمه دفعةً واحدة وبصوت مستدرك :

- " أشكرك . أشكرك على نصيحتك . ومعذرة . أصارحك بأن ضميرى لا يتردد ولكنه يتعذب .. أنا أنظر إليها اليوم بوجدان جديد ! "

فقال الشيخ عبد المقصود باستنكار :

- " وجدان جديد ! ؟"

- " نعم ! هى اليوم فى ضميرى زوجتى ! "

ولم ينبس الشيخ عبد المقصود بكلمة . كاظمًا غضَبه . وضاق حسان بسكوت الرجل ، فقال وقد اتسم وجهُه بالصرامة والعزم :

- " هى فى حكم الله بإذن الله على ذمتى .. ! "

فرماه الشيخ عبدالمقصود بنظرة حادة زاجرة ،فاستدرك حسان على الفور خاشعا :

-" بإذن الله على ذمتى غدا .. أقصد فى القريب العاجل على بركة الله . "

ظل الشيخ عبد المقصود صامتًا منشغلاً عنه بالتسبيح دقائق ، ثم نهض ، فقام حسان فى أثره ، وربت الشيخُ عبد المقصود على كتفه ونظر فى عينيه وقال بمودة وصوت رائق :

- " لا أنصحك إلا بدافع الاعتزاز والحب . فما أودّه من قلبى هو أن تتزوج زوجة صالحة متحشمة ، وأن يكون زواجك موفقًا بلا متاعب ، والدين النصيحة . وإنا لله ، وإليه عاقبة الأمور . "

- " أشكرك يا شيخ عبد المقصود . وأصارحك أننى أتعذب بسبب عزوبتى ولكنى سأسعد بزواجى منها . فهى سيدة طيبة القلب . وهى أيضا تعذبْت كثيراً فى حياتها وستسعد معى . أطمئنك أن هذه الزيجة ستكون موفقة بإذن الله . دعواتك الطيبة ! " .

- " وفقك الله يا بنى إلى زوجة فاضلة ! وليكرمك بدعاء الوالدين رحمهما الله رحمة واسعة ! "

وصافحه حسان ثم غادر المسجد ممتلىء القلب بالرجاء أن يجد عند (المعلم هلال الدرديرى) بعض الاسترواح .

دخل ساحة الوكالة ، وشقَّ طريقَه بين برك الأمطار الراكدة والطين وعربات الكارو والأقفاص . وفى حجرة واسعة التقى بالرجل وسط زمرة من تجار الخضر والفواكه ، ومن الباعة والحوذية . وتعانق الرجلان بقوة وتبادلا قبلات حارة ، وحسان يبارك زواج ابنه ويبدى الأسباب اعتذارا عن عدم حضوره حفل الزفاف وقال (المعلم هلال الدرديرى) بوجه مبتسم :

- " ألف سلامة على صحتك يا حسان . "

- " زعلك منى يكدِّرنى يا معلم درديرى ، فأرجو أن تقبل عذرى . "

- " الغائب عذره معه . غيابك حَزَّ فى نفسى لأننى أعتز وأفخر بك ، فأنتَ من أكابر أهل الحي هنا . وما علمتُ بمرضك إلا أمس . وعذرك مقبول .. " .

فسأله حسان مبتسمًا :

- " ولو لم أغادر فراشي ولم أحضر اليوم فهل كنت ستزورنى فى بيتى ؟!؟.

- " طبعاً الواجب واجب .وعُمر الشقى بقى . وأشعر أنك ستعود إلى دكانك معافى أسرع وقت وقد أرسلتُ أليك « غلوش » والجار للجار يا حسان . .ولم يكن لدى « المعلم هلال الدرديرى » متسع من الوقت وكاد حسان يشكو إليه « غلوش » كى يؤدبه ويقطع لسانه .لكن الفرصة لم تكن متاحة إذكانت الوكالة مكتظة بالناس والحركة والجلبة فأرجأ الكلام فى هذه المسألة .وتصافح الرجلان وقال المعلم هلال الدرديرى : لاأخفى عليك أننى عجلت بتزويج ابنى سالم لأصون صحته وأخلاقه ، فهو ما يزال دون العشرين من عمره فهل أنت تفكر فى التعجيل بالزواج أم فى التأجيل ؟

فلم يجد حسان مايقوله . لكنه قال باقتضاب كل شى بأمر الله ! " ومضى فى سبيله مستاءً أشدَّ الاستياء . يمضّه حزن مبهم ، كما استولى عليه قلق لا يعرف من أين يأتيه !

الفصل الحادي والثلاثون

حديث الأشواق

في ظهيرة ذلك اليوم البارد ، ذهب إلى دكانه وفتحه . وكان أول الزائرين له «الست جليلة » التي صافحته بحرارة ولسانها يلهج بالشكر والدعاء . قالتْ له بشعور صادق :

- « حمداً لله على سلامتكِ . سألتُ عنك وحصلتُ على عنوان مسكنك أمس من أولاد الحلال ، من « شعبان أفندي » وكنت في سبيلي لزيارتك » .

كانت تبدو مجهدة ، شاردة الذهن . فدعاها للجلوس ، فلم تفعل قالت له :

- « الحمد لله أن قلبي اطمأن عليك . أرجو أن تعذرني فورائي « مشاوير » وهموم لا تُعَد . شقاء الشُغلْ لأجل خاطر الأولاد ! » .

- « أريد أن أطمئن على زوجك « الأسطى أحمد برقوق » . ما أخباره ؟ » .

- « ما يزال محبوساً تحت التحقيق ! » .

حيَّته وانفلتْت مغادرة الدكان ، وهي تردد :

- « لأجل خاطر الأولاد ! » .

*　　*　　*

وقبيل العصر ، وبعد أن هدأتْ الحركَة في الدكان ، وفرغ من الزوار وإجابة الزبائن لمطالبهم ، رآها في معطفها الأسود المهيب ، طويلة بيضاء - تعبر الشارع بوقار جمالها الآسر الحزين - متجهة اليه بخطوات رشيقة تنبض بالحماس والأشواق ، فنهض من فوره وخَطا خطوات قصيرة بقلب مضطرب يدقّ دقات سريعة ساخنة . وبرغم ذلك تمالك خطواته ، فلم يبلغ وسط الباحة حتى لا يكشف عن حرارة اللقاء لعابر في الشارع ولا يلوح مشهدها لعينٍ متلصصة ، مع أن السماء كانت ملبدة بسحب قاتمة والدكان يكاد يكون غارقا في الظلام ، خاصةً وأن مصباح الدكان لم يكن مضاءً في تلك الساعة . لكنه تمالك نفسه ، فلم يتقدم خطوة أخرى إلى الأمام . لم يرفع عنها عينيه وهي تتقدم نحوه مسرعة ، والهواء يعصف بشَعرها الطويل - وكأنها ملاك هابط

من الجنة يهرع إلى صدره المعذب . وما أن توسط جسمها المشوق بابه حتى أشرق وجُهها وأرسلتْ إليه ابتسامة وضّاءة عذبة تذوب في وهج الأشواق الوردية ... وبلا وعي ، رفع ذراعيه توَاقا ، تجتذبه إليها بقوة سحرية هالةٌ باهرة من النور . ووثب قلبُه كله واستكن في عينيه متولها مضطرما . ولم يعد يرى من الدنيا حوله غير وجه متورد مستدير ينضح بنضارة رائقة وببشر حيوى ، ومن حوله ياقة معطفها الفرائى المخملى . وغَزَتْه عيناها ولا لون لهما - فيهما شفافية نَوارة ، وصفاء بلا قرار . وكأن المكان كله من حوله تداعى غارقاً فى عتمة شتوية إلا من عنق بللورى صافٍ بارقٍ ناصع فوق الصدر . وكاد أن يمّد ذراعيه ترحاباً بها ، فانتبه انتباهه خاطفة . وفى طرفة عين ، ضاعف من ضبط نفسه ، فمّد يدَه وصافحها بشوق جارف . قالتْ له بنبرةٍ ملؤها الودّ الحار والحنان الدافئ :

- « حمداً لله على سلامتك يا حسان ألف سلامة عليك ! » .

وطار قلْبه فرحاً عندما نطقتْ اسمه - لأول مرة - غفلاً من الكلفة ، حتى فارتْ عيناه بدمع خفيف لم تلحظه . وما أن جلستْ لصق المكتب الصغير حتى أحسَّت تحتها على قاعدة الكرسى بـ « شلتة » جديدة مربعة ناعمة الملمس مكسَّوة بقماش من « الستَان » الحريرى ، النبيذى اللون . وجلس هو أيضا وتحدثا حديثاً عابرا ، ثم طفق يحدثها عن إصابته بنزلة الإنفلونزا الحادة التى طرحته فى فراشه أسبوعاً ، وعن وحدته التى خففتْ من وطأتها زيارة بعض الناس الطيبين له :

- « وخاصة صديقى » شعبان أفندى » مدرس اللغة العربية بمدرسة الحى ! ضحوك ، بشوش الوجه دائماً ... » .

وسألها عن حال جُرحها ، فحمدتْ الله أن أندمل وشفى . فسألته بدورها وهى ترفع خُصلة من شعرها عن جبينها الوضّاء :

- « صديقك يحب الضحك ، وأنتَ ؟ ! هل تميل إلى المرح ؟ » .

- « من منا لا يحب الفرح والمرح . نحن فى دنيانا يا ست هناء لا نحزن إلا لأسباب عارضة . والإنسان بفطرته كطفل برئ لا يعرف الكدر ... » .

وهزّتْ رأسَها مؤيدة ، فأردف قائلا :

- « ولنعمل بالقول الحكيم البسيط : « وافرحوا بالحياة الدنيا » .

فقالت بأسى :

- « وإذا كانت الحياة الدنيا غير مفرحة غصباً عنا » .

- « ولماذا لانجاهد لنجعلها مفرحة ؟ ! » .

- « كيف ؟! » .

- « في اعتقادى أن حياة الإنسان تكون شقّية بلا زواج موفق وبلا أولاد ! و«المال والبنون زينة الحياة الدنيا » ... !

- « والزواج الموفق لا يكون إلا بتوافق زوجين صالحين طيبين » ...

وهنا وجد نفَسه مدفوعاً لخوض جوهر المسألة :

- « تماماً ! لذا أشعر أن قلبى مطمئن إلى حياتنا المقبلة . لكن لا بد أن يكون ذلك أيضا فى مناخ صحي للحياه العامة ! » .

- « أنا استبشر بكَ خيراً يا حسان ! وربنا يصلح الأحوال ! » .

وغمرتْه غبطةٌ وراحة ، فقال :

- « قرأنا الفاتحة مرة . فلنقرأها معاً الآن بقلب واحد وبنبض جديد » .

وقرأ الفاتحة فى السرّ ، وأكفّهما مبسوطة إلى السماء بسطاً هيّناً . وتبادلا الابتسام . وغابتْ عيناه فيها بنظرة جديدة . وعاد فسألها عن أحوالها وكيف عاشتْ الأيام الماضية ، فقالت :

- « حمداً لله على أى حال . لكنى لا أخفى عليك أن أمرين أحزنا قلبى . الأمر الأول ، أن دكانك كان مغلق الأبواب ، فأشاع ذلك فى الشارع كله ، كآبة ثقيلة على القلب ! ولم يبدد هذه الكآبةَ حفلُ الزفاف الذى أقيم فى سرادق بطول وعرض الشارع تقريبا! » .

فقال بقلق :

- « شكرا يا ست هناء . والأمر الثانى ؟ »

- « الأمر الثانى ! كنت آنس بدكانك مفتوحاً كمنارة إنقاذ لغريقة فى بحر من الحزن والظلم . ولما وجدتُه مغلقاً يوماً ثم يومين ، نزلتُ فى اليوم الثالث . وتحيّر قلبى وتساءل عَمّن يدلّنى عن أسباب غيابك كنُت حذرة كلَّ الحذر ألا أسأل أحداً من جيران البيت ، فهم يعرضون عنى وكأنهم يخشون الكلامَ معى ، ولا أدرى لماذا ؟ وسألتُ بائع الفول الذى يدور بعربته فى الحى ، متصورة أنه « شيخ حارة » فأجابنى بأنه لا يعرف شيئاً عنكَ ... واستبدتْ بى الحيرة وأنا على قُرب من عتبة دكانك ، فلمحتنى سيدةُ مسكينة تندس فى ملاءة لفّ قديمة ، وسألتنى : (أتريدين عم حسان ؟) ، قلْت لها : « نعم » قالت : (أنا أيضا أسأل عنه منذ يومين . فعلمتُ الآن أنه مريض بنزلة برد شديدة شفاه الله . فهو أطيب رجال الحى . ابن حلال . أدعو الله له أنا وأولادى أن يشفيه ويحميه ويسعده ببنت الحلال) . ، أنها سيدة طيبة القلب كأمك وأمى ، وهى تحبك وتعزّك يا حسان . أنستُ بها . وتحدثنا قليلاً ورجوتها أن تزورنى فى شقتى ، ووصَفتْ لى هى بدورها مسكنها ، فوعدتها أن أزورها بين وقت وآخر . فرحتُ بها ساعة كان قلبى تائهاً . خفف لقاؤها بى شعورى بالوحدة ! » .

- « ما اسمها ؟ ! » .

- « جليلة ! » .

- « أعرفها ، فهى من زبائنى . سيدة طيبة حقاً . ألم تقل لك شيئًا آخر ؟ ! » .

- « قالت ! قالت إنها تود أن تزورك فى بيتك لكنها لا تعرف عنوانه . وقالت : (ربنا يقدّرنى فيدلّنى ابن حلال على عنوان بيته) ، فقلت لها : (إذا عرفتِ عنوانه يا حاجة جليلة فأسمحى لى أن أذهب معك لزيارته !) ... » .

فلم يجد حسان ما يقوله غير كلمة الشكر . لكن قلبه فرح بالكلمات ، وانقبض فى نفس اللحظة . بغتته لطمةٌ من الحيرة المبهمة . لكنه استطاع أن يتشبث بالتفكير فى الأمر الذى شغله ، فقال :

- « شكراً لكما . لكن ، هل قالت لك شيئا آخر ؟ » .

- « لا ! انتهى حديثنا ومضْت فى سبيلها قلقة على ابنها المريض ! وظللت أراقب الدكان طوال الأيام التالية وانتظر أن تجيئنى الحاجة جليلة بعنوان مسكنك . ولكن حمداً لله ، جئت أنتَ اليوم معافى ولما رأيتُ من نافذتى أنكَ فرغتَ من زحام زبائنك جئت أسأل وأطمئن ... » .

- « ألف شكر ياست هناء والأمر الثانى ؟ ! » .

- « آ ... الأمر الثانى . أخذَنَا الكلامُ عن الحاجة جليلة . ولكنى لا أنسى أن أفاتحك في الأمر الآخر » . وتنهدت بأسف ، ثم قالت :

- « في الحى أناس طيبون ، كما فيه آخرون تنطوى قلوبُهم على سوء النيّة وإساءة الظن ! » . قطب حسان قلقاً ، فاردفْت قائلة :

- « يوم أن صادفتُ الحاجة جليلة أمام دكانك ، وفور أن مضت هى فى سبيلها وانتهتْ مقابلتنا ، همَمْت بالطلوع إلى شقتى ففوجئتُ بشاب أحمر الشَعر واسع العينين، طويل الأنف ، متسخ الملابس ، فوجئتُ به وقد وقف على بُعد خطوة واحدة خلفي . ويبدو أنه كان مختفياً أثناء حديثى مع الحاجة جليلة ور اء سور الخربة . وجدتُه فجأة ورائى يسألنى :

(أتسألين عن حسان ! ؟) ، فلم أرد عليه بكلمة . فقال : (حسان مريض . وسمعتُك تسألين أيضا عن عنوان مسكنه ، ولكنى أقول لك أنه رجل أعزب ، ومسكنه بعيد عنكُ بعْد السماء عن الأرض !) وكان يتحدثإِلَى بحفوة وتهكم موجع ، فقلت له : (لم أسألك !) فقال لى : (كم أنتِ جريئة يا ست الحُسن والجمال !) ، أتعرف هذا الشاب يا حسان ؟ ! ج .

- « هو (غَلوش) أحد عمال « المعلم هلال الدرديرى » صاحب وكالة الخضر... نعم ، هو وقح . سليط اللسان . لكنى سأعرف كيف أؤدبه ! » .

- « لا ... لا ... لا أقول لك هذا لكى تؤدبه . » .

- إن لم يؤدبه معلمه سأؤدبه أنا ! » .

- « لقد ردعتُه بنظرة استياء واحتقار ، فمضى فى سبيله وطلعتُ إلى شقتى . أذكر لك هذه الواقعة الصغيرة لنأخذ حذرَنا من أمثال هؤلاء ... ومن عاقبة القيل والقال. » .

فقال بصوت قوى :

- « اسمعى يا ست هناء . أننا نسير فى الطريق المستقيم ، فلا يجب أن يهمنا كلام الناس الرذلاء ... » .

-« لا ! يجب أن يهمنا لو كنا عاقلين . الكلام له قوته وسطوته . » .

وخمدتْ فيه وقدة الحماس لحظةً ، فقال مستدركا :

- « معك حق . كلامهم له تأثير . لنأخذ حذرنا حتى نتحاشى العقبات ! » .

- « لنجنب أنفسنا شرَّ العداء . يجب أن نسوس أمورنا باللطف والكياسة ! » .

وأعجبه اتزان تفكيرها وانضباط شخصيتها . وكانت بها رغبة لتغيير مجرى هذا الحديث ، فقالت بشغف :

- « والآن ، قُلْ لى أين موقع مسكنك . ليس فى هذا الحى فيما أظن ؟ . » .

فأدرك مغزى سؤالها ، بل أثلج صدَره ، فقال :

- « أسكن فى شقة واسعة ، تتكون من أربع غرف فضلاً عن صالة فسيحة فى الطابق الثانى من بيت ليس قديماً وليس حديثا . وهى الشقة التى كنُت أعيش فيها مع أبى وأمى رحمهما الله . لم يكن لأبى أولاد سوى ابنيْن ، أنا وشقيق لى استشهد فى الحرب . ويقع مسكنى فى شارع « دار الجمالى » بحى « أميروزو » ... وأمسك عن ذكررقمه تحفظاً وحياءً ، فهو موقن أنها هى أيضا لم تكن تبغى معرفته - ومن ثم احترم سؤالها مدركاً أنها إنما تسأله فقط عن الشقة لتوقعها إنها ستكون بيت الزوجية بعد شهريْن . ترك حديثهما فى نفسه أثراً قوياً ، وشعشع نوُر عينيها العذب فى صدره ببهجة أثملتْ رأسه ، فقال :

- « وقد اتفقت مع « المعلم حميدو الضلم » صاحب « المجبرة » أن يبعث إلىَّ فى أقرب وقت بأفضل من يعرف من عمال الدهان للاتفاق على قشر كل جدران وسقوف وأبواب ونوافذ الشقة وطليّها بأفخر أنواع الدهان . واستبعدتُ رشّ أى مكان من الشقة بالطلاء الجيرى ، فما رأيك ؟ ! » .

وأطرقتْ ساهمة لحظات طويلة ، ثم ترددتْ قليلا قبل أن تقول :

- « طبعا . طبعا . هذا أفضل صحياً وذوقياً ... » .

ونظر إليها فرآها وقد شردتْ شروداً عميقاً ، ولكنها استردتْ انتباهَها وقالت :

- « لكنى أرجو ألا تكلف نفَسك كثيراً من المال ... » .

فقال بحماس :

- « دَعك من هذا ، الخير كثير والحمد لله . لدى بعض المال السائل فضلاً عن «قرشين » أودعتهما البنك للاستثمار . والربح لا بأس به . الحمد لله ولا بد من تجديد الشقة تجديداً شاملاً كاملاً بحيث يليق بـ ... ببيت الزوجية الجديد ... وأنت بركة وبشرى طيبة ... » ، فشكرته ، وزايله شعورُ الحياء القديم لحظات ، وأفعمه شعورُ جديد بأنه صار على مسافة قريبة منها ، فتشجع وقال لها :

- « أريد مشورتك فى مسألة تختص بالجهاز واللوازم . لا أريد أن أتصرف وحدى فأسئ الاختيار . طبعاً سأستغنى عن كثير من أثاث بيتى القديم لأبتاع بديلاً عنه جديداً فأخراً . وأعلم أن الفرصة لم تسنح لنا بعد للتفرج على نماذج منه فى محلات « الموبيليا » . لن أتصرف وحدى . بالطبع ذوق المرأة فى هذه الأمور أرفع وأرقى من ذوق الرجل ... » .

- « أثق فى ذوقك . ولا تتعجل الشراء ، وما يزال أمامنا متسع من الوقت ، فلنتريث قليلاً ... فيما بعد ! شعر بضيق خفيف زاحف . وفجأة ، تذكر السؤال الذى ظلّ يلح عليه طوال أيام مرضه ، فَرَنا إليها ليطرحه عليها مبتسماً محاولاً الهروب من ضيق قد يستفحل بصدره :

- « يا ست هناء ؟ اسمحى لى أن أسالك سؤالا ... »

- « تفضل ... » .

- « قلتَ لى من قبل : (لا تحمل همّى منذ الآن) . وأنا لا شك أزعل من هذا الكلام ... » .

ووجد نفَسه مدفوعاً لتقليد روح الفكاهة التى يتمتع بها صديقه « شعبان أفندى » - كما كان راغباً بقوة خفية فى تبديد شبح الضيق الذى يحوم فوق رأسيهما منذراً بكدر غامض ، فقال متجاسراً متضاحكاً :

- « وأنت لا تعرفين غضبى ! إذا أغضبنى رجلُ خنقته ! » .

ولم يكن جادا فى مرحه ، إذ شعر بغتــة أن خجلاً مستتراً يسرى فى باطنه ،

وأنه لا يعرف كيف يمرح وكما يريد ، فكاد جبينه أن يتفصد عرقاً ، لكنها أنقذتْه بضحكة مجاملة قائلة :

- « وإذا أغضبتكَ امرأةٌ ؟ ! » .

فأغرق نفسه في ضحكة عصبية ، ثم أنتبه إلى ضرورة الرّد الذكي المرح ، فقال بلا وعى :

- « ذبحتها ذبحاً ... » .

فاصطنعت الارتياع وقالت بدلّ أنثوى :

- « يا ! أخاف إذن من غضبك ! » .

وما أن زايلتهما لحظات الضحك ، حتى شعر حسان بخدر ممتع وصفاء حلو . وأنبهر كيانهُ كله بأهازيج غامضة ، وكأنه في حلم ويسبح في بحيرة عنبرية مسحورة تحتضنها خميلةٌ مورقة يتضوع في أكتافها طيبُ الياسمين والريحان - وأطفال يلهون من حولهما على بساط أخضر متماوج . وأفاق فجأة وكأنه كان غافياً في ظل عينيها . أفاق على صوتها يقول :

- « إياكَ أن تغضب ! أريدك دائما فرحاً فتفرحنى ! » .

وذكّتْ كلماتها قلبه بالثقة ، وضاعفتْ من حماسه وصحوته ، فتنبّه لسؤاله الذى لم يطرحه بعد ، وقال بحسم :

- « إياكِ أن تقولى لى : « فيما بعد » . قلتِ لى : « لا تحمل همى منذ الآن».

ولكن لن يكون بكِ همّ أبداً بإذن الله . بل أعدك أن أحمل لك الهناء دائما يا ست هناء . وقلت لى من قبلَ : (وكل ما أريده منك ... » وسألتُك : (ما هو ؟) ، فقلت لى : (لا ، ليس الآن ...) ، وسؤالى لك الآن : لماذا تشعرين أن بيننا كلفه ؟ ... أن بيننا مسافة أو أعتبارات كالتى بين الغرباء ... ! من قبل ، كدتِ أن تفصحى لى عن أمر . لكنكِ لم تفعلى ! فما هو ؟ ! » .

وظلتْ ساكنة لحظة ، تطرف بأهدابها الوطفاء وكأنها تحاول أن تتذكر هذا الأمر ، فقال يستحثها بلطف سخى :

- " وقلبك لا يعرف إلا الصدق ! » .

فقالت بانتباه :

- " أقول لك الحق أنني .. وأرجوك ألا تغضب ! أنني خجلت يومذاك من كثرة طلباتي منكَ ، ومن خدماتك العديدة الكريمة .. » .

- " والآن ! وبعد أن أصبحنا ... » .

وأمسك عن النطق بكلمة كادتْ أن تفلت منه ، مع أنه يشعر أنها لن تنكرها ، ولن تغضبها كما أغضبت الشيخ عبد المقصود . ومع ذلك حبسها في صدره ، وأضاف :

- " أصبحتْ شواغلك تخصّني ! » .

فقالت باندفاع :

- " كدتُ أحدثك يومذاك عن معاشي الذي لابد لي من أن أقبضه من البنك ! ومضى على موعد الصرف شهران ! وقد ظللتُ أتدبر أموري طوال الشهرين الماضيين . قد استطيع أن أتحرك في حدود هذا الحي ولكنني لا أجرؤ على الذهاب وحدي الى البنك الأهلي وسط المدينة خشية من المطارِد السافل " وصفي "!»

فقال بحزم :

- « مالك حق أبداً يا ست هناء ! كيف تحرجتِ من الإفصاح لي عن هذه المسألة ، وحلّها في غاية البساطة » ..

- « لم أشأ أن أحرجك فأثقل عليكَ بأكثر مما أثقلتُ ، أو أقحمك في همومي... » .

- « سأغضب منك لكتمانك ! » .

- « من الخير أحياناً أن تُكتم أمور حتى لا تتعب معنا مَنْ نحب ! » .

طار قلبُه فرحاً بقولها هذا . وتجدد شعورُه القوي بالشباب ، وإن شابتْ كلامَها هذا شائبه لا يقرّها . قال ووجهه يتهلل بالبشر :

- « لستُ من رأيك في كتمان أمر من الأمور عن عزيز علينا نحبه ! » .

فقالت بابتسام :

- « اضرب لك مثلا . أليس من الخير لابن لكَ أن تكتم عنه أمراً تراه مجلباً له المتاعب ؟ » .

أعجبته قوة حجتها المفعمة بعاطفة الأمومة ورحمتها ... لكنه قال بذكاء وقد تحركّت في باطنه أشواقُ الأبّوة :

- « أليس من الخير له أن نربيه على مواجهة الحقائق بصراحة ليجابه بنفسه متاعبه بشجاعة على هدى من نصح وحكمة الوالدين ! ؟ » .

- « فى أغلب الأحيان رأيك هو الصحيح ! لكننى أقول لك من المحتمل أن يجئ وقت نضطر فيه لنكتم عنه خبراً قد يصدمه فيمرضه لا قدّر الله ... » .

- « لو تربى الابن على التقوى واحتساب كل ابتلاء امتحانا لثبات يقينه وإيمانه ، لما شعر بالصدمة ، ولما حزن الحزن الذى يمرضه - تماما كما يجتاز الطالبُ بجدّه واجتهاده امتحانهَ المدرسى بتفوق . » .

فقالت متفكرة فى الأمر مليًا :

- « قد ينجح المرءُ كبيراً فى تجربة معينة أو فى محنة ما - أما الطالب صغيراً فما يزال غضّ الأهاب ، فكيف يستطيع أن يتجاوز حزنَه على مصاب جلل ! ؟ » .

- « من يدرينا بحكمة الله مع قلوب أبرار الله وخلق الله جميعا ؟ فالإيمان نور لطيف يقذفه اللهُ فى القلب صغيراً أو كبيراً وبمشيئته سبحانه ربّ العباد . » .

فقالت باستسلام :

- « ونعم حكمة الله جلّ شأنه ! » .

وغمر الفرحُ قلبَه ، إذ بادلها هذا الحديث شعر بقوة القلب وحيوية الشباب ونضارة الأمل ! .

الفصل الثاني والثلاثون

حَبَل الحـــلال

كان بعضُ غلمان الشارع يحومون حول باب الدكان . وما أن سكتنا عن الكلام قليلاً حتى قام حسان وتوضأ على عجل وبسط حصيرته وطفق يصلى صلاة العصر . وإذ ذاك دخلتْ سيدةُ قصيرة عجوز عوراء ووقفت فى مواجهة رخامة البيع تحت الميزان، ونظرتْ بطرفٍ خفى من خلف ملاءتها اللّف إلى الست هناء الجالسة لصق المكتب الصغير . وبعد لحظة من الصمت الثقيل ، قالتْ العوراء دون أن تلتفت وراءها بصوتٍ خفيض :

- « كيف حالك يا ست هناء ؟ ! » .

فقالت الست هناء بهمس :

- « الحمد لله . كيف حالك يا حاجة أنيسة ! ؟ » .

ورَانَ على المكان كله سكونٌ وهيبة ، حتى فرغ حسان من صلاته ، وتقدم من السيدة وأجاب طلبها - ثم مضت مغادرةُ الدكان فى سبيلها دون أن تلتفتْ يمنة أو يسرة أو تنبس بكلمة ! ... وعاد واقتعد كرسيه قائلاً :

- « أريد أن أسألك يا ست هناء ، ما هو عمل « وصفى » ؟ وأين موقع عمله؟ ».

وكأنها فوجئت بتوجيه السؤالَيْن ! فتريثتْ لحظات ، ثم قالت :

- « يعمل صحفياً ، محررا بجريدة « البيان » ...

- « إذن ، مقر عمله فى « محطة الرمل » حيث مكتب الجريدة ، وبوصفه صحفيًا فكل مكان بالمدينة يعّد مجالا لعمله ... » .

- « هو ليس صحفياً للأخبار أو الحوداث . إنه محرر الدراسات الاقتصادية والسياسية ... » .

فسكت حسان برهة . ولكنها لاحقته بسؤال :

- « لكنى أوّد أن أسألكَ بدورى : لماذا تسألنى هذا السؤال ؟ .

وتشاغل لحظات فى سهوم ، يرسم بعض الخطوط العشوائية بقلمه على قصاصة صغيرة من الورق ، ثم قال :

- « لاأستطيع أن أكتم عنك خبراً . لقد لمحتُه مصادفةً داخل مقهى بالحى الذى أقطن فيه ! » .

فتقطب جبينها وقالتْ بارتياع :

- « أتعتقد أن ذلك كان محض مصادفة ؟ ! » .

- « هذا هو الأرجح ! » .

وبعد ثوان من السكوت المريب ، قال بثقة مدفوعاً برغبة فى تغيير مجرى الحديث:

- « مصادفة أو عمداً ، فماذا يهمنا ؟ ما يهمنا الآن هو معالجة أمور حياتنا المقبلة » .

وبعد كلمات قليلة متبادلة ، هدأتْ خواطرهما قليلا ، لكنها سألته :

- « والست أنيسة ؟ ! هل من عادتها أن تتردد على دكانك كثيراً ؟ ! » .

- « أبداً ... نادراً ما تشترى من دكانى شيئاً ! ولماذا تسألينني هذا السؤال ؟ دعى عنكِ مخاوفك ! » .

- « مجرد سؤال ! "

وعاودهما السكوتُ لحظات ، ثم نظرتْ إلى ساعتها على معصمها الأبيض الرخص فقال لها بقلق :

- " تنظرين إلى ساعتك ، وهذا ينذر بقيامك ! » ..

وألقتْ بنظرة جانبية إلى الخارج ، فرأتْ عتمةَ المغرب قد لفّتْ الشارعَ والسورَ المواجه وجانباً من بيتها بوشاحٍ دخانٍ مغبّر ، ثم هزّتْ رأسَها ورفعتْ خصلات من شعرَها بأناملها عن جبينها ، فبَدتْ فى عينيه عذراء فى السابعة عشرة بريئة حلوة .

والتفتت إليه مبتسمة وقالت :

- « فعلاً ، أقوم الآن وأصعد إلى سجنى ! » .

فقال لها وقد تفاقم قلقه مشحونا بالشجن :

- « إن قمتِ تركتنى فى سجنى وحدى » ! .

- « وبعد ؟ ! » .

- « فلنبقَ معاً ولنكمل حديثنا . بقاؤك يجنب كُلاً منا السجنَ الانفرادى ! » .

وكانت ترغب فى المكوث ، فبادلته نظرات الوّد العميق ، وقالت :

- « إذن أضئ المصباح ! » .

فانتبه وكأنه فجأة صَحَا من حُلم ، وقال :

- « العتمة تملأ الدكان ، فكيف نسيت هذا ! » .

ثم أردف قائلا وهو يتجه إلى زر المصباح :

- « نورك يكفى ياست هناء ! » .

وسطع نورُ المصباح المدّلى من السقف وشكرته على لطف كلمته ، ثم قالت :

- « كيف غلبْت شجاعتُنا خوفَنا من الناس الرذلاء حولنا ؟ » .

فقال بلا تهيب :

- « بل ما سبب شجاعتنا » .

- « اقتناعنا بأن الناس ليسوا على حق ... » .

- « ولأننا على حق ، ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد . » .

- « أتعرف أن الخواجات فى أحياء الرمل لا يعرفون هذا الخوف أبداً ... ».

- « لا الخوف ولا التخويف . وغير الخواجات فى كل مكان أناس كثيرون يعرفون التعارف الحلال والتخاطب الحلال ، وإلا فكيف يتسنى الإيجاب والقبول فى الزواج . أما هنا فيحرم الناسُ على غيرهم ما يبحونه سراً لأنفسهم . أمرهم غريب ! ».

- « لكن لا مفرّ من الحذر . » .

فقال باندفاع :

- « إذا أخطأ أحدُهم فالناس لا يرحمونه والله يرحم ويغفر ! شجاعتنا تنبع من شعور قوى بالشرعية ! »

- « ومع ذلك نخاف ألسنتهَم ! » .

فأضاف وقد ألهمه بمزيد من الشجاعة الحديثُ عن الشجاعة :

- « نشعر شعوراً نقياً صادقا بحَبلٍ واحد يربطنا بأواصر طيبة هو حَبل الحلال . »

ورشقته بنظرة ناعمة ، لكنه تلقاها منها كمسمار محمّى اخترق رأسَه فجأة ، وتفصدتْ حباتُ العرق من جبينه ، وكادتْ تتصبب ، فرفع عينيه عن عنقها وصدرها وغاب فى نوبة من الحياء المحرم وراء غشاوة من وخزً الضمير ، وإذا بصوتها ينبعث من بعيد ويخترم ضبابَ انفعاله ، ويتهَدى إلى أذنيه ناعماً مرحاً :

- « المهم إلا تكون عقدة الحبل على العنق ! » .

وانتبه فجأة ، فحاول أن ينعتق من حصر انفعاله ، وانجابتْ رويداً سحابة خشيته ، فرأى وجهَها نضراً يسطع بالبشر المتورد والابتسامة الوضّاءة فقال :

- « حبَل الحلال بلا عقد ! » .

وشعر فى طرفة عين أنها تمزح وهو جاد مشوش الذهن . وفى سرعة استدرك متضاحكاً شاحذاً قدرته على الدعابة مقلداً صديقه المرح :

- « الحبل معنى عظيم . لا تخافى ، فلن يكون فى بيتنا إلا حَبل الغسيل ! » .

ومع ذلك ، لم يفق من غيبوبة انفعاله تماما ، فقد عمقتْ نكتته البائخة المتناقضة شعوره بالحياء . وزاده حياؤه تحرجاً وتشتتاً ، تقمص شخصية صديقه « شعبان أفندى » لحظةً ، فغرق فى ارتباك غريب . ولعن خجلَه هامساً فى سرِّه : « الخجل من الأمور المحرّمة على الرجل ! » ...

واستسمج نفسه وأنكر زلتّه وعدّها إسفافاً ، فاستاء من نفسه أشدّ الاستياء ، واستمرأ الإنكار والاستياء ، إذ شعر وكأنهما ماء طاهر يغسل عرق سخفه ويرفع من

شأنه أمام نفسه . وفى تلك اللحظة وهى تضحك دخل صبى صغير فى توثب برئ قائلا:

- « عم حسان . أعطنى بقرش باكو فلفل أسود ! » .

والتقط الصبى « الباكو » ورمى بالقرش على الرخامة ، وأنطلق خارجاً من الباب فى سرعة الريح . ورآها تتأهب للمغادرة ، فتقدم منها قائلاً :

- « أما موضوع قبضك المعاش من البنك ، فلنتفق الآن على أن أصحبك فى ذهابك إلى البنك وفى رجوعك . » .

- « الحق ، إن خوفى من « وصفى » يتعبك ! ولكن لا شك أن صحبتك صمام أمان لى وأشكرك . ولكن إذا رآنا أحدً من أهل الشارع معاً فلن يرحمنا الناس ، وسيلوكون كلامًا مؤذيًا . والشجاعة يجب أن تقترن بتعقل الأمور ... » .

فهزّ رأسه مؤيداً صوابَ قولها ، وقال :

- « سأنتظرك فى تمام الساعة التاسعة والنصف من صباح الغد ، تحت مظلة محطة الترام عند أول خط (النزهة) على مشارف ترعة (المحمودية) . سأخرج من بيتى وأسلك طريقاً خلفياً أعرفه لأنتظرك فى محطة (النزهة) هناك وعندما ألمحك آتية وأتأكد من رؤيتك لى سأسبقك دخل الترام فتلحقين بى . سيتوجه بنا الترام إلى ميدان (المنشية) . ففى منطقة « النزهة » لن نعثر على « تاكسى » بالسهولة والسرعة التى يتطلبها حذرنا ... » .

- « اتفقنا ... » .

- « وهناك وسط المدينة نستطيع أن نأخذ طريقنا سوياً رأساً إلى البنك الأهلى... » .

- « ومن البنك ، وبعد أن نأمن الطريق ، يحسن بى أن أعود إلى داخل الحى هنا فى تاكسى ، وحدى تجنباً للشبهات والقيل والقال ! » .

- « اتفقنا ، بمشيئة الله » .

الفصل الثالث والثلاثون

القبـــر

وأغلق البابَ الزجاجي بالمفتاح ، وسعى في الشارع . عرج على حارة ، ثم سار في زقاق منحدر حتى بلغ باباً قصيراً لبيت عتيق فولجه مطاطئ الرأس . واجتاز دهليزاً ضيقاً حالكاً ، موحش الهدوء كأنه مهجور منذ سنوات طويلة ، ثم صعد درجات خشبية متآكلة ، يصدر عن هزيزها تحت حذاءيه صريفُ رفيع تنتهى نبرتهُ فى كل مرة بانات متلاحقة كمسامير تخزّ القلب . ومرق « عِرسٌ » سمّورى بين قدميه تحت نور شعاع نحيل يتسلل من شرخٍ بين العوارض الخشبية لحلق السلم . وشمّ رائحةَ بخور وصنان ورطوبة ونتَن .

ولما بلغ الطابق الأعلى ، طرق بأصابعه باباً وحيداً نحيلاً ، ثلاث طرقات . أرهف أذنيه خلال صفير الريح المتماوج ، فسمع أصواتاً من وراء الباب ، ثم فتحت الباب صبيّةٌ خاملة فى التاسعة من عمرها ، شعثة الشعَر ، ذابلة النظرات ، ترتدى جلباباً متسخا ، حافية القدمين . ووثب عند ساقيه طفلٌ فى الرابعة ، أشدّ ذبولاً وبؤساً . بدنه صغير هزيل جاف ، شبه عار ، لا يلبس سوى « فانلة » قصيرة ينتهى طرفها عند بطنه . وكان تيار الهواء يثرى بارداً قوياً . وانفطر قلب حسان لمرآه فقال له :

- « ادخل ... ادخل يا بنى ! » .

ونظر إلى الصبيّة وساءلها بعطف وعتاب :

- « أتتركين أخاك عارياً فى البرد ؟ أين والدتك ؟ » .

فقالت الصبيةُ :

- « ولد شقى . أوصتنى أمى أن أبقيه فى فراشه لأنه مريض ، ولكنه لا يسمع الكلام . » .

فنظر إليه حسان نظرة إشفاق طويلة ، وقال لها :

- « ماذا يشكو ؟ » .

- « كان رأسه ساخناً ملتهباً . شرب الدواء . لكن بطنه توجعه . » .

وظل الطفل واقفاً متطلعاً إليه بعينين زيتونيتين ، والصبية تقول له :

- « أمي ليست هنا ... » .

وأشفق عليهما من تيار الهواء البارد ، وتقدم خطوتين إلى الدخل موارياً الباب خلفه ، وقال للصبية :

- « هاتي ملابسه من الداخل » .

وهرعت الصبية إلى الداخل ، وأنحنى حسان على الطفل ووضع ظهرً كفّه على جبينه يجّس حرارته ، فأطمأن إذ وجد حرارتهَ عادية . لكن وجهه الصغير كان شديد الشحوب والذبول ، تعلوه قطراتُ من عرق أصفر ومسحه حسان بمنديله ، ولا طفه بحنان بالغ . وعادتْ الصبية تحمل قطعاً من ملابس الصغير ، فأسرع بإلباسه إياها ، والصبية تساعده بهّمة . وقال لها :

- « إدخليه إلى فراشه . » .

وجذبتْه أخته من ذراعه . لكن الطفل انفلت منها رافضاً فى غضب . وظل يحملق فى حسان الذى راح يسأل الصبية :

- « ما اسم أمك ؟ » .

- « أمى ؟ أم أحمد ... ليست هنا ... » .

- « أسمها : جليلة ؟ ! » ..

- « اسمها : أم أحمد . كان الناس ينادونها : يا ام أحمد ... » .

وحاول حسان أن يتذكر ما إذا كانت الست جليلة قد ذكرتْ له من قبل أن لها أبناً يدعى (أحمد) . لكنه كان مؤقناً أنه لم يسلك سكة أخري ، وأنه لم يخطئ العنوان - فضلاً عن وجود قرينة أخرى هى الطفل المريض ونظر إلى الصبّية فرآها على الرغم من هزالها وسذاجتها تبتسم وتقول :

- « حضرتك عم حسان البقال ؟ » .

فهزّ رأسه مبتسما ومسح على خدّها بقلب موجع ، وقال لها :

- « أتعرفين اسمي ولا تعرفين اسم أمك ؟ » .

- « أنا عارفة اسم أمى . أم أحمد ، وهى ليست موجودة ... » .

- « أين ذهبت ؟ » .

- « تخرج فى الصباح وتعود قبل المغرب وستحضر لنا معها حاجات حلوة . وأختى (سعدية) تأتى بعد المغرب . وأختى (سعاد) تتأخر ... » .

فقال للطفل :

- « لو أعطيتُك شيكولاته ، أتسمع كلامى وتدخل إلى فراشك ؟ » .

لم يرد الطفل . فقال لهما :

- « وأنا أيضًا جئتُ لكما بحاجات حلوة . » .

ودسَّ يديه فى جيبى معطفه ، وأخرج منهما أشياء عديدة ملأ بها كفّيه وانحنى . ودَنا منهما قائلا :

- « خُذا ... شيكولاته وكراملة ... » .

واصطربتْ نظراتُ الصبيّة ، وتفرستْ فى الأشياء الملفوفة فى أوراق ملّونة برّاقة . وأندفع صوبها الطفُل وخطف عدداً منها بكلتا يديه خطفاً ، والصبية تتريث مبهورة وتقول :

- « قالتْ لنا أمى لا تأخذوا شيئًا من غريب ! » .

- « أنا لست غريباً . أنا تماما مثل أبيك . أنا عمك ... عمك حسان . خذى . ».

فقالت الصبية :

- « أنت مثل أبى ؟ أبى لا يأتى إلى البيت . مسافر إلى بلد بعيد . وغاب ! ».

وكان حسان يود أن يبقى معهما مدة أطول ، لكنه إشفاقاً على الصغير بَدَا قلقاً متعجلاً ، فقال لها :

- « خُذى . سأزعل منك . » .

وجذبتْ بأصابعها طرفَيْن من جلبابها ، فطرح حسان الأشياءَ فى حِجْرها . واستبدتْ به حيرة . همَّ بمغادرة المكان ، لكنه وجد نفَسه يقول للصبية :

- « ما اسم بابا ؟ » .

فقالتْ الصبيةُ بطمأنينة :

- « أسمه : أحمد . » .

فضحك حسان وقال لها :

- « واسم أخيك الكبير ؟ .

- « أحمد ! مسافر من زمان ! » .

- « واسمك أنت ؟ » .

- « لوزة . » .

- « اسمك كله ... » .

- « لوزة أحمد برقوق ... » .

- « بالضبط ! شاطرة ! ... اسمعي يا لوزة ... » .

كان المكانُ ضيّقاً معتماً نتَناً ، تتكدس فيه أشياءً قذرة غريبة بشكل مضطرب كأنه مغارة صغيرة لمخَزْن « الخُردة » و « الروبابيكيا » . وعلى الرغم من موقعه بأعلى البيت إلا أن نافذة واحدة لا تلوح له هنا أو هناك ، بل كان أشبه بجحْر للجرذان أو قبرٍ متعفن . ورأى الطفل منشغلاً بفضّ لفافات « الكراملة » . على حين كان بدنه الهفَ يرتعد من البرد ، فقال مستطرداً :

- « اسمعي يا لوزة . أقفلي البابَ عليكما . وادخلي أخاك في فراشه وغطيّه جيداً ... هو الحمد لله شفي . وستأتي أمك بعد قليل . قُولي لها (جَاء عم حسان وسأل عنك .) . إقفلي البابَ جيداً . » .وهبط درجتّين فرأى الصبيّةَ والطفل يتبعانه من خلفه . كان الطفل يلتهم (البسكويت) ويغمغم : « بابا ... بابا ... » وصاحتْ «لوزة » بصوتٍ مرتعش نحيل :

- « يا عم حسان . اسم أخي الصغير (بلبل) ... » .

وعاد إليها فدفع بهما إلى الداخل برفق . وما أن أغلق عليهما البابَ بأحكام ، حتى سمع صراخَ الطفل وبكاءه . وأخذ يهبط السلم وفي قلبه وجع وهوان وهبوط ، وكأنه يغادر قَبراً لينزلَ إلى جوف قبره السحيق ، وهو يهتف في باطنه بغضب وحزن :

- « عالم بائس يرضع الذلّ ! كلُ عارٍ يُكَسى . وكلُ جائع يُطعَم . وهل يكفي الإحسان ؟ ! رحمتك يا رحمن ! » .

الفصل الرابع والثلاثون

فى ركن الأحلام

ليلُ الشتاء طويل ، ولم ينم طوال تلك الليلة أكثر من ساعتين قُبيل صلاة الفجر التى سعى لتأديتها فى الجامع المجاور لمسكنه ، ثم عاد إلى بيته وحلق ذقنه حلقاً دقيقاً ناعماً ، وأغتسل وتعطر ثم ارتدى ملابس نظيفة تكاد أن تكون جديدة . ارتدى قميصاً هفافاً ناصع البياض ورباط عنق نبيذياً لأول مرة منذ زمن الوظيفة ، وبذلة كُحلية غامقة قشيبة لم يلبسها إلا مرات معدودات على مدار عدة سنوات وفى مناسبات عزيزة نادرة . و لبس جورباً كحلياً لم يُلبس من قبل . وانتعل حذاء أسود جديداً بعد تلميعه بقطعة قماش صوفية . وغسل يديه ، ثم أعاد تمشيط شعره الأسود الذى تلوح وسطه فوق جبينه صلعةُ خفيفة وسحب من الدولاب معطفاً رمادياً داكناً أطيب حالاً من معطفة المعهود ولبسه ، واعتدل أمام المرآة ، وتفحص وجهَه فابتسم عندما تبدتْ له ملامحُ الشباب النضر ، وقد عادتْ إلى محيّاه الأسمر ...

وفى المقهى القريب من مسكنه تناول قطَعاً من « البسكويت » و فنجاناً من القهوة وأشعل سيجـــــارة ... ثم استقل الأوَتوبيـــس . ونزل فى محطة أخرى تطلّ على ترعة « المحمودية » .

بعد هنيهة ، وفى الموعد المحدد ، كما اتفقا أمس ، تقابلا داخل عربة الترام . جلسا لأول مرة جنباً إلى جنب . بَدَتْ له فى هذا الصباح الباكر ، وفى معطفها الأسود ذى الياقة الفَرو الناعمة ، أكثر فتنة ورقة وأشدّ سحراً وجمالاً . نظر فى وجهها الأقمر نظرةً واحدة مبهوراً . بَدَتْ وكأنها أميرة تواضعتْ تواضعاً تاريخياً ، وهبطتْ من عليائها تجوس أرض شعبٍ كادح منسى . وكانت الطرقات التى يشقّها الترام قد ابتلتْ برذاذ المطر . وكان حريصا كل الحرص على تجنب الالتصاق بها رغم أن الزحام أخذ يتكاثف كلما تقدم الترام فى مساره وانتقل من محطة إلى أخرى . أزدحم ممر الترام بالعمال والموظفين والطلبة . تكأكأوا من حوله وفوق رأسه ، وضغط بعضُ الواقفين بجانبه جسمهَ ضغطاً قوياً ، إلا أنه كان يتحامل ويتحمل متحاشياً الميل إليها قَيدْ أُنملة أو التـــزحزح ملليمـــتراً واحـدا . أشرقتْ نفسُه بنقاءٍ غريـــب عذب . لكن مظهـــره مع ذلك كان مكتسياً بتجمدٍ حصين . كانت به قوةٌ لمحاصرة جسمه وللإبقاء على

مسافة قدرها سنتيمتران تفصل بينهما ، بين معطفها الأسود الرقيق وبين معطفه الرمادى الخفيف . وبلا اتفاق بينهما كانا لا يتبادلان كلمة واحدة ولم يكن صمتُهما يثقل عليهما ، بل على العكس ، كانا يشعران أن فى صمتهما سلامة . مكثا هكذا كغريبيْن حتى بعد أن أنطلق الترامُ من إسار القضبان اللامعة المبتلة - وكل منهما يحسب حساباً للتوقعات والاعتبارات . ألا يحتمل وجود واحد أو اثنين على الأقل ، من أهالى شارع « البرازخ » داخل الترام ؟ ! كان شعُورهما بهذا الاحتمال قوياً مهيمناً فآثرا الصمتَ . وكانت تتشاغل طوال الوقت بالنظرمن النافذة فى شرود أو تنتبه فتلتفت إلى بعض المشاهد عَبر الطريق أو تعبث بأطراف حقيبتها النائمة على وَبر معطفها ، أو تمسح بمنديلها الأبيض الصغير ذرةً من المطر عن جبينها ، أو تنظر إلى ساعتها أو تجّس بطرف بنصرها الرقيق غمزة شفتها السفلى التى بَدَتْ كورقةٍ صغيرة من أوراق الورد . لكنها أبداً لم تلتفت إليه ولم يلتفت هو إليها سوى مرات قليلة . وبالرغم من حرصه البالغ على ألا يمسّ معطفُه معطفَها ، وألا يغمز كوعُه ربْلَةَ ردفها تحت الحزام ، وألا يتحسس بطرف ركبته أبضَ ركبتها - لكنه كان يرفع رأسَه وينظر إلى الزحام أو يتطلع إلى أقصى عربة الترام أو يخفض رأسَه قليلاً فيختلس نظرةً خاطفة إلى عارض وجهها البهى النضر ، أو إلى رموش عينها الطويلة الوطفاء ، أو إلى زغب الغرو البارق المتماوج وهو يداعب خدّها الأرجوانى الشفاف . وأخيراً ، استقر الترامُ فى ميدان (المنشية) ، فقام ونزل وهى تتبعه من خلفه على بُعْد خطوة أو خطوتيْن وبلغا ميدان (عرابى) ، ثم سارا جنباً إلى جنب على طوار شارع « صلاح سالم » . كانت الشوارع هادئة الحركة ، قليلة المارة . أغلب المحال مغلق . وما لبثا أن دخلا مبنى « البنك الأهلى المصرى » . وكانت ردهته الفسيحة خاوية إلا من نَفر قليل . واتجهتْ إلى « شباك » تعرفه بخبرتها السابقة . وفتحتْ حقيبتَها وأخرجتْ بطاقتها ، وقدمتها إلى موظف البنك المختص . ودارتْ الإجراءات سريعاً ، على حين كان هو يقف بجانبها حارساً رفيقاً حانيًا لدى كل حركة وإيماءة وخطوة .

وبعد دقائق من الانتظار فى الردهة أمام « شباك » آخر ، لصق قضبان مذّهبة ، أعطتْ الصرافَ بأناملها قطعة من النحاس مستديرة مرقومة برقم (٢٠١) ، ثم وقعتْ بالاستلام على استمارة دفعَ بها الصّرافُ إليها ، ثم طفق يعدّ لها بعضَ الأوراق المالية وهو يرمقها بنظرات باردة من وراء زجاج نظارته السميكة . تسلمتْ المبلغَ وعدّته بدورها ثم دستّه فى حقيبتها واستدارتْ تتحدث إلى حسان وهما يتقدمان نحو الباب

الخارجى . أمعنت النظرَ فى أناقته ووسامته مبتسمة ، وقالت له :

- « بكّرنا قبل الزحام وانتهينا بسرعة » .

وبالباب الخارجى فى مواجهة الشارع ، قال لها :

- « نحن فى باكورة الصباح ... رذاذ المطر خفيف ... » .

فابتسمتْ وقالت :

- « أنتَ بالطبع تريد أن ترجع إلى دكانك ... » .

- « فى بعض الأيام أفتحه متأخراً . ألديكِ اقتراح ؟ ! .

- « لنجلس فى محل هادئٍ ولو نصف ساعة ... » .

قال وقلبه يتوثب فرحاً :

- « كنتُ أفكر فى هذا الاقتراح . لم أجلس منذ وقت طويل فى محل «لورانتوس» وهو على بُعد خطوات من هنا . أيام كنتُ موظفاً ، كان يحلو لى الجلوس هناك حيث ركن هادئ أخلو فيه إلى نفسى . كنت أتوق آنذاك إلى الحرية والانعتاق من قيود الوظيفة. فى ذلك الركن أتخذتُ قرارى بالاستقالة من الوظيفة ... » . وسارا جنباً إلى جنب يحتميان من رذاذ المطر تحت شرفات البيوت الضخمة وبجانب حوائط البنوك العتيقة وجدران العمارات الشاهقة والمطر ينهل فيغسل الشوارع الفسيحة فيلمع الأسفلت ويتماوج كالفَرو السمورى تحت أضواء المصابيح ذات الأعمدة العالية ، وكأن إطفاءها قد نُسِى عن عَمْد احتفالاً بهما عروسيْن كعصفوريْن فرحيْن بالحرية وسط شوارع المدينة فى هذا الصباح الخدر ، بعيداً عن غفر الحضيض وكآبة سجن الحى هناك. كانا يسيران على الطوار وسط أناس يختلفون تماماً عن مخلوقات شارع « البرازح » . رأى حسان أن « الست هناء » بَدَتْ أكثر حشمة من البنات والنساء العابرات فى ملابس « المينى چيب » القصيرة التى كانت تكشف عن عرى فاضح على الرغم من برد الشتاء . فأين أنتَ من كل هذايا شيخ عبد المقصود ؟ ! أين كل هذا السفور والتفرنج من السيدة المحتشمة الوقورة التى بصحبته الآن ؟ ! وخطرتْ فى قلبه الحالم المتوثب بالغبطة والسعادة ، أمنيةُ ضحك لها خفيةً ، وهمس فى سِرّة : « لو سبق الغدُ هذا الصباحَ النضر البهيج لا ستطعتُ أن أتأبط ذراعها ... لِم لا ؟ ! » ... تمنى هذا

أيضًا لكى يعينها على تخطى مياه المطر الراكدة حول البالوعات تحت الأرصفة . ولكن ليتها تجرؤ هى فتفعل ... ألا يغمض عينيه ويفتحهما فيحس بها وقد تعلقتْ بذراعه كقطٍ صغير أليف حنون ناعم ؟ ! .

ودَخَلا المحل . وعَبَرا ممراً . واتجها إلى ركنٍ بالداخل يشيع فيه دفء غريب . كانت جدرانه مبطنّة من كل جانب بخشب في لون البندق ، والأضواء خافتة ... وكانت تقوم على مفرش المائدة المخملى النبيذى « أباچورة » صغيرة يشّع منها ضوءُ فى لون البرقوق ، وموشّاة بزخارف فنية رفيعة الذوق ، وكمنا فى الركن الساحر وكأنهما فى أغوار خميلة فردوسية . ونظر هو إليها نظرته الأولى مبهورا ، فرآها رؤيةً جديدة من خلال درجات الألوان الوردية الهادئة ،، كان الركن ملتفاً فى عطاف ناعم دافئ ، توافقتْ أضواؤه وظلالُه توافقاً أشاع جّواً شاعرياً غامضاً . وبَدَتْ هى كأنها ربّة من ربات الجمال أو ملاك من جنة الخلد . ورأى نبعاً رائقاً من الحنان الوارف ، يفيض من وجهها الأقمر ، من عينْى ظبية وليدة ملؤهما الرؤى الشفيفة .

... وجاء « الجرسون » ، فأعفاها حسان من جهد النطق بكلمة عن الشراب والطعام حتى لا يتبخر من رأسه سحُر هذه اللحظة المترعة بالنشوة . طلب منه الشاى وبعض قطع « الپاتية » و « الجاتو » ... ومضتْ الدقائقُ ، وتناولا الإفطار خلال حديث عابر هادئ ، ثم تململتْ قليلاً فى قلق خفيف طارئ ، إذ لاحظ إنها تجيل نظرها فى أرجاء الأركان الراقدة من حولهما فى ظلال النشوة . وقال لها :

- « يبدو المحل بأضوائه وجوهِّ هذا وكأننا فى منتصف الليل ، وفى نفس الوقت وعلى بُعد خطوات يملأ نورُ النهار الدنيا بالخارج ! لهذا كنتُ أجئ منذ سنوات وأجلس هنا ساعة ... »

- « وحدك ؟ ! » .

لو لم يكن الضوء متورداً وخافتاً ، لأحمّر وجهُه . لكنه قال بثبات :

- « وحدى ! كان هّمى الأكبر آنذاك هو حريتى . لا أطيق القيود . والوظيفة ذلّ وعبودية. وفى العمل الحّر ترويح وحرية ! » .

- « ألم تأتِ هنا ولو مرة واحدة فى صحبة ؟ ! » .

وسكتت تنتظر جواباً ، فقال بهدؤ:

- « أصارحك أنني تمنيتُ هذا . واليوم . اليوم فقط وبعد سنوات طويلة تحقق حُلمي ! ... » .

ولم يجد في نفسه مزيداً من الشجاعة . وكاد حياؤه أن يكبل دماغَه ، فودّ أن يعود لحديثه عن المكان ، فقال بصوت خفيض :

- « أحب في هذا المحل الليل في عزّ النهار لأحلم ، وأنتظر طلوع النهار طوال الليل في شقتي وحدي مؤرقاً . ! » .

فقالت بابتسام :

- « وكأنك في ركنك هنا في قلب القمر ترى الليلَ يساراً والنهار يميناً . ! » .

- « أنت تحبين الشعْر ، وأراكِ الآن وكأنك على وشك أن تقرضيه ارتجالا ... » .

ضحكتْ وقالت :

- « ليس الذي يوحي به المكان ، ولكن خير جليس في الزمان حسان ! » .

فقدح ذهنَه وشحذ خيالَه ثم قال ليجاريها متحدياً :

- وإن كان في بيتك هذا ثناء ، فأنتَ البدر ومنكِ كل سناء . أي والله يا ست هناء ! » .

فضحكا ضحكات مرحة ، فاستمرأ سعادةَ المرح ثم قال هامساً طلباً للمزيد :

- « فأنتِ الهناء وأنتِ قمران البيت ، فماذا يهم لو خَلاً مصباحه من الزيت ! . ».

فقاطعته ضاحكة :

- « كيف يتأتى هذا البيان . في هذه الحال سأهرع إلى الدكان ! » .

وأستغرقا في ضحكات قصيرة هادئة . وأكد لها أن قريضه دائما مكسور .

وعادتْ تجيل نظراتها في أرجاء المحل ، فسألها بهّزة من رأسه مستوضحاً ، لكنها نهضتْ مستأذنة وأومأتْ إيماءةً فهم مقصدَها . وأشار بيمناه إشارةً خفيفة سريعة ، أن تسلك الممر حتى أقصاه ثم تعرج يمنة . وكان الممر غارقاً في ظلال مخملية

كابية وكأنه قبو سري أرستقراطي معبق بضباب صَهب يلاشي ما وراءه ، مسقوف بأوراق دغل عريضة تستكن خلالها عناقيد من ضوء ياقوتي أرجواني وأعناب يانعة تشعّ وهجاً جمرياً وانياً كما تتقاطر دموعُ النور في الأرجاء بألوان عديدة أشبه بجناح الهدهد . وظل يتبعها بنظرات حالمة وهي توغل في الظلال بقامتها الجميلة وزغب معطفها يبرق ويومض كسنان شهاب حتى غابتْ تماما في غوامض الأركان ...

وأشعل سيجارة ، وراح ينفث سحائبَ الدخان متفكراً فيما يقول الآن وفيما يفعل في الأيام القادمة . وطاف برأسه سؤالٌ داهم ، سؤالُ الشيخ عبد المقصود : (أعرفت أصلها من فصلها ؟ ! » . وأوجع السؤالُ قلبَه يومذاك ، فعاوده شعورٌ قوي بالاستياء والاستنكار . وضاق صدُره فألقى باللائمة والعتاب على ذاكرته العابثة التي تجلب له النكد الآن في ساعة هي أعذب ساعات العمر . وقال لنفسه : « إن ظنون الناس قاتلة ويد الشيخ عبد المقصود في الماء البارد ، يلقي بالكلام مجرداً من احتضان ظروف عباد الله . وتنبع حكمته من دماغ يفكر مفارقاً للأسباب وللظروف وضحاياها ، ولا يحنو على الضعف البشرى الذى يفتح له الله سبحانه وتعالى أبوابَ الرحمة . (فاما اليتيم فلا تقهر.) ولكن الشيخ عبد المقصود لم يعرف عنها ما عرفه حسان . وكان الأجدر بعقله أن ينطلق إلى آفاق أوسعْ وأدق ، وأن يتريث في تدبر القول ويتحصن بالحيطة فلا يندفع إلى التشكيك أو سوء الظن ... فلو تفكر بقلبه الرقيق عاطفاً على آدميتهم الضعيفة لمانطق بسؤاله الذى لم يخلُ من ظلم ! وهذا المدعو « المعلم هلال الدرديرى » قد سأله أيضا سؤالاً خبيثا : « هل تفكر في التعجيل بالزواج أم في التأجيل ؟ ! «سؤال مقرون بالتلميح والغَمز واللمز ! عرفوا أن عقد قرانه وشيك ، فلماذا يستحثونه على التأجيل أوالعدول بكل هذا الخُبث ؟ ! الشيخ عبد المقصود متزوج وله سبعة أولاد ، و « المعلم هلال الدرديرى » تملكه غرورُ الفرح بتزويج ابنه ، وحتى هذا الشاب الصعلوك « غلوش » هو الآخر متزوج أبنه وتدفئ بيتَه رزمة من العيال فلماذا يريدون منه ألا يتزوج ؟! بل ، لماذا لا يتجول معها بعد قليل في الشوارع الخلفية الهادئة حيث توجد (صالات) عرض (الموبيليا) ! ؟ لا بد من أن يضرب بكل الظنون والآراء المعارضة عرض الحائط ! لِمَ لا ؟ ! ...

ورآها قادمة بقوامها المتوهج تشقّ الظلال . رآها تجتاز الممرَ بخطوات هادئة خافضة الرأس في حياء ، فتوثبتْ في خياله صورٌ وردية خاطفة ، دغدغتْ عروقَه

ومددتْ غضاريفَه . ووضعتْ حقيبتَها السوداء على مفرش المائدة تحت كوعها .

وبعد لحظة صمت طويلة أخَّاذة، نظرتْ في وجهه وقالت مبتسمة :

- « جلســـنا ساعة أو أكـــثر ، ولا أريـــد أن أؤخرك عن فتح الدكان أكثر من هذا ... » .

- ما المانع أن أفتحه بعد ساعات ؟ وما رأيكِ أن نتجول الآن لنتفرج على الأثاث في صالات عرض (الموبيليا) ! ؟ » .

- فقالت بتردد :

- « الجو اليوم دمّاع بالرذاذ . لنرجئ ذلك إلى يوم آخر ... » .

- « خَفَّ الرذاذ ... » .

- « أنسيتَ أن اليوم يوم الأحد . أغلب المحال مغلق . » .

فقطب وقال باستسلام :

- « أمرك ! » .

ولعن ذاكرتَه التي تذكره بهموم نكداء وتنسيه مفاتيح الفرح والأمل ! وسمعها تقول :

- « كما اتفقنا أمس ، سأستقل تاكسياً من أمام باب المحل ، فدخولنا الحي معاً يُعدّ استفزازاً سافراً ... » .

- « أمرك يا ست هناء . سأخرج لاستدعاء التاكسي . » .

وتناول حسان وريقات حساب المطلوب من تحت طبق فنجان الشاي وبحث في جوف الظلال عن الجرسون . أعطاه الثمن عند المدخل . وخرج إلى نور النهار حيث تنّقل على الطوار تحت مظلة المحل المستطيلة واضطره البحُث إلى السير هنا وهناك تحت رذاذ المطر .

بعد دقائق ، عاد إليها في الركن . نهضتْ وسارتْ وهي تسبقه بخطوة واحدة . وفي الممر الظليل أسند طرفَ كوعها تحت راحته في رقة وتهيب بدافع قوى من شعور

طارئ ، شعور بالواجب واللطف واللياقة . ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن المكان لم يكن معتماً ، فقد تعثرتْ خطاها فى طرف السجادة ، فأمسك بكوعها بقوة ، فى حركة تلقائية ، فى انتفاضة لا إرادية ، فارتطم جسمُها بصدره ، ومالتْ وكادتْ أن تتطوح فطوقها وأسندها ... وما أن بلغا البابَ الساطع بنور النهار حتى سبقها إلى باب التاكسي وفتحه ، فاندفعتْ داخله فى هرولة ، وبخفة قطٍ هارب مذعور . وأغلق البابَ، فحيَّته بإشارة خاطفة من وراء الزجاج . وانطلقتْ بها السيارة فى سرعة ، تاركة حسان واقفاً وحده على الطوار تحت الرذاذ يمضّه شجنُ ! .

الفصل الخامس والثلاثون

والآن . هل هو حرّ ؟

لما رجع إلى دكانه قبيل الظهر ، لمح كوما من القمامة ملقى على عتبة الباب . أزاحه بالمكنسة في صمت ، وواراه خلف السور الملاصق في استياء وغضب .

وطفق يباشر عمله بين زبائنه بنشاط وهمة .

وبعد الظهر ، كلّف صبيًا من أولاد الشارع أن يملأ له جرد له من ورشة النجارة . وتوضأ وصلّى العصر . وكأن بادى التململ والضجر ، على الرغم مما في قلبه من فرح دفين صامت ، وما في مخيلته من أخيلة متوثبة . وفي هدأة ساعات العصر ، جلس إلى مكتبه وتصفح جريدة « الأهرام » ، ثم راجع حساباته . ولم تكف عيناه بين الحين والحين عن استراق النظرات إلى نوافذها . كانت جميعها مغلقة . وعجب لهذا الخوف الذي يحجب كل هذا الجمال الفاتن . وقال لنفسه : وخوفكَ أنت أيضًا يحجب عنك كل شجاعتك النائمة كحرية الرأى ! » - فلعن خوفَها وعاوده شعورَه ببُعد المسافة بينهما ، ومع ذلك لم تزايله حتى الآن أحاسيس أخرى . تلك الأحاسيس التى كان ينعم بها في الصباح . كان منذ ساعات قليلة ، يسعد بعبق أنفاسها . ألم يجلس إلى جانبها ولم يكن بينهما من فاصل سوى بوصة واحدة ؟ ! ومشيًا جنباً إلى جنب في شوارع وسط المدينة تحت رذاذ المطر وجلسا وجهًا لوجه في مكان هو ركن من أركان الجنة . ألم يحدث كل هذا منذ ساعات قليلة ؟ ! وأغمض عينيه بقوة وفتحهما ، والتبس الأمر في ذهنه لحظة ، ظناً منه أن ما حدث في الصباح الباكر كان حلماً وردياً من أحلامه . كان لا يصدق الحقيقة . فاسترجع في مخيلته المسحورة كل صور جولتهما منذ التقيا في عربة الترام وحتى انطلق بها التاكسى ليعيدها إلى مسكنها . وساءل نفسَه : « ترُى ، أين استقر بها التاكسى ؟ هل دخل بها إلى الشارع هنا ، أم نزلتْ منه على ناصيته حيث الشارع الرئيسى الواسع ؟ ! وتحسس بأصابعه معطفَه ، فأنفاسها ما تزال عالقة به ، وقد فكر في العودة إلى بيته ليغيّر هندامه الأنيق قبل أن يجئ إلى دكانه حتى لا يثير الريب من حوله . لكنه آثر أن يهنأ بكل ميراث زفافهما الصباحى الفريد . كل شئ ما يزال حياً في كيانه . وسرى الدمُ دافئاً في عروقه وتحت جلده . وشعر بسخونة خدّيه وأذنيه وصدره ، وكأن كل جسمه يتمدد في نشوة . ولكنها نشوة يخالطها إحساسُ قوى

بالعذاب . كان عقله يفتقر إلى التركيز . أفكاره بلا صفاء . أخيلة مشتطة . وتملكته حيرةٌ وضيق كان أشبه بحمام حبيس برجه ، فرحاً لأنه يحدس أن ميعاد انطلاقه وشيك ولكنه مع ذلك ، لا يطيق الآن سجَنه وكتم أنفاسه ! . واستعاد حديثها ، فما يزال صوتُها الهامس متناغما فى رأسه . ما أعذبه ! واستمرأ استرجاع حوارهما . انتفض قلبُه فرحاً . فهى التى اقترحتْ الفكرةَ الجميلة : « لنجلس فى محل هادئ ولو نصف ساعة . » . وأين تحقق الحلم؟ ! فى ركنه القديم حيث كان يبّث أحزانه فى أيام ماضيه الكئيب ، حيث كان يحلم بالحرية وكأن كل عمره قد تطهر من الشقاء . تحقق حلمه بالجمال والكمال اليوم . أحقاً ، ملك زمامَ حريته الآن ؟ ! حين كان موظفاً ، كان مكبّلاً بالقيود . كان حبيس مكتبه لا يتحرك إلا وفقاً لساعات محدودة . كان فوق رأسه «رئيس قلم » عصبى ، وفوق رأس هذا مدير إدارة شهوانى ، أوامره صارمة ، واجبة الطاعة . مَنْ ينافقونه ويغرقون بيته بالهدايا يستثنيهم من كل قيد ، وينعمون بعطفه وبالعلاوة والترقية والمكافآت حتى ولو كانوا يخّربون دولابَ العمل . أما هو ، فرجل جاد ، يؤدى علمه بضمير نقى حى . وكان هؤلاء ينظرون إليه نظراتهم إلى رجل متزمت ، ثقيل الدم . وكانت تقاريره السرية سيئة ! كما كان فوق رئيسه هرم من رؤساء ملاعين - فهل هو حرّ الآن ؟ ! إن كل فكرة تنفث فى روحه الكدر ، إنما هى قيد ! فمن أين ينبع الحزنُ حقا ؟ كيف تكبله خواطره ، فتثقله بضيق غامض ... وعلى حين فجأة ؟ دخل إلى دكانه رجلان غريبان . وعرف من الوهلة الأولى مقصدهما ، إذ كانت ملابسهما متسخة ملطخة ببقع كثيرة من زيوت الطلاء . وبادلهما السلام ، ورحب بهما. ودار بينهما كلام . قال أحد الرجلين :

- « يرسلنا إليك « المعلم حميدو الضلم » . أوصانا بكَ خيراً . وستجدنا فى خدمتك . جير أم زيت إن شاء الله ؟ ! » .

- « أريد أن تُدهن شقتى كلها تقريباً بالزيت « اللوكس » ! بأفضل أنواع «البويات » ! ... » .

- « والمهم الصَنعْة . نقشّر الجدران والسقوف بعناية ونرممها بالمحارة ونبطنّها بالغراء ، ثم ندهنها وجهيْن ... ».

- « الكلام طبعاً لاينفع . المهم الشُغل يا عم حسان . وسترى بعينيك كيف نشطب لك الشقة على أحسن وجه . دهنّا من قبل قصوراً ... سترى ... » .

- « أولاً يا عم حسان : نعاين الشقة كم حجرة ؟ الاتساع ؟ العلو ؟ حالة الجدران ، وهل تنشع بالرطوبة ؟ كم باب ؟ كم شباك ؟ وهل يحتاج خشبها لنجار قبل عملنا ... ؟ . » .

فقال حسان مبتسما :

- « على بركة الله . وأعرف نجاراً سيقوم باللازم قبل الدهان . » .

- « وثانيا : نحدد المواد المطلوبة ونرى اللازم ثم نحسب حسابنا بصراحة وبالتراضي . شُغْلنا بالذمة والضمير ... » .

- « ثم نقول لكَ كم تتكلف العملية كلها قبل أن نضع أيدينا فى الشُّغل حتى نكون على نور ... » .

- وفى أى وقت تحدده أنتَ حسب ظروفك ، نذهب معك ونعاين شقتك فى وضح النهار ! » .

فقال حسان :

- « حسب ظروفكما . » .

- « أين تسكن يا عم حسان » .

- « فى حى « أمبروزو » . وبالطبع إلى جانب شُغلكما هناك شغل النجار والسمكرى والكهربائى . ويهمنى ضبط ميعاد البدء وميعاد الانتهاء من العملية . » .

- « مواعيدنا مضبوطة إذن متى نجيء إليكَ ونذهب للمعاينة ؟ » .

فقال حسان باطمئنان وحسم :

- « غداً ، بعد صلاة الظهر أنا فى انتظاركما هنا فى دكانى ! » .

وغادر الرجلان الدكان . وثقل المغربُ بغيومه .

* * *

بعد المغرب ، طوى حسان حصيرَته ، فرأى « الست جليلة » داخل الدكان فى ملاءتها اللَّف . صافحته بحرارة ، ولسانهايلهج بالشكر والدعاء :

- « اكرمتَ أولادى الله يكرمك . » .

فقال لها بتأثر :

- « أنا زعلانٍ منك يا ست جليلة ! » .

- «بعيد الشّر عنكَ يا عم حسان . ماعاش مَنْ يزعلك . » .

- « كيف يمرض ابنك الصغير (بلبل) ، وتكتمين عنى ذلك . » .

- « شفى والحمد لله . وما أردتُ أن أثقل عليك بأكثر مما أثقلت . » .

- « استغفرى الله يا ست جليلة . أولادك أولادى . وأشعر أن « الأسطى أحمد برقوق » سيرجع إليكم بالسلامة فى القريب العاجل ، إن شاء الله ... » .

ورآها ضامرة مجهدة أشدّ الإجهاد ، فطلب منها الجلوس فجلست ، ثم سألها :

- « وتعملين طوال النهار أنتِ وأبنتاك ، قوّاكن الله . لكن متى تعود العروسة ابنتك الكبيرة « سعدية » من المصنعَ ؟ أسأل لأطمئن ، فالبنت بنتى . » .

وفرحتْ بالسؤال وقالت :

- « هل أخبرتك « لوزة » بأنها تعمل فى مصنع الغزل ؟ أصحاب المصنع يرحبون بكل مَنْ يتقدم للعمل قبلوها ضمن عاملات « الفَرْز » . تعمل طوال النهار ، من الساعة الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساء ، بما فى ذلك يوم الجمعة . وتقبض أسبوعيا سبعة جنيهات ! » .

- « كم عمرها يا ست جليلة ؟ » .

- « خمسة عشر عاما » .

- « وابنتك سعاد ؟ » .

- « أصغر منها بسنتين . وتعمل مثلى فى بيوت الناس ... شَغّالة ! أمر الله! » .

- « أمر الله ؟ ! ... وتتركين « لوزة » و « بلبل » فى البيت وحدهما ؟ ! » .

- « لوزة بنت شاطرة . وماذا أفعل غير هذا يا عم حسان ؟ العمل ليس عيباً...! » .

- « طبعاً العمل ليس عيبا ... لكن ! » .

وهزَّ رأسه فى أسى ، وقال بصوت خافت محدثاً نفسه : « نعيب زماننا والعيب فينا » . وخيم الصمتُ لحظات ثم قال لها :

- « علمتُ أنك قابلتِ مصادفةً الست هناء ، الساكنة الجديدة فى هذا البيت المواجه لدكانى و ... » .

فقاطعته متهللة الوجه :

- « ست أميرة . أميرة ياعم حسان . أمها يرحمها الله ، كانت حبيبتى . كانت أمها تزورنى وأزورها ! ... ».

- « ستزداد حبًا لكِ لأنكِ صديقة المرحومة والدتها . » .

فقالت فى هوان :

- « لم أذكر لها شيئًا من هذا ، فأنا ست بسيطة الحال ، أصبحتُ شغّالة فى البيوت وهى هانم محترمة لايصح أن أنقص من قدرها بمثل هذا الكلام . ألا يؤذى شعورَها أن تعلم أن صديقةَ المرحومة أمها شغّالة ؟ ! » .

فقال بتأثر :

- « كلنا أبناء آدم وحواء . كلنا سواسية . ، وهى سيدة طيبة القلب ، متواضعة، وبالعكس فأنا أعتقد أنها فرحة بك وتحبك لهذا السبب ، فهى تحب كل من يمت بصلة إلى أمها . تحب مسكن أمها ولو كان خرباً ، تحب ملابس أمها القديمة ، تحب جيران أمها ! » .

- « أحقًا يا عم حسان ؟ ! أنا خجلانة ! وكانت مقابلتنا فى الشارع مصادفة . وكنتُ فى عجلة من أمرى بسبب مرض أبنى (بلبل) والشُغْل . وكنتُ أسأل عنك ، قلقة عليكَ . وكأن بابُ دكانك مغلقاً وكأن باب الدنيا كلها مغلقاً فى وجهى ، استغفر الله . وكانت تبدو حزينة وغير مستريحة فى وقفتها معى . مسكينة ماتت أمها ومات زوجها . وتعيش الآن عيشة مختلفة - ياعينى ! هذا حال الدنيا يا عم حسان . » .

- « دوام الحال من المحال يا ست جليلة ... » .

- « طيبة القلب ، عطوفة إلى أبعد حدٍّ . بعد أن علمتْ مني في الصباح أن أبني الصغير مريض ، هرعتْ إليَّ في المساء . زارتْنا في مسكننا زيارة كريمة . وجلستْ معي ومع أولادي جلسة طويلة . دخلتْ علينا بهدايا كثيرة للأولاد . وساعدتْني في علاج ابني . عملتْ له كمدات .

سيدة كريمة كرما لا يُوصف . دسَّتْ في يدي ورقةً بخمسة جنيهات . وكتبتْ لي على ورقة صغيرة أسم دواء لخفض درجة الحرارة ، وقالت لي :

« انزلي واشتريه حالاً من الأجزخانة . وعندما عدتُ وجدتُها قد أوقدتْ وابور الجاز ، وعملتْ للولد قليلاً من شراب « التيليو » . ومكثتْ تلاطف البنات بكلام حلو وتقبِّل « بلبل » وتحنو عليه كأنه ابنها . ولم تتركنا حتى نام الولد وزال عنه مغصُ بطنه : قالت لي : (سيعرق أثناء نومه ، وفي الصباح تكون حرارته قد هبطتْ .) ، وأوصتنا أن نبعده عن تيار الهواء البارد . » .

وسكتت « الست جليلة » لحظة ، ثم أضافتْ بصوت كسير :

- « عرضتُ عليها خدماتي حبًا ومودة وإشفاقاً على يديها الجميلتين من القشف الذي يسببه الصابون ورطوبة الماء الصاقع . لكنها رفضتْ ... سيدة كريمة ... أميرة... ».

وعاودتْ سكوتَها برهة ، ثم قالت على استحياء هامسة :

- « أنتَ خير الناس ، وهي بنت حلال . وفقكما الله . هل أقول لك « ألف مبروك بإذن الله ؟ ! » .

فابتسم حسان ، وقال لها بهدوء وصفاء :

- « كل شيء نصيب يا ست جليلة . » .

- « نعم ، كل شئ نصيب ، وستسعدها وستسعدك . وأنا في خدمتكما في أي وقت أفضالكما عليَّ كثيرة . وكرمكما يغرقني أنا وأولادي . وواجبي أن أردَّ لكما بعض الجميل » .

وكان حسان يتفكر فيما يريد أن يقول ويتردد . كان يحسب كلماته التي يحبسها على لسانه بحذر . كان يخشى أن يخدش كبرياءها . وبعد هنيهة قال لها :

- « الكرم كرم الله . وكلنا عباد الله . كلنا فقراء ، والغنى هو الله وحده وكل منا يحتاج إلى الأخر نحن عائلة واحدة . و ... وأصارحك أننى فعلاً ألتمس منك خدمة. » .

فقالتْ متهللة الوجه :

- « تحت أمرك . أطلب يا عم حسان . » .

كان يريد أن يردّ إليها بعضَ الثقة والاعتداد بنفسها ، وأن يمحو من قلبها ذلّ الإشفاق وهوان الإحسان وأن يخفف عن صدرها كمدَ البلوى قدرَ الإمكان . فقال لها :

- « أريد منك خدمة فى الأيام القادمة . سأشرع فى ترميم وتجديد شقتى تجديداً شاملاً . سأترك لكَ أثناء ذلك شقتى من الصباح إلى المساء تحت إشرافك ، فهى أمانة مأمونة ببركتك وبوجودك فيها . هل ممكن هذا يا ست جليلة ؟ » .

فضربتْ بكفّها على صدرها شاهقةً فى فرح ، وتطلق وجهُها بالبِشْر وقالت :

- « فى ليلة فرحك سأزغرد ألف زغرودة . يوم المنَى يا عم حسان أن أراك عريساً تُزف إليك الست هناء . أجمل عروس فى الدنيا ! يا سلام ! أهذه خدمة ؟ هذا واجب . شَرَف تكّرمنى به . أنتَ تزيدنى كرماً على كرم . » . فضحك ضحكةً طفلية خافتة وقال :

- « أشكرك . والفرح الحقيقى فى القلب وليس بالزغاريد يا ست جليلة . ولستُ أنا ولا هى فى سنٍّ أو ظروف تسمح « بالهيصة » أو « الزيطة » .

سيُعقد القران فى جمع قليل من الناس الأقرب إلى القلب ، وأنتِ وأولادك أوائل المدعوين . وإن شاء الله ، سيكون « الأسطى أحمد برقوق » أول الحاضرين . » .

- « إن شاء الله . ألف مبروك . بالتوفيق والسعادة . مرْنى متى تشاء بما تريد تجدنى طوعَ أمرك يا سيد الرجال . » .

- « مهمتك فى شقتى طوال مدة تجديدها هى مجرد الإشراف والملاحظة والمراقبة لا أكثر حتى يكون كل شىء فيها بمأمن من طمع الطامعين . وسأخبرك فى الوقت المناسب بالمواعيد قريباً ، فأنت أختى وأمى والخير والبركة ولن أنسى فضلك هذا علىَّ ما حييت ، وأشكرك على شعورَك الكريم يا ست جليلـــة ، وأرجوك وألحّ فى الرجاء

ألا تذكرى لأى مخلوق ما دار بيننا من كلام الآن ، سواء ما يتعلق بالزواج أو تجديد الشقة كي يبارك الله خُطانا واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ! هذا سرٌ بيننا ! أتعدينني بكتمانه يا ست جليلة ؟ ! » .

- « من عينى يا عم حسان ! جبرتَ حالنَا جبَر اللهُ خاطرك وباركك أنتَ وعروستك الأميرة بنت الناس الطيبين ، بنت الحبيبة « الحاجة فهيمة » . ألف رحمة على روحها . كم هى الآن فرحة فى قبرها ! » .

الفصل السادس والثلاثون
ليلة سوداء

كان الليلُ قارس البرد فخشي أن يعاوده المرضُ . نظر نظرات المشتاق إلى باب بيتها ونوافذها التي لا يبين من خصاصها بصيصُ من النور . وأغلق الدكانَ وغادر الشارعَ وقلبه يتعذب صبابةً . واستقل الأوتوبيس . وفي بيته الموحش أعدَّ لنفسه كوبًا من الشاي طلبًا للدفء واحتساه ثم سحب كتاباً من خزانة كتبه الصغيرة ، واستقر في فراشه متهيئاً للقراءة والنوم لكن سهاداً ثقيلاً أطار النومَ من عينيه ، وأحسَّ احساسًا قويًا بجنبات شقته وقد اكتنفها هدوءُ الجبّانة ووحشة القبر . ظل طيفُها الجميل رفيق أخيلته ، يندس في رأسه ويغزو دمَه ولا يغادرهما . وكأنه يراها رأى العين . ذقنها على كتفه . أنفاسها تتردد . ينعم بدفئها . تتمدد كقطٍّ أليف في حضنه . عذوبة مكهربة وعذاب يشقُّ صدره شقا لاهبًا . ويثور شعرُها الأصهب في وجهه ، في مهب ريحٍ شاردة تندفع من الخارج ، من كوّة النور . نور الصبح البعيد يشعّ في مدخل المحل على حين يعبر هو ممراً تكتنفهُ رمدةُ المغرب . ويتوغل إلى الأركان الوردية الفاتنة تحت ضياء الأعناب فيتبدد برده في دفء الليل حيث يطلع عليه محيّاها الأقمر . والهمس في الركن يرعشه وخجله يربكه ويخنق قلبَه ويعصره فيحتقن وجهُه وتغشى بصرَه غيمةُ فتتعثر خُطاه في طرف السجادة ويتطوح بلا سند ويهوى بصدره على صدرها الناصع كالبدر ، وكالنسمة يفرّ إلى أعماق الليل ، فيرده اضطرابُه ويشتته الصرْعان فيرى نفسَه تائهًا ضائعًا في الممر ، يجرى ملتاثاً من أقصى النهار الرمادى إلى أقصر الليل الكابى ، إلى الضباب الأرجوانى الموّاج فلا يرى نورَ النهار - ثم يرده جنونهُ مندفعًا صَوب أتون الليل فتعمى بصيرته . يروح ويجيء في هذيان ويركض مبهوراً بجمرات العناقيد ، ثم يتصبب عرقا فيلهث ويزيد كحصان بلغ آخر خط السباق . ويحس خصلات كثيفة من الشَعر تلتزج بوجهه وتغطى عينيه وجبينه ، وتلتف حول رقبته كحَبل ، فينتبه ليخلص نفسَه من لحظة الشنق ، فيقبض على الخصلات . يتشبث بها ليرفعها عن عَظمة عنقه . وفتح عينيه بصعوبة بالغة كأن بهما رمداً أو بقايا رموش جارحة ، فرأى يمناه تقبض على الهواء ، على حين تمددتْ يسراه في تراخٍ على اللحاف المتثنى كالعجين . عبس وتقبّض وجهُه ونظر إلى نفسه بإنكار ونفور . وأدرك أنه كان فارسًا خائبًا فسقط عن صهوته . وبقى لحظات قاعداً على فراشه متراخى الكيان ، فاترالروح ، مهدود الحيل ، يشعر بثقل باطنه وكأنه كومَ قمامة عفن كريه .

تنهد في عمق ، وهزَّ رأسه مرات كثيرة في ذهول ، وهو يمطُّ شفتيه ازدراء . وقطب حاجبيْه بحدة وغاب داخل نفسه مقهوراً فتملكته نزعة قوية إلى الإجهاش بالبكاء . مع ذلك ، شعر بالعجز . نضبتْ روحهُ في تلك اللحظة من كل طواعية ، وجفَّتْ دموعه فزاد عذابُه وتضاعف ألمه . وفي اللحظة التالية ضاق صدرُه ، خلا من الهواء تمامًا ، فشهق وزفر ونفخ واستغفر ربّه مرات ، وطوّح باللحاف إلى طرف السرير عند قدميه مقشعرا. وانتفض ناهضًا واتجه إلى صنبور في المطبخ وفتحه وانحنى وترك رأسَه هنيهة تحت الماء الصاقع المتدفق ، ثم اغتسل ... في الحمام وتوضأ وصلّى ركعتيْن . وسرعان ما أحس بالصحوة والفراغ .

وليلُ الشتاء طويل . فوقف إلى الصوان حيث خزانة كتبه ، وقلّب ما فيها من كتب وسحب كتاباً آخر ، وعاد به إلى فراشه وطفق يطالعه ...

وعلى حين فجأة ، سمع رنينَ جرس الباب الخارجي ، فنظر إلى ساعته ، فوجدها التاسعة والنصف تقريبًا ، فقام وفتح البابَ وحدق النظر في وجه الطارق بغرابة ودهشة وإجفال . وجد نفسَه وجهًا لوجهٍ كئيب ... وجه (وصفى) ! وامتقع وجزع ولم ينبس بكلمة ... قال وصفى :

– « مساء الخير ياعم حسان ... آسف ... زيارة غير متوقعة ... آسف جداً . هل الوقت غير مناسب ؟ ! » .

ولم يرد حسان . ألجمتْ المفاجأة لسانه . وظل يتفرس في وجهه بوجوم .

فقال « وصفى » بتأدب جمٍّ :

– « أعرف أنكَ وحدك في بيتك . وعرفتُ من الضوء في شقتك أنك صاح . وأريد أن أتحدث إليكَ . فهل تأذن لي بالدخول ؟ » .

فقال حسان بغضب صريح وبصوت متوتر ينذر بالانفجار :

– « أما زلتَ تحوم وتتجسس وتراقب بيوتَ الناس ؟ ثم تطمع في أن يأذنوا لكَ بالدخول وتتحدث إليهم ؟ ! » .

فقال وصفى بنبرة باردة :

– « أريد أن أتشرف بالجلوس معك ولو دقائق » .

– « ليس الوقت مناسبًا ! » .

– « كنتُ أود أن أجيء إليكَ فأقابلك في دكانك . ولكنى وعدتُكَ وعْد الرجالِ

ألا أريها وجهى الكئيب وأصارحك أننى كدتُ أحنث فى وعدى هذا لأجئ إليكَ ولأحدد معك موعداً لمقابلتك فى مكان بعيد عن الدكان . لكن ... » .

فقاطعه حسان وقد أشتدّ غضبُه :

- « ولماذا كل هذا ؟ هل بيننا كلام ؟ ما علاقتى بك وعلاقتك بى ؟ ... اذهب ... اذهب لحالك ... » .

- « يا عم حسان ... أريد أن أتكلم معك . » .

- « ليس وراءك إلا المتاعب ... » .

- « لن تندم على تعارفنا . العكس هو الصحيح ... ».

- « أنت شاب مندفع ومتهور ... وأحذرك و ... » .

فقاطعه وصفى بثبات :

- بل جئت أنا إليك لـ ...

وأمسك عن الكلام فجأة . لكنه قال بسرعة مستدركًا :

- « أنت رجل طيب . وما تزال فكرتك عنى خاطئة ... أعطنى فرصة لـ ... » .

فقاطعه حسان مرة أخرى قائلاً :

-« أنت تتجسس على بيوت الناس . وللبيوت حُرْمة ! وهذا يغضب الله - اذهب لحالك ! » .

- « ما هكذا يُقابل الضيف . أتطرد ضيفًا يلتمس بابك للخير ! » .

- « للخير ؟ ! أى خير من ورائك ؟ ! » .

وكاد حسان أن يردّ البابَ فى وجهه ، إلا أن « وصفى » وضع راحته على حافة الباب بتأدب وبرود ، وقال :

- « أنتَ رجل مسلم ، وللإسلام آداب ، وأنا لستُ رجلاً سيئًا إلى هذا الحد ! » .

- « يكفينى أنكَ أقتحمتَ مسكنَ سيدةٍ وحيدة فى منتصف الليل - لأى غرض ؟ وأنتَ نفسك اعترفتَ بجرمك وتندمتَ . ولكنكَ كاذب ... أذهب ! » .

- « لن تخسر شيئًا إذا أعطيتنى فرصة للكلام . بل ستكسبنى صديقًا صادقًا... » .

وتوترت أعصاب حسان أشد التوتر ، ونظر إليه شزراً وتقبَّض وجهُه واعوج فكُّه ودفع البابَ دفعةً قوية موصداً إياه فى وجهه ، صائحًا بغضب لم يعهده فى خُلُقه :

- « رُحْ فى داهية ! » .

ولم يتحرك إلى الداخل خطوة واحدة . ساد سكونٌ موحش . وتركزت كلُّ حواسه فيما وراء الباب الموصد . وراح يتنصت لعله يسمع خطواته .ظل هكذا نصف دقيقة وهو يسمع ترددَ أنفاسه ودقات قلبه المتلاحقة كان يحس بالعروق تنتفض تحت صَفْقَىْ عنقه ، وبصدغه ينبض نبضًا موجعًا وكأن إبرة حادة تنغرز فى رأسه وتنخس مخَّه . وقاوَم اهتياجَه وأرهف السمعَ بكل قواه فترامى إلى أذنيه وقعُ خطواته يتباعد فأدرك أنه يهبط السُلم . وأفاق لحظة ، وانتبه إلى شغف يصحو سريعًا فى دخيلته . وشعر أن كلمات الشاب قد تدفع به إلى فتح مغاليق خافيةً . أى خَير يقصد ؟ ! لكنه كاد ينطق بكلام . ماذا أراد أن يقول ؟ ما الذى عنده ليقوله ؟ لكن حسان ردد فى سرِّه هاتفًا : (أكاذيب ! سيصدع رأسَكَ بأكاذيب . سيورطكَ فى حبائل مزيد من الهواجس. يريد أن يوقع بينك وبينها بدافع من جنون غيرته ! هو هذا بلا شك ! دَعْه ... دَعْه يغرب عن وجهينا !) وتفكَّر فى سرعة فافترض أنه لو تركه الآن يغادر بيته مطروداً شرَّ طردة ، هل سيجنَ جنونه فيرتكب فعلةً من أفاعيله المتهورة ؟ وماذا يستطيع أن يفعل ؟ هل يثير فضيحةً ؟ هل يكذب كذبةً مستهدفاً تشويه العلاقة ... وإفساد الأمور ؟! لن يخسر شيئًا لو سمع منه . وربما استطاع أن يقوِّمه بالعقل والرَّوِيَّة . واستكره مزاجَه العصبى الذى كاد يؤدى به إلى الانفجار والحُمق ؟ كيف يغضب بهذه الحدَّة ، كلّ هذا الغضب ؟ حقًا ، أهذه آداب يستقبل بها طارقاً يلتمس بابهَ للخير ... أى خَير ؟ ! ماذا يريد منه ؟ الحديث معه ؟ ! وشعر بضعفه شعوراً طاغيًا أمام شاب يصغره سنًا . ماذا لديه ليقوله ؟ أيتوقع منه كلاماً جديداً ؟ وشعر بفورةٍ من الكبرياء تجتاحه بتأثير دفعات من شعور دفين بالضعف والخوف . وصحَتْ فيه نخوةٌ ومكابرة . ماذا سيخسر ؟ بل ، العكس هو الصحيح . وهو الذى يثق بقدرته على التمييز بين الصالح والطالح . ووضع يدهَ على مزلاج الباب ليفتحه . هذا الشاب يتكلم بهدوء وثبات ، على حين هو يفقد زمامَ نفسه وتنفلت أعصابه وتضيع منه كلماتُ الخُلق الطيِّب ؟ ! فأين السماحة

والحلم ؟ ! والعقل ؟ وهتف في باطنه ساخطًا : « أي ليلة سوداء هذه ؟ ! » . وجذب المزلاجَ وأنصت لحظةً بإرهاف بالغ . ما يزال وقع خطواته على السُّلم يتردد فى سمعه . فهل يفتح البابَ ؟ لِم لا ؟ وهل يستقبله فى بيته أم يرتدى ملابسه ويجالسه فى المقهى؟ هل يدخله بيته ليدنسه ؟ ! يدنسه ؟ ! وفي طرفة عين تذكّر حسان شيئاً كريهاً منفّراً . فاندفع كالريح إلى الداخل فى عصبية . شَدَّ لحافه ولفَّه بارتباك وبسرعة كيفما اتفق ، وألقى به داخل دولاب كبير وأغلق بابَه . ولو أسعفه الوقت لقطعه إربًا بالسكين وحرقه . فأين يستقبله ؟ ! ليس فى مسكنه سوى هذه الحجرة الوحيدة التى يستعملها . بقية الحجرات مهملة مغلقة منذ سنوات - ثم جرى عائداً إلى الباب وتوقف وأصاغ سمعَه ثواني . لم يسمع صدى لخطواته ، ففتح البابَ واندفع إلى الخارج وأطلّ برأسه فى ظلام السُّلم وصاح بتوتر وقلبه يدق فى صدره بعنف :

- « يا سيد وصفي ... اطلع ! تفضل ! ».

وسكت وكأن قلبَه قد توقف عن النبض ، وشعر أنه مسلوب العقل . فكيف يستقبله ويجالسه بهدوء ويستمع إليه بعقل ؟ كيف يحاور هذا الثعلب الخبيث ، وهو على هذا الحال من الارتباك والتشوش ؟ فانسحب إلى الوراء خطوات خلف الباب الذى تركه مواربًا وتمنى أن يكون قد غادر البيتَ وذهب فى « داهية » ! وظلّ ينتظر فائرَ الدم ، ملتاثاً ، تتدفق نبضاتُ قلبه وتدقّ صدغَيه تحت أذنيه فلم يعد يسمع . وغشيتْ عينيه سحابةٌ . وأحس أنه يكاد يفقد الرؤيةَ بعد ثوان ، لمح فى حلكة الظلام بريقَ عينين وطيفًا يتحرك ، فاعترتهْ رعشة . لمح نصفَ شبح مهيب يصعد السُّلم . استقام وتقدم منه واقترب ، فإذا به الشيطان (وصفى) ! وفجأة ، ثبت قلبُه فى صدره . وشعر أنه بدأ يستعيد سيطرتَه على أعصابه . وسمع صوتَه يقول له :

- « تفضل يا سيد وصفى ! ... ادخل ! » .

ودخل وقد لاحتْ هيئتهُ بوضوح تحت نور المصباح المشعّ فى الحجرة وتفرس حسان فى وجهه ، فوقعتْ عيناه على النَّدَبة التى تشقّ حاجبه الأيسر ...

.. وجلسا وجهًا لوجه ! .

الفصل السابع والثلاثون

التعـارف

ما إن أستقرَّ « وصفى » فى مجلسه متكئًا بكوعه على مائدة بيضاوية صغيرة حتى أطرق لحظات ، لعله يلمُّ أشتات ذهنه استعداداً للكلام ، على حين كان حسان يتفحص وجهَه مقطبًا حاجبيه ، وكأنه يراه لأول مرة ، وضبط أعصابَه محاولاً التغلب على انفعال الامتعاض والإنكار – ثم قال بنبرة لا تخلو من الاستخفاف :

– « أهلاً وسهلاً ... ! » .

فرفع إليه وصفى عينيه السوداوين البراقتين ، وقال بابتسام :

– « أهلاً بكَ يا أستاذ حسان . كم كنتُ توّاقاً لزيارتك قبل الليلة ... » .

– « هيه ! ؟ » .

– « أشكرك أولًا على موافقتك على دخولى بيتك ! » .

– « عفواً . ! » .

– « أسعى إليكَ مدفوعًا بأسباب ... » .

فقال حسان باستهانة :

– « للتعارف وللخير ولكلام آخر لا أعرفه ! » .

– « أجملتَ فأحسنتَ. » .

لم يرد حسان ، فأضاف وصفى :

– « لنتفق أولاً على مبادئ . ودَعْنى استسمحكَ فأقترح أن تكون زيارتى لكَ الليلة لمجرد التعارف ولدقائق ! » .

– « والخير والكلام الآخر ! ؟ » .

– « لن نستطيع أن نتفاهم التفاهمَ المرجو إلا إذا – أولاً – انعقد العزمُ على صدق النِّية للتعارف .

والتـعـارف أول خطوة فى طريق التـآلف . والتـآلف أولى درجـات الصـداقـة ، وصداقـتك تشرّفنى . فلنوطن النفسَ منذ الليلة على التـعـارف . ولا أطمع منك الليلة إلا فى بعض حُسْن ظنك بى . » .

- « قُلْ ما عندك ! » .

فتنهد وصفى وقال :

- « عرفتُ أنك إنسان على خُلق طيِّب . محبوب من كلٍّ مَنْ عاشرك وعرفك . كنتَ تعمل موظفاً حكوميًا بمراقبة التموين وقدمتَ استقالتك لأسباب ، منها ميلك إلى التجارة وحبُّك للأعمال الحرة . » .

- « عظيم ! » .

- « بالطبع أنتَ عرفتَ اسمى ، اسمى بالكامل « وصفى إبراهيم القاضى » محرر بجريدة « البيان » ... » .

- « للدراسات الاقتصادية والسياسية ! » .

- « عظيم ! ».

وهزَّ وصفى رأسهَ وصمت لحظةً ثم استطرد قائلا :

- « وأتمنى أن تواتينى الشجاعةُ يومًا فأفعل ما فعلت أنتَ ، أن أقدم استقالتى من وظيفتى هذه ، لأننى بدأتُ عملى هذا كصاحب رأى فإذا بى اليوم موظفًا ، عبد المأمور! ولكنى لو فعلتُ هذا الآن لما وجدتُ مورداً للرزق ! » .

وتكلف الابتسامَ ، وقدَّم سيجارةً لحسان فرفضها شاكراً ، فقال وصفى :

- « أنتَ تدخن! ».

- « أشكرك ! » .

فأشعل وصفى سيجارتَه بقداحةٍ فضِّية وسحب نَفَسًا عميقًا ثم قال وهو يطيل النظرَ فى وجه حسان :

- «والمرحوم زوجها شقيقى ! » .

وسكت وصفى ، فلم يصبر عليه حسان ، فسأله باستفزاز :

- « كنتَ تواقًا لزيارتى قبل الليلة . قُلْ لى يا سيد وصفى . لمحتُك جالسًا منذ مدة ... ذات ليلة فى المقهى القريب من مسكنى . رأيتك ورأيَتنى فهل كان وجودك فى المقهى ، فى تلك الليلة ، مصادفةً أم عَمْداً ؟ .

قُلْ لى بصراحة ! ».

- « عَمْداً يا أستاذ حسان ! » .

ولم يغضب حسان ، بل على العكس استراح لصدق جوابه ، فقال ولم يستطع أن يخفى دهشتَه .

- « عَمْداً ؟ ! عظيم ! » .

- « أقول لكَ : عَمْداً ، وستعرف السببَ في يوم قريب . » .

- « ولماذا لا تذكره لى الآن ؟ » .

- « لا أرى التوقيت مناسبًا لهذا ... » .

- « أنتَ تراقبنى ! » .

- « ليس الأمر تلصصًا ... » .

- « وتراقب بيوتَ الناس ! » .

- « مهلاً يا أستاذ حسان حتى تتيح لنفسكَ فرصةً لإدراك الأمور . » .

وانتبه حسان إلى انفعاله فشكمه طلبًا للتروى وتعقل الأمور حتى يعرف ما وراءه.

- « أرجوك يا أستاذ حسان ألا تخل أو تدفعنى للإخلال معكَ بمبدأ من مبادئ اتفاقنا . فاتفاقنا يقتصر الليلة على حديث للتعارف . سأمكث معكَ دقائق معدودة ثم أنهض وأغادرك . لأتركك تنام وتستريح أو تقرأ قليلاً هانئ البال . » .

- « وحتى عادةَ القراءة قبل النوم ، تعرفها عنى ! » .

- « نعم أعرف بعضَ عاداتك ، بعض المعلومات . ولكن أموراً أخرى عنكَ لا أعرفها ! » .

- « مثل ؟ ! » .

فجذب نَفَسًا عميقًا من سيجارته وابتسم ابتسامةً صافية وقال :

- « أشكرك على تجاوبك معى فى الكلام ، فأنتَ بسؤالك الهادئ هذا بدأتَ تتفاهم معى . ما أعرفه عنك ليس بالكثير . أما ما لا أعرفه فربما سأعرفه منكَ عن قُرب ، على مرِّ الأيام القادمة . » .

- « مثل ؟ ! » .

- « مثلاً ، لا أعرف بالدقة مزاجَك السيكلوجي ولا أسلوبك في التفكير أو طباعك بوجه عام . » .

- « ربما لن تعرف ذلك بسهولة نتيجة لتخصصك العلمي في الدراسات الاقتصادية والسياسية ! » .

فحدَّ وصفي فيه النظر ، وقال متفكراً :

- « ملحوظة ذكية يا أستاذ حسان ! ومنها استنتج أنك تفكر الآن بسعة أفق ! ».

- « أعرف أن مَنْ تستغرقه التفاصيل ويهتم بها اهتمامًا تخصصيًا قد تفوته النظرة الكلية للأمور . » .

- « هذه إضافة طيبة أوافقكَ عليها . أعندك تفسير لها ؟ ! » .

- « أتقرأ القرآن يا أستاذ وصفي ؟ ! » .

- « إنني لم أقرأ في الفلسفة ما يكفي للنظرة الكلية الشاملة في بعض المسائل! » .

- « إذا قرأت القرآن قراءة جيدة تستطيع أن تعرف ، وأن تعرف بتكامل ! » .

- « أصارحك أنني لم أبلغ هذه الدرجة ! » .

ووقع بصرُ حسان مرةً أخرى على النَّدَبة التي تشقَّ حاجبه ، فعاوده شعورُه بالإنكار والتعالي :

- « يا أستاذ وصفي ! إذا كان وجودُك في المقهى ، في تلك الليلة ، قد وقع عن عَمْد منكَ ، فلماذا لم تسعَ إليَّ سعيًا صريحًا يومذاك ؟ لماذا لم تتقدم إلى مائدتنا للتعارف والحديث معي حسبما تقول الآن ؟ ! » .

فدَعك وصفي ذقنَه بأصبعيه متفكراً ، ثم قال :

- « لأنكَ لم تكن وحدك ، فاحترمتُ الصحبةَ ، وقلتُ لنفسي في تلك الساعة لا يصح أن أتطفل وأقاطع حديثكما الخاص . » .

- « وكيف توقعتَ حضورى إلى المقهى ، مع أننى وصديقى قصدناه مصادفةً . أقصد ، لم يعرف أحدٌ غيرنا فى تلك الساعة أننا سنتوجه إلى ذلك المقهى ، فيكف عرفتَ ؟ كيف توقعتَ ؟ » .

فضحك وصفى ضحكةً خافتة وقال :

- « بصراحة ! جلستُ هناك آنذاك بالقرب من مدخل دكان « كونترجى » متحججاً بتنظيف حذائى عنده وطفقتُ أترقب نزولَ صاحبك وحدَه من مسكنك ، فإذا بى ألمحكما تغادران البيتَ معًا إلى المقهى . » .

- « أفهم من هذا أنكَ كنتَ تنوى الصعودَ إلىَّ هنا إذا نزل صديقى من عندى بمفرده ، كما فعلتَ الليلة ، للتعارف ؟ ! ».

- « بالضبط ! ولهذا كنتُ صادقًا فى قولى أننى كنتُ توّاقًا لزيارتك قبل الليلة! » .

- « ولم أغادر المقهى إلا بصحبة صديقى . لكننى ودَّعْتُه فى تلك الليلة ، وسرتُ وحدى فى الطريق عائداً إلى مسكنى ، فلماذا لم تحدثنى وأنا فى الطريق إلى مسكنى أو لماذا لم تصعد إلىَّ فى مسكنى فى تلك الليلة ؟ هل وجدتَ الوقتَ متأخراً ، فلم تشأ أن تزعجنى ؟ » .

- « بالضبط ! هو هذا ... » .

- « ولماذا مكثتَ فى المقهى حتى نهاية جلستى مع صديقى ؟ ! » .

- « لا أعرف وجدتُ نفسى جالسًا مستمرئًا النظرَ إليكما . ربما كان شعورى بوحدتى هو المسئول عن هذا ... كأننى كنتُ أشارككما الجلوس عن كثب ! لا أعرف بالضبط » .

- « أستاذ وصفى ! قبل أن تنصرف الآن ، أود أن أسألك أكثر من سؤال ! » .

- « أرجو أن يكون هذا فى حدود مبادئ اتفاقنا المتناسبة مع مرحلة التعارف بين شخصك الكريم وبينى ! » .

ضاق صدرُ حسان بقيود هذا الاتفاق الذى يشعر فى دخيلته أنه لم يُبرم إلا من طرف واحد ، فقال :

- « يتعلق بشخصك الكريم ! » .

- «تحت أمرك . فأنا مستعد لأى سؤال يعمّق تعارفَنا ... » .

- « ما هى دوافعك الحقيقية لمطاردة وملاحقة سيدة كريمة هى أرملة المرحوم شقيقك ؟ » .

- « سؤال سديد ! لكنه سابق لأوانه ولا يتعلق بشخصى وحدى ، بل يمسّ علاقة بين طرفيْن أو بالأحرى هو سؤال يصوب نحو طرفيْن بينهما علاقة ! » .

- « علاقة ؟ ! أية علاقة ؟ ! » .

- « علاقة بين أرملة وبين شقيق زوجها رحمه الله . سؤالك هذا إذن لا يتعلق بى وحدى ، ولا يتعلق بعلاقة بينى وبينك وحدنا . هذه العلاقة التى أرجو أن تتوثق وتتوطد بيننا رويداً على مرِّ الأيام القادمة ! .

- « أنت تهرب وتروغ ، إذن ، ما هى دوافعك الحقيقية لسعيك نحوى ؟ ! » .

- « لقد أجبتُك على هذا السؤال . وإن دافعى الحقيقى فى هذه المرحلة الأولى هو : التعارف ! » .

فقال حسان بغضب :

- « أنتَ تقرأ الفلسفة ، ولكنها الفلسفة السوفسطائية ! » .

فقال وصفى ببرود :

- « وماذا تقصد بالسوفسطائية على وجه التحديد يا أستاذ حسان ! » .

- « فلسفة المغالطة واللغو ! » .

- « ليس كل ما فى السوفسطائية لغواً ، ومع ذلك أنا لا أغالط ولستُ سوفسطائيًا ، ولا أدافع عنها ! » .

- « أنتَ كأهل منطق اللغو المراوغين الذين يدّعون أن (١ + ١ = ١) ، فهم يقولون أن الواحد هو هو ، وإذن يكون نتاج الجمع هنا هو نفسه الواحد وهو منطق يعزل

كلَّ شيء عن أي شيء ويجرّده من علاقاته الواقعية ! ».

- « ستعرف أنني لا أهرب ولا أروغ ! » .

فقال حسان بتجدٍّ :

- « لو حدثتَني عن علاقتك بأى مخلوق فأستطيع أن أعرفك . كيف أعرفك معزولاً عن علاقاتك بآخرين .

تفاحة + تفاحة أخرى = تفاحتين . ليست الأولى هى الثانية ، ولا الثانية هى الأولى . أسألك عن دوافعك أنت وبالطبع أنت فى هذا لستَ معزولاً عن علاقات بآخرين . أفهمتَ يا سيد وصفى ؟ ! . » .

فقال وصفى بمكر وابتسام متفكهًا ليغيّر مجرى الحديث :

- « ولماذا تضرب هذا المثل بالتفاحة يا أستاذ حسان ؟ هل أكلتَ من شجرتها ؟ إذا أنتَ فعلتَ وأكلتَ تفاحتيْن ، فلا مناص من أن لكلّ منهما أيضا مذاقها الخاص واحدة حلوة والأخرى أقلّ أو أكثر حلاوة ... أنا معك فى نقد هذا اللغو ! » .

- « بل أنتَ ما تزال تلغو وتروغ . فهل تعرف من هو الواحد الأحد المنزّه عن الكَثْرة ؟ » وشعر وصفى أن الموقفَ قد يسوء ، فنهض ودار عقبيْه فى خفّة متأهبًا للمغادرة ، وأومأ إلى بعض الكتب المتناثرة على السرير وهو يقول بهدوء وبرود :

- « أنتَ أيضا تقرأ كتب الفلسفة يا أستاذ حسان ! » .

- « أقرأ بعض الفلسفات الاسلامية ، مثل كتب حجة الإسلام الإمام الغزالى ، الذى فلسف التصوفَ وصوَّف الفلسفة . » .

- « أعرف أنك كنتَ تدرس « منتسبًا » فى قسم الفلسفة بكلية الآداب قُبيل اشتغالك موظفاً بمراقبة التموين فهل حصلتَ على درجة الليسانس ؟ ! » .

فهزَّ حسان رأسه وقال بأسف وهو يخفى مشاعره :

- « تكاد تعرف تاريخَ حياتى ! فعلاً ... أمضيتُ بهذا القسم عاميْن ولم أكمل دراستى بسبب بعض الظروف ! » .

- « ولكنكَ من الرجال القلائل الذين يثقفون أنفسَهم بأنفسهم . إنه شرف عظيم لى أننا تعارفنا الليلة . وإذا اتفقنا يومًا فى الرأى فهذا أمر لا بأس به . أما اختلافنا فهو حقًا مدعاة لسرورى لأننى أرى أن العلاقات الروحية تتوثق فى البدء بتأثير احتدام المناقشة وتصارع الآراء وتضاد الأفكار . وهذا ما يخلق على المستوى العام تياراً من النور ، نور الوعى فى ظلمات التخلف و ... » .

وفجأة ، سكت وصفى للحظةٍ منتبهًا إلى ثرثرته ، ثم قال بنبرة معتذرة :

- « آسف ! آسف يا أستاذ حسان على ثرثرتى ! ... ومع ذلك كله ، وقبل أن أغادركَ ، أقول لكَ : أنا تحت أمرك لأى سؤال آخر فى حدود اتفاقنا ! » .

ومشى خطوتيْن فى عرض الحجرة متجهًا إلى الباب ، فقال حسان :

- « قُلْ لى يا أستاذ وصفى ، ما هى مشاريعك فى المستقبل ؟ ! » .

فقال وصفى متفرسًا فى وجه حسان وكأنه بُوغت بهذا السؤال :

- « يا له من سؤال ! ... الجواب الحاضر فى ذهنى الآن هو أننى عشتُ فى المستقبل أكثر مما ينبغى ، فلم يعُد لى حاضر ولا ماض . ولم يكن ذلك ما أرومه .

أصارحكَ يا أخى أننى إنسانٌ تعس معلّق بين سماءٍ بلا زمن وبين أرض قاحلة بلا مستقبل ! » .

- « جواب فلسفى ! وأنا لم أسألكَ سؤالاً فلسفيًا ! لا أرى خاتماً أو «دبلة » فى أى إصبع من أصابع يديك ! ومع ذلك ، أود أن أعرف : هل أنتَ متزوج ؟ أو فى عزمك أن تتزوج ؟ هذا ما أقصد بسؤالى ! » .

فضحك وصفى ضحكةً خافتة عصبية ، وأطرق قليلاً ، ثم رفع عينيه وقال :

- « لا . لم أتزوج . وليس فى نيتى الزواج ! » .

- « أنصحك أن تفكر فى الزواج . الزواج يصونك . وهذه كلمةُ خَير أقولها لك الآن . فما قولة الخير التى تختزنها لى عندك ؟ ! » .

- « أستاذ حسان ! أغادرك الآن وأنا أكثر معرفة بك وأشدُّ حبًا لك . أنت انسان نقَى السريرة . ولن أحبس عنكَ ما أستطيعه من قول طيّب أوتعاون متواضـع . ولكن لا يجوز الآن أن أخرج على مبادئ اتفاقنا يكفينا الليلة أننا تعارفنا . إننى أحرص على جنين صداقتنا ! هذا خير لصداقتنا . وأعتقد الآن أنك ستسمح لى بأن أطرق بابَ مسكنك مرةً أخرى ثم مرات ؟ ! » .

فقال حسان بلا وعى :

- « سأسمح ! » .

فاستطرد وصفى قائلاً وهو يتضاحك مداعبا :

- « أو نلتقى إذا شئت فى المقهى الذى سبق أن التقينا فيه عَمْداً ! . »

ومَّد إليه يده ، فتصافحا . وقال وصفى :

- « يسعدنى أن أقول لكَ تصبح على خير يا أستاذ حسان ! وألف سلامة ، بل حمداً لله أنكَ شفيتَ من وعكة البرد ! » .

ووجد حسان نفسَه فجأة غارقًا فى متاهة من هدوء موحش مقبض لا يُطاق . لكن ريحًا بالخارج ، بدأتْ تتلاعب بمصاريع النوافذ ، فضاعف هذا من شعوره بالوحدة !

الفصل الثامن والثلاثون

الكتمان الأبيض

بعد صلاة ظهر اليوم التالي ، جاءه في الدكان الدهّانان كما اتفقوا عصر البارحة. وكان الجّو مكفهرا. تحَدث معهما قليلاً ، ثم قام وهو يقول :

- « لنذهب إذن ونعاين الشقة سويًا ... ساعة ثم أعود ! » .

وأغلق الدكانَ . وسار ثلاثتُهم . واستقلوا الأوتوبيس . وتمّتْ معاينةٌ للشقة معاينة دقيقة ، ثم جلسوا يتحدثون ويتشاورون . ودّون حسان في كراسة صغيرة مواصفات كل حجرة على حدة ولوازم تجديدها وكميات وأنواع مواد الدهان . وقد حدد خلال حديثه ومشاوراته معهما بعض الإصلاحات التي يجب أن تجرى لخشب الأرضية والنوافذ والأبواب قبل البدء في عملية ترميم الجدران والسقوف ودهانها . كما كان قد حدد ما سيقوم به السمكري من لوازم . ووعدهما بأن نجاراً يعرفه سيذهب إليه في ورشة النجارة ليتفق معه لإنجاز مهمته خلال اليوميْن القادمين ، كما ستتم في نفس الوقت مهمة كُلٍ من السمكري والكهربائي ، ثم تجادلوا في أثمان المواد . وحسم حسان هذه المسألة قائلاً بأنه سيتولى بنفسه شراء أغلب ما يلزم منها ، ثم انتقلوا بالحديث إلى الكلام عن تكاليف أجورهم « أتعاب المصنعية » . وبعد أخذٍ وردّ اتفقوا على قيمة معينة معقولة . وقال حسان :

- « وستبدآن عملكما هنا بحضور خالتي « الحاجة جليلة » في أثناء وجودي بدكاني حيث أرعى مصالحي اليومية . ولكنني سأتردد عليكما بين وقت وآخر كلما احتاج الأمر إلى ذلك . أما عن عربون الأتعاب فسأدفعه لكما بمجرد بدء الشُغْل بأذن الله. » .

وغادروا الشقّة ، وودعهما حسان في أحد الشوارع . وذهب إلى محل كبير لبيع أدوات الدهان والزيوت والنجارة . وكان يعرف صاحبَه وجلس جانبه وشاوره في الأمر ، ثم اشترى عدداً من علب الدهان الكبيرة ووضعها له أحد عمال المحل في صندوق

خشبي كبير ، حمله داخل عربة « حنطور » ، وعاد إلى بيته . نزل الحوذى وحمل الصندوق وصعد به إلى داخل مسكن حسان ، ثم أغلق حسان شقته وقد دبَّ فيه حماس ونشاط إلا أن شعوره بالفرح كان مشوباً بظلال من القلق . لكنه كان عنيداً مع نفسه وأزماته . نزل يضرب على غير هدى فى شوارع الحى الكثيف بسكانه ، الزاخر بالمحال والمتاجر ، نزل يتحدى قلقه . وطفق يستكمل شراء حاجاته ولوازمه . وسرعان ما نسى نفسَه فتنبَّه فجأةً على غيمة المغرب وقد لفتْ الحى كله بوشاحٍ إردوازى حزين ، فاقتعد كرسيًا فوق الرصيف ، على عتبة دكان لبيع الأدوات الصحية . جلس ليستريح دقائق من عناء « المشاوير » والشراء ، ولينتظر حتى يعدّ له صاحبُ الدكان ما طلبه منه و فى أثناء هذه الدقائق ، جذبتْ بصرهَ عربةُ « كارو » تسير بمحاذاة الرصيف يجرّها حمارٌ بائس مكدود ، وفوق العربة بالقُرب من ذيل الحمار ، جلس رجلٌ طاعن فى السّن ، كأن له من العُمر مائة عام . كان منحنى الظهر إلى حدّ الأحد يداب ... وكان ذقنه يلتصق بأسفل صدره وبأعلى البطن ، بل كان الرجل نائماً والعربة تسير ببطء وترتجّ فوق بلاط الشارع . وشدَّ انتباهَه مشهدُ طفلة فى حوالى الرابعة من عمرها ، تجلس على الحافة الأخرى الخلفية للعربة ، تولى ظهرَها للشيخ النائم ، وتدلى ساقيْها الصغيرتين فى الهواء البارد . وكانت قدماها حافيتيْن . لم يكن طولُ بدنها الضامر الهشّ يتجاوز نصف ذراع قصير كانت خافضة الرأس ، تنظر إلى الأرض وترتج هى الأخرى ارتجاجًا يعرضها للسقوط فى أية لحظة . ولعل ارتجاجها هذا ، هو ما استغرق اهتمامهَ وأثار قلقَه وخوفَه . كانت الطفلة المسكينة على وشك السقوط عن حافة العربة التى بدتْ خفيفة لخوائها من الأحمال مما ضاعف من الاهتزاز والارتجاج . ظلّ يتبع العربةَ والطفلةَ والشيخَ بنظرات واجمة . وظلت العربةُ تسير حتى عرجتْ يميناً وتوارتْ داخل زقاق ضيّق كالح مسدود ! وقام حاملاً لفافاته الضخمةَ واتجه صوبَ مسكنه ، وجلس إلى المائدة وبسط أوراقَه وانكب عليها بقلمه ، وطفق يحسب ويضرب أخماسا فى أسداس واستغرقته أحلامه فى الحَصر والجمع والطرح وتخطيط شئونه . ولمَّ أشتات أموره فى يومه وغده ... ظلّ هكذا فترة طويلة ، حتى انتبه فجأة ، إذ تذكر أنه نسى تأديةَ صلاة العشاء . فقام وتوضأ وصلّى ... وعاد إلى كتبه التى نسيها هى الأخرى بجانبه على السرير منذ ليلة أمس . وما أن بدأ يقرأ حتى عاوده التفكير فى ضيف الليلة الماضية . وتراءى له وجهُه طيبًا هادئًا وهو يقول له : « يسعدنى أن أقول لكَ تصبح على خير يا أستاذ حسان » وفكّر فى كلماته : « أنا إنسان تعس معلق بين سماء بلا زمن وبين

أرض قاحلــة بلا مستقبل . » فلم يفهم مرامى هذه الكلمات علــى وجه التحديـــد ومــا وراءها ، ولكنه شعر شعوراً قوياً أن صاحبها إنسان بائس معذب ! (ولم يفهم فهمًا دقيقًا ما وراء زيارته الغامضة له . ما هدفه من التعارف ؟ مجرد التعرف ؟ ! الصداقة ؟ ! هل هو يعانى من الوحدة مثله ؟ هل هو بلا صديق ؟ وشعرحسان لحظةً بالضيق عندما تذكر أنه تعمد ألا يقدم له كوباً من الشاى ، وهو ضيف فى بيته ، ثم عاوده تفكيره فى الأمر متسائلاً : « لكن لماذا يختاره هو بالذات صديقاً له ؟ ! هل لأنه توسم فيـه نقاءَ القلب كما يقول ؟ لا . إن الأمر بالطبع يتعلق بالست هناء ! . فماذا يريد منه ؟ وماذا يريد منها ؟ يبدو أنه لم يطهِّر نفسَه بعد من النزوات ! وما هو الخير الذى يختزنه له ؟ بل هو كاد أن يبوح له بأمرٍ ما ، لكنه سرعان ما أمسك عن الكشف عنه ! هل يتوقع منه أن ينصحه بعدم الـــزواج منها ، كما فعل الشيـــخ عبد المقصود مثلا ؟ ! إن هناك مَنْ يجيئون إلى « وصفى » هذا بأخبار شارع البرازخ ، وبما يدور فيه بينه وبين الست هناء . إنه يعرف قصده ! هو لا شك شاب مثقف ، يثير فى نفسه التحدى وتركيز الذهن والانتباه والحرص . هو ثعلب ماكر بلا ريب . ولكنه لن يستطيع أن يعبث به . لقد كان قوياً فى مواجهة هذا الثعلب . نصحه أن يتزوج ليصون نفسه . نصحه تلك النصيحة ليستدرجه وليكشف عما فى خبيئته لكن ، كم هو مراوغ. يحاصره بقيود يسميها مبادئ الاتفاق . ولكنه كشفه . كشف عن مغالطة منطقه وفساد حجته . كان حريصًا معه ، إنه يواجه المكرَ بالمكر . جاراه بذكاء . والآخر ناعم كالثعبان . لكنه مع ذلك ، يبدو غير شرير إلى الحدّ الذى يثير فى نفس الست هناء كلَّ هذه المخاوف . ليس رهيبًا إلى الحدّ الذى تتوهمه . ألم يقل لها أنها واهمة ، أسيرة وسواسٍ مستبد؟ أم أن له وجهاً آخر لم يكشف عنه بعد ؟ ! ربما يكون ذلك . من الخير، على أيةِ حال ، ألا يحطم جسور الاتصال بينهما . لن يخسر شيئاً . بل على العكس ، سيسمح له بمقابلتـه مرات فى بيتـه أو فى المقهى . حسناً فعل عندما قال له : «سأسمح» فالآخر يعرف عنه الكثير . ولماذا يستقصى أخبارَه وأحواله ؟ بالطبع هو مدفوع أيضا يعامل حساسيته الصحفية ، بغريزة التنقيب . على أية حال ، هو لم يكذب فيما يبدو . صارحه على الفور بأنه تعمد مقابلته فى المقهى . ولم يكن لقاؤهما فى تلك الليلة مصادفة . هل صدق فى القول ليكسب ثقتَه ؟ ! وماذا يريد من وراء ذلك ؟ آه ... الأهم من هذا كله : ما الذى يخبئه فى صدره ولم يشأ أن يبوح به ؟ لكـن « السبب المرحلــى » الذى يفصـح عنــه الآن هو : التعـارف ! ومـع

ذلـك ، هل كانت زيارتُه غامضة الهدف ؟ هو صادق وكاذب في نفس الوقت . صادق عن عَمد ليكسب ثقتَه ووده . وهو كاذب لأنه سئ الطوية في غالب الأمر ! فهل يرحب بصداقته ويفتح له قلبَـه ؟ إن صداقتـه ستجلب له بعَض المتاعب ، لأن مخاوف الست هناء لن تهمد في رأسها ولم تزايل قلبها ، فهي تتوجس منه خيفة على الدوام وربما يزيد وصفي الطيَن بلّة فيعاود سلوكه السئ وأفاعيله المتهورة . وإذن ، سيضطر أن يقف منه موقفًا حاداً حاسماً . وربما يندفع هذا الوغد صوبه بعمل عدائي قد يعكر صفو علاقته بها . ومن المحتمل أن تتفاقم الأمور ، وينقلب التعارفُ إلى خصام ثم إلى شجار وعراك . ومن المحتمل أيضا أن يثير ذلك الغبار والريب والتجريح ، فيفترى عليه وعليها بأكاذيب . وهناك من يولعون بتضخيم الأمور فتلوك ألسنتُهم الإشاعات التي سرعان ما تتحول إلى فضائح مخزية . كل هذا من المحتمل أن يحدث من جراء السير في ركاب هذه الصداقة التي من الأفضل أن يسدّ بابها ويستريح . ولكن ذلك يوجب عليه أن يكون متروّيًا متعقلاً حصيفاً ، وإذا هو أغضب هذا الثعلب ، فقد يمكر به وبها وسيسدد لهما ضربات غامضة عشواء ، فيصيبهما بالأذى من حيث لا يدريان . نعم ، لن ينكره . لن يغضبه . لكن ، إذا علمتْ هي بمقابلاته مع عدّوها اللدود ، فمن المحتمل أن تستنكر منه ذلك ، وتغضب بدافع من مخاوفها التي ستتضاعف . نعم ، إن علمها بأنه يسمح لوصفي بأن يدخل بيته أو يجالسه في مقهى ، كفيل بأن يفاقم من وساوسها ، ومن ثم ستتخذ منه موقفًا غير طيب يطيح بعلاقتهما الحميمة ، وكفيل كل هذا بهدم صَرح الوّد واللطف والمحبة ، الذي بُني على الصدق والنقاء . فهل يخفي عنها أنباء تعارفه بوصفي وبمقابلاته المتوقعةَ في الأيام القادمة ! ؟

هذا أفضل بقدر الإمكان ! ألم تقل هي أن الكتمان أحياناً مرغوب فيه لا سيما إذا كان يضُّر بمَنْ نحب ؟! إن علاقتهما مهددة بوجود شبح وصفي بينهما : بل من المحتمل جداً أن يضرّ بهما إفصاحُه لها عن أخبار هذا الوغد . إذن ، من باب التعقل للأمور أن يجنبها مضاعفَة أوهامها ووساوسها ، فينحى جانباً هذا الشبح ، وليسدل الستارَ عليه ليحجبه عنها ، رحمةً بها من خوفها المروع وصَوناً لمستقبلها ! نعم ، لينأى به عنها حتى يستطيع رويداً أن يتخلص منه وحده بلا أدنى عكارة ، بلا سوء تفاهم ، وفي الوقت المناسب . هو ثعبان ناعم وليكن هو صاحيًا حذراً ، فالآخر يريد صداقته غير خالص ليوقعه في حبائل شائكة لا يعرف مدى خطورةَ آثارها . ولكن يجب عليه إذن ، ألا يرفض سعيَه إليه صراحة . لابد من مجاراته ليبعده بوسائل لا تضُر بهما .

وفى نهاية الأمر سينفرج لهما طريقُ السلامة ، ويسلك هو وزوجته الست هناء سبيلَهما فى أمان . أما هذا الوغد ، فهو أيضا لا مناص من أن يسلك سبيله الآخر الذى يشاءه اللهُ له . ولكن ما هى تلك الوسائل التى يمكنه أن يتبعها ويأخذها فى إعتباره منذ الآن لإبعاد شبح هذا الثعلب الماكر عنهما ؟ ! وكيف يحجبه ويبعده فى نفس الوقت الذى يُظهر له الودَّ والترحاب ؟ ! وطفق حسان يفكر طويلا . لكن عقله لم يسعفه بأية فكرة أوحيلة إلا أن يخفى أمره عنها . فقال لنفسه هامساً : « أدعوك يا رب العالمين أن تلهمنى الصبَر والإيمان ، أن تلهمنى القوةَ والصفاء لمجابهة هذا الشرّ! اللهم إ بعد عنى وعنها السوَ والوقيعةَ والأذى ! . » .

الفصل التاسع والثلاثون

وللأحلام أجنحة الغربان

مضتْ أيامٌ ، وفى مغرب اليوم ، كان راجعاً من مسكن « الست جليلة » ، فإذا به يُفاجأ بـ « غلوش » ينتظره على باب دكانه ، نظر « غلوش » إليه شَزَراً وقال لحسان وهو يتبعه داخل الدكان :

- « بكلامكَ أوقعتَ بينى وبين معلمى « هلال الدرديرى » ! » .

فقال حسان بدهشة هادئة :

- « ما قصدتُ الوقيعةَ أبداً ... » .

فقال غلوش بغضب :

- « قلتَ له أننى غازلتُ جارتَك ، فلكزنى فى جانبى بطرفِ عصاه مؤنبًا .

وقال لى أنه لا يريد أن يعمل معه شخصٌ قليل الأدب لا يحترم جيرانَه فأفهمته أننى لستُ قليل الأدب ، وأن شيئاً من هذا لم يحدث من جانبى ، فقال لى ": (حسان رجل يعرف اللهَ ولا يكذب) ! ولكنكَ كذبتَ وخربت بيتى ! » .

- « لم أكذب يا غلوش ! لم أقل له إلا الحقيقة . وبالفعل أنتَ وجّهتَ إليها كلاماً لا يليق ! » .

- « أنتَ كاذب وهى كاذبة ! معلمى رجل صعيدى عصبى . لم أطق كلامه . كلامكَ معه أدى بنا إلى كلام صعب وكدنا نتعارك بسببك ! » .

- « بسببى أنا ؟ ! أنتَ المسئول عن كل ما جرى ! » .

فقال غلوش بصوتٍ عالٍ :

- « أسمع ! أنا تركتَ له الشُغْل فى الوكالة . هو غيرمحتاج إلّى . ستون رجلاً تحت يديه يسدّون مكانى عنده . أما أنا ... » .

- « لا تكن عصبياً إلى هذا الحدّ ! فأنا ... » .

فقاطعه غلوش بتهور :

- « تخرب بيتي وتقول لي لا تكن عصبياً ! فقدتُ لقمةَ عيش ورزق أولادى . وتقول لي ! ... أسمع ... أسمع أنت رجل ضلالي لا ضمير لكَ ! » .

- صَنْ لسانَك يا غلوش ! ودَعْني أتدخل لأعالج موضوعَك عند معلمك ... » .

- « أنا لست عاجزاً . وذراع الرجل لا يعجز عن العمل والكسب ... » .

- « أطمئن يا غلوش ! سأسعى للمصالحة بينك وبين معلمك ... » .

فقال غلوش محتداً بصوتٍ عالٍ مبتذل :

- « كاد يضربني بالحذاء ، فهل أرجع إليه ... الأرزاق بيد الله ! » .

- « استغفر الله - وحسبي الله ونعم الوكيل . أعقل يا غلوش ! » .

- « أي عقل ! أنتَ رجل مغفل ! » .

- « أخرج من دكاني ! يا قليل الأدب ! » .

وكاد غلوش أن يسدد إليه لكمةً بقبضته ، لكنها انفلتتْ في الهواء ، إذ تراجع حسان على الفور وبلا وعي إلى الرخامة وقد فَارَ الدمُ في رأسه . وبرقَ تحت عينيه نَصْلُ السكين الملقاة فوق قرص الجبن - إلا أن غلوش تماسك وعَضَّ على نواجذه وشرر الغضب المحتدم في دخيلته يتطاير من عينيه الواسعتْين ثم ولّاه ظهَره مبتعداً عنه . وتوقف بالباب لحظة وهو يقول بصوتٍ عالٍ متوعداً :

- « أقطع ذراعي لو لم أعرف كيف آخذ حقي ! أنتَ رجل أعمى . وأنا أرى ما لا ترى وسأريكَ أنني رجل ! » . واختفى غلوش كعاصفة نارية شريرة . وتهاوى حسان على كرسيه وأطرافه ترتعش من فرط الغضب وشعوره الممضّ بالإهانة . ومسح عن جبينه عرقَه . وبعد دقائق ، هدأتْ دقاتُ قلبه وطفق يستغفر ربَّه ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم توضأ من ماء جردله وأدى صلاة المغرب .

وما أن ختم صلاتَه وسلّم حتى رأى « الست جليلة » واقفة عن يساره ، فنهض وقد هدأتْ سريرتُه . قالت له :

- « حرماً يا عم حسان . نسيتَ عندى النسخة الأخرى من مفتاح شقتك ! » .

فقال لها بصوت هادئ :

- « في الأمان يا ست جليلة . لدى المفتاح الأصلى . إحتفظى بهذه النسخة معك، بدلاً من أن أعطيها لكَ كل صباح وآخذها منك كل مساء . » .

- « مفتاح شقتك أمانة في عنقي ، ولكن لا يليق أن أحتفظ به معى . أنا أفضل أن آخذه منك كل صباح ، وليبقَ في جيبك من باب الاحتياط . لا أحد يعرف الظروف يا عم حسان . وأنا لا أرفع عينى عن كل ما فى شقتك . أرعاها بعينى وقلبي، على الرغم من أن كلاًّ مَنْ دخلها من سمكري وكهربائى ونجار ، أناس أمناء حقا! ».

- « مفتاح شقتى فى حوزتكِ يشعرنى بأمانٍ أكثر مما هو فى جيبى . أنتِ أخت عزيزة أمينة . » .

- « ألف شكر على ثقتك وجبرك لخاطرى وخاطر أولادى . » .

- « لا شُكر على واجب . بل أنتِ تعطين من جهدك ووقتك مالاً يقدر بأجر... ».

وبدَتْ شاردة الذهن لحظات ... ثم قالت :

- « آ ... نسيتُ أن أقول لك ، فإن كرمك لم يعطنى فرصة للكلام ، وحتى فى زيارتك الكريمة لنا فى مسكننا لم تمكث معنا إلا دقائق قليلة ، وأنا زعلانة منك . هل يصّح أن تزورنا ولا تشرب عندنا كوباً من الشاى على الأقل ... نسيتُ أن أقول لك أن السمكرى أتّم اليوم تركيب الأدوات . حنفيات ومواسير الماء الساخن فى المطبخ والحمام. » .

- « المهم أن تكون « تشطيباته » بنفس دقة « سيد الخواجة » الكهربائى . » .

- « جَربَ تشغيل السَّخان قبل أن يغادر الشقَة مر ات . لا يقَل فى حُسْن شُغْله عن مهارة الكهربائى . حقا . قام « سيد الخواجة » الكهربائى بكل التوصيلات المطلوبة بضمير وذمة . ولن يَظهر جمال الشقة وحُسْن رونقها إلا بعد دهانها وقام بتركيب التوصيلات الكهربائية فى الأركان - وللنجف فى السقف و « للأبلاكيهات » فى الجدران . و « للخلاط » وللثلاجة فى المطبخ ، وللتليفزيون واحدة فى حجرة النوم ،

وأخرى في حجرة الجلوس فضلاً عن توصيلات أخرى في الصالة والصالون وحجرة السفرة . ولم ينسَ أن يثبت عند موضع السرير زِراً كهربائيًا خاصًا ... مبروك لكَ ولها . يسعد كما الله . ستبدو الشقة كالجنة بدخول عروستنا الحلوة فيها . فهي النجفة الكبيرة . هي القمر . يحميكما اللهُ من كل عين . عين الحسود فيها عود ... » .

– « بارك اللهُ فيك يا ست جليلة . وأنا راض عن شُغْل « الأسطى مرجان » النجار ، جعل الشقةَ تنطق بالجمال » .

– « على فكرة ، صدق وجاء في موعده وأحضر لك « بلتكانات » الستائر فوضعتُها فوق الدولاب . وقال لي أنه سيمّر عليكَ في الدكان غداً ليأخذ بقيةَ حسابه. » وبعد لحظة صمت ، قالت متأهبة للانصراف :

– « سأرجع الآن حالاً للأولاد لأطبخ لهم طعامهم . وغدا في الساعة التاسعة والنصف صباحاً بإذن الله ، سأجيء إليكَ لآخذ المفتاح . وبعد أن أتم الدهانان تقشير الحجرات ، فمن الغد سيبدآن في الدهان . يصونك المولى ويحمي عروستك . » .

– « أنت الخير والبركة يا ست جليلة . وأرجو ألا تجهدي نفسك . مهمتك الوحيدة هي الملاحظة والإشراف . أرجو أن تهتمي بصحتك وبصحة أولادك . يحتاج أولادك لمزيد من العناية والتغذية خصوصاً الولد الصغير « بلبل » . وأنا تحت أمرك . هم أولادي . وأنت أختي ، والأسطى « أحمد برقوق » أخي . وفي القريب العاجل ستتحقق عدالة الله وتثبت براءته . أطمئني ... » .

– « كل شئ بأمر الله تصبح على خير يا عم حسان . » .

* * *

وما أن خرجْت الست جليلة من الدكان ، حتى تحركتْ في نفسه الرغبةُ في التوجه إلى الوكالة لمقابلة (المعلم هلال الدرديري) ، إلا أنه تريث قليلاً عندما تطلع إلى إحدى نوافذها خفيةً من خلال أعلى بابه الزجاجي المتوارب فلمح بصيصاً خافتاً من الضوء خلف الخصاص . وتمنى أن تنزل وتجالسه بعض الوقت ليتبادلا الحديث . فقد برح به الشوقُ ، وهو لم يجالسها منذ أيام طويلة . لمحها صباح أول أمس خارجةً من باب بيتها ، وقفتْ بباب الدكان ثواني خاطفة وحيَّته تحية الصباح ، تحية حلوة عابرة وقالت له أنها ذاهبة إلى سوق الحي ، ووعدته بلقاء قريب .

ودخل بعضُ الزبائن ، فطفق يجيب طلباتهم ، كما ركن أحدُ الباعة دراجتَه إلى باب دكانه وقام بتسليمه بعض علب السجائر ...

ومضتْ ساعةُ العشاء ولم يلح لها طيفُ . فأدار مفتاح الراديو وظلَّ يستمع إلى تلاوة بعض الآيات القرآنية . وما أن ختم صوتُ المقرىء السورةَ حتى أقفل مفتاح الراديو فخّيم السكونُ الموحش على باحة الدكان وعاوده التفكيُر في الذهاب إلى «المعلم هلال الدرديرى » ونظر إلى ساعته فوجدها قد بلغتْ التاسعة ، فأدرك أن الوقت غير مناسب ، ثم ما لبث أن شعر بفتور رغبته في الذهاب إليه - فإن « غلوش » لا يستحق أي سعى للخير . هو إنسان سليط اللسان . جعجاع جبان . كما أنه ليس بالشخص الخطر الذى يخشاه ، فالخطر الحقيقى قد يدهمه من جانب « وصفى » ! يعرف حسان طباعَ « غلوش » . ويعرف أن مجيئه إليه كان لمجرد التنفيس عن غضبه. وقدفعل ذلك بما فيه الكفاية . ويعرف كذلك أن « غلوش » يدرك تمام الإدراك أن السبب الحقيقى لسوء تفاهمه مع معلمه هو سلاطة لسانه وتهوره . ويتوقع حسان أن الجَّو سيصفو بينهما وسرعان ما يعود بعد أيام إلى حظيرة الوكالة ليعاود عملَه فيها بلا كدر . ويعرف أن خصاماً بينهما سبق أن وقع مرات ، وسرعان ما عادتْ المياهُ إلى مجاريها ، كما سوف يتكرر ذلك مرات . لكن « وصفى » هو الداهية ، هو شخص مثقف ، باردالعقل . يمكر مكر الثعلب . وربما لا يتورع عن الأذى مدفوعاً بطباع السفاحين ذوى الدم البارد . يشعر بهذا الآن ، على الرغم من أن « وصفى » لم يُظهر فى حضوره معه أيةَ سمة من سمات طباعه هذه . بل على العكس ، كان دمث الأخلاق ، نبيلا ، ودوداً ... ومع ذلك ، يميل حسان إلى رأى « الست هناء » ، فهى تعرفه عن قرب معرفةً ذكية . تعرف وجهه الآخر الذى لم يكشف له عنه بعد ، فهو شقيق زوجها ، وعاشتْ معَه فى بيت أسرته ، ثلاث سنوات زواجها . وتعرف كيف كشف اللثام عن سوء خُلقه قبل وفاة زوجها ، وبعدها . فقد رجع « وصفى » بعد الوفاه بشهرين من بعثته الصحفية ، ثم أفصح عن خسّته ونذالته ! وجد البيتَ خالياً من الزوج ... شقيقه ! فأى وغد هذا الذى يدعى « وصفى » ! ولم يغب عن ذهن حسان سوء طويته ولا دناءته . لكنه يأخذ حذرَه منه بعين العقل والروية . ولن يغلبه هذا الوقح ببرود عقله وثقافته التى يستغلها فى سبل الشر والوقيعة . ولكنه يستطيع أن يستفز فى حسان عواطفَه أو أن يثير انفعالاته . فليكن مثله هادئاً عاقلا، حاضر الذهن ... وليتحداه ! فلا شك أن وجود هذا الوغد بينه وبين « الست هناء » يعد عكارة ومثاراً للكدر ، ولذلك - هو يؤثر الابتعاد بها عن طيفه ، وإبعاد شبحه الكئيب عنها.

وشعر على حين فجأة بسحابة من الضيق . ألَمّتْ بصدره وتساءل ، لماذا يخفى عنها خبره ؟ لماذا لا يلتزم بالصدق والصراحة كما تعاهد معها ؟ لماذا لا يخبرها على الأقل بشئ عن مقابلته له حتى لا يشعر فى حضوره معها بوخز الضمير الذى يثيره فى نفسه إحساسه بالكتمان ؟ وماذا لو علمت هى فيما بعد من مصدرما أومصادفة بنبأ هذه المقابلة أو بأخبار اللقاءات المتوقعة بينه وبين وصفى ؟ لماذا لا يذكر لها على الأقل الجانب الذى يريح قلبها ويزيح عن صدرها المخاوف ؟ ولكن مَنْ ذا الذى علم بخبر اللقاء الذى وقع فى مسكنه بينه وبين وصفى ؟ ! لا أحد يعلم بهذا اللقاء ! ولكن ألا يحتمل أن يكون ضمن خطط وصفى الخبيثة أن يعمد إلى تسريب هذا النبأ إليها عن طريق من يجيئون إليه بأخبار شارع البرازخ وما يدور بينهما خفية ؟ ! ومَنْ يكون هذا الذى يستخدمه وصفى مخبراً ورقيباً ؟ نعم ، من هم جواسيس وصفى هنا وهناك ؟ ألا تكون « أنيسة » البلهاء العوراء ؟ أم تكون البنت « كوثر » أو شقيقتها « زوبة » ؟! وكيف يتوصل وصفى إليهن ؟ وبأى الوسائل يستطيع أن يطوعهن له تحت أمرته ؟ هل يدفع لهن نقوداً ؟ ! لا ... لا ... إن الأقرب إلى الشبهة والظن هو « غلوش » ! وربما يكون هذا أيضا بعيداً عن شبهة التجسس ، فلو كان « غلوش » يعمل جاسوسا لوصفى لما جاءه وأظهر له العداء . لو كان جاسوساً له حقاً لخدعه بوجه آخر ، لتصانع البِشْر وتكلّف الودّ سيما أنه شخص على قدر من الخبث والمكر . فمن هم إذن ، جواسيس وصفى ؟ إن من يظهرون له الود ، من المحتمل أن يكونوا هم الجواسيس ؟ وربما تكون كل أفكاره هذه عن الجواسيس محض وسوسة وأوهام ! وربما لم يكن أحد من سكان شارع البرازخ أو الحى يتجسس لحساب وصفى ! وماذا يهم ؟ ! ... أنه يغلق فى الوقت المناسب بابَه الزجاجي عليهما ، ولا يسمع أحد ما يدور بينهما من حديث هنا . والحديث بينهما فى هذه الفترة العصيبة من حياته لا بد منه ، فهو ضرورة للتفاهم ولترتيب شئون حياتهما التـى لا يليق أن يتصرف فى بعضها منفرداً . هناك مسائل لا بد من التفاهم بصددها والاتفاق عليها . وكم كان يود أن ينتهى من اختيار نوع وذوق الأثاث الجديد بمشورتها يومذاك ... فى ذلك الصباح الجميل ! لكن ، كل شئ نصيب . ولا يجب أن يتعجل الأمور بكل هذا القلق والانزعاج ! ما لهؤلاء الناس بهما ؟ ! لماذا لا تجئ الليلة إلى دكانه ؟ يشتاق إليها وكأنه لم يرها ولم يجالسها منذ سنوات ! هل كان « غلوش » يرمى إلى شئ ما بشتائمه ؟ ! ماذا يقصد بقوله له : « ... أنتَ رجل أعمى ! » ! ؟ ... أنه مجرد انفعال الغضب ولا أكثر من هذا . بل هو سوء الظن الذى يستسهله الناسُ هنا عندما لا يجدون عيباً فيمَنْ يكرهونه ؟ من أين ينبع الحزن ؟ ! من

أين تأتيه الكراهية ؟ ! الكراهية أمر معقد حقا . قد تكون أسبابها في نفس غلوش بعيدة كل البعد عن الأشخاص الذين يصب عليهم جام غضبه ونقمته ! ... لم يجيء إليه غلوش إلا لينفض متاعبه وسخطه وشعوره الموجع بالإهانة التي دهمته عند معلمه ! وربما كان لدى غلوش أسباب أخرى خافية على حسان الآن . بعض الناس يسيئون الظن بالست هناء ، فهي تعيش في عزلة عن جيرانها . منطوية على أحزانها ومخاوفها . لا تؤذي أحداً بكلمة . ومع ذلك يصيبها الأذى من أناس رذال ينظرون إليها بعين ناقمة ، لا لسبب إلا لأنها تبدو في ظاهر الأمر متعالية . ثرية . جميلة كنجمة سينمائية ! تماما كما حقدتْ عليها شقيقةُ زوجها العانس العزلاء من أي ملمح من ملامح الجمال ، تماما كما عيَّرتها حماتُها بالفقر - فهي لم تجد فيها عيباً غير عيب الفقر . وذلك كفر واعتراض على مشيئة الله . كل هذا ظلم وافتراء . وهي في حقيقة الأمر ، إنسانة تعسة . فقيرة . وحيدة فأي بؤس . وأي عذاب . ولكن الإنسان القوي البطل حقا هو مَنْ يستطيع الفكاك من جحيم الناس ! والست هناء لم تفلت من نار هذا الجحيم . وها هو ماضيه يشهد على أنه هو أيضا لم يتحرر بعد من استعباد الآخرين له . فهو يذكر جيداً جحيم الوظيفة وزبانيته . ذلك الجحيم الذي احترقتْ بناره روحُه طوال عشر سنوات . عندما استقال واختار لنفسه طريق العمل الحر ، ظن أنه قد تحرر من الأغلال ! وهو بالفعل عاش سنوات من العزوف والتحررفي ظل دكانه هذا لكن الخواطر سجن من نوع آخر . بل الأحلام أيضا لها أجنحة ، فإذا هي حلقت به فوق أرض العذاب ، فهو مع ذلك لا يفلت من ألسنة الناس التي تتطاول إليه فتزفر زفراتها فتحرق أجنحته هذه ومَنْ ركب متنَها ! فإذا هي أجنحه غربان متفحمة تهوي به جيفة حقيرة في بؤرة سحيقة كريهة الرائحة وهو يندم الآن أوجع النـــدم على استسلامه لخواطر تتناهشه ... بلا إرادة، ولا أحلام تعانقه بثوب وردي ذي شذى أثير مخدر ، فإذا بالثوب حبل من الشوق يخنقه خنقاً تبلغ شدته نخس النخاع في عظامه ! نار أشواق تلسع روحَه الساكنة وتشبّ فيها . ورأى كيانه كله وقد أستحال رماداً تذروه عاصفة باردة ، فيصحو ليجد نفسه تحت الغيوم عاريا ، وينظر فوقه فلا يجد الشمس لتدفئ رفاته فأي إنسان تعس هو ! وإذا كانت هي قد ذاقت كل هوان الوحدة وعذاب اليتم منذ ولدت ، وإذا كان هو الآخر بكل هذا البؤس وتعاسة الحرمان ، فليجمع الله شملهما ببركته ... يارب لطفك !

وأوغل الليل ولم تأتِ ، فأغلق الدكان خائب الرجاء ، وأخذ طريقَه إلى بيته ! .

الفصل الأربعون
الغوايـــة

بينما كان يسير فى شارع البرازخ الملتف فى عطاف الظلمة الباردة ، آخذاً طريقه إلى محطة الأوتوبيس ، قاصدا مسكنه ، ألح عليه خاطر ... أمنية : ليته يستطيع الآن أن يزور صديقه « شعبان أفندى » أوالشيخ عبد المقصود » ! أين هما الآن ؟ كل منهما فى بيته بين أولاده . وإذا هو ذهب الآن وطرق باب أحدهما فلا شك أن تصرفه هذا يعد أمراً غريبا منه ، فهو لم يفعل هذا من قبل ، ولم يزر أحدا منهما إلا فى مناسبة محددة - كما سيثير ذلك الإزعاجَ لأى منهما للأسرة الهانئة ولن يجد فى بيت هذا أو ذاك الخلوة المنشودة للحديث الطلق الذى يبدد الحزن ، ويزيح الهَم عن صدره . وتمنى لو صادف فى طريقه الآن صديقه « شعبان » ... إذن ، لتوجها سوياً إلى ركن فى أحد المقاهى الهادئة ، ونعم بمجالسته الأثيرة . فأى أمنيات عزيزة تلك التى يتمناها ، بل أى مصادفة بعيدة المنال تلك التى ينشدها ! .

ورمى ببصره من بعيد إلى نافذتها قبل أن يستدير ليغادر شارعه بلا أمل فلمح بصيصَ الضوء ما يزال يبرق كالنجم من وراء الخصاص المغلق . وأسرف فى التمنى ، فهمس باطنه خفيةً بهمسات ارجوانية ! ... ومتى ... متى تكرّ الأيام ، فينصرم عامُ الحداد ... لينقضِ إذن الشهران الباقيان ليبدأ العمرُ الفرحَ بالحياة الجديدة ؟ ! متى يولد له الولد ليملأ دنياه الموشحة بالصوت الحبيب . متى يناغيه ويحمله على ذراعيه ؟ متى يشيع فى حضنه المثلج الملتاع الدفءُ والحنان ؟ متى ينظر إلى محياها فيراها وهى تبتسم لوجه وليدها وهى ترضعه من صدرها البَدْرى الريان ؟ ! ... وعجب لصدره هو الآن ، كيف يكون مثلجا كصدر ميت لما به من كآبة ، وكيف يكون فى نفس الوقت مشبوباً بالنار من فرط اهتياج وجدانه ؟ ! وأحس كأن به شَقًا حَاداً غائراً فتحسسه بأصابعه خلسة من تحت معطفه وهو يحكم إغلاق أزراره فى مهب الريح الباردة التى ظن للحظة بأرقة أنها تذكى النار فى بدنه . عجب لعذاب قلبه وحرقته من الشوق فهو لم يجالسها منذ أسبوع . رآها مرات تخرج من باب بيتها . تحييه التحيةَ العابرة وهى

فى سبيلها إلى السوق . ورآها وهى تعود حاملة بعض حاجاتها . ما بالها لا تدخل دكانه وتجالسه ؟ ! يود أن يعرف كُنْه تلك الأشياء التى تشتريها وهل تمت بصلة لحياتهما الزوجية المقبلة ؟ يعرف أنها تتحفظ لتصون العلاقة بينهما من سوء الأقاويل وقد أوشك عام الحداد أن ينقضى فهى عاقلة وهو نافد الصبر يتوق لمبادلتها الحديث وكأن أعواما طويلة مرت على آخر لقاء كان بينهما فى ركن « لورانتوس » . أكان حُلماً ذلك اللقاء ؟ ! وكاد أن يصدق وهمه ويكذب وقائع ذلك الصباح الغريب ... فى الترام ... فى ردهه البنك ... فى الشوارع تحت رذاذ المطر ... وحتى هذا الممر ، أكان حقيقة ؟ ! وتلك اللسعة الكهربائية الناعمة المرعشة لكل أصلابة وأطرافه ... كيف حدث هذا وهو الآن ملقى فى حضن البرد والظلمة والضياع ؟ أى شقاء يا شيخ عبد المقصود ! .

وكان قد اتخذ طريقاً آخر على غير وعى منه ، لم لا يذهب إليه الآن ؟ ألا يحتمل أن يكون موجوداً الآن فى الجامع ؟ هذا محتمل ، فلم تمض على صلاة العشاء إلا ساعة . فما بال عقله وقد تاه فافتقد قدرته على تقدير الوقت ... تقديره الدقيق المعهود ؟ ! وهى تعلم أنه غارق فى الإعداد والتجهيز ، ولا بدانها من جانبها قد أعدّت العدّة على الأقل من الناحية النفسية . ولا شك أن الشيخ عبد المقصود ما يزال داخل المسجد الآن يعظ أو يكمل دروس العشاء ...

وجد نفَسه فى مواجهة باب المسجد المفتوح. وكان يترامى من داخله إلى الشارع المعتم نورُ خافت . خلع حذاءيه ودخل . كان المسجد هادئا خالياً إلا من الشيخ عبد المقصود وكان جالسا تحت المنبر ، ومن حوله نفر قليل رآه يتحدث إليهم . وفى ركن غيربعيد ، بجانب عمود حجرى ، صلى ركعتين ، ثم مكث هناك وحده متربعاً مطرقا يسبح ويحمدل ويكّبر يستغفر ويدعو ويستمع إلى كلماتهم حول أمور شتى ، منها التحشم وحجاب النساء والبنات فى زمن العرى والفساد ، ثم راقب الجمع وهو يتفرق ... وبعد هنيهة رأى الشيخ عبد المقصود مفتغداً الحصير وحده ، فنهض وأقبل عليه ملقياً السلام . وما أن هم بالجلوس بجانبه حتى قال له الشيخ عبد المقصود يتأدب مطرقا :

- « الوضوء على الوضوء نور على نور . وأنتَ لم تفعل يا حسان ! » .

روعته كلماتُ الشيخ المباغتة ، ومع ذلك قال له ولم يجلس :

- « نعم » .

فقال الشيخ :

- « أحثّك على تجديد الوضوء ! » .

فسعى حسان إلى الميضاء وطفق يتوضأ . وعاد إلى الشيخ فى وجل ، فاستقبله هذا قائلا :

- « الآن تجلس . إذا توضأ العبُد المسلم فتمضمض خرجْت الخطايا من فيه ! » .

وجلس حسان صامتا . مكث بجانب الشيخ غائبا فى الصمت والوجوم ، فقال الشيخ :

- « أن المشى فى الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة . والوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان ! » .

- « سعيتُ إليك فى ساعة من ساعات الوحشة . وحشة الشعور بالوحدة والغربة».

- « المؤمن يحب الوحدة ولا يجد مع الله غربة . فالله مؤنس الغرباء ! » .

- « نعم » .

- « أراك مهموماً يا حسان يا ابن الحاج بكرى ؟ ! » .

لم يرد حسان بكلمة ، فاضاف الشيخ :

- « دَعْنى إذن أسألك بلا لفّ ولا دوران ! » .

- « نعم . إنى طوع أمرك ! » .

- « بل قُلْ كلنا فى طوع الله سبحانه وتعالى ! ... قُلْ لى يا حسان : هل أنت مدبر عن جارتك أم أراك مقبلا عليها ! ؟ » .

- « أنى بإذن الله تعالى ، مقبل عليها بالزواج كما حدثتك . » .

- « وهل تدبرت أمورك بالروية والتبصر ؟ ! » .

- « نعم أنها يتيمة منذُ ولدت . فأما اليتيم فلا تقهر ! » .

- « صدق الله العظيم ... » .

- « وأرملة ! وأوحى اللهُ إلى داود صلى الله على نبيّنا وعليه وسلم يا داود كُنْ لليتيم كالأب الرحيم وكن للأرملة كالزوج الشقيق وأني معها كذلك ! » .

- « اسمع يا حسان . منذ صباك وأنت فى كنف أبيك رحمه الله رحمة واسعة ، تقول : أريد زوجة تجمع بين الكمال والجمال ، وعلى الراغم من أنك كنت دائماً ولداً خجولا قليل الكلام تبدو مطيعا فأنك تبطرت كثيرا ، فأنت عنيد عناد الأطفال . ولم يزايلك عنادك حتى اليوم . ولن تتخلى عنه غداً ، وعلى الرغم من أنك تذكر الكمال شرطا قبل ذكرك الجمال شرطا آخر ، فإنك فى دخيلتك تؤثر الجمال على الكمال ! » .

- « الكمال لله وحده يا شيخ عبد المقصود » .

- « الكمال حُسن الخلق على الإطلاق . كماله جَلّ شأنه منزّه عن كل كمال ! والجمال أيضا لله وحده . أما الجمال الذى رسخ فى مخيلتك فليس إلا جمال الجسد وفتنته ... أفهم ! » .

- « هى فقيرة وقال عليه الصلاة والسلام أكثروا معرفة الفقراء . ويدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء . » .

- « تقول أنها يتيمة وأرملة وفقيرة . وأعرف أنك ستتزوجها ! ولكن أسمع ...».

فقاطعه حسان :

- « هى فقيرة ورحيمة بأطفال الفقراء . وقلبها رقيق . قلب شاعرة . نعم هى تحب الشعر . وهذا من الجمال . » .

فرماه الشيخ بنظرة طويلة قوية ، ثم قال :

- « قال إبليس : يارب جعلت فى بنى آدم الرسل وأنزلت عليهم الكتب ، فما رسلى ؟ قال : الكهان . قال : فما كتبى ؟ قال : الوشم . قال : فما حديثى ؟ قال :

الكذب . قال : فما قرآنى ؟ قال : الشعر ! » .

- « يا شيخ عبد المقصود ! أن اليتيم إذا ضُرب أهتّز عرشُ الرحمن . وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام . » .

فنظر إليه زاجراً ، واستطرد :

- « إلى أن قال : فما مسجدى ؟ قال : الأسواق . قال : فما بيتى ؟ قال : الحمام . قال : فما شرابى ؟ قال : السُكر . قال : فما مصايدى ؟ قال : النساء ! .

والشعراء يتبعهم الغاوون ! افهم ياحسان ، فأنت مفتون ! » .

- « يا شيخ عبد المقصود ! أنها زوجتى على سنة الله ورسوله بمشيئة الله ! » .

- « وأسكرتك بشراب الهوى . بخمر الغواية ! » .

- « رفقاً يا شيخ عبد المقصود واستمع إلى ... » ...

- « أستمع إلىَّ أنت ! إذا نصحتك غضبتَ . وغضبك غول العقل وأعصابك كالوتر فى يدى الشيطان يأخذك عند الغضب كما يلعب بك عند الهوى ، ويطوى عليك فُى أوقات الفلتات على سبيل الخلسة ، ويطاردك بين النور والظلام ، وبين الليل والنهار ... افهم ! » .

- « حرام عليك يا شيخ عبد المقصود ! » .

- « أنصحك فاستمع ولا تقاطع . يجرى الشيطان منك مجرى الدم ، فينبغى لك أن تضيق عليه مجاريه بالصيام ! » .

- « ما عيبها ياشيخ عبد المقصود ؟ » .

- « عيبها عيبك ! » .

- « لا أفهم ! » .

- « إذن استمع بقلبك لعلك تفهم ! الزوجة التى أتمنى أن تختارها لنفسك هى

تلك التى تبعث من وحى فضيلتها نور الصفاء ، ومن وحى ورعها نور الرشاد فى عقلك . لكن جارتك هذه بأغوائها لك وبعدم تحشمها تبثُ فى نارك النائمة ناراً حارة حمراء ، لظى يسود الوجهَ كنار سقر فيغفل عقلك ويسهو قلبك ! » .

– « يا شيخ عبد المقصود شيطان المؤمن مهزول ! وأنا إن قلت له أدبر فهو مدبر! » .

فابتسم الشيخ وقال بتهكم :

– « إن المحب لمن يحب يطيع ! وأنت تطيع الشيطان دون أن تدرى ! عشش شيطانُها فى قلبك الذى توله فى نارها وتحسبه نورا . وربٌ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلا . وأنت تجرى على شفير هاوية الجحيم ! » .

هَم حسان بالنهوض مرتعداً ، متسائلاً :

– « هل بلغك من أمرها نبأ يعيبها ، لا سمح الله ؟ ! » .

– « الغيبة أشّد من الزنا ، وأن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة ولا يدخل الجنة نّمام ! .

– « حيّرتنى ! أفصح ! » .

– « لا تدخل دار الحلال من باب الحرام أو العكس ! » .

– « ظلمتَها وظلمتنى ! » .

– « أعمى لا يبصر ! » .

ومش حسان خطوات إلى الوراء مرتبكاً بلا وعى ، وقد التهب وجُهه العابس ، وهو ينظر إلى الشيخ بعينين غائبتين مردداً :

– « ظُلم ! » .

– « أعمى ! » .

– « ظُلم ! ظلم ! » .

ثم انتبه ، فغمغم بالسلام ! وولاه ظهَره وهرول صوب الباب متسللا ، مذبوح القلب ... وشيّعه الشيخ بصوته :

« لا تفرحن بليل طاب أولُه

فربّ آخر الليل أججَّ النارا » ! .

الفصل الحادي والأربعون

شرنبث أبو كبّة

يا ألطاف الله ! .

كان مضطرباً يرتعد من البرد . ومشى على غير هدى ، فوجد نفسه يعود من حيث أتى . يشقّ ظلمة شارع البرازخ بشبحه الهائم . واجتاز بابَ دكانه الخشبى المغلق ، فبدا له الدكان وكأنه ليس دكانه . غريب فى شارع غريب . وطرفت عيناه فرأى بصيص الضوء بارقاً من وراء خصاص نافذتها كما رمى بنظرة دامعة إلى باب بيتها ، فلم يرَ له ملمحاً . كان الجبّ كله غارقا فى سواد حالك رهيب ، وهمس فى باطنه يقول : « أنظر إلى بيت هناء ، فإن قالوا : أين بيتك ؟ أقول : هذا البيت بيتى الليلة ! وإن قالوا : وما اسمك ؟ أقول : لا أعرف ! » ولعن نفسه . فيكف ساقته قدماه وألقتا به إلى هناك حيث ضاعف الشيخ عبد المقصود من كدره وهمّه ! هذا الشيخ الذى ذَمَّ الشعرَ وما لبث أن شيّعه بالشعر ! قلبه من حَجَر ! وأمضّته حرقةُ الندم وتجاوز الدكان والبيت . وما أن بلغ نهاية سور الخربة حتى ترامى فى وحشة الليل إلى سَمعه صوتُ مبهم ، غمغمة لم يتبين لها مصدرا ، فأرهف أذنيه وهو يبطئ خطاه وَجِلاً . فسمع الصوت يدندن بأسى وخفوت :

« إن كان فى البلد رجل يطلع لى . »

« إن كان فيه صوت يسمعنى . »

« إخْص ! عليكِ يا دنيا ... ... »

« آه ! آه منك يا سونيا ... ... »

وتوقف لحظة ، إذ شدَّ قلبه الكسير الصوتُ الحزين الذى طفق يردد الكلمات لم يبال بالكلمات . ولم يكن الصوت عذباً ولا غريبا على سمعه . لكن إيقاعه كان صادق اللوعة مؤثراً وهو فى هذه الحالة وفى هذه الساعة . تسلل إلى حشاشته كالنسمة

واعتصر ما فيها من حزن في قبضة . وأغرورقتْ عيناه بالدمع ، فترقرقتْ حجب الظلام الخشنة . وتداعتْ أطياف البيوت المتلاصقة النائمة ، كحبّات من الحصى المظلمة ، فركل بحذائه شيئاً ظنه للوهلة الأولى كوماً من قشور عيدان القصب أو رِمّة صغيرة ، فإذا برجل قصير متكور يبزغ فجأة من ظلام كُنٍّ وراء السور ، فأرعبه ذلك أشد الرعب. رآه منحنياً على الشئ ويرفعه عن الأرض ولم تستقم له قامة . كان هو شرنبث كما توقع . رآه يلملم الشئَ ويقول مدندناً :

« طيِّر الهواء عمتى . وبانت فى القلب عَلتى ! » .

وراح يلّف عمامتَه حول رأسه ولم يتبين حسان من وجهه سوى أنف دميم وفم أدرد. فقال له :

- « شرنبث ؟ ! ما الذى رماكَ هذه الساعة فى الخربة والبرد والظلام يا شرنبث! ».

وولاه ظهرَه المحدودب ومضى وهو يترنم :

- « الزمنُ الذى رماك رمانى يا حسان ! » .

وتلاشى طيفُه فى حلكة الكُنّ وراء السور . ولم يسمع له صوت ولا نأمة وكأنه حشرةً زاحفة فى خفة الظل ... وكأنه لم يكن . بَدَا الشارعُ فى هذه الساعة أشبه بحارة من حارات المدافن . ولم يُسمع غير صفير الريح يهبط من العراء فى مويجات باردة ويلطم الشقوق والأبواب والنوافذ ويسفو عنها الترابَ وكأنها شواهد قبور ولمح زقاق «أم غيلان » حيث تقطن « الست جليلة » التى لا بد أن تكون فى هذه الساعة قد نامت مهدودة الحيل ومن حولها كوم أولادها البؤساء ، أسرة « الأسطى أحمد برقوق » الملقى فى زنزانة سجن مجهول . والسجن ملح الرجال . أما أنت يا حسان فلست من الرجال فى شئ ! أنت تتردى فى سجن آخر جيفة تفوح منك رائحةُ الحرام . أولى لك أن تُلقى أنتَ فى جوف الخربة بدلاً من شرنبث الذى لا يتوضأ ولا يصلى . تتطهر روحه بنور يقذفه الله فى قلبه منّةً وفضلاً . إن ربك حكيم عليم . وتذكر اليوم الذى ملأ فيه جردله من ورشة النجارة هذه المغلقة الأبواب الآن ، يوم حمل جردله وساقته قدماه فرفع رأسه إلى الشرفة هناك ، فإذا به يهوى فى مصائد حبال تلتف حول عنقه . لحظة خاطفة يرفع المرءُ فيها رأسه على غير وعى منه وبلا قصد ، فإذا هى لحظة الشنق . لحظة قطع

الرقبة . إن نصل السيف شعرةٌ فضية بارقة كهذا البصيص الوامض من خلال خصاص نافذتها . شعرة حادة فاصلة بين لحظة لذة عابرة وبين دهر من عذاب آسر دائم . بين رمق من نشوة الحياة وبين زفرة دم مسفوح . فأى قبضة مجهولة تلك التى دفعت به إلى دهليز أشبه بشفرة السيف ؟ من أى بابٍ قذف به إلى هوّة هذا السجن ! ؟ ألا كان ممكناً أن يحدث للشيخ عبد المقصود قبل عشر سنوات ما يحدث له الآن ؟ ! ومَنْ يكون الشيخ عبد المقصود فى تاريخ الهوى حتى يحقّ له أن يقضى فى مسألة الصدق والكذب ؟ ! وفى مصائر الناس ! ؟ بل هو لم يفصح عن عيب واحد حتى يبرئ ذمته من الظلم ! فدعوى الظلم قائمة إلى أن يقضى الله باقامة الحدّ فمَنْ الظالم ومن المظلوم ؟ ! .

وأثلج البردُ بدنَه حتى شعر أن وزنه قد خَفَّ بدرجة محسوسة وأنه يهرول بلا تحكم فى خطاه . لم تعد قدماه وساقاه قادرة على المشى فى ثبات ، وكأن جسمه قد زايلته عظامه وأفرغ من ثقل عضلاته . كان يسرع إلى حدّ يقرب من الجرى فى مهب الهواء . وهبط المنحدر مرتعداً كطائر فى وزن الريش المعصوف . وتلقفه العراء . ورمق الأضواءَ الوامضة فى البُعد متخللة فضاء الحلكة . ولاذ بمظلة المحطة وحده يحتمى من البرد يتابع مروق السيارات القليلة مروق الشهب فوق الشارع المسفلت . ظل يرمقها بعينين منقلبتين إلى الداخل ، إلى دخيلته البائسة التى أثار فيها الشيخ عبد المقصود زوبعةً من غبراء الكدر والحزن الأسود . شعر لأول مرة بحنقه على الرجل وهو ينظر إليه منسحباً من صحن الجامع متسللاً صوب الباب ليخرج إلى الهواء حتى يسقط بين يدى جلاده ضعيفاً مغشياً عليه من الاضطراب وخيبة الأمل . حنق عليه فى تلك اللحظة ، وأكل منه غولُ الغضب عقلَه . ومع ذلك ، فهو لا يكرهه الآن . فللشيخ عبد المقصود عبق عتيق ، يتضوع أريجه فى حنايا القلب . هو من روح أبيه ، من شذاه الطيب . لكن مَنْ الظالم ومَنْ المظلوم ؟ ! .

وتراءى الأوتوبيس قادماً من بعيد ، يزحف كشافُ ضوئه فى الظلام . ونزل عن الرصيف تحت ضوء عمود النور وظل يشير للسائق بذراعه .

وانطلقت به السيارةُ الخاوية إلا من نفر قليل . ومن خلال زجاج النافذة المغبش ، أخذ ينظر فى ظلمة الحقول . ولكنه فى الحقيقة كان منطوياً على ظلام اضطرابه وقتامة حزنه . وانتبه على صوت السائق وهو يطلق صوتَه الخشن بالغناء الفاحش بلا حياء .

ورأى « الكمساري » متكوماً على أحد المقاعد يعّد حصاد نقوده . ولمح على مقعد آخر رجلا فى الستين تقريبا متقّرح العينين ، منتفخ الأوداج ، بارز الجبين ، يخرج من طيّ معطفه الرثّ زجاجةً سوداء ويتجرع منها جرعات كبيرة فى لذة غريبة وبمرارة . وسرعان ما أشتم رائحةَ الكحول النّفاذة . وتعّزى حسان باستراق النظر إليه . لمحه يهزّ رأسَه بعد كل جرعة ، كان يتلمظ فى نشوة وترف على شفتيه الغليظتين ابتسامة خاوية . ابتسامة متهكمة من طيف ليس له وجود إلا فى رأسه هو المتلبد الشعر . كان لا يكف عن هزّ رأسه هزات حزينة تجاوباً مع ترديد السائق لأغنيته ...

« عذّبني ... عذّبنى هواكِ يا فــوزة »

« أهل الهوى وصفوا لى نار الجوزة »

« أصل لحمة الحب غالية وعجــوزة »

ونزل حسان فى محطة « أمبروزو » . وسلك طريقَه هابطاً شارع « أبن البّواب » المنحدر إنحداراً شديدا ، ثم عرج يميناً على شارع « دار الجمالى » ، واتجه صوب باب بيته . وما أن همّ بالدخول ، حتى سمع صوت « عم بندق » الكونترجى ينادى عليه من داخل دكانه . توقف حسان وتلفت مستطلعاً فرأى الرجل يتقدم منه مهرولاً . قال له :

– « مساء الخير يا عم حسان . ترك لكَ شابٌ فى أول الليل هذه الورقة . » .

تناول منه قصاصة من الورق شاكراً . ودخل بيته . وما أن غاب فى عتمة الدهليز حتى أسرع خطاه صاعدا وفتح باب شقته ودخل وأضاء النور وفضّ القصاصةَ بقلق ونفاد صبر ، وقرأ :

« عزيزى الأستاذ حسان . »

« تحياتى وأشواقى . سأنتظرك مساء الخميس القادم . »

« بعد غد ، فى نفس المقهى . مقهى المحمودية . من »

« الساعة ٨ إلى ٩ إذا سمحت ظروفك بالمجئ . »

« سأكون سعيداً بلقياك . »

« وشكراً »

« وصفى »

الفصل الثاني والأربعون

الثعبــان

في الصباح الباكر ، توقفت عربة محملة بالبضائع يجرها حمار أمام باب الدكان . واستلم حسان سلعا كثيرة وحصته من المواد التموينية . رصّ المعلبات على الرفوف وأقراص الجبنة ولفافات الحلوى على الرخامة المستطيلة التى وضع تحتها ثلاث صفائح من الجبنة البيضاء . وحمل جوالات السكر والأرز وصناديق الصابون إلى داخل مخزنه الذي يحجبه عن باحة الدكان حاجز خشبي . كما كوّم أكياسا كثيرة من الشاى وعلبا من الكبريت على رفوف أخرى عريضة وراء مكتبه الصغير .

وفى تلك الساعة من الانشغال بأعماله والانهماك فى ترتيب أموره ، وبعض زبائنه يقفون فى انتظار فراغه من كل ذلك - فى تلك الساعة دخلت « الست جليلة » الدكان ، واقتعدت الكرسى الملاصق لمكتبه وما لبث حسان أن انتهى من شواغله الطارئة هذه ، فغسل يديه من ماء جردله . وصافح « الست جليلة » بحرارة . وبادل زبائنه تحيات الصباح ، وطفق يجيب طلباتهم واحدا بعد الآخر ، حتى خَلاً الدكان منهم وسنحت له فرصة من الفراغ ، فجلس يتحدث مع « الست جليلة » وخلال حديثهما ناولها مفتاح شقته وبعض النقود ، ثم قال لها :

- « بنت حلال ! جئت فى ميعادك . سيبدأ الدهّانان عملهما من اليوم فى الشقة ، حجرة بعد حجرة حسب اتفاقى معهما . يبدآن العمل لمدة أسبوع ، على الأكثر ، يوميا من الصباح وحتى ساعة المغرب ، وعاينا كلّ ما يلزم كما تعرفين ، وكل شئ جاهز فى الشقة لبدء عملهما وقد اعطيتهما عربونا سخيًا أوصيتهما بالعناية وحسن « الصنْعة » ..... وأرجوك ياست جليلة ألا ترهقى نفسك بأى عمل آخر إلا الإشراف والملاحظة .. ولابد أنهما فى طريقهما إلى الشقة الآن .. » .

فقالت الست جليلة وهى تشير إلى كيس من « النايلون » ملئ بشئ كبير تحت قدميها :

فقمت باعداد حلة من الطبائخ غداء لهما .. »

فقال لها وهو يمّد لها يده بكيسْين من الشاى :

- وليشربا الشاي . وعندك هناك في مطبخ شقتي علب السكر والأطباق .

والبيت بيتك .. وكما اتفقتُ معك ياست جليلة بمجرد انتهائهما من الطلاء - سيقوم « فلفل » الذي يغسل لي ملابسي بتنظيف الشقة من آثار الدهان تنظيفًا كاملا تحت إشرافك .. وأنا لا أعرف كيف أشكرك على خدماتك الكريمة .... » .

- « كله من فضلك وخيرك يا عم حسان . وعلى فكرة أنا اتفقت لك مع اسطى منجد ابن حلال ، هو تحت الطلب وعند اللزوم .. بعد أن تشترى أنت والست هناء القماش اللازم .. » .

- « عال . بارك الله فيك . بعض أنواع الأقمشة مثل كسوة الحشايا والوسائد والمساند والشلت ، ستتكرمين بشرائها لنا بيدك المباركة .. » .

وبعد أن فرغا من حديثهما ، حملت « الست جليلة » لفافتها الثقيلة تحت ملاءتها واتجهت صوب الباب ، وما أن تجاوزت عتبة الدكان حتى لمحها ترفع رأسها وتنظر إلى أعلى تجاه نوافذ بيت « الست هناء » ، ثم رآها تهز رأسها متسائلة في شئ من الدهشة وسمع حسان صوتًا غامضًا يترامى في الفضاء . وسرعان ما عادت الست جليلة داخل الدكان وأخرجتْ الكيَس الكبير من تحت ملاءتها في سرعة ووضعته لصق المكتب وهي تقول له :

- « الست هناء تناديني .. خيراً يارب ! » .

وهرعت صوب باب بيتها واختفت داخله . وظل حسان واقفا في وجوم وقلق لا يعرف من الأمر شيئا . وبعد ثوان ، رأى الست جليلة تجرى عائدة في اندفاع واضطراب نحوه وتجر ملاءتها التي تفككت في لهوجة فاجفل حسان من مشهدها وهي تقتحم عليه الدكان وتقول بانزعاج لاهثة :

- « يا لطيف ! .. ثعبان في شقة الست هناء ! » .

فغرفاه وجلاً والست جليلة تستطرد :

- « الست هناء تستغيث وتستنجد بنا .. أعوذ بالله .. يالطيف يا رب ! » .

- « أرأيته ؟ ! » .

- « لا . لم أدخل الشقة . » .

واندفع حسان جاريا بلا وعى وصعد السلم واثبا فـى سرعة بالغة . ورآها تقف في قميص نوم رقيق وقد تملكها ذعر شديد . رآها تقف فى أقصى المدخل ترتعد وتبسط ذراعها وتشير بأصابع مرتجفة إلى داخل الحجرة الجانبية الأخرى » .

وسعى حسان بين المرأتين وهو يشعر بشجاعة غريبة ملء صدره ، فدخل إلى الحجرة الأخرى وهو يتلفت وينظر هنا وهناك بحذر على حين وقفت بالخارج الست جليلة إلى جانب الست هناء التى كانت ترتعش وتلهث من فرط الرعب . وظل حسان ينقب بعينيه بدقة بالغة . والست هناء تقول له من الخارج بصوت مرتجف :

- « احذر ! هناك يوجد شقّ على بُعد شبرين من رِجل السرير بأسفل الحائط » .

واختطف حسان من فوق الدولاب عصا خشبية هى ساق مكنسة قديمة وأخذ يزيح بطرفها كل الأشياء العامضة المهملة فوق الأرضية ، والمبعثرة تحت السرير ، فلم يرَ شيئا وعلى الرغم من أن مصباح الحجرة كان مضاء إلا أنه انطلق نحو النافذة ودفع بضلفاتها ففتحها على مصراعيها ، فتسلل ضوء النهار ساطعا وكشف عن خشب الأرضية ، وبأنتْ كلُ معالم الأركان هنا وهناك . رفع كل المهملات عن مكانها وقلبها وفرقها . وطفق يحدق بحذر وتحفز فى كل أرجاء الحجرة وأزاح السرير والدولاب فى صعوبة وبكل قواه . وحدّ بصره وراءهما وفى الجوانب فلم ير شيئا . واقتربت المرأتان من باب الحجرة ، وقال حسان متسائلا :

- « لا يوجد شئ . أين رأيته يا ست هناء ؟ ! » .

فقالت وهى تشير إلى فجوة صغيرة بين نهاية خشب الأرضية وبين سافلة الحائط الذى يلتصق به سريرها :

- « فى هذا الثقب ! » .

- « هل رأيته بعينيك يدخل هنا ؟ » .

- « نعم . رأيتُ طرفَ ذيله ينسحب إلى داخل هذا الثقب ! » .

- « اذن لا تنفع هذه العصا . سأنزل لأجئ بسيخ حديدى رفيع من دكانى .. » .

ووقعتْ عيناه عليها وهى فى قميص النوم الشفّاف أثناء اندفاعه خارج الشقة . ووجد دكانه مفتوحا ولا أحد داخله . وغاب لحظات داخل مخزنه ، ثم خرج ممسكا بقبضته سيخًا حديديا ، وأخرج المفتاح الصغير من جيب معطفه ، وأغلق الباب

الزجاجى . وجرى صاعداً إلى شقة الست هناء . واندفع صوب الفجوة فى الحجرة وطفق يخُز بسنّ السيخ كلّ أركان الفلق الغائر .. ثم قال وهو يكفّ عن الخزّ :

- لا يتجاوز عُمق الثقب من جميع جونبه عشرة سنتيمترات ، ولا يعقل أن يكون داخله ثعبان ، خصوصا أننى لا أشعر بأى جسم لين بالداخل .

فما طوله وما لونه يا ست هناء ؟ » .

فقالت الست هناء وهى تعتصر كفّيها اضطرابا :

- « لم ألمح منه سوى ذيل أسود رفيع ينسل إلى الداخل بسرعة غريبة وفى ثانية واحدة ! » .

- « ذيل أسود رفيع ؟ ! من الجائز أن يكون ذيل فأر .. » .

ولم تنبس الست هناء بكلمة ، بل ظلتْ تهزّ رأسها حيرة ووجلاً ، فقالت الست جليلة :

- « ألم ترى بعينيك ثعباناً يا ست هناء ؟ ! » .

- « لم أرَ ! لكنى صحوتُ من نومى على صوت خشخشة واصختُ السمعَ جيداً فسمعت الصوتَ يعلو ويتردد تحت السرير ، فنهضتُ عن السرير واثبة مرتعدة ونظرت فرأيت الذيل الأسود يهرب داخل هذا الثقب ! » .

فقالت الست جليلة وهى تتنفس الصعداء :

- « ذيل فأر ! .. هو ذيل فأر ! » .

فقال حسان ، وكان ما يزال راكعا على ركبتيه ، وقد تصبب العرَق من جبينه والسيخ فى قبضته :

- « الثقب صغير وليس به أى جسم ! » .

وعاد يطعن الفجوةَ بسنّ السيخ وهو يجثم على الأرض . وزحفتْ عيناه من خلال رموشه المبللة بالعرق إلى قدميها الحافيتين عند عتبة باب الحجرة . ورأى ساقيها من وراء غلالة قميصها الوردى الرقيق ، فاضطربت دخيلته . وثبت طرفَ عينه خلسة على جسمها الذى تبدّتْ له بعضْ تفاصيله . وكأنه قد غاص فى ثناياه الناعمة فضرب الثقب بسيخه ضربات قوية ، وفى كل الاتجاهات لحظات غريبة تخالطت فيها مشاعرُ

شتى من الخوف الممتع والاختلاس الحرام الموجع ، ومن نعومة سرتْ تحت جلد جسمه كله في دغدغة وكأن وهجًا كحوليا يرفَ أطرافه في تردد كهربي دافئ وساخن ورطب . كل هذه الأحاسيس تملكته في آن واحد ، وفي نفس اللحظات أحس بالتهاب وجهه وأذنيه . وغام المشهد وراء الغلالة وانتبه لأصوات تقول :

- « اتعبتُه معي اليوم . » .

- « والله يا ست هناء ، هو فأر ! » .

- « ربما .. ربما يكون قد انفلت هاربا أثناء مناداتي عليك من النافذة » .

- هو فأر وهرب من الفجوة » .

قام حسان وقال في ارتباك خافضًا رأسه في إعياء :

- « أغلب الأمر هو فأر ولاذ بالفرار ! » .

فقالت الست جليلة :

- « على كل حال يا ست هناء - ولكي يطمئن قلبك - لابد من سد أي ثقب في شقتك ! » .

فقالت الست هناء وهي ما تزال ترتعد :

- ليس في الشقة سوى هذا الثقب وآخر في غرفة المطبخ . لا أعرف ماذا أفعل ! » .

فقال حسان :

- « لا تخافي . سأنزل وأحضر قليلا من عجينة الأسمنت والرمل لأسد الثقبيْن . » .

فقالت الست هناء :

- « خليك معي قليلا يا ست جليلة » .

ونزل حسان وفتح دكانه . وجفف عرقَه بقميص قديم معلق على حاجز مخزنه الخشبي ، ثم تناول صفيحة فارغة وأغلق دكانه وتوجه صوب «المجيرة» . بعد دقائق ، عاد وصب بعض الماء وعجن خليط الأسمنت والرمل وما أن هَم بإغلاق بابه مرة أخرى ، حتى لمح الست جليلة تدخل الدكان قائلة :

- « آخذ حلّة الطبيخ . وسأذهب الآن .. حالاً إلى شقتك لقد تأخرت ولابد أن الدهّانين قد حضرا الآن هناك وينتظراننى لم أكن اتصور أنها تخاف كل هذا الخوف ، فكيف تحملت المكوثَ وحدها ليلاً ونهاراً فى هذه الشقة طوال المدة الماضية ، ثم ترتعش الآن خوفا من ذيل فأر ؟ ! قلبها رقيق جدا طمئنها . طيّب خاطرها .. وحيدة ! ما بقى إلا القليل . أقل من شهر ثم تدخل بيت السّعد والفرح ، بيت العدل بيتك المبارك عوضّها الله بك خيراً » .

وحملت الحلّة الملفوفة فى الكيس ودسّتها تحت ملاءتها ، وقالت :

- « أفوتك بعافية يا عم حسان » .

وغادرتْ الدكان ومضت فى الشارع مهرولة بحملها !

الفصل الثالث والأربعون

يداه فى الشق

اختطفتْه أحاسيسُه المبهمة إلى داخله ، وزايلته القدرةُ على الكلام . كـان ينظر ولا يرى . يسمع ولا يتكلم . كان مأخوذاً لا يفكر . وجثم على صدره شعورٌ ثقيل بخوف ما وهو يرمق عجينة الأسمنت والرمل داخل الصفيحة وكأنها شئ غريب لا يعرف له كنهًا ، فقطب حاجبيه في تركيز كأنما يحاول أن يتذكر أمرا منسيا . وشعر أنه لا يعرف ماذا يريد ، كما شعر بخوفه قويا فأدرك خوفها وارتياعها وشجاعته المرجوة كرجل . رأى قبضته على حافة الصفيحة ، فأمسك بها ورفعها ، واندفع إلى الخارج وأغلق بابه الزجاجي . وصعد السلم وسط سكون مطبق مريب . لم يسمع إلا أزيْر مرجل يغلى تحت أذنيه . ورأى الباب مفتوحا . قالت بصوت هامس :

- « أدخل يا عم حسان .. » .

لكنه سمع صوت الباب من ورائه يوصد مشى في هدوء غريب وكأنه يزحف دخل الحجرة ووضع الصفيحة على الأرض وبرك على ركبتيه ودس كفّه فى الصفيحة واحتقن حفنة ن العجينة وطفق يحشرها داخل الفجوة بأصابع مرتعشة وتناول أخرى وأخرى حتى سدّها سداً منيعا دقيقا وسوّى سطحَها براحته . استرق نظرة جانبية فلم يلمح أى طرف من أطراف غلالتها . أحس أن أنفاسها الحارة تتردد تحت لحمة أذنه . لفحت زغب خده ولسعته فادار وجهة فى حركة رقيقة ودقات قلبه الوجل لا ترحمه .

كانت دقات سريعة متلاحقة .. ونبضْت العروق تحت صدغية نبضا ساخنا . وتفصّدت حباتُ العرق من جبينه مرة أخرى . رأى وجهها فوق كتفه بدراً ساحرا صامتا .. راها واقفة منحنية ترقبه فى سكوت غريب اقتربت عيناه من ذقنها . انزلقا فى نطاق قميصها الفضفاض الشفاف شعر بمزيد من الدوار والخدر وهو يزحف بعينيه فى ثنايا الخميلة الوردية . رأى فوق وجهه عنقودْين ناهدين ناضجين . وغاب بصُره فيهما ثانية واحدة فلم يرَ .. ثم ارتد فى الثانية التالية فرأى فى وضح نهار صبوح بدريْن يتدليان من شفق ارجوانى يمتد بلاّحد . وتلاحق وجيبُ قلبه ورأى نبضَ قلبها . ولم يدر كيف انتبه فى الثانية والثالثة إلى ومضة برقت بها عيناه تحت طحلب أسود

متماوج فإذا به يرى الفجوة بين سافلة الحائط ونهاية الأرضية الخشبية وقد طفحتْ باللون الأسمنتى ، فمسح عليها براحته فسوّاها واستطاع أن يقول :

- « خلاص إطمئنى ياست هناء ..» .

وسمعها تقول من خلفه ، وهو ينهض متحاملاً على نفسه :

« لا أعرف كيف اشكرك . دائما أتعبك »

ورآها تخرج من الحجرة فى غلالتها العجيبة ، فوقف غارقا فى ذهوله لحظة وسمعها تقول له من الخارج بصوت هادىء :

- « فلتكمل جميلك .. »

فتذكر الشقّ الآخر . ألم تقل له أن فجوةً أخرى توجد فى غرفة المطبخ . كيف نس ؟ !ماباله ؟ ! .. فليضبط أعصابه وليتماسك . أنه رجل . وليظل رجلا . وغداً هى زوجته . وخرج من الحجرة حاملا الصفيحة ، قائلا :

- " الست جليلة ذهبت إلى شقتنا هناك يبدأ اليوم تحت بصرها دهان الشقة كلها بالزيت اللوكس . " ورآها وقد غطّت كتفيها وصدرها بشالٍ ناصع البياض قالت :

- " أعرف . فهى تقول لى كل شئ .. " .

- " أحقا ؟ ! " .

- " مبروك ! " .

فتساءل ببلاهة ومزاح مداراة لتوتره :

- « مبروك لِمَنْ ؟ » .

- « مبروك لنا ... » .

ورآها تبتسم . فقال لها متوقب القلب ، فرحًا متشجعا :

- « شهور وأيام قليلة ، لا أكثر ! ولكننى زعلان منك ! .. » .

- « أعرف ولكَ حق . لكننى مع ذلك معذورة كل العذر . وستعرف وتقدر عندما نتحدث ... » .

- « متى ؟ ! » .

- «خوفى يجعلنى أفكر الآن ألا أنام فى هذه الشقة ولا أمكث فيها لحظة ..» .

فقال بلا وعى مسلوب السمع :

- « متـى ؟ ! » .

- « ولكن لا مفر كنت أفكر أن أنام فى بيت الست جليلة . آنس إلى أولادها . لكن هذا جنون . فـلا مكان هناك . وأولادها ينامـون فى حـجـرة واحدة كـومـا متكوما .. » .

وترك الصـفـيـحـة على البلاط ليـريح يده وذراعـه . وافلتت منه عـيناه فى وهج الغلالة وطيف بدنها يتبـدى ويغيب . لكنه قال :

- « لا تنزعـجـى يا ست هنـاء . كـل مـا فـى الأمـر أن خـوفـك هيـأ لك وهمـا مرعبا .. » .

- « ليس معقولا أن يكون ما لمحته وهما .. » .

- « أؤكد لك أنه مجرد ذيل فار . وربما لا شئ على الاطلاق ! » .

- « ربمـا . فـإن أخـوف مـا أخـافه هـو الثعبـان .. ولكن مـاذا يكـون ذلك الصوت ؟ ! » .

- « ربما كان صوت صرصار أو عبث فأر أو لعب الهواء . لكن أتعرفين أسباب زعلى منكِ ؟ ! » .

- « غيابى عنك ! » .

- « وكيف نتصالح ؟ » .

- « أنت زعلان ولكن قلبك لا يعرف الخصام ! » .

- « إذن ، كيف نداوى الزعل ؟ » .

- « بالحديث » .

- « تمام . لكن الآن لا يسمح الوقت ولا المكان . فمتى ؟ » .

- « عندما أنزل إليك .. » .

- « اليوم . سأنتظرك فى دكانى . » .

- « لا أطيق البقاء وحدى هنا . سأنزل إلى السوق ، ثم أزور أولاد الست جليلة فى مسكنها . وأبقى هناك مع ابنتها « لوزة » والصغير « بلبل » حتى تعود هى من شقتك فى المغرب . لن أجئ إليك فى دكانك إلا بعد صلاة العشاء . » .

- « سأنتظرك . » .

والتقط الصفيحة وسار خلفها إلى داخل حجرة المطبخ . أشارت إلى الفجوة الأخرى بين بلاط الأرضية فى ركن قصى . وطفق يسد الركن بحفن من عجين الأسمنت والرمل .. ونهض قائلا :

- « أؤكد لك أن الشقة هنا خالية مما تخافين .. اطمئنى .. » .

فقالت بأسى :

- « ببركة المرحومة والدتى ... » .

وخرجا من حجرة المطبخ فناولته قطعة من الصابون قائلة :

- « أدخل الحمام وأغسل يديك . صنبور المطبخ مكسور ومعطل . » .

وانفرد بنفسه داخل الحمام . ولم يصدق عينيه أنه الآن وحده معها داخل شقتها . تلفت فيما حوله ونظر إلى أشياء ، لكنه لم يَر فيها شيئا محددا . كان مأخوذا بفرح غريب وخوف غامض . وغسل يديه . وسَالتْ آثار عجينة الأسمنت والرمل وانسابت فى سرة الحوض ، فى عين مصفاته التى بدت فى ناظره للحظة خاطفة كعين إبليس . وفتح الباب فرآها تطالعه فى مهابة وتنتظره . مدت إليه يدها ممسكة بمنشفة . جفف يده والتقط صفيحته وأسرع بالخروج من الشقة وهو يقول :

- « بعد صلاة العشاء بإذن الله » .

وانطلق يهبط السلم خافض الرأس . وما أن بلغ باب الطابق الأرضى حتى رأى « أنيسة » تقف فى مواجهته وتحدق فى وجهه بعين واحدة جاحظة وتسأله :

- « ماذا جرى ؟ » .

فلم يرد عليها بكلمة . مرَّ بها وتجاوزها صامتا وانفلت خارجا . مرق مثل لص يلوذ بالفرار . وفتح الباب ودخل دكانه . ورمى بالصفيحة فى ركن . وتملكه ارتباك

وتوتر .. جلس على كرسيه دقائق ، ثم نهض مرة أخرى وطفق يتحرك في باحة الدكان بلا غاية . وشعر برغبة جامحة ملحّة في الاختفاء عن كل العيون . وخطر له خاطر عجيب ، لماذا لا يهرب حتى من نفسه في هذه الساعة ويعود إلى عادة قديمة كاد أن ينساها . كان أحيانا عندما يشعر بالرغبة في الترويح عن نفسه ، ينطلق إلى جولة هادئة في حديقة الحيوان . وسرعان ما تلاشى هذا الخاطر من رأسه . إذا استبد به شعورٌ طاغ بالتوتر توقع أن يدخل عليه بعض الزبائن . خشي ذلك عافت نفسه أن تسقط أي عين عليه وهو في هذه الحال من الاضطراب جاشت نفسه بالرغبة . بالرغبة في الهروب والاختفاء . لكن إلى أين يذهب في هذه الساعة ؟ ! أراد أن يستعيد حالا توازنه . لم يطق نفسه بل كرهها في هذه اللحظة أشد الكراهية . وكأن قبضة خفية مجهولة دفعت به إلى الباب الزجاجي وشدّ مزلاجه الداخلي فأوصده . وانسحب إلى مخزنه وراء الساتر الخشبي . وسحب جردله في عنف وتبللت يداه وتناول قطعة الصابون . وطفق يحرّكها حول كفّيه حتى أفرزت من بين أصابعه رغوة كثيفة .. وانتابته غيبوبة فانقلبتْ كلُّ حواسه وانخطف إلى داخله وكأن كيانه قد انطوى وانكمش وتقبّض فانسحب كجسم محارة شديدة الحساسية إلى داخل دماغه الذى انفلق فجأة وتفكك وكادتْ أزراره أن تتناثر وتصلبتْ عضلاته وتقبضتْ يداه في شقّ ، وتمددتْ ذاكرته وصارت ملساء صماء إلا من طيفها في غلالة خُلمتْ من طاقتها الفضفاضة .. وتناوبته رجفاتُ مترجرجة واصطلت أسنانه وسَالَ للعابُ تحت شدقيه فتبدد جسمه .. وسرعان ما تهاوى وتمدد بوجهه المترهل وجلده المتخدد ، وصدره اللاهث فوق جوالات الأرز .. وظل على هذه الحال ساكنًا هامداً مدة . وعندما انتبه إلى وضعه البائس وإعيائه ، لم ينهض بل آثر أن تستغرقه هذه الحالة وتدافعتْ معدتُه وتَطَوّتْ وتقلصّتْ فتهيأ للقئ . وطفق يحاول عبثا أن يتقيأ .. ثم عاد وجثم على جوال الأرز منهوك القوى ..

ومضى الوقت ، إلا أنه سمع صوتًا أشبه بطرقات . وظن أنه نائم في مسكنه . فظل على حالة من لغوة فملأت سمعه الطرقات ... فاعتصر جفونه . وفتح عينيه وتبين أن الطرقات تتلاحق عاليا على بابه الزجاجي فغسل يديه على عجل وجففها ، ومسح دموع صرعته بطرف معطفه الرمادى . والتقط أنفاسه في هدوء . ونفض رأسَه بحركة تلقائية . وملأ عينيه بمعالم مخزنه وباحة الدكان ، فارتدّت إليه صحوتُه . ومشى في وهن وشعاع النهار ينعكس من خلال الزجاج ويخشى عينيه . وما آن تقد خوات حتى تبين ملامح الطرق فأجفل . رآه يلوح له بذراعه ، ومن ورائه بعض الزبائن . فتح الباب ، فكان أول الداخلين صديقه « شعبان أفندى » ! .

الفصل الرابع والأربعون

حرباء فى قفاز

تعانقا . وقال الصديق " شعبان " بعد أن فرغ حسان من زبائنه :

– " هل كنت نائما ؟ إمَنْ ينام فى مثل هذه الساعة من الصباح ! نظرتُ إلى داخل الدكان جيدا فلم أجدك ، ظننت أنك ذهبت لقضاء بعض " المشاوير " ولكن بعض زبائنك قال لى أنك فى الداخل . "

– " مَنْ قال لكَ أننى هنا ؟ ! " .

– " سيدة من زبائنك ، قالت رأيته دخل ولم يخرج .. " .

ونظر إليه نظرة طويلة ثم سأله :

– " ماذا بك يا حسان ؟ أنت لست على ما يرام .. " .

– " يبدو أننى مريض .. متعب .. " .

– " المريض يرتاح . لا تجهد نفسك ولا تحملها أكثر مما تحتمل .. " .

– " معك حق .. " .

– " وحشتنى جدا يا حسان . " .

– " نفس الشعور .. "

– " كأنى لم أرك منذ زمن طويل .. "

– " نفس الشعور والله .. " .

– " جئت إليك لأراك وأطمئن عليك ولأشترى منك بعض المواد التموينية للعيال .. "

– " أمرك .. "

– " ولأحدد معك موعداً لنلتقى ولنتحدث قليلا فى أمور الدنيا .. "

- " مساءاليوم ؟ ! "

- " مساءالغد فى بيتك ؟ ! "

- " أهلا وسهلا .. "

وقطب حاجبيه معتصرا عينيه كمَنْ يعانى وجعَ الصداع ، ثم قال مستدركا :

- آ .. تذكرت ! شقتى الآن مقلوبة رأسا على عقب للتصليح والدهان . رائحة الطلاء تخنق هناك .. "

- " مبروك ! .. أذن ، فى المقهى المجاور لبيتك .. "

- " مساء الغد ؟ ! " .

- " مساء الغد .. اتفقنا .. " .

- " فى أى يوم من أيام الأسبوع اليوم ؟ ! " .

- " اليوم الأربعاء .. " .

- " آ .. غدا الخميس ! " .

وتذكر حسان موعدَه المحدد مع " وصفى " ! فأغمض عينيه لحظة ، ثم فتّحهما وقال دون أن ينظر إلى صديقه :

- " لا .. أسف . غدا أنا مشغول .. ليكن مساء اليوم .. "

- " ليكن مساء اليوم ، أنا موجود فى المدرسة حتى الساعة التاسعة مساء وإذا شئت أن أنتظرك إلى مابعد التاسعة حتى تنتهى من زبائن المساء فأنا فى انتظارك . وقد نجلس فى المدرسة أو نتمشى أو نتوجه إلى مقهى . كما تشاء .

- " أشكرك . أنت دائما كريم . اتفقنا . موعدنا مساء اليوم . " .

وعضّ على نواجذه وزفر زفرة حارة على الرغم منه ، ثم قال :

- " بعد . بعد صلاة العشاء .. بإذن الله .. "

ونهض " شعبان " وقال بمرحه المعهود :

- " تموين العيال يا حسان ؟! أيرضيك أن يناموا جائعين ! .. "

ونهض حسان وأحضر له طلباته ، فقال شعبان :

- " أنني قلق عليك ، فأنت لست على مايرام ! "

فمطّ حسان شفتيه وهزّ رأسه ولم ينبس بكلمة . ودخل أربعة من عمال الورش المجاورة وأحد موظفي " الطرق والكباري " .. وحمل شعبان زادَه بذراعه اليسرى وأسنده على صدره ، وصافح حسان بيمناه بعد أن أعطاه الثمن وَرنَا إليه وقال له بصوت خافت :

- " على كل حال ، سنلتقي الليلة ونتكلم .. " .

فهمس حسان في أذن صديقه :

- " وقعتْ أحداث . وسأحكي لك .. "

- " أنا في انتظارك .. "

وغادر شعبان الدكان وسمع حسان زمرة العمال وهم يثرثرون في عصبية . وأنشغل بتجهيز طلباتهم . تشاتم اثنان منهم . اتهم أحدهما الآخر بأنه من بطانه رئيس المصنع ، وأن هذه البطانة حاشية فاسدة أحبطت المشاركة في المظاهرات التى أجتاحتْ البلاد في الأيام الماضية . كانوا يتحاورون بحدة بالغة . وشعر حسان برغبة جامحة أكيدة - على غير عادته - في مشاركتهم الكلام ، بل صادف التعنيف واللوم والشتم المتبادل بينهم ، في نفسه هوى . ولَذّ له أن يستمع وينخرط في الجدل معهم . وأمسك أحدهم بخناق الآخر فلم ينتزعج حسان كثيرا ، أنحشر في زمرتهم وراح يباعد فيما بينهما مشتركا في ذلك مع رفاقهما وهو يقول لهما :

- " أنتما أخوان لا يصح أن تتعاركا .. "

فقال أحدهما وهو يشير إلى الآخر :

- " أنه إنسان جبان . "

فرد عليه الآخر على الفور :

- " وأنت حيوان متهور ، لا تعرف الخير من الشر ولا مصلحة أولادك ! "

فقال حسان :

- " يا جماعة ! تفاهموا بالعقل وأنتم يَدّ واحدة .. "

فقال الأول :

- " يخاف على لقمة عَيشه من الفصل ، فيخوننا ؟ ! هذه حكايته ! "

فصاح الثالث :

- " وأى لقمة عيش هذه ؟ ! سُمّ فى العسل . أيخيفنا أن نخسر السًم ؟ ! الأسطى أحمد برقوق الأفضل منا جميعا . بطل ! " .

فقال الرابع :

- " لنا مطالب فيجب أُن نتضامن ولا نتعارك .. "

فقال حسان :

- " صَحْ إ وأنا معكم برقوق بطل .. ربنا معه ! "

فرد عليه أحدهم :

- " هات الجبن ياعم حسان ! فأنت لالك فى الثورو لا فى الطحين ! " .

ابتسم حسان ابتسامة شاحبة . وقال الأول الذى اتهم زميله بالخيانة :

- " يا مغفل نحن نعارك خائنا ليخرج من صفوفنا .. "

فقال الموظف :

- " تاريخ الخراب و الكوارث هو تاريخ الخيانة .. "

- " واذا تعاركنا فنتعارك لنتحد .. "

ولم يطق حسان سكوته ، فقال :

- " صدقت ! واتفقوا على أن تتفقوا .. " ولاتكونوا كالذ ين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جا ء هم البينات " و " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا .. "

وقال شابٌ مطلق اللحية وقد وقف بالباب فجأة :

- " لكن الله تعالى ، قال فى كتابه العزيز : " واشربوا فى قلوبهم حب العجل فعبدوه. " .. "

ووجد حسان نفسه مدفوعا إلى الكلام فتكلم بعد أن اختنق بوصمة صحته لحظات . وشعر أنه يفيق وسط هذه الضوضاء . وتذكر مشاعر قديمة جاشت بها نفسه ..

وحصلوا على طلباتهم المتواضعة وغادروا الدكان في جلبة ، على حين تروى حسان وأكبَّ على تقليب حفن الزيتون في الصفيحة ، وما أن عاد إلى كرسيه حتى شعر بالصمت يسود المكان ويلقى عليه بوشاح غباري كئيب استنهض من أعماقه أوجاعا مبهمة ، وكأنه غاص في بركة من المياه الآسنة فطفقتْ حشرات مؤذية تلسعه وتلدغه وتنهش لحمه ..

وكان آذان الظهر يترامى في الفضاء وهولا يقوم ليصلى ! ورمق كُفه على مكتبه بقلب مستنكر جزع ، وكأن الكفَ مقتطعة وليست كفّه بَدَتْ له كقفازٍ مكدوم أصفر ، ثم تبدّل لونها وكأن جلدها جلد حرباء ، تبدل لونها فصار أحمر قانيا ثم تفحم . ولَذٌ له أن يتصورها مجذوذة منفصلة عن رَسغه وأمعن في تخيّله فرآها تتباعد عن ساعده ملوثة ! وفجأة هتف في باطنه : " أفق ! ماذا تفعل ياعاجز ! ؟ " .

وما أن كفّ صوتُ المؤذن عن ترديد آذان الظُهرحتى نهض وأغلق باب دكانه .. بابه الصاجى !

الفصل الخامس والأربعون

فى الحمام

وسعى داخل السوق ، جال خلال أزقتها المزدحمة ودكاكينها الكثيفة المتلاحمة جولة عابرة ، اشترى بعض الحاجات . وحملها وسلك طريقا خلفيا واستقل الترام .

بعد عشر دقائق ، نزل من الترام وتوجه إلى بيته ورأى نوافذ شقته المطلة على الشارع ، مفتوحة على مصاريعها . صعد السلم ولمح نور النهار من وراء زجاج الباب يملأ مسكنه . وضغط على زر الجرس فرَنّ رنينا قويا . وفتحت الست جليلة الباب فى دهشة . حيّاها ودخل فاستقبله الأسطى قبارى الدهان قائلا :

- " بدأنا العمل على بركة الله .

هز حسان رأسه صامتا ووضع حمله جانبا ، وأجال بصره الغائب هنا وهناك فرأى الدهّانَ الآخر معلقا على سُلم ، منهمكا بفرشاته يطلى بصبغ أرجوانى سقف الحجرة التى ستخصص للنوم . كانت الست جليلة تتبعه فى خطوات هادئة كأنما تستطلع أمره متوجسة . وانتهزت فرصة انفرادها به فى المطبخ وقالت :

- " يقول الأسطى قبارى أن « تشطيب » الشقة يمكن أن يتم نهائياً وعلى أكمل وجه خلال أربعة أيام بإذن الله . "

لم يرد عليها بكلمة . كان يتحرك فى ارتباك هنا وهناك كمن يبحث عن شئ لايعرفه ، فسألته :

- " كيف حال الست هناء الآن ؟ هل ارتاح قلبها قليلا ؟ " .

وظل يروح ويجئ فى حيرة وصمت ، وكأنه لم يسمعها ، فلاذت بالصمت ، واستكانت فى ركن . اختفى هنيهة داخل حجرته التى لم يبدأ الدهانان فى العمل داخلها بعد .. ثم خرج منها مستغفراً ربه ، حاملاً بعض ملابسه وقد خلع معطفه "وجاكتته" وجوربه وانتعل خفّيه ودخل الحمام بعد أن أضاء مصباحه الجديد وأغلق بابه

وأخرج من جيب بنطلونه علبة كبريت واستلّ عوداً وأضاء شُعلةَ السخّان وأمام مرآة معلقة فوق الحوض حلق ذقنه ثم خلع جميع ملابسه ، وتبلل بالماء . وطفق يغتسل بالصابون وتدعك بقطعة من اللوف .

وغطت بدنه العارى طبقة من الرغى البيضاء . واستولى عليه شعورٌ بالحصر وكأنه داخل سجن ضيق غريب . وكاد كابوس يقظته أن يدهمه فيغيّبه عندما لمح موسى الحلاقة - فرأى كفَّه مقطوعة وتخايلتْ له أعضاءٌ أخرى مبتورة .. فاقشعر بدنُه وقَفَّ الشَعْرُ عند منبته وكأن الماءَ دمٌ . وتمتم وهمهم ، وأدار مفتاح الدُّشّ إلى أقصاه ، فاندفعتْ سيولُ الماء الساخن وأنصبّتْ فوق جسمه ترشقه رشقًا تحت سحائب من بخار حار كثيف . وخالطتْ همهماته خرخرةَ المياه وبقبقةَ جريانها وسقوطها فى صُرّة البالوعة وجوفها وتعالت تمتماتُه واستغفاره دون وعى منه . وتدافعتْ زفراتُ لهب السخّان فى سمعه فوقرتْ أذناه . ظلت المياه تتدفق وتترشرش وتنسال على جسمه ، فصقل وبرق حتى رَقّ وشفّ. وأغلق مفتاح الدش فسَادَ الحمامَ هدوءٌ فجائى وترسخ البلاطَ الأبيض الجديد النقى سكونٌ صفى . وجفف جسَمه المجلوّ كله بالمنشفة وفتح عينيه منتعشًا وكأنه وليد جديد نشط . وتطيّب برحيق طاهر من زجاجة صغيرة وبسمل وحمدل إلا أن صدى لطمات الفرشاة كان بالخارج يتتابع فى مسمعيْه وارتدى ملابسه وتوضأ مرتين ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وتَلاَ الشهادة ، ودَعَا ربَّه أن يفتح له أبوابَ الجنة الثمانية .. وفتح البابَ وخرج متجهًا صوب حجرته الشاغرة وارتدى بذلته الكحلية ومعطفه القشيب . تأنق وتمشط وتهيأ للنزول وتذكر الست جليلة ، فتوقف لحظة متفكرا ، ثم خرج من الحجرة ، فرآها تنتظره قبالته فى الصالة ساهمة ، فاقترب منها وقال لها بصوت رائق :

- " أرهقتُك معى فتكبدت المشاقَّ بسبب تصليح شقتى ودهانها . آسف ياست جليلة .. سامحينى ! " فتطلّق وجهُها بالبِشْر وقالت :

- " أستغفر الله ... حمام الهناء بإذن الله .. "

- " أشكرك .. هل يلزمك أو يلزمهما أى طلب ؟ .. "

- " لا أبدا .. إنهما منهمكان فى العمل بكل همّة وذمة .. "

- " أنزل أنا الآن . سأصلى العصر .. ثم أذهب لأفتح الدكان .

- " سأفوت عليك فى الدكان بعد صلاة المغرب بإذن الله .. "

وغادر شقته ومشى خطوات ثم دخل مسجدا صغيرا .. !

الفصل السادس والأربعون

الآخرون

انقلب الجوُّ قبيل المغرب . قصف الرعد . ودمع الشارع برذاذ المطر . وكان حسان قابعا فى ركنه داخل دكانه يستمع إلى تلاوة لبعض آيات الله البينات من خلال الراديو الصغير ، كما كان يستقبل خلال هذه الساعة بعض زبائنه ويجيب طلباتهم ، ويتحاشى استراق النظر إلى نوافذها ! وهو على أى حال ، يعلم أين هى الآن ! فالنوافذ مغلقة وهى الان فى مسكن الست جليلة - كما قالت له فى الصباح - ، تأنس بالمكوث هناك إلى جوار " لوزة " و " بلبل " وأخرج من درج مكتبه بعض القصاصات وأمسك بقلمه وتشاغل بمراجعة حساباته ، ثم بسط السجل الشهرى للمواد التموينية ، وانكب على صفحاته واحدة بعد الأخرى . تجرى عيناه فى الخانات على أسماء زبائنه وأرقام بطاقاتهم ومخصصاتهم .

وبعد صلاة المغرب ، عادت الست جليلة حاملة تحت إبطها حلّتها فارغة وطمأنته عما تَم من عمليات تبطين جدران الشقة ودهان بعض الحجرات ودار بينهما حديث عابر عن أجور الدهّانين . واعطاها حسان عربونا آخر من تحت الحساب لتمنحه لهما صباح الغد . وما أن أخرجت مفتاح شقته من صدرها ملفوفا فى خرقة ، حتى قال لها :

- احتفظى به معك ياست جليلة ، فإن أخذه وردّه أمر متعب لك ومؤلم لى . احتفظى به حتى تتم تصليحات الشقة . فما يزال أمامنا شوط آخر من التنجيد ونقل الأثاث وترتيبات لاحقة . ويسرنى أن أراكِ كل يوم بغض النظر عن أخذ هذا المفتاح وردّه . أحب أن أراك دائما فى صحة طيبة . إرهاقك يكدرنى . أرجوك أن تحتفظى بهذا المفتاح فأنت أخت عزيزة .. "

وشكرته واعادت المفتاح داخل صدرها ونهضت لتنصرف فأردف قائلا :

- " ربما اغلق دكانى فى أى وقت أشاء ، فقد تطرأ ظروفٌ تضطرنى إلى الحركة .. وعلى فكرة ! ستجدين الست هناء فى مسكنك الآن . قالت لى فى الصباح إنها ستمكث معْ أولادك حتى عودتك .. "

فقالت متهللة الوجه :

- " تحصل البركة ! وجودها بيننا يفرحنا . " .

وهمَّ بالكلام ، لكنه سكت فجأة ، فغادرت الدكان . خطت خطوات فنادى عليها بصوت عالٍ :

- " ياست جليلة ! " .

وعادت ووقفت بعتبة الدكان ، فقال لها :

- " نسيتُ أن أقول لك كلمة ! " .

- " نعم .. "

- " أرجو أن تقولى لها إننى .. إننى مضطر إلى مغادرة الدكان الآن لقضاء بعض " المشاوير " الهامة الطارئة . " .

ويبد وان الست جليلة لم تفهم مرماه من وراء هذا الكلام ، فهزّت رأسها متسائلة ولم تنبس بكلمة . فأضاف قائلا :

- " ولن .. ربما .. أقصد .. من المحتمل ألا أفتح دكانى إلا صباح الغد ! " .

- فى أمان الله . سأبلغها .. "

وما أن انصرفتْ الست جليلة ، حتى جثم على صدره شعورٌ عميق بالأسى والندم . لفحته لسعات من الشوق الحارق . همَّ بالنهوض ليلحق بها إلا أن خليطا من الشعور بالكبرياء والخجل قد أثقله فأقعده ولكنه بعد دقيقتين ، قام وانفلت من باب دكانه هارعًا وسط الشارع الغارق فى عتمة المغيب الذى استكمل دائرة هبوطه بلونه الرصاصى المغبّر .. أسرع مهرولاً خلف الست جليلة وحَدَّ بصره على مرمى الشارع الملتوى فلم يرَ لها أثراً وأخذ يفسح خطاه ويغدّ فى السير . لم يجد مفراً من الجرى مسافة قصيرة . ومع أنه يدرك أدراكا تاما أن جرية لا يكشف لأى عين من عيون أهل الشارع عن غايته ، إلا أن شعوراً بالحرج والهوان والتهيب قد انتابه . وعلى ناصية زقاق "أم غيلان" لمحها تمشى بخطوات شبه عرجاء على بُعد أمتار منه والهواء يملأ ملاءتها اللف ذات اللون الفيرانى المترب . نادى عليها بصوت مضطرب ضائع خافت :

- " ست جليلة ! "

فلم تسمع ، ودخلت زقاقها المسدود . وتعثر حسان من خلفها فى حجر وكاد أن يسقط فتماسك ووثب وثبتين ، وعاود نداءه بصوت أكثر خفوتا :

- " ست جليلة " .

و سمعته فتوقفت . وتلفتت إليه . وتبينت وجهه عن قرب من خلال الرِّمدة العفرة ، فتساءلتْ فى شئ من الدهشة :

- " عم حسان ؟ ! .. خير ! "

فقال لها بصوت مرتعش مهان ، مبهور الأنفاس :

- " لاتبلغيها ! .. لاتقولى لها أى كلمة .. ! "

وتيقن من سماعها لكلماته هذه ، فاستدار عائداً دون أن يضيف كلمة وسار فى تؤدة . وشَابَ وقارَ خطواته بعضُ العَرج . اخترق الشارعَ عائداً وقد زايلتْ مهجتَه لفحةُ القلق ووجع الندم . وظن أن باله قد ارتاح ، إلا أنه عندما عاد وجلس فى خوار على كرسيه فى ركنه ، أحس أن ضيقه الغامض مايزال متربصا بصدره ، وكأن مسماراً طويلا ملتويا حادا ينخس مخَّه ويخزّ رئتيه وتقبضّت منافذ تنفسه وسدّت قصبته الهوائية ، فنفخ وأستغفر ربه ونظر إلى عقارب ساعته على رسغه ، فوجدها تشير إلى السادسة والنصف ، فنهض والتقط أشياءه الصغيرة من فوق مكتبه : علبتين من السجائر وقدّاحة ونوتة صغيرة . ودسَّها فى جيوب معطفه ثم أخذ أيضا مفاتيحه وكتاباً قديماً وعدداً من الأوراق المالية .

وما أن جذب نصفَ باب دكانه الصاجى ، حتى لمح " سيد عليان " التمرجى وقد وقف خلفه منتصبا بقامته الجافة ، ويقول له :

- " مساء الخير ! أراك تقفل دكانك مبكراً ؟ ! "

- " أهلاً عم عليان ! أتلزم خدمة ؟ ! "

- " أريد أن أقول لك كلمتين ، وأشترى منك شيئاً . "

فرفع حسان الباب قليلا وانحنى ودخل فتبعه الرجل إلى الداخل . وأضاء حسان مصباحَه الشاحب فى توجس . فقال (سيد عليان) :

- " رُبْع كيلو جبنه بيضاء . "

وبينما كان حسان يقطع له الجبن بسكينه ، قال له الرجل فجأة :

- " جئتُ لأشترى ، ولأسألك سؤالا .. ! "

فقطب حسان تقطيبة متسائلة دون أن ينبس بكلمة ، فأضاف الآخر قائلا :

- " ما الذى يحدث فى بيتنا يا عم حسان ؟ ! "

فتريث حسان لحظة مجفلاً ، ثم سأله بثبات :

- " لا أفهم قصدك ؟ "

فأمال سيد عليان رأسه مستنكراً السؤال ، ثم قال بصوت ممطوط لا يخلو من نبرة تهكم :

- " لا ! أنت فاهم ! وسؤالى واضح . " .

ولم يرد حسان ، فأضاف الآخر :

- " أسالك : ما الذى حدث فى بيتنا صباح اليوم ؟ ! "

تدفق الدمُ فى كيان حسان ساخنا ، ولم يجد بداً من الكلام ، فقال :

- " والله ياعم عليان ما حدث يؤسف له حقا .. "

فقال الرجل على الفور :

- " يؤسف له أشدً الأسف ! "

- " إذن أنت تعرف ما حدث . " .

فقال بلؤم :

- " أعرف ولا أعرف ! " .

- " إذن لديك فكرة عما حدث . " .

- " فكرة لا يعلم ما وراءها إلا الله . "

فلم يأبه حسان لكلامه ، وقال :

- " الست جليلة جارتنا زوجة الأسطى أحمد برقوق ، أتعرف أن زوجها قبض عليه و .. "

فقاطعه سيد عليان بحدة :

- " ليس هذا هو موضوعنا ! " .

- " أعرف ، ولكن دعنى أكمل كلامى .. "

- " هيه ! أنا سامع .. "

- " جاءت إلىَّ الست جليلة صباح اليوم تقول إن الست جارتكم .. جارتنا .. الساكنة الجديدة فوقكم نادتها من نافذتها ، فلما صعدت إليها عرفت منها أنها لمحت ثعبانا فى شقتها .. !

فقال سيد عليان باستنكار ساخرا :

- " لمحتْ ثعبانا ؟ ! ليس فى بيتنا ثعابين يا سيد حسان ! "

- " ألا تريد أن تسمع منى ؟ أحكى لك ما حدث .. "

- " إن جاز أن يوجد فى بيتنا ثعبان ، فليس هذا الثعبان إلا هى ! .. "

فعضَّ حسان على نواجذه وضبط أعصابه ، وقال له نافد الصبر :

- " هذا ما حدث ! "

فسأله سيد عليان باستفزاز :

- " أهذا كل ماحدث ! ؟ وما دخلك أنت ؟ ! يبدو أننى رجل مغفل ! . "

فقال حسان ضائق الصدر :

- " العفوِ ياعم عليان ! وإذا استنجدتْ بكَ جارتُك فى محنة كهذه ، فهل تتخلى عنها ؟ هل تتركها فريسة للهلع وحتى يلدغها الثعبان ؟ ! "

- " لأننا مغفلون لدغتَها أنتَ يا سيد حسان ! "

فالتهب وجهُ حسان ، وتطاير شرُر الغضب من عينيه وهو يقول :

- " اسمع ياعم عليان ! "

- " اسمع أنتَ ! امرأتى مغفلة ، أما أنا فلست مغفلاً. والبيت له حُرْمة . وليس فيه رجل سواى ! " .

- " عيب هذا الكلام يا عم عليان .. "

- " ماعيب إلا العيب ! ماذا جرى لك ؟ طوال خمس سنوات ومنذ أن افتتحت دكانك هنا وأنت رجل مستقيم وفى حالك وتحترم حرمةَ الجيران ولكن منذ أن سكنتْ هذه المرأة بيتنا وأنت لست على ما يرام وقد حذرتك من قبل بلسانٍ مؤدب ودون أن أكاشفك بما لا يليق حتى لا أجرح شعورك أما هى فليست مثل أمها ويخلق الله من ظهر الصالح فاسداً . ألا تذكر حكاية ذلك الرجل الغريب الذى حاول اقتحام شقتها فى منتصف الليل منذ مدة . لماذا فعل هذا ؟ ! أنا لا أصدق أنه لص ! لماذا شتمها ؟ ! هذه واقعة مشبوهة لا أنساها ! " .

فلم يتمالك حسان نفسَه انفلتت أعصابُه وصاح فى الرجل قائلا بارتباك وتوتر :

- " كفى ! .. كفى .. أنت سيء الظن إلى الحدّ الذى يدخلك النار .. "

- " النار ! ؟ مَنْ منا الذى سيُرمى فى نار جهنم رمياً .. ؟ ! " .

- " إن بعض الظن إثم ، وإثمك هذا يدخلك النار .. "

- " كنتُ أحترمك ، والآن أنت سقطتَ من عينى ! "

- " سامحك الله . "

- " أنت رجل أكثر منى علما ، ولكنى أكثر منك إيمانا وصلاحا ، ومصيرى الجنة ومصيرك أنت مصير الزانى ! " وفغر حسان فاه وشعر بسكين طويلة حادة تشقّ صدره وتذبح قلبه ، واختنق صوتُه ودار رأسه . وما يزال الرجل يقول :

- " أنا حقا لا أبيت فى بيتى إلا أياما معدودة فى الشهر ، ولكنه بيتى وأتردد عليه كثيراً للضرورة والواجب أسهر وأكدح فى عملى بالمستشفى أكسب رزقى بعرق جبينى . لقمة عيشى متواضعة ولكنها شريفة حقا ، أنا لا أصلى ولا أصوم مثلك ، ولكن الدين المعاملة ! كما تعيش فيه بنتان فى سن الزواج ألا يكفيهما بَلْوى الزمن موت الأم وزواج أبيهما وهجرانه لهما . فتدخله أنتَ بيد قوادة .. جليلة ! وتحت ستار حجة كاذبة وتوسخه ! " فقال له حسان بصوت مخنوق من خلال نوبة الدوار الحادة التى دهمتْ دماغه فجأة :

- " تظننى أكذب فظلمتنى وظلمتها وظلمتَ المسكينة الست جليلة . قلتُ لك الحقيقة .. "

- " زوجتى لا تكذب ، وإن هى كذبت ، فلماذا تكذب البنتان ؟ ! وإن كذبتا ،

فلا يكذب غلوش ! ولماذا يكذب آخرون ؟ ! "

فرد حسان غائب العقل :

- " غلوش ؟! .. آخرون ؟ .. ظُلم ! " .

- " حجة كاذبة ! ثعبان ؟ ! شقة مغلقة ليس فيها إلا رجل عزب وأرملة جميلة شيطانة ، فائرة الشباب ، وغيابك داخل شقتها . ونزولك من عندها ورأسك منكس فى الأرض . منكوش الشّعْر . وأزرارك مفكوكة .. وقرائن أخرى . فهل كل هذا سوء ظن ؟ .. هل كل هذا ظلم ؟ ! وعندما كنتَ مريضا فى الشهر الماضى كانت تسأل عنكَ وعن عنوان بيتك ألا يكفى أنها تسعى برجليها إليك فى شقتك ؟ ألا يكفى أنكَ تنفرد بها فى شقتك ؟ يكفيك هذا افعل ما تشاء فى بيتك هناك ، وليحاسبك الله ، أما فى بيتنا هنا فلا .. !

وأنا .. أنا لا أريد منك جبنة ولا أى شى آخر .. بل سأعمل على نقل مخصصات بطاقتى التموينية إلى محل بقالة آخر لأننى لن أدخل دكانك هذا مرة أخرى .. " .

وسكت محتقن الوَجه ، ثم نظر إلى حسان فرآه مشلولا ، عييّ اللسان ، مضطربا ، ويوشك أن يتطوح . كان يتساند بكفّيه على حافة الرخامة ويكاد نصل السكين أن يجرح راحته فقال له بنبرة هادئة :

- " كشفَتْكَ هذه الشيطانة ! ماذا جرى لكَ يا عم حسان ؟ "

وأحس حسان بمخِّه ملتهباً ، وكأنه قد أنصهر تماما ، بل كأن دماغَه يطعن بسيخ من حديد محمّى طعنات متلاحقة بلا هوادة ، فعمى بصرُه .

ولم يدرِ كَمْ مضى من الوقت ، لكنه مالبث أن شعر فجأة بكيانه كله مثل ريشة خفيفة فى مهب مروحة تنفث ريحًا ثلجية ، فتحركتْ شفتاه .

وقال وهو يرتعش ويتصبب عرقاً باردا :

- " إنها زوجتى ! .. غداً .. " .

ورأى قسمات وجه الرجل تعوجّ وتتبدى وتخبو وتتخدد وكأنه يراه من وراء زجاجة عكرة متماوجة ... وسمعه يقول له على بُعد ألف ذراع :

- " إذن عملتَ عملتك ياعم حسان ! لذلك أنت نظيف ومتأنق الليلة ! "

وكان حسان يردد محموماً ويورور بلا وعى :

- (إنها زوجتى .. سأتزوجها غدا .. !)

- تصلح غلطتك بالقاء نفسك بين فَكَّى لبوءة ! "

وسقطتِ السكينُ على بلاط الباحة بارقة النصل ! ..

وفتح عينيه بصعوبة ، فلم يَرَ للرجل أثراً . رأى نصفَ بابه الصاجى نصف مفتوح .. نصف مغلق ! ..

« الفصل السابع والأربعون »
ومواضيع أخرى

لماذا يجلس هنا ؟ وإلى أين يذهب ؟ ولماذا يصلى ؟ ! وكم الساعة الآن ؟ ! جفف عرقَه . الهواءُ البارد المتدفق من خلال نصف الباب المفتوح . وارتدّتْ رويداً معالم الدكان إلى بصره بعد أن ظلت فترة غائبة كأشباح بلا وزن وكأطياف هلامية . واستطاع أن يقوم وقد ظن أنه كسيح . خطر له أن يتوضأ ، فرأى جردله مقلوبا والماء مدلوقاً منداحا على البلاط . فلم يأبه لذلك كثيرا .. كان مرهقاً أشدّ الإرهاق . نظر فى ساعة يده . ماتزال السابعة . وتذكر أن اليوم هو الأربعاء . لكنه ظن للحظة عابرة أن نهار الأربعاء قد مضى وانقضى منذ زمن طويل . وأن مساء لم يحن بعد ، أن موعد لقائه بها ما يزال بعيدا بعد سنوات . كان يرمى ببصرة خارج الدكان فيلمح أشباح أقدام وسيقان تمرّ بعتبة دكانه غاربة تارة ، متوقفة راكلة تارة أخرى ، راكضة عابرة تارة ثالثة، ورذاذ المطر برشق بركةً من المياة الآسنة وكأنها وسط دغل .

وفجاة ، أجفل لحظةَ أن تذكر بشكل محدد موعَد مجيئها الليلة إلى دكانه . زوى ما بين حاجبيه . تراءت له تحت بصره المفاتيح والكتاب والاوراق المالية ملقاة فوق مكتبه ، فأخذها جميعا دفعةً واحدة . نهض فى عصبية . جذب نصف الباب . أحكم إغلاقه بقفل كبير . رفع ياقة معطفهَ مشى يضرب على غير هدى تحت الرذاذ المتطاير . بعد مسيرة متخبطة ، شعر بالهواء الرطب ينعش كيانهَ ، قطرات المياة تطَهّر وجهة . ولما أحس بشىء من الارتياح اتجه صوب « مدرسة الشيخ محمد عبده » .

وفى حجرة المعلمين ، جلسا وحدهما يدخنان ، وقد نحى « شعبان أفندى » كراسات تلاميذه جانباً على مكتبه ، وراح يثرثر ! » .

- « لا تظن أننى مشغول . فرغتُ من التصحيح والمراجعة . أتاح لنا تعطل الدراسة بسبب المظاهرات فى الأيام الماضية فسحةً من الوقت لإلتقاط الأنفاس . المدّرس هنا يكدّ ويشقى بلا طائل . مهنة التدريس أشق المهن . والمعلم ، خصوصا معلم اللغة العربية يعمل بعقله وبيديه وبأسنانه أيضا ، لأنه ينصب ويرفع ويجرّ عندما يجرّ يصرف بأسنانه ! وإذا أعرب عن ذلك مُنِع من صرف أية زيادة فى مرتبه ! » .

وضحك فلم يضحك حسان ، ولكنه مع ذلك أضاف قائلا :

- « وحتى معلم الحساب يجمع ويضرب بحلَة تشجَّ رأسه كحال صاحبنا برهام أفندى إ وهو يطرح ولا يطرح ثمرة . ويعلّم الجبر يُجبر بخاطره ! .

وهنا لمح وجَه حسان عكراً كئيبا ، فقطب حاجبية متسائلا :

- « إيه ! مابكَ يا حسان ! ؟ ما تزال حالتك كما هى منذ الصباح ؟ !

كان مشتت الذهن ، موزع الخاطر منقلبًا فى قهر وانسحاق إلى أعماق دخيلته المضطربة وشُد على جفونه فى إغماضة قوية ، وفتح عينيه فى شبه صحوة كأن ضوءا من عين الشمس الغائبة تغلغل فى عينيه ففشيهما بهرهما . وطفق يهّز رأسه . وصديقة ينتبة إليه انتباهة حادة مركزة ، ويقول له بقلق :

- « ماذا يجرى ؟ أنت الآن أشد كدراً مما كنت فى الصباح ! »

وكان وجة حسان مزمهرا . وحاول أن يستجمع قواه . وفَغَر فاه قليلاً متنهدا متأوها ، ثم عاود وهزّ رأسه هزات متلاحقة .... وذقنه ترتعش . بعد هنيهة، استطاع أن ينطق ، قال بصوت كسير :

- حسان تبهدل ،،

فقال الصديقُ بدهشة وانزعاج :

- « كيف ؟ ! »

- ،، حدثْت أمور ! ،،

- « قلت لى هذا فى الصباح . ماذا حدث ؟ » .

- « حدثْت أمور فوق أمورا » .

- « كيف ؟ ! .

- « ماذا أحكى ؟ ! .

- « لا تستمر فى كتمانك . فضغض ! إذا تكلمت! ارتحت .... »

- « ماذا أقول ؟ ! هل أحكى لك ما حدث فى الصباح ، أم فى الظهر أم بعد المغرب ؟ ! .

- « تكلم يا حسان ! »

تبلّغ ريقَة بصعوبة ، كأن فى حلقة غُصّه ، ثم قال وهو يسند جبينه على راحته :

- «اتهمت ظُلماً تهمةً نكراء ! » .

- «تهمةً نكراء ! » .

- « فاحشة ! » .

- « كيف ؟ »

- « وظلمت معي الست هناء ! »

وبعد لحظة صمت ، استطرد يقول بجهد بالغ :

- « جاءني بعد مغرب اليوم جار لي يسكن بيتها ، اسمه « سيد عليان » وظن بنا السوء زوجته امراة متلصصة موسوسة ، روَتْ له حكاية كاذبة ! »

- « هيه ! »

- وتَقَّول عليَّ شابٌ متهور يعمل في وكالة الخضر بكلام كاذب . هذا الشاب يكرهني بلا سبب معقول . دسَّ دسيسة ضدي . قال هذا الكلام لجاري «سيد عليان» .. وأقاويل .. وافتراءات و ....

- « هيه ؟ ... وبعد ! » .

- «ظنَّ الرجلِ أنني ... ظَنَّ ... هاجمني في دكاني بشتائم ! » .

وسكت ، وأطرق طويلاً في انفعال حاد ، ولم يصبر عليه صديقه ، فسأله :

- « وما لهذا الجار بكَ ؟ ماذا يريد منك ؟ » .

- « هو الرجل الوحيد من سكان بيتها . ويعتبر نفسه حامي حمى الدار . صَدَّقَ القيلَ والقال فاندفع يكيل لي كلاماً موجعا ... شتمني ! .... » .

- « قليل الأدب .... كيف تسكت له ؟ » .

- موقف صعب ! » .

- « أنت لم ترتكب مكراً ولم تمسّ بيته بسوء » . كيف يقتحم عليكَ دكانك ويشتمك ثم تسكت له ؟ » .

- كيف أسكته ؟ ! كان ثائراً مصدّقاً شائعة ملَفقة ، فانطلق يرميني بالفحش متشجعا بالاستنكار .... بالاستهجان الذي قد يشيعه بين أهل الشارع مستنداً إلى تجريم الناس لي ووصمي برذيلة أنا بريء منها .... وهي ! هي أكثر براءة مني ،

حتى الجارة المسكينة الكادحة الست جليلة لم تسلم من الافتراء يدعى « سيد عليان » أنها قوادة ! أهذا معقول ؟! إجرام ! .... ظُلم .... » .

وصمت حسان ولم يتمالك نفسه ، فقد لمعتْ دموعُ خفيفة فى مآقية .... بعد برهة أضاف وهو يلمُّ شعث كبريائه قائلا :

- « كل ذنبى أننى أريد أن أتزوج بمَنْ اخترتُها ، وأن أنجب أطفالا ! » .

- لك الحق كل الحق .... » .

- « أريد أن أبنى بيتا سعيدا ، أسرة تبدد كآبتى وتذيل شعورى بالتعاسة . وسأسعدها معى ، وسيعالج الزواجُ عذابى ووحدتى و .... و ......» .

- « وماذا ؟ أكمل .. ! » .

- « و ... وحرمانى المذلّ ! » .

- « معك حق ... أكمل ! » .

- « وأنا أسلك الطريق الشرعى ... والطبيعى .. أريد أن أتزوجها . وسأتزوجها ! » .

- « ولا يلومك عاقل !» .

- « قال لى هذا الجار إن مصيرى ... مصير .... مصير الزانى ! » .

- « جار أحمق ».

- « وجَرحها بكلمات نابية لا تليق !» .

- « هل فاتحها فى هذا الأمر ؟ هل واجهها ، واصطدم بها مباشرة ؟ ! .

- « لا أعرف إن كان قد واجهها بكلمة . ولكن لا أظن هذا . فهى على حدّ علمى خارج بيتها منذ الصباح الباكر وحتى جاءنى . هى فى زيارة إلى بيت جارتذ الست جليلة .... » .

- « أهذا كل ماحدث ؟ !» .

- « لم ترجع إلى مسكنها حتى الساعة التى دهمنى فيها بكلامه الجارح ! » .

- « وماذا أيضاً ؟ !» .

- « تواعدنا فى الصباح أن تجىء إلىَّ مساء اليوم فى دكانى لنتحدث قليلا

فى ترتيب شئون زواجنا . ولم أنتظرها ، فلست فى حالة تسمح بذلك ... » .

- « هل تتقابلان دائما فى دكانك ؟ » .

- « فى الدكان ! » .

- « والى أى حدّ تفاهمتما فى أمر الزواج ؟ » .

- « لم يبقَ إلا شهر وأيام ، ثم نعقد القران وتنتقل إلى مسكنى .. بيت الزوجية .... » .

- « وبالطبع أنتَ بدأت فى إعداد العدّة لكل الأمور حسب البرنامج الذى أطلعتَنى على طرف منه فى لقائنا السابق ... وهل تفاهمتما فى المهر .. المقدم والمؤخر .. والمسائل التجهيزية كلها ؟ » .

- هى إنسانة عاقلة وزاهدة فى مظاهر الحياة وشكلياتها . وليس لها أى مطالب . تثق بى ثقة مطلقة . مطمئنة إلى حُسْن تدبيرى للأمور . ويوشك تجديدُ الشقة أن ينتهى بعد يومين تقريبا . وهناك تجهيزات أخرى يجب أن يتم التفاهم عليها بينى وبينها .... » .

- « أقترح عليك أن تتقابلا خارج شارعكما .... بل خارج الحى .... » .

- « ساعالج هذا الأمر معها بإذن الله ... »

- « كما أرى ألا تبالى بكلام الناس . عالج مشاكلك بروية وبصفائك المعهود... » .

- « أحاول هذا وربنا يوفق ... » .

- « ولا يجب أن يكدرك صوتُ رجل دخيل أهوج ... » .

وسكت شعبان ، واختط خطاً بقلمه على قصاصة ورق ملقاة فوق مكتبه ثم سأل حسان :

- « لكنى حتى الآن ، لم أفهم كيف بنى هذا الجار الرذيل آو غيره شكَّه أو تهمة البشعة هذه ؟ ! » .

فقطب حسان وتنحنح قليلا ، ثم قال :

- « مثل هذا الرجل سيء النيّة بطبعه . وكذلك الآخر المدعو « غلوش » يكرهنى لأننى شكوتهُ لمعلمه الذى أنَّبه وشتمه وطرده من الوكالة . » .

- « وماذا فعل غلوش حتى تشكوه لمعلمه ؟ » .

- « رأى الست هناء وحدها فى الشارع فغازلها ! » .

- « أضمرلك الشرَّ لأنك شكوتَه ، فلفّق لكما التهمةَ كيداً ، وأثار جاركَ ضدكما . ولكنك مخطئ يا حسان ، فكان يجب أن تكشف لجارك هذا عن دوافع غلوش هذه ، حتى لا يظلمكما الناسُ ! »

- « كان الموقف صعبا . أخذنى فى دُوكَة ! » .

- « اسمع . اسمع يا حسان . دَعْك من كلام هذا وذاك .. ألا يعرف الناس العقلاء مَنْ هو حسان ؟ ! أنتَ أفضل الرجال فى الحى . إنسان متعلم وتقى ومحبوب من الجميع . تتمتع بحُسْن السمعة طوال عمرك . اسمع . جارك هذا الرجل جاهل تافه إذ كيف يصدق صعلوكا بمجرد أن يلقى فى سمعه كلمتين ملفّقتين .. تافه . دَعْكَ منه ! »

ورمق حسان ، فرأى وجهَه عابساً مكفهراً ، ثم قال له :

- « ما كلّ هذا الهمّ الذى تحمله فوق دماغك ؟ كيف يعكر دمَّك صعلوك سافل مثل غلوش أو أبله جاهل مثل عليان .! » .

- « الإهانة ! »

- « يا رجل ! ألم يكن من الممكن أن تصفع هذا وتركل ذاك ، فتنفث عما فى صدرك من كرب ؟ ! لكنك إنسان عاقل ... » .

- « العقل يؤذى فى حالتى هذه ليتنى فعلت . كدت أن ... »

ولم يكمل ، فاستطرد شعبان قائلا :

- « اتق شرَّ الحليم إذا غضب ! و .... ولكن الغالب بالشر مغلوب . وحسناً ما فعلت وإلا حَقَّ عليك قول الشاعر : اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له ! وعين العقل أنك لم تضر به ! إسمع ... إسمع يا حسان . ساعى المدرسة ليس ساهراً معنا الليلة . سأُعدّ كوبين من الشاى . هنا يوجد البّراد والوابور والاكواب ... » .

فقال حسان وهو يلتفت يمنة ويسرة :

- «سأصلى العشاء هنا فى الحجرة ..» .

وتطلع شعبان إلى الخارج من خلال النافذة ، وقال :

- « الجو بالخارج ما يزال ممطراً ، ولن نستطيع الآن الخروج للجلوس في المقهى .. »

وغادر الحجرة تاركاً حسان وحده يصلي ... وبعد دقائق .. عاد الصديق حاملاً الكوبين يتصاعد منهما البخار . وطفقا يحتسيان الشاى ويدخنان السجائر ، ثم قال شعبان وهو ينظر فى وجه حسان نظرة ثاقبة :

- « أقول لكَ كلمة أنتَ أدرى منى بما فيها من حكمة . يستحوذ على عقلك ومشاعرك موضوعٌ واحد . هو فسادُ ألسنة جيرانك . وهؤلاء الناس لا يغضّون البصَر عن نقيصة وحياتهم كلها نقائص ! فاسمع منى ... يجب ألا ينحصر اهتمامك بهذا الموضوع على الإطلاق . لا تبالِ بسمومهم . لا تفكر فى كلام الناس الذى يهيمن على مزاجك فيمرضك ! إيجب أن تغير مواضيع تفكيرك حتى تهدأ خواطرك ويصفو ذهنك . لماذا لا تفكر وأنت فى هذه الحالة مثلا فى الذهاب إلى دار للسينما وتتفرج على فيلم فكاهي ... المهم . أنت فى حاجة إلى الترويح والتنزّه . فما رأيك فى هذا الكلام ؟ ! » .

هزَّ رأسه فى وجوم وكآبة ولم ينبس بكلمة ، فأردف شعبان قائلا :

- « اسمع يا حسان ! أنت داخل على حياة جديدة ، فيجب أن تستقبلها بروح جديدة . اشرب الشاى ... »

كان حسان شارد الذهن ، مأخوذاً داخل نفسه . ولكنة انتبه لكلام صديقه ورشف رشفةً من كوبه ، ثم قال :

- «الحديث معك يريح القلب ؟ ! » .

- «خُذْ بالك . أنتَ داخل على حياة جديدة فلا تكتئب . ستبدأ بعد شهر حياةً زوجية مع سيدة .. لا تؤاخذنى ... مع سيدة تمتع بالصحة والجمال وهى فى عنفوان شبابها فيجب علَيك أنت أيضا أن تدخر طاقاتك وأن تصون صحتَك . أنت إنسان حسّاس جدا . ومثلك تأكل الهمومُ أعصابه . ويجب أن تكون أعصابك من حديد .. »

فلا تحرقها . اضحك يارجل ولاتحمل للدنيا همًا ... » .

- « تطلب منى تغيير مواضيع تفكيرى ، فأى موضوع أهم عندى اليوم من موضوع زواجي ومشاكله ؟ ! » .

- « أى مشاكل ؟ ! » .

- « هناك غيار يُثَار ؟ ! » .

- « أنت تضخِّم الأمور . ومادمتما على وفاق واتفاق وتفاهم . طُظْ فى الآخرين وكلام الناس - إلا إذا كنتَ ترى أموراً ما أخرى لا أتبيّنها أنا ، فأنتَ لا تحكى لى كلَّ شئ فيما يبدو ! » .

- « أبداً ... أقول لك الحقيقة ... » .

- « ربما تظن أنك تثقل علىَّ بهمومك الخاصة ، وهذا بالطبع لا يجوز بين الأصدقاء .. ! ».

- « أبدا ، أنا أحكى لك كلّ شىء بغيةَ استجلاء ما قد يخفى علىّ فأستنير برأيك ونصحك ، فضلا عن التنفيس .. » .

وتفكَّر شعبان برهة ، ثم قال :

- « اسمع ياحسان . أنا أعرفك منذ سنوات . لكنى مع ذلك أودّ أن أسالك سؤالاً خافياً علىَّ ؟ !» .

هل مررتَ بتجربة حبٍّ سابقة ؟ » .

- « أبداً .... » .

- « ألم تمارس التجربةَ مرةً واحدةً مع إمرأة ؟ !» .

- « أبداً .... » .

- « طاهر النفس والجسم .. لكن .. » .

ثقل ضميرُ حسان بمشاعر شتى . وتريّث الصديقُ برهة ، ثم سدد إليه سؤالاً جريئا كأنه السهم بصوتٍ خافت :

- « هل تتهيّب النساء ؟ ! » .

- « لم أجرب .. » .

- « هل تتهيها هى بالذات ؟ ! لا تؤاخذنى على السؤال .. » .

- « أحبها ؟ !» .

- « حبُّك لها لا يمنع خوفَك منها ، بل قد يزيده .. » .

- « ولماذا أتهيبها .. ! ؟ .

- « لأنك قد تراها بخيالك الملتهب .. آه منهن ! ... عقارب ! ما علينا ... حسان ! هل الكلام يريحك أم يتعبك ؟ ! .

- « يريحني ! » .

- « ولكن بالطبع العبرة بالعمل ... أى عمل ؟ العمل بالعقل والروّية . أنت منفعل وتكبت انفعالاتك كبتاً يشعل النار داخلك وقد تحرقك . لا تؤاخذني ، ياصديقي، مثل أعلى في التعقل والحلم والتبصر منذ عرفتك . ولكني أراك مختلفا اليوم عن أي يوم مضى شاحب الوجه . ذابلاً مهموما . مقهورا . لا . لا . أنت مقدم على الزواج . أنت ستتزوج سيدة مليئة بالحيوية ، ناضجة مجرّبة . ذات تجربة سابقة في الزواج . خُذْ بالك . وهي جميلة الجمال الذي كنتَ تحلم به منذ سنوات ، ثم أراك الآن على هذه الحال من الكآبة والكدر ؟ ! .. ليس معقولاً أن يحزنك كل هذا الحزن كلامُ الناس .. ومَنْ هؤلاء الناس ؟ ! رجل جاهل وشاب صعلوك طائش . إذا كان هناك غيرهما ، فمَنْ يكونون ؟ إن حذاءك أنظف من هؤلاء السفلة إلا .... لا ياحسان ! مالك حق أنتفعل بنفسك كل هذه الأفاعيل . أعود بك إلى النقطة الهامة فأقول لكَ : يجب أن صون حيويتك وتدخر طاقتك فتحافظ على جسمك قوياّ فتياً في مواجهة عروسك هذه و .... » .

وفجأة ! قاطعه حسان مربداً الوجه وبصوت عال مريض موجع :

- « بَسْ ! كفى ! » .

وفخر الصديقُ فاه ناظراً إلى حسان في دهشة ، فلم يكن يتوقع هذه الحدّة ! ورأى وجهَ حسان يتقبّض في توجع بالغ وكأنه يتقوّض من الداخل . رآه يعضّ على نواجذه . كما أبصر في وضوح عرقًا أزرق تحت صدغه ينبض نبضا قويا سريعا وينتفض وتصب عرقُه على جبنه وصَفْقَيه .

وطفق يفرك أصابعَ كَفيه النحيلة في توتر . كان يحاول جاهداً أن يكتم رعشاتها . وكان يصكّ ركبتيه صكّاً عصبيًا ملاحقاً ثم انكفًا قليلاً ودفن وجهَه في راحيه « ثم رفع كفه المرتجفة وقد اعوّج فكّاه عصبياً متلاحقًا ثم انكفأ قليلاً ودفن وجهه في راحتيه « ثم رفع كفّه المرجفة وقد اعوّج فكاّه وانفرجا .. ظل لحظات فاغراً فاه ، عييّ اللسان ، ناظراً في وجه صديقه ولايراه .

وأخذ يهزَ كفَّه فى الفراغ هزاً قويًا كأنه يصد عنه شبحاً مخيفا ويقاومه . وحاول أن ينطبق بكلمة فعجز وما لبث أن زفر وشهق مرات ، فانتتر شعبان ناهضًا وربت على كفه مجفلا مرتاعًا تقوّض كيانُ حسان ، فجرى شعبان مغادراً الحجرة وعاد إليه مسرعا بكوب من الماء ، والحَّ عليه أن يشرب منه . اجترع جرعةً ثم أطرق فى انكسار .. وظل هكذا دقائق طويلة ... حى لاحتْ لصديقه بوادرُ من التحسن . أشعل سيجارةً وقال له فى حزن وقور :

- « اسمع ياحسان ! » .

فقال حسان بصوت متهالك وكأنه ضال يستغيث ويستنجد :

- « نعم ! » .

- « أ أنتَ بخير الآن ؟ ! » .

فقال حسان مغتصبًا ابتسامة شاحبة :

- « الحمد ... بخير » .

وطفق صديقه يروح ويجيء فى الحجرة مطرقا ، ثم قال بصوت رقيق حان :

- « إننـا صـديقـان منـذ سنوات . ولكنك حتى هـذه السـاعـة لم تعرفنـى جيدا ... ! » .

وغاب بصره فى أرجاء بعيدة وهو يقول لحسان بصو حاد حزين :

- « أنت لا تعرف أى تجارب مضنية عانيتُها فى حياتى . أى آلام قاسيتُ أنت تعرف بعضَها وهو أخفها وطأة . لكنك لا عرف أى شقاء لاقيتُ منذ صباى . صديقك شعبان الذى تراه دائم الضحك والمرح .. بكى قلْبه بكاء لم تبلغ وجمتُه قلوب ألف رجل ثكلوا أبناءهم ذبحى تحت أبصارهم ! وبكاء القلب ياحسان أشدُّ حُرقة ألف مرة من بكاء العين .. بكاء العين يخفف عن القلب أوجاعَه . ومَنْ لم يبك ليس إنساناً . ومَنْ ضحك للبلايا فهو إنسان قوى . لم يعرف الألمَ إنسانٌ كما عرفتُ أنـا . سأحكى لك حكاية لك حكاية أخـرى من تجـاربى غير مـا حكيتْ لك من قبل ..... » .

وأخذ يروى له تجربة جديدة تنطوى على مأساة نادرة الحدوث . استغرق حديثه حوالى نصف الساعة .. إلى أن أمسك عن الكلام فجأة وهو يجيل بصَره فيما حوله باستغراب ، ثم نظر إلى حسان فوجد ، دامع العينين . هزَّ رأسه وابتسم وربت على كتفه برقةٍ بالغة ، وأردف قائلا :

- « صديقى رقيق القلب ، اسمع . القول الشائع بين الناس بأن هذه الدنيا الغَدارة لا تساوى بصلة إنما هو قول حكيم . ومَنْ يفهمها جيداً يأخذها مأخذ البساطة والمرح . فلتضحك حتى تدمع عيناك . أما قلبك فلا تسلمه للبكاء أبداً . وإذا كانت الدنيا تساوى بصلة فلتكن دموعك عليها من رحيق الصل ! » .

وضحك شعبان فابتسم حسان ، ولكن شعبان استطرد قائلاً كمَنْ حقق نصراً عظيمًا :

- « كيف تكدرك مسألةٌ هينَة كهذه . لا تبتئس كل هذا البؤس . « وليس الظلام بفانٍ » .

أهذا هَمٌّ يجعلك تبدو كمَنْ يحمل هموم العالم ! ليس أمامك مشاكل ، كفى الله الشرّ ..! » .

ولمح الصديقُ طبقًا من الارتياح يداعب وجهَ ، فربتَ على كتفه مرات أخرى مبتسمًا ، ثم ضرب كفًا بكفّ فى أفق ، وهو يقول :

- « الحقيقة ! أنا أنظر إلى الدنيا من فوق ! » .

ولما رفَّتْ ابتسامةٌ رقيقة على وجه حسان ، أضاف متضاحكًا :

- « أما أنتَ ياحسان ! » .

وقهقه ثم أضاف :

- « يارجل ! أنعم اللهُ عليك بقلب تقيّ . تصلى وتصوم وتزكّى .. وبعد الزواج بإذن الله خُذْ زوجتك إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ... » .

- « بإذن الله عالى ..» .

- أما أنا فلا أصلى . أصلى الجمعه فقط . ولكنى أصوم رمضان .. ومع ذلك .. اسمع اسمع .. » .

وأمسك عن الكلام لحظة ، مطرقعًا بأصابعه كمَنْ تذكر فجأة أمراً هامًا :

- « فكرة ! لدى فكرة جميلة ، ومن حُسْن الحظ أنك لست موظفًا مرتبطًا بعمل إجبارى معين ولا بإجازات محددة ..... ما رأيك ؟ ! » .

- « فيمَ ؟ ! » .

- « إغلق دكانك لمدة أسبوعين وأرحل عن الشارع . ابتعد عن الحى من باب تغيير الجّو ... » .

فقطب حسان حاجبيه كمَنْ لم يفهم مرمى الكلام . فأضاف شعبان بحماس :

- « أنت فعلاً فى حاجة إلى تغيير الجو والمكان ، وإلى تطهير رأسك من كل الأفكار السيئة والمشاعر المكدرة التى أثارها فى قلبك الطاهرة أولئك الغَجَر الأوباش . ومارأيك : ستقوم مدرستُنا قريباً برحلة إلى الأقصر وأسوان لمدة عشرة أيام . وسأكون سعيداً لو رافقَتنا . وأنت تعلم أن أسرة المدرسة تعرفك وتحبك لأفضالك الخيِّرة على تلاميذها . الجميع هنا يكنون لكَ كلَّ الاحترام والتقدير ، خاصة الشيخ عبد المقصود . فقد شاركتَنا فى جمع التبرعات الخيرية للتلاميذ المعوزين . بذلتَ جهوداً مشكورة سنسعد كلنا بصحبتك . فما رأيك ؟ ! » .

- « لا أن اعتقد أن حالتى أو ظروفى الحالية تشجع على ذلك . » .

فقال الصديقُ بحماس أشد :

- « بالعكس أوكد لكَ أن شمس أسوان الجميلة ستمتص رطوبةَ الاسكندرية من جسمك كله . الشمس هناك تحمص بدنَك وترّم عظامَك وتجدد خلاياك وتقوّى أعصابك. ستعود لتدخل على عروسك وكأنك ابن العشرين . خُذْ بالك .. هيه ! ما رأيك ؟ هل أسجل اسمك معنا منذ الآن ؟! » .

وابتسم حسان ابتسامةً باهته وسأله :

- « ومتى يبدأ قيام الرحلة ؟ .

- « الشهر القادم . لم نحدد المعياد بعد . موافق ؟ ! » .

- « لا . لا . أنا أسأل عن المعياد لأننى سأفتقدك ! » .

- « ما الظروف التى تمنعك ؟ » .

- « ظروف كثيرة . منها انشغالى هنا بإعداد الشقة والتجهيزات والدكان والتموين .. » .

- « كل هذا يمكن إنجازه قبل الرحلة وبعدها . أمامك فسحة من الوقت كافية ... اسمع كلامى ستعود بأعصاب من حديد ! ... » .

ونظر فى وجهه نظرةً فاحصة ذات مغزى ، وابتسم قائلا :

- « فهمت ! أنت لا تقدر على البُعْد عنها . سيبرح بل الشوقُ إليها . هذا هو السبب . ولاسبب ، غير هذا .. اسمع .. اسمع ، عندى فكرة ! » .

- « ماهى ؟ ! » .

- « فكرة جريئة ! » .

وهزَّ رأسَه ، وعاود التفرس فى عينَى حسان الحمرَّتين ، ثم قال ووجهه يتطلّق بالبشْر والحماس :

- « كدتُ اقترح عليك أن تصحبها معك فى هذه الرحلة . رحلة ما قبل شهر العسل . فما رأيك ؟» .

فضحك حسان من شيطانية هذه الفكرة وقال شعبان :

- « هيه ! بالطبع أعجبتك هذه الفكرة ؟ ! » .

- « فكرة خيالية ! » .

- « لا يفعلها إلا قلب جسور . ولكن متى يكون قد مَرّ عامُ الحداد على وفاة زوجها ؟ » .

فاندفع حسان يقول ضاحكًا فى عصبية :

- « زوجها السابق أم اللاحق ؟ ! .

- « يارجل ! كفى الله الشرّ ! » .

لكن سؤال شعبان جعل حسان يفتح عينيه كمَنْ دهمه خليطٌ من مشاعر الحيرة والدهشة . مع ذلك قال بهدوء :

- « فى الثالث من أبريل القادم ولم نحدد بعد يوم القران بإذن الله . » .

- « سأتشرف بأن أكون أحد شاهدىْ عقد قرانك . لكنى أسأل سؤالى هذا لغرض آخر قد يبدو لك خياليًا الوهلة الأولى . ماذا لو تَمَّ عقد قرانك قبل قيامنا بالرحلة ، إذن ! .... » .

فقال حسان باندفاع :

- « تصّور أنا فكرت فى هذا الأمر حالمًا متمنيًا. فكرتّ بالعجيل قطعاً للألسنة ؟ ليس فى الدنيا أمر مستحيل ..... » .

- « لماذا ؟ ليس فى الدنيا أمر مستحيل .. » .

- « هى من جانبها تحترم الذكرى .... لن توافق ... » .

- « حاول أن تقنعها .. » .

- «إننى أيضا احترم حزنَها ووفاءها ولا أريد أن أسبب لها حَرَجًا .. » .

وفتر حماسُ شعبان ، إذ شعر أن فكرته المقترحة بعيدة المنال ، فسكت لحظة ثم قال :

- « على أى حال ، ستتبدل الأمور . إياك أن تبئس ، فمشاعر الانسان كموج البحر . بعد شهر ستجد نفسك زوجاً سعيداً . وبعد عام تصبح أباً وبعد أعوام قليلة ستلحق أولادك بمدرستنا . ومن يدرى هل أكون أنا هناك فى العالم الآخر .. الأمر عندى سيان .. وبعد عمر طويل يصبح جداً وتصبح أحزانُ اليوم ذكرى بعيدة ، نسيًا منسيًا.. أنظر إلى الأمور من فوق .. ومن بعيد فيرتاح قلبُك ! » .

وزفر زفرةً حارة وتجول فى الحجرة ، وتطلع إلى الخارج من خلال زجاج النافذة ، ثم عاد إلى حسان الجالس إلى مكتبه ، وقال له :

- « وما دمتَ لا تنوى أن تقابلها الليلة ، فما رأيك ؟ لنخرج ونكمل سهرتنا فى بيتى . بيتى بيتك أو إن شئتَ نذهب لنجلس فى مقهى « الخيّام » ، ولنبتعد عن حديث الهموم ! .. فإن همومك هذه هموم هينّة صغيرة ! .

فنهض حسان متثاقلاً وكأنه مكث أيامًا طويلة جالسًا فى هذا المكان . قال مبتسما :

- « شكرا على كرمك ونبل قلبك ، فليس أحبٌ إلىَّ من الجلوس والحديث معك . وأصارحك أننى لاأرى همومًا كبيرة وأخرى صغيرة . ربٌ هَمّ يبدو وللمرء طفيفاً وهو عند آخر فاجعة مروّعة .. » .

ومع ذلك فإن حديثك إلىَّ الليلة حديث بالغ التأثير فى نفسى ولن أنسى مدى حياتى ما ينطوى عليه من حكمة ، قد نفخ فى روحى نسيمًا دافئًا قويا . ولكن جسمى متعَب وأشعر بالحاجة إلى النوم والراحة . وأنتَ أيضا تعلّم تلاميذك طوال اليوم ككل يوم ، وصححتَ وراجعتَ كراريس كثيرة ، وعالجتَ روح صديق . جهود شاقة نبيلة ، فلا أقل من أن تلوذ بالراحة والنوم الهانىء فى بيتك وسط أولادك .. » .

- « أبداً . أنا مستعد للسهر ، لولا أنك متعَب ، والنوم مطلوب لكَ كى تستعيد نشاطك وكنتُ أود لو تكلمنا أيضا فى مواضيع أخرى عامة .... كالسياسة وأحوال البلد .. » .

فقال حسان وهما يغادران الحجرة :

- « ما لنا بالسياسة . والسياسة متروكة للساسة المحترفين . ولسنا حتى بالهواة ! .

- « يقولون ان الانسان مخلوق سياسي . » .

- « ويقولون أيضًا أن المخلوق السياسي إنسان قبل كل شيء ... » .

- « ولكنه انسان بكونه مخلوقًا سياسيًا .. » .

- « دَعْنا من هذا ولنؤثر السلامةَ ! » .

- « على رأيك . طول عمرنا نتكلم في السياسة ولا نعمل بالسياسة .... .فما فائدة الكلام ؟ ! نحن متفرجين من وراء قضبان ! » .

الفصل الثامن والأربعون

سهرة عائلية

مضى كلٌ فى سبيله ومشى وحيداً يفكر فى أمر لا مَفَر من التفكير فيه . إذا كانت قد رجعتْ من زيارتها لمسكن الست جليلة ، فكيف تصرف معه جاره « سيد عليان » ؟ هل واجهها بالتهمة الشنعاء ؟ لو فعل ذلك لسقطتْ مغشيةً عليها من هول الصدمة وفداحة الظلم والافتراء ؟ ولكن هل هى إنسانة هشّة رقيقة فى مواجهة هذا الموقف المهين ؟ وربما لم يحدث شيء من هذه المواجهة . ربما لم ترجع بعد من مسكن الست جليلة ، فقد تؤثر السهرَ عندها أو قد يدفعها خوفُها من المبيت وحدها فى مسكنها للركون إلى النوم هذه الليلةَ مع أولاد الست جليلة .

وربما رجعتْ إلى مسكنها تحت جنح الظلام وفى هدوء البيت الموحش دون أن يحس بعودتها أحد من جيرانها ، ولكن ، هل يجرؤ (سيد عليان) فى هذه الحالة على الصعود إلى شقتها ليطرق بابهَا وليواجهها بكلام موجع ؟ ! ألا يحترم حُرْمَةَ البيوت ؟ فكيف يجرؤ إذن أن يفعل ذلك ؟ ! لقد سمَّمَ « غلوش » الجوَّ . ولكن الأرجح أن « أنيسة » العوراء زوجة سيد عليان هى التى أمدَّتْه ببذرة التُهمة مقابل أى شيء .. فهى امرأة خبيثة ، شديدة الانطواء على نفسها . إذن ، فإن « غلوش » يحوم حومان اللئيم ليتسقط أخبارَهما ويتتبع أحوالَهما ، وما أن التقط كلمة من هنا أو هناك حتى انقضّ على زوجة سيد عليان واستخلص منها خبرَ صعوده إلى شقة الست هناء . وهو بعد أن اشترى منها هذا النبأ ، لابد أنه راح يضخّمه فى رأسها أو فى رؤوس آخرين ، فصار أكذوبة ثم تهمة وافتراء .. وهل هناك آخرون يتوارون وراء الجدران والشقوق ويتلصصون عليه من خلف الأبواب والنوافذ ؟ ! فمَنْ هؤلاء ؟ ! هل تصير سيرتُهما مضغةً فى أفواههم يلوكونها كيفما يشاءون ؟ ! وكيف يميط اللثامَ عن كل هذه الخفايا ؟! بل كيف يصل إلى معرفة ما إذا كان سيد عليان قد واجه الست هناء بكلمة ! واستبعد حسان أن يعود هو إلى بيته الآن دون أن يتيقن من هذا الأمر

كيف يستسلم للنوم قبل أن يطمئن قلبهُ ؟ ! حقًا ، إن جسمه متعَب وكيانَه كله مرهَق . لكن ، هل سينعم الليلةَ بالنوم ولو ساعة واحدة ؟ ! وانتبه فأدرك أنه يسير بلا وعي ، يفكر تارةً ولا يكاد يرى شيئًا من حوله في الطريق ، ويشرد خاطُره تارةً أخرى ، فلا يفكر على الإطلاق وكأن دماغه قد خفَّ وتطاير فى الهواء البارد كرَوح الكحول انتبه على ماء المطر المتراكم فى بركة على ناصية أحد الشوارع وقد تدافع فجأة تحت عجلاتسيارة مارقة فترشرشعلى وجهه ومعطفه . دهمتْه السيارة فجأة . وكادت أن تصدمه وتدوسه إلا أنه أجفل وانتفض وتراجع خطوة .. ثم تقدم خطوات فرأى نفسه يقترب من شارع « البرازخ » على غير قَصد منه . كيفَ يطلب منها اللقاءَ ولا ينتظرها ؟ ! ألحَّ عليها فى الصباح أن يراها وأن يجالسها فى الدكان ليتبادلا الحديث . ألم يقل لها أنه زعلان منها ، وهى تعرف أن سبب ذلك هو غيابها عنه . وأن قلبه لا يعرف الخصام ، ولكن الحديث بينهما لا بد منه فى تلك الأيام الحاسمة ، فحديثهما بلسم لكل الجراح ، ودواء لكل علّة . فكيف يطاوعه قلبُه على الغياب عنها الآن ؟ ! لا شك أنها قد أحبته فى صمت . وهى لا تفصح عن هذا . ولن تبوح به صراحة . ألم تقل له صباح اليوم أنها لا تطيق « البقاء» « وحدها » « هنا » .. لعلها تعنى بكلماتها هذه قولاً آخر لعلها تقول له بلغة القلب : متى يضّمنا بيتُ واحد ، تتحت سقف واحد ؟ ! متى يتحقق الحُلم فيتبدد الخوفُ وتخرس الألسنُة ؟ ! فماذا تظن به الآن إذا ما عادتْ من مسكن الست جليلة فترى دكانَه مغلقًا ؟ تُرى ، هل عادتْ من هناك حقًا ؟ وإذا كانت هى قد عادت وصعدت إلى شقتها وصعدت إلى شقتها ، فأى أوهام تروّعها الآن ؟ ! أى شعور بالوحدة هذا الذى يحرق قلبَهاعندما تتطلع منوراء خصاص نافذتها فترى الدكان ما يزال مغلقًا ؟ ماذا تظن به ؟ هل أنت تَعد وتخلف ؟ ! ليس هذا التصرف من خصـالك يا حسان ؟ ! كيف غابَ عنكَ الأثر السيء الذى قد ينجم عن خُلف وعدك ؟ !

سلوك لا يليق وقد يقلب ميزانَ المسألة كلها فى غير صالحه . إنها فى محنة ، ولو وقع ما يخشاه لصار الأمر مصيبة . ولو واجهها سيد عليان الخنزير بكلمة ، لصار الأمر كارثة.من المحتمل أن تفقدصوابهَا أوهدوءها فتنفجر ثائرة ، فهى تشعر شعورا

مزمنا بالظلم والإهانة . فمن يعيش فى رُعب متصل بكل هذا الصمت والصبر ، لا غرو أن يهدَّ فى هبَّة واحدة جبالا تشغى بالأباليس. وقد يكتسحها بجسارة أو جنون . من المحتمل أن تصفع الست هناء هذا البومة سيد عليان لو نطق فى وجهها بكلمة نابية . وقد تبصق فى وجهه وتنشب أظفارَها فى عنقه لتستلَّ عروقَه فتلفَّها حول رقبته كالحبال وتجهز عليه . وكيف لم يجهز هو عليه وقد تمادى فى جُرمه ؟ ! .. واذا هى شتمته أو صفعته ، فكيف يكون رد هذا الوحش عليها ؟ ! .... وعض حسان على نواجذه فى كمد اضطرمت به نفْسه وهو يدخل شارع « البرازخ » الغارق فى الهدوء والرتابة . ولم يكن الشارع قد نامت فيه الحركة تماما . كان نفر قليل يعبرون هنا وهناك ويمّرون به أطيافًا غائبة صامتة وهو يتجه صَوبَ دكانه فى تؤدة وحذر .... الأرجح أنها لم تعد من مسكن الست جليلة . فها هى جميع نوافذها غارقة فى ظلام حالك . ولم تبق إلا خطوات ويبلغ باب دكانه المغلق . مع ذلك ، لم يكن قد وصل إلى قرار . هل يفتح الدكان وينتظرها ؟ أم يستمرفىسيره حتى نهاية الشارع ثم يهبط المنحدر ويتجه نحو محطة « الأتوبيس » مغادر الحى إلى بيته ؟ ! استنكر الذهاب إلى بيته . كان ممتلئًا بشعور اندفاعى تلقائى يوجب عليه مقابلتها الليلة حسب الميعاد فى المدة بعد العشاء يشعر شعوراً قويًا أنها غير موجودة الآن داخل شقتها فى هذا الظلام الحالك . أنها لم تتعود فى المدة الأخيرة على إطفاء نور مصابيحها فى هذه الساعة . تفاقم خوفها من الظلام ، ومن « وصفى » ومن أوهامها ، ومن كلام الناس .. أى قدر غاشم ! .. والخنزير سيد عليان يوشك أن يحدث زلزلة ! ..

وفجأة ،أشرق وجْهه بالفكرة ! لم تكن فكرة جديدة ، فقد خامرته مرات خلال النهار . ودهمته منذ ساعة وهو يستمع إلى حديث صديقه شعبان .. ولكنه الآن ممتلىء بها ويشعر باندفاع جبرى داخلى لتنفيذها ليكن إذن جسوراً يومًا واحداً فى حياته . آه .. حقًا .. لماذا لا يذهب الآن إلى مسكن الست جليلة ؟ لماذا لا يشاركها زيارة أولاد

« الأسطى أحمد برقوق » ؟ ستفرح الست جليلة برؤياه فرحًا غامراً .. نعم لماذا لا يدفىء قلبه بسهرهٍ عائلية وسط أولاد هذا الرجل المسجون ! المظلوم مثله ؟ ! فلتكن زيارته الآن مفاجأة سارة للجميع . بتكن سهرة شتوية لطيفة . زيارة كريمة . يجلس بينهم ويجلسون حوله يتحدثون ويضحكون ويتسامرون . فليخفف عنهم وطاه الشقاء والتعب .. فليخلع عنه هذا الجلد المتحجر وليكن بسيطًا بشوشًا ... وتجاوز باب دكان الكئيب وقلبه مغتبط بالفكرة . تشقى الأم والبنتان «سعدية» و «سعاد» تكدحن طوال النهار ، فليكن الليلة أبًا للأولاد ، أخا للست جليلة .. وهذا الولد العفريت المسكين « بلبل » وهذه البنت الذليلة اللطيفة « لوزة » كم سيفرحان به ويحومان حوله فى توثب .

نعم ، لتكن سهرة عائلية شتوية دافئة عامرة بالمودة والحب ، يستعيد خلالها مشاعر قديمة روحية رائقة ، نفحة من الزمان القديم . زمان بيته وعائلته العتيق ، قبل أن يتفُرق الشملّ ويغدر القدُر . ما أحوجَه إلى تحقَيق حُلم كهذا الحُلم ، وهو الآن على بُعد خطوات من منابعه ؟ ! واندفع مغيِّرا طريقه فجأة . ومَدّ فى سيره عارجًا على الشارع الرئيسى الفسيح المسفلت ، أكبر شوارع الحى . كان مائجًا فى الأضواء الكهربائية الباهرة ، زاخراً بالمحلات والمقاهى والدكاكين والناس . وزايله شعوره بالإرهاق والتعب . ودخل بعض الدكاكين فى نشوة فائقة . واشترى أكياسا كبيرة مليئة بمأكولات متنوعة نادرة ، مليئة بالموز والتفاح والبندق واللوز والجوز وغير ذلك من أشياء . وعبّأ جيوب معطفه ببعض قطع الشيكولاتة والحلوى . واجتاحته نوبةُ الشراء العارمة فاشترى « شالاً » صوفيًا للست جليلة أخضر اللون . ثم دخل محلاً لبيع المجوهرات وأبتاع هدية عزيزة للست هناء . دسها فى قرار جيب معطفة الداخلى على الصدر وهو ينظر إلى عقربىْ ساعته بقلق .. وحمل هدايا الوفيرة وسلك طريقه بخطًى سريعة ثابتة متجهًا صوب زقاق أمْ غيلان كان بابُ البيت واطئًا حالك الظُلمة انحنى ودخل . وطفق يصعد الدرجات الخشبية القديمة غير المتماسكة

تحت حذاءيه وكان يتساند بين لحظة وأخرى بكتفه على حائط الدرج حتى بلغ غايته . طأطأ قامته ووضع بعض حمله على الأرض بين قدميه . وطرق الباب ثلاث طرقات رقيقة فلم يفتح الباب انتظر برهة ثم عاود طرقاته بعظام أصابعه أصابع يمنا وهو يرهف سمعه ، فترامى إلى أذنيه عبر حفيف الهواء البارد صوتٌ مبهم . لعلها هي التي ستفتح له البابَ الآن . ولكنه سرعان ما سمع الصوتَ بوضوح يقول من وراء الباب مَنْ ؟ مَنْ يخبط البابَ ؟ فقال أنا حسان ؟ ثم فتح الباب عن وجة الست جليلة وجهُ عجوز مكدود محتقن العينين وما أن تبينت وجهه في العتمة حتى تهللت أساريْرها صائحة :

- " عم حسان ! أهلاً وسهلاً .. خطوة عزيزة .. تفضل ... "

ودخل حسان يتبعها في حياء ووجل . وما أن استقر جالسًا على كنبه في ركن من حجرة عتيقة تحوطه أكياسه يمينا وشمالا حتى التقط أنفاسَه مسترقا النظرات هنا وهناك ، لعله يتشمم راحتَها أو يتلمس وجودها وهو يقول للست جليلة :

- « زيارة غير متوقعة . وفي وقت غير مناسب ؟ ! »

فقالت الست جليلة وهي تقف قبالته مرحبة ترحيبًا حاراً ، مأخوذة في دخيلتها .

- أبداً البيت بيتك .. وفي أي وقت ياعم حسان ...

وأندفع من الخارج إلى داخل الحجرة ، الطفل « بلبل » ثم توقف فجأة في جلباب أزرق متصايحا ، وكأنه حمَّال صغير يقف ضائعًا على أرصفة إحدى محطات القطارات وأخذ يتطلع في صمت إلى وجه حسان بعينيه الزيتونيتين . فقال له حسان باسطا ذراعيه .

- تعال .. تعال يا بلبل .. حمدا لله أنك شفيت الآن ..

وأقتعدت الست جليلة الأرض على حصيرة متآكلة كقطٍ أليف رقيق ، وهي تقول لا بنها الطفل :

- سَلِّمْ يا بلبل على عمك . عم حسان . هو الخير والبركة .

واقترب منه الطفلُ فى توجس وتهَيب التقطه حسان وأحتضنه بحرارة وطفق يقبّله قبلات حانية وهو يخرج له من جيوبه حفنةً من قطع الشيكولاتة والحلوى ويقول له :

- خُذْ .. خُذْ يا بلبل ..

وأختطفها الطفلُ كلها اختطافًا . والست جليلة تقول بصوت ذليل :

- " قَبِّل يدىْ عمّك وقُلْ له : ربنا يكرمك يا عم حسان " .

وأخذتْ تشكره وتدعو له دعوات طيبة تارةً وترحب به تارةً أخرى ، حتى سألها :

- وأين « لوزة » ، أهى نائمة ؟ !

- لا . قاعدة مع أختيْها فى الحجرة الأخرى . الوقت بدرى على النوم ..

- لا أسمع لهن صوتًا . هن نائمات وأنتِ لا تريدين إحراجى !

فنفت ذلك بكلمات كريمة ، فقال حسان :

« إذن نادى على لوزة فلدى هدايا متواضعة ... »

فنهضتْ مستطردة .

- « ألف شكر ! ولماذا تكلف نفسك الكثير ياعم حسان ؟

وسحبت من تحت سرير قديم وابور الغاز ، وغادرت الحجرة ، فبقى فى جلسته وحده وقد توارى الولد مثل فأر فى ركن بعيد منكبًا على لفافاته يفضّها بيديه الضامرتيْن فى شغف ، واحدة تلو الأخرى وكأنه يكتشف كنوزاً ويقضمها بنهم غريب . وأرختْ وحشةُ المكان على حسان سحابةً من خيبة الأمل ! وبعد هنيهة ، دخلت الست جليلة مكررة كلمات الشكر ، ومن خلفها ابنتها « لوزة » التى اقتربتْ منه مصفرّة الوجة . وصافحته فى حياء ومذلة . وقدم لها حسان حفنة سخية من قطع الشيكولاتة

والحلوى . فأخذتها الصبية وجلست بجانب أمها على الحصيرة وتحت قدمى حسان الذى قال :

- « أنت الأجدر بالشكر على خدماتك الكريمة لى . أنت تبذلين جهدا كبيرا بسبب تجديد شقتى . وبصرف النظر عن هذا كله ، فقد وجدت نفسى الليلة مشتاقًا لجلسة عائلية بينكم . وأنا اعتبر نفسى شقيقا لك وللأسطى أحمد برقوق ، وأولادكما أولادى . قفلت الدكان وذهبت فى مشوار ثم قلت لنفسى فى الطريق (أذهب وزُرْ بيت الست الطيبه الكريمة وأجلس بين أولادها فهم أولادك !

وأطرقت الست جليلة ناظرة فى الأرض وعبثت بأصابعها العظمية المشوهة فى أضلاع الحصيرة متفكرة هنيهة ثم قالت وهى تمصمص فى أسى وهوان :

« آ .. حقًا الأسطى أحمد برقوق مثل أخيك وأولاده أولادك نعم ، أنا مثل أختك بل والدتك ولكننا لسنا قَدْ المقام يا عم حسان ! »

فقال حسان بانزعاج :

- « لا سمح الله يا ست جليلة . فمَنْ أكون أنا ؟ نحن أسرة واحدة .. »

وتهدج صوتُها وهى تقول :

- لماذا تكلف نفسك شراء كل هذه الأشياء وأنت داخل على مصاريف زواج تكبدك أكثر مما صرفت حتى الآن من تكاليف الشقة وبعض لوازم التجهيز . يسعدك الله .

- أشياء بسيطة للأولاد لم تكلفنى شيئا مذكورا ..

وحمل الأكياس وقال لها بحرارة :

- أرجوك يا ست جليلة الا تشعرينى بأننى شخص غريب بينكم . خذيها . أحمليها إلى الأولاد فى الحجرة الأخرى هناك وليتسلوا بها ..

ونهضتْ وحملتها إلى الداخل وعصفتْ به مشاعرُ متباينة شتى . وجد نفسَه هذه المرة وحده فى حجرة مضطربة المعالم ، مهوشة تتبعثر فى أرجائها أشياءُ لا قيمة لها

سرير قديم ، حديد صدىء . مهمل الغطاء ، تغوص أسافل قوائمه فى شقوق الأرضية الخشبية المتأكلة هى جحور للفئران والحشرات دولاب مكسور الباب تتراكم فيه ملابس مهترئة يعلوها شحُم وقَذر ، تبدو كمصارين بطن مبقورة . حائط مقشور، ينشع بماء الرطوبة وملحها نوافذ بلا زجاج مغطاة بورقٍ مقوى قديم ومحشور فى فتحاتها ورق صُحف مصفرٌ كرسى خشبىناقص السيقان،مسند إلى ظهر كنبة قطيفة برى البلى وبرَها ، كما يبرز من تحت السرير نصفُ طَبْلية مشققة ولمبة جاز مشروخة .. و .... ودخلت الست جليلة وحدها تحمل كوبًا من الشاى فوق طبق صغير .

وتقول له فى هوان ومذلة :

- الأولاد يشكرونك ..

- الشكر لله وحده . وندعو اللع أن يفرج عن أبيهم عما قريب ..

وتهدج صوتها وهى تغمغم واضعة الكوب فوق الكنبة بجانبه :

- " لسنا قُدْ المقام .. نحن غَلابة ! " .

ولمح فى عينيها دموعًا فتأثر قلبهُ . وقال لها :

- " مالك حق سامحك الله ياست جليلة ! "

وبعد أن هدأتْ خواطرهما قالت فجأة :

- " هل مُرّت عليكَ الست هناء فى الدكان ؟ "

فقال بسرعة وقلق :

- " أبدا .. ! " .

- " نزلت من هنا وهى ما تزال خائفة .."

- " متى نزلت ؟ ! " .

- بعد أن قابلتنىَ أنتَ على باب البيت، بعد المغرب صعدتُ أنا إلى هنا فوجدتها

فرحةً بأولادي وهم فَرحون بها أشدَّ الفرح ، جلستُ معها وتحدثنا سويًا حوالى ساعة ، ثم استأذنتْ ونزلتْ ولَم أقل لها أنك ستقفل الدكان ..

- " هل قالت لك أنها ستحضر إليَّ .. ؟ ! "

- " لا لم نفتح هذه السيرة أبدا .. ! "

- " لكن شقتها هذه الساعة مطفأة الأنوار تماما . وقد صارتْ تخاف من خيالها داخل شقتها ، فأين ذهبتْ ؟ !

- " ربما تكون قد نامتْ ."

- " ربما ! .. لكن .. لكن لا أظن ذلك ، فنحن ما نزال فى أول الليل ولا أظن أن من عاداتها النوم مبكراً ... "

وأطرق صامتًا فى قلق ثم أضاف :

- وإذا لم تكن نائمة فى شقتها الآن ، فأين تكون قد ذهبت ؟ !

- " ربما توجهتْ لشراء شىء ما .. "

- " ربما ! .. "

واحتسى كوب الشاى الساخن ودخّن سيجارته بقلق . وتبادلا الحديثَ عن دهان الشقة ولوازم المطبخ والتنجيد وعن أمور أخرى تتعلق بتجهيزات زواجه وتركيباته

وبعد عشر دقائق ، كان صبره قد نفد . وأفصحتْ حركاتُ تململه عن قلقه الفادح ، فاستولى عليه حياءُ شديد ، ولكن قلقه كان أقوى من حيائه فاندفع يسألها فجأة :

- " ربما أشارتْ الست هناء خلال حديثها مع إحدى بناتك إلى وجهتها ربما ذكرتْ لهن كلمةً قد نعرف منها أين هى الآن ؟ ! "

ونادتْ على ابنتيها «سعدية» « وسعاد » فدخلت الفتاتان الحجرة فى أطراق وحياء . وصافحتاه وشكرتاه بكلمات مقتضبة وتضاعف توتُّره وأحمّر وجهُه مثلها . بالطبع لم

تكن المرة الأولى التى يراهما فيها. رآهما من قبل مرات . وعلى الرغم من أن أمهما قد طلبتْ منهما الجلوس فإنهما ظلتا واقفتين ثوانى فى سكوت وخجل وقالت لهما الست جليلة .

- " اجلسا .. أنه عمكما مثل أبيكما . هل قالتْ لكما الست هناء أنها تنوى الليلة الذهاب فى مشوار معين أو إلى مكان محدد ؟ !

فقالت الابنة الكبرى « سعدية » وهى تمخط بمنديل من أنفها الطويل وتمسح به رشح الزُكام :

- " الست هناء أطيب إنسانة فى الدنيا حديثًا حلو قالت أن ليس أثقل على قلبها من أن تبيت فى شقتها وحدها ! "

وقالت شقيقتها « سعاد » التى تقارب ملامُح وجهها الأسمر ملامح وجه أمها :

- وتمسكنا بوجودها والبيت معنا ولكنها على الرغم من خوفها قالت أنها ستنام فى شقتها ! "

فقالت الأم :

- " وعندما تهيأتْ لمغادرتنا ألححتُ عليها أن تبيت معنا ليلةً أو ليلتيْن على الأقل حتى يزايلها خوفُها .. »

وهنا انبرت الطفلة الصغيرة لوزة من ركن قصى قائلة بصوت خافت :

- نزلتُ معها ولما مشيت وراءها فى الحارةً ، قبلتنى وأعطتنى شيكولاتة وقالت لى (ارجعى إلى بيتك حتى لا تتوهى فى الظلام) ، ولكنى أعرف السكة ولا أتوه . توقفت على رأس الحارة حتى ابتعدتْ ولكنى ظللت أمشى وراءها . كنت أريد أن أوصلها . »

كان حسان ينصت إليها بانتباه بالغ فلما سكت برهة قال لها يحثها على استكمال

كلامها : - ومشيت وراءها ؟ !

- قالت لوزة مبتسمة فى براءة عذبة :

- نظرت هى وراءها وكنت خائفة أن ترانى فتزعل منى ولا تعطينى شيكولاتة مرة أخرى فرجعت ..

فسألها حسان بقلق :

- لكن إلى أى ناحية اتجهت ؟ !

فقالت الطفلة :

- أقول الحق !

فقال حسان :

- طبعا أتعرفين أن من يكذب يدخل النار ؟ !

فقالت الطفلة متضاحكة :

- أقول الحق فأدخل الجنة مشيت وراءها فأنا أحب خالتى هناء رأيتها واقفة على الرصيف فى الشارع الكبير ، وأشارت لتاكسى وركبت فيه فرجعت جريا إلى بيتى

فقالت الأم لحسان مصدقة :

- فعلا ، نزلت وراءها على السلم متشبثة بها مصممة على توصيلها حتى باب البيت . ولكنها لم تذكر لنا أنها ابتعدت أكثر من هذا إلا الآن .

ثم نهرت طفلتها قائلة :

- الست هناء تخاف عليك . تخشى أن تتوهى . اياك أن تفعلى هذا مرة أخرى .

وغادرتْ الابنتان - سعدية وسعاد - الحجرة ، وقد جذبت الابنة الكبرى الطفلة لوزة من ذراعها وخرجت بها منتقلة إلى الغرفة المجاورة التى مالبث أن أنبعث من داخلها صوت قرض البندق وكسر الجوز وجالت عينا حسان باضطراب للحظة خاطفة فى أرجاء الحجرة فلم يجد أثراً للصغير بلبل ومكث حسان جالسا فوق الكنبة فى وجوم وكوب الشاى عن يمينه يهتز ويوشك أن يسقط عن الطبق . ورفعه بيده وأرتشف رشفتين متلاحقتين ورأى الست جليلة تنظر فى وجهه فتضاعف شعوره بالارتباك والخجل والتوتر فسمعها تتساءل فى حيرة بصوت هامس كمن تحدث نفسها :

- يا هل ترى ، أين هى الآن ؟ !

وساد الصمت المسكَن كله إلا من أصوات قرض وقضقضةٍ وكَسْر ...

وتحلّب العرقُ من جبينه وندى وجهه واستقرت عيناه على الحائط المترشح بملح الرطوبة وأخذ ينظر فى الحبيبات البارقة ، فبدت له كألف عين جاحظة تتهمه وتحيق به فأدار عينيه قسراً وباتساع وسرعة ، ثم ثبتتا فى تحجر زجاجى على لمبة الغاز المطفأة المشروخة !

الفصل التاسع والاربعون

بعض التجاعيد

شيّعه كلُ أفراد العائلة بألسنة تلوج بكلمات الشكر . وقفوا على السُلم ، والست جليلة تمسك بلمبة الغاز مضاء فوق رأسها ، ويدعون له بالخير والبركة . وهبط حتى بلغ بئر السلم حيث الظلمة الحالكة فانتابه شعور كريه مفزع يسرى فى بدنه سريان الدم الفاسد المسموم . وزفر زفرة مستغفراً ربه .

ومكث بباب البيت لحظات في تردد . وقف على عتبته حائراً منهوك القوى ، وكأنه ضائع فى فناء سجن قبيل ساعة الإعدام بين الجدران الثلاثة للحارة المسدودة . ولمح شبحًا قائمًا يمرق على الناصية ويذوب في جبّ حالك ، فأجفل وتجمد ، ثم رفع ياقة معطفه ودسّ يديه في جيبه ومشى ... ولطّف الهواء البارد من أحاسيسه بسخونة وجهه .

ونظر فى ساعته تحت عامود النور فوجدها الحادية عشرة والربع ، فإلى أين الآن ؟! لا مفر من الالتجاء الى فراشه ، فهو متعب أشد التعب وتساءل :

ماذا وراء هذا النبأ الذى ذكرتْه البنتُ " لوزة " ؟! إلى أين انطلق بها التاكسى ؟ وهل يكون وصفى الداهية وراء هذا النبأ ؟ .. غداً الخميس ! مساء غَد موعده معه فى المقهى . ولا شك أنها قد رجعتَ الى مسكنها فليس لها من مآوى فى الدنيا كلها الآن إلا شقة أمها . لابد أنها جَالتّ جولة فى أسواق الحى ثم توجهت الى دكانه حسبَ الموعد المضروب بعد صلاة العشاء ، ساعةَ أن كان فى المدرسة يجَالس صديقة شعبان ، ولما وجدتّ الدكانَ مغلقا تضاعف شعورُها وتفاقم خوفها من الصعود الى شقتها والمكوث داخلها وحدها فوجدت نفسها عاجزة عن الدخول الى بيتها . فهل تراها استدارت مبتعدة عن بيتها حتى لا تفترسها مخاوفها من وَهْم الثعبان ؟! ولا مناص من جولة أخرى على غير هدى .. هذا هو الارجح .. ولكن أين ذهبت هذه الساعة ؟

وندم على الذهاب الى صديقه . أي بؤس تعاني هذه المسكينة ؟ وأي شقاء هذا الذى يغرى قلبَه الآن ؟! لكن الساعة الآن الحادية عشرة والربع وليس أمامها من حل أو طريق إلا الرجوع الى مسكنها . فهو ملاذها الوحيد ، بل من المؤكد إذن أنها رجعت وأنزوت داخل شقتها كارهة مهما كان هنالك من مخاوف تهددها . فليّمر هو الآن مرة أخرى فى شارع " البَرازخ " ليلقى نظرة أخرى إلى نوافذها حتى يطمئن قلبه قبل أن يعود الى بيته ، حتى يطرح جسمه وينام . وعندها يطلع الصَبح قد تنجلى له الأمور وعَبَر الشارع فى وجل ، واختلس نظرة .. وأخرى ، فلم يَر إلا ظلاما دامسا يكتنف البيتَ كله ! ولكنه تبين بصيصًا واهنًا يبرق من بين خصاص نافذة جانبية داخل إحدى حجرات مسكن " سيد عليان " !

فاضطرت لبُّه ، وقال لنفسه " لا شك أنها رجعتْ ، وأنها تغطّ فى النوم الآن ! " وإذن ، فليسرع الى بيته . فالبرد قارس ، والليل موحش ، والقلب يبكى ويكاد يفضحه عويلُه ! مَدَّ فى سيره ، وخرج من الشارع وهبط المنحدر بحذاء سور حديقة الحيوان وانفتح الطريق أمامه على الأرض الزراعية العراء . ومكث تحت المظلة الحجرية ينتظر مجئ " الاتوبيس " ! .. واذا لم تكن قد عادت إلى مسكنها ، فأين ذهبتْ ؟ ! وما الذى يدعو ذلك الغبى المجهول " سيد عليان " إلى السهر حتى هذه الساعة ؟ وهل هو نائم فى بيته الآن أم فى عمله بالمستشفى ؟! وربما يكون قد انتظرها حتى عادتْ وواجهها بالتُهمة الشنعاء ؟ تُرى ، ماذا قال لها ؟ وماذا فعلت هى ؟ ... إذا كانت مشادة قد وقعتْ بينهما ، فمعنى هذا أن ذلك الجار الأحمق قد زَلَّ لسانُه بكلام قبيح ، وربما انطلق بشتائم مهينة . فى هذه الحال ، لا بد له من التدخل ليوقفه عند حدّه ، ليؤدبه ! هذا ما يجب أن يكون . ولكن ، كيف يتم هذا ؟! فالرجل فظّ سليط اللسان جهورى الصوت ، فكيف يتفاهم معه ليردعه ويخرسه ؟ .. اذا لم يتأدب لسانُه بالحسنى فليضربه . ولكن ، هل يصل الأمر الى حدّ الضرب وإثارة الفضائح ؟! .. لا .. لا شك أنه مسرف فى وهَمه . وربما لم يبلغ التهور بالرجل الى هذا الحد . وربما لم يواجهها بكلمة .

ومن يدرى ، لعله ندم على ما أفصح به من كلام موجع . لم يبدُ له سيد عليان رجلاً فظاً طوال السنوات الماضية . وقد يجئ اليه بقدميه معتذراً عما وقع منه من غلط يحاسب عليه بكلمتين مؤدبتين تردأنه إلى صوابه ، ومن ثم ستسير الأمور فى مجراها الطبيعى بلا كدر ولا عكر .. ولكن ، يحسن به التفكير فى المسألة وأخذ كلَ أمر فى الحسبان وإتخاذ الحيطة ، ريثما يعالج شئونه. بالتصبر وبالوسائل التى تتناسب مع هؤلاء القوم ! .. ولكن الأمر الجديد هو هذا النبأ . لماذا استقلتْ " التاكسى " عقب نزولها من مسكن الست جليلة ؟! بالطبع ، انطلقت بها السيارة خارج الَحى ، فهل قصدتْ شراء حاجات معينة لا توجد إلا فى المحال الكبرى وسط المدينة ؟ .. ليس لها من غاية أخرى فيما يتصور . وربما هناك غاية أخرى طيبة خافية عليه ولا تخطر بباله . هل طرأ على خاطرها تحت وطأة شعورها بالوحدة ومحنة خوفها أن تزور زميلة قديمة من زميلات العمل أيام كانَت موظفة ؟! ؟ ولكنها ذكرت أنها مبتوتة الصلة بأى مخلوق ، لا تعرف لها أقارب ، ولا معارف ولا صديقات ...

ولوّح للاوتوبيس بذراعه ، فتوقف . قفز داخله . وما أن أستقر بركن قصى شاغر حتى قال لنفسه :

" قلبى يحدثنى أن " وصفى " وراء هذا السر الجديد ! " ولكن ما يوجع القلب حقًا هو تخلفه عن موعده معها فى دكانه ! كيف وقع هذا ؟! كم كان غبيًا .. !

وما أن دخل حجرته وطرح جسمه على الكنبة فى إعياء ، حتى أغمض عينيه وقد اعتراه دوار . والتقط أنفاسه ...

وبعد فترة من الاسترخاء ، فتّح عينيه على خاطر رهيب قاس طوّق دماغه .. ورأى وجهه المتجهم ذاويًا داخل مرآة الدولاب قبالته . قرّبه منها ونظر فى عينيه ثم تفرّس فيهما بغرابة . ومسَّ مساً رفيقًا بطرف أنملته فى هدوء مستريب بعضَ التجاعيد المتخددة تحت عينيه ! .

الفصل الخمسون

الرسالة

عندما بلغ دكانه فى صباح اليوم التالى ، رأى بطرفٍ خفى نوافذها الثلاث مغلقة ، كما وجد كومًا كبيرا من القمامة ، يسدّ بابه ، مطروحًا على العتبة الرخامية فى شكل هرم ، فوق قمته رِمّة كلب ميّت . استشاط غضبًا ، وانشقّ قلبُه الحار كمداً . ووقف بعضُ الغلمان قبالة الدكان تحت السور العالى الذى تتكدس وراءه فى أرض واسعة بضائعُ جمركية ، وقفوا يتضاحكون ويتصايحون .

" كلبك مات يا سلطان "

" أصلك أنتَ للنسوان "

ورآهم يتواثبون هنا وهناك ولا يكفّون عن الصياح . انهمك بمكنسته فى إزاحة كوم القمامة بعيداً وراء سور الخَربة . ورأى " عم عفّان " صاحب الفُرن وقد وقف بباب دكانه يكيل لهم الشتائم زاعقًا ، وهم يتفرقّون كالغربان ، هاربين تحت وابل من الحصى رماهم به . ولمح الرجلُ وجه حسان يتقبّض غضبًا وقرفًا ، وكأنه على وشك أن يقئ ، فسأله بصوتٍ ممطوط :

ـ " ما بكَ ياعم حسان ؟! " .

ـ " ناس كلاب ! " .

ـ " أى ناس ؟! " .

ـ " فقال حسان بحنق :

ـ " أصلهم أولاد كلاب . مات أبوهم فلم يجدوا مكاناً يلفونه فيه غير عتبتى ! "

وأوضح له حسان الأمر ، فقال " عم عفان " :

ـ " ومَنْ عمل هذه " العَمْلة " ؟! " .

ـ " ليست المرة الأولى ! .. " .

ـ " وما السبب ياعم حسان ؟! " .

ـ " مَنْ يفعل هذا وسخ ..... ! " .

وطلب منه الرجلُ علبة من " السردين " ، ثم مال برأسه على أذن حسان وهمس بنبرة ناصحة :

ـ " عم حسان ! انتبه لنفسك ! " .

فقال حسان باستياء :

ـ " لا أفهم ما تقصد .... " .

ـ " لا . أنتَ سيد مَنْ يعرف ما فى بطن جيرانك . أنتَ رجل متعلم . فكيف لا تعرف ما فى نفسك ؟ " .

وألحَّ على " عم عفان" أن يجلس ليتكلم معه قليلا وليفهم جيداً مرماه . فهزَّ رأسه نفيًا وبهدوء قائلا :

ـ " هات يا عم حسان علبة السردين . أريد أن آكل لقمتى فوارثى شُغْل يهدّ الجبال . ! " .والتقط اللفافةَ الصغيرةَ من يد حسان ، ورمى له القروش على الرخامة وغادر الدكان مسرعًا ، ولكنه اصطدم بقزم عند العتبة . وكاد " شرنبث " أن يسقط على الأرض . والتقط قاصة ورق ، ووثب ككرةٍ من المطاط وتقدم نحو حسان قائلا :

ـ " صباحك صبوح ، والقلب لك يبوح . "

فقال حسان متجهمًا :

ـ " صباح الخير يا شرنبث . "

ووقف حسان الى مكتبه ساهمًا ، على حين كان " شرنبث " يتحرك في باحة الدكان بقلق ويقول :

ـ " جئتك لأسألك سؤالاً : هل في الدنيا أغلى من الصحة ؟ " .

ـ " أبدا .... " .

ـ " أيهما أنفع : الصحة أم المال ؟ " .

ـ " الصحة .. " .

ـ " وفيمَ ينفع المال ؟ " .

ـ " المال ينفع العيال . " .

ـ " عيال مَنْ ؟ " .

ـ عيال صاحب المال . "

ـ وفيمَ ينفعك مالك ؟ " .

ـ " ينفع عيالي من بعدي .. "

ـ " الدنيا لعبة وكلها عيال . ولكنك بلا عيال مثلي ... " .

ـ " أقصد عندما يكون لي .. " .

ـ " عندما يكون لك أبناء من صلبك ودمك ؟! " .

ـ " طبعًا ... ! " .

ـ " وإذا لم يكن . ؟ ! " .

ـ " أمرى لله .. ! " .

ـ " لابد أن تزكى . لابد أن تزكى يا حسان ! " .

ـ " المال مال الله . ولا يفوتنى هذا يا شرنبث والحمد لله .. " .

فقهقه شرنبث وهو يلفّ ويدور فى الباحة ، وقال :

ـ " إذن ، لا تزكى . لا تزكى . فالله يزكى ! . "

ـ " استغفر الله . حرام عليك . الذكاة فرض . "

قهقه شرنبث مرة أخرى مجلجلاً حتى دمعتْ عيناه الضيّقتان البرّاقتان ، ثم صمتَ فجأةً تامًا . واتسمت قسماتُ وجهه بالجدّ والحزن القائم وهو يقول :

ـ " أقول لكَ الحق : الدنيا كلها عيال . والعيال هم الدنيا كلها . حلمتُ لك حُلمًا لن أحكيه لكَ لأنك لا تسمعنى بقلبك الآن ! " .

ومدّ يدَه ممسكًا بقصاصة ورق مطويّة قائلا :

ـ " خُذْ ! وجدتُها في مدخل دكانك ! " .

ثم عاود ضحكاته موليًا ظهره لحسان الذى تطلع الى حدبته الناتئة تحت سترته المهترئة القصيرة ، فلاحتْ له فى شكل هرم صغير من حَجر صلد ثم قال :

ـ " وأيهما أغلى : الصيت أم الغنى ؟! " .

فلم يرد حسان بكلمة . واتجه شرنبث مثل قرد كريه صوب الباب ، ثم توقف عند العتبة وبصق عرض الشارع بحنق وقال دون أن يتلفت خلفه :

" إخصٍ عليكِ دُنيا ... ! " .

ومضى فى عرض الشارع منشداً بصوته الخَشن :

" آه .. آه .. منك يا سونيا .. ! " .

وتباعد صوتُه رويداً ، ولكنه ترامى فى مسمع حسان من بعيد مشوّشًا مختلطًا بأصوات الغلمان :

" يا .. يا شرنبث يا أبُو كُبَّة "

" بكرة تموت موت الكلبة "

يا سلطان ... إخص يا .. أصلك .. مات ... كُبَّة ...

للنسوان ... إنت .... إخص .. تموت موت الكلبة .. !

وقلّب الورقَة لامطّوية فى يده بلا مبالاة .. وجدها بين حركات أصابعة المتبلة بالعرق وقد فُضَّ نصفها ـ فشدَّته كلماتُ مكتوبة . بسط الورقةَ كلها وطرفتْ عيناه فى اضطراب ، ولاَحَ فيهما بريقُ انتباه . واقعدته المفاجأةُ على كرسيه ! طفق يقرأ الكلمات قراءة متوثبة لا يلاحقها ذهنُه الغائب وقد شوَّشتْ عليه دقاتُ قلبه المتراكضة فى صدره ، الفهمَ والاستيعابَ رغم بساطة الكلمات :

" الاستاذ حسان

" بعد التحية والسلام . اضطررت أن أكتب لك هذه الرسالة "

" بعد أن جئتُ أمس الى دكانك حسب الميعاد "

" فلم أجدك . وجدتُ الدكانَ مغلقًا . قلقتُ عليك "

" لعل المانع خير إن شاء الله . حدثتْ أمور يجب أن "

" أصارحك بها . فكيف أقابلك ؟ وأين نتحدث ؟ "

" وجدتُ من الأفضل أن نتحدث عندى فى شقتى "

" أنا فى انتظارك فى شقتى بعد ظُهر اليوم "

" حرصتُ أن أضع رسالتى هذه من خلال عقب "

" بابك فى منتصف الليل "

والى اللقاء « هناء »

الفصل الحادي والخمسون
الصاعد زاحفا

وأغلق باب دكانه الزجاجي عليه . وفتح درج مكتبه وبسط داخله الرسالة تحت بصره ، وأعاد قراءتها مرات .. كلمة كلمة . قرأها مرة بقلب متوثب فرح . ومرة بحب وشوق ووجل . ومرة بقلق وخوف ومرة بطمأنينة وتحد حتى حفظها في ذاكرته حفظا .. لكنه آخر الأمر طواها بعناية ورقة ، ودسها في جيب معطفه الداخلي على الصدر . وحمد ربه في سره .. هي تشتاق إليه كما يشتاق هو إليها .. وعاوده شعوره بالندم لتخلفه عن الميعاد أمس ، فأوجع قلبه . ولكن الرسالة خففت الكثير من عذابه . فهي تقلق عليه كما يقلق عليها . هذا هو ما يريده وما ينشده .. وحمداً لله . إن الورقة لم تقع في يد شخص آخر . وبالطبع لم يعرف " شرنيث " عن محتواها شيئا . فهو لم يفضّها . وهو على أي حال ، لا يعرف القراءة بسهولة ، وهو أمين ، رقيق القلب . وأغلب الأمر أنه لا يعرف شيئا مذكورا عن علاقته بالست هناء وأن كان يعرف فهو لا يهمه ذلك ، ولا يتوقع أن تكون هذه الورقة رسالة منها . ومن ثم ، لن يخطر بباله أن يخبر أحداً من الجيران أنه عثر على ورقة بدكان حسان ، وأنه ناوله إياها . وإذن لن تكون هناك فرصة لأحد المتلصصين عليه بتخمين مندا الأمر ، فالمسألة سرّ مكتوم . وتساءل حسان بقلق : (ترى ، ماهي تلك الأمور التي حدثت /) ، ثم طمأنَ نفسه هامسا : (لاتقلق ولا تنزعج . سوف تصار حك بها حالا !) - ولكن متى تحين ساعةُ السكينة في الشارع وخلو السكة في مدخل بيتها ؟ متى تحين ساعة ما بعد الظهر ؟ وما حدث هوبعينه اتوقعه ! اذن فعلها سيد عليان النذل ! فهي لن تستطيع أن تنزل إلى دكانه بسبب كلام مندا الوغد الوقع .. ليس هناك من سبب إلا هذاالسبب . كانت دائما تتوجس خيفة من القيل والقال . فما بالك الآن وقد واجهها سيد عليان الكلب بتهمته القذرة ! إنها شديدة الحرص على ألا تمسّ سمعتهَا وكرامتها بسوء ، فكيف وقع ما وقع ! ؟ ستحكى له كل شيء .. اصبر .. اصبر ياحسان . ولكن ، يقتصر الامر على أقاويل سيد عليان وزوجته العوراء ؟ أم أن الشرير " غلوش " قد ضاعف من إفساد الأمور ؟ ! وما علاقة كل هذا بركوبها " التاكسى " أمس عقب نزولها من

مسكن الست جليلة ؟ ! أين ذهبتْ ؟ ! ومتى واجهها سيد عليان بكلامه المتهور ؟ لكن السؤال الآن :

لماذا حددتْ مكان اللقاء داخل شقتها ؟ ! إنها لاشك جرأة بالغة منها لا تتناسب وخطورة الموقف ؟ ! انها مخاطرة غريبة .. ولابد أن قلبها قد تحيّر عند ما أرادت أن تحدد مكان اللقاء . ألم يكن من الأفضل أن تحدده ليكون فى مكان عام خارج الحى ؟ ! كان يمكن هذا .. ولكن ربما غلبها خوفُها ساعة أن كتبت هذه الرسالة . ربما غلبها خوفُها من شبح " وصفى " الهائم هنا وهناك . يصوّر لها وهمُها أنه يتهددها فى كل مكان ، كما توهمت وجود ثعبان تحت سريرها ! بل إن خوفها متأصل فى نفسها ويرجع إلى زمن قديم ، إلى السنوات البعيدة التى فتحت خلالها عينيها على ظلمات الردهات فى الملجأ . آنذاك نبتتْ فى أعماق قلبها بذور الكآبة . فى تلك الأيام أدركتْ شقاء يُتْمها من وراء قضبان النافذه وهى تنتظر بحزن وتوق عظيم مجىء أمها .. يرجع خوفها إلى مرارة العذاب الذى تجرعته على أيدى أهل المرحوم زوجها ! ولكن ، كيف تجاسرتْ على الخروج من الحى وحدها داخل التاكسى ؟ ! لماذا لم تحدد فى رسالتها محلا عاماً مكاناً للقاء ؟ ! ألم يكن فى مقدورها أن تقول له مثلا : (لنتقابل فى الساعة كذا فى ركنك المفضل فى محل " لورانتوس " ؟ !) ، فأى حرص هذا ! لا ، ليست حريصة على الاطلاق . ألم يكن من الممكن أن تقع الورقة فى يد زبون بالرغم من حرصها الشديد على دسها بدقة وإحكام من خلال عقب الباب ؟ ! .. فليس معنى هذا أنها مضمونة الوصول إلى يده ، فلم تلفت الورقة نظره فور أن فتح باب الدكان فى الصباح ، كما أن زبائن كثيرين يدخلون الدكان فى تلك الساعة وهذا ما حدث بالفعل فقد وقعت الورقة فى يد : شرنبث " .. أهى تثق فى قوة ملاحظته إلى الحد الذى يدفعها إلى الأخذ بهذه الوسيلة ؟ أية قوة ملاحظة هذه ؟ ! . حقا ، إنها تعرف فيه هذه المزية ولكنه ذاهل غائب الذهن حزين مضطرب ، قلق أهى إذن لا تشعر ببؤس حاله ؟ ! اه .. لماذا لم تعط رسالتها للست جليلة لتوصلها إليه ؟ .. إذن وقعت مواجهة سيد عليان لها بعد مغادرتها لبيت الست جليلة ، بعد قضائها لمشوارها الغامض خارج الحى ! ؟ هل كان فى مقدورها أن تغادر شقتها بعد هذه المواجهة لإعطاء رسالتها للست جليلة ! ؟ لماذا لم تفعل ذلك ؟ ! هل كان الوقت متأخرا ؟ !

هل حدثت المواجهة فى ساعة متأخرة من مساء أمس فلم تشأ أن تقحم الست جليلة فى مثل هذا الأمر الكريه المشين ! ؟ ولابد أنها استثقلت التوجه إليها برسالتها فى صميم الليل كان يمكنها أن تفعل ذلك فى الصباح . على أى حال ، هى لم تجد غير هذه الوسيلة . ولا شك أنها كانت فى حالة نفسية سيئة لا تمح لها بالتفكير الرائق للاهتداء إلى طريقة أفضل من هذه ! وآثرت أن يظل الأمر سراً بينهما ، فما شأن الست جليلة وبناتها بشئونها الخاصة ؟ ! هذا هو مدى حرصها ، أوهذا هو ما حدث بلا تدبر ... حمداً لله ، على أى حال ، إن الرسالة قد وصلت إلى يديه دون أن تقع كلماتها على عين أخرى . المحب دائما يقظ الحواس ، فما الذى دهاه ؟ ! بل ماالذى دهاها ؟ ! كيف يبلغ بها خوفها إلى حدّ الرعب من خيالها ، على حين تطلب منه أن يصعد إليها فى شقتها مرة أخرى ، وفى ساعة هدوء وغفلة ، وبعد الذى وقع من كلام جارح قتّال قد يؤدى إلى عراك ، لا تحمد عقباه ؟! ولكن ، مَنْ أدراه أن سيد عليان قد واجهها بكلمة ؟ إذن ، لماذا كتبت له فى رسالتها : " .. حدثتْ أمور " . ، أهى أمور أخرى غير متوقعة ، غير حكاية سيد عليان وغلوش ؟ فما هى إذن ؟! ما الذى يمنعها من النزول إلى دكانه للحديث معه ؟! هل الدكان مكان غير مناسب لهذا الحديث الذى ينطوى على خطورة فادحة وأهمية قصوى ؟! أليس صعوده إلى شقتها متسللا تسلل الاثم يُعدّ مخاطرة جريئة واستفزازاً مهيجًا ، لا سيما انها ارملة وتعيش وحدها ، وكل عين من حولها تعرف هذه الحقيقة ؟! وسأل نفسه : (كيف أصبح بعضُ الناس هنا أعدائى وخصومى دون أن أبادلهم كلمة سوء ؟!) ــ بل على العكس ، كان يضاعف لهم من حرارة التحيات والسلام وطيب الكلام ؟! ولكنهم ملاعين !

وظل يباشر عمله طوال الصباح بين زبائنه بنشاط وفى صمت ، وقد صحت عيناه صحوة غريبة تثير فى فى المرء الرغبةَ فى إطالة النظر إليها ، كانت عيناه شبه جاحظتين ، مأخوذتين إلى الداخل ، تبرقان فى توجس ، وتخبوان فى مكر ، يختلس إليهم النظرات من وراء ميزانه ، وينظر بطرف خفى إذا انحنى على برميل الزيت أو قنطاس الغاز أو جوال الارز يعبئ منه . وكان أحيانا يتفرس بهدوء غريب فى وجوهَ زبائنه .. ثم ملأ جردلَه بالماء من ورشة النجارة حيث قابل " الأسطى مرجان " النجار وأعطاه بقيةَ حسابه نظير التصليحات التى أجراها فى شقته . وعاد حاملا جردله .

وتوضأ وصلى الظهر .. ثم عاود نشاطه مع زبائنه ..

ومضتْ فترةُ الظهيرة بسلام ، ولكنه لم يتخذ قراره بعد بالصعود إليها بعد الظهر. كيف يجرؤ ؟ كيف يخاطر ؟ هل يؤثر السلامة ويستكين فى دكانه مستنكراً فكرة الصعود اليها ؟ هل يستطيع هذا ؟ لكن لابد له من وسيلة أخرى ليتلقى بها خارج البيت والدكان ، خارج الشارع والحى ، كما نصحه بذلك صديقه شعبان ! فقد أوشك عام الحداد أن ينتهى وجَدّ الجد ، وأتم شوطا فى مسألة التجهيز ولم يبق الا القليل . اختيار الأثاث الجديد اللازم ! وهذا لا يتم إلا بمشاركتها . وهناك أمور أخرى يجب أن يبادلها الحديث فيها ويحسماها سويا . هذه مسائل مصيرية يجب أن تعالج بالعقل والتراضى والروية . فكيف يخوفها عقلُها وتدعوه إلى شقتها لينفرد بها مهما كانت تثق به وبنفسها ؟! ألم تلمح نظراته التى سرحت بلا وعى منه داخل غلالتها فى ذلك اليوم الذى كاد رأسه أن يرتطم بسقف الكرمة الوردية وأن يذوب بين العنقودين ؟! وتذكر كيف انزلق بصره المأخوذ تلك الانزلاقة السوداء الآثمة ؟! .... واستغفر الله مرات ، وقلبه يدق صدرَه وصدغيه وهو يردد : " لا . لا . لن أصعد ! " . ولكن ، كيف يضمن أن ينجح فى حرصه ، وأن يجتاز دهليز البيت بسلام ، على حين هناك " أنيسة " العوراء تتلصص وتخترم بعينها بابَها وكلَّ جدران البيت ؟!

وهل سيد عليان موجود الآن داخل شقته ، أم تراه فى مقر عمله ؟! ....

وبدأت بوادر الهدوء والسكينة تزحف فى الشارع النحيل الملتوى . ونظر بطرف خفى إلى نوافذها فوجدها على حالها منذ الصباح . منذ البارحة ، مغلقة تماما . وتحرك فى باحة الدكان .. وعند المدخل ، وعلى العتبة ، لعله يستطلع الجو ، فلمح الشارعَ موشكا على الاقفرار إلا من بعض الحركة اللاهية هناك وراء عربة يدوية مقلوبة ، ولم يكن هنا أو هناك أمام الدكاكين الصغيرة النائية من حسّ أو صوت إلا وسوسة وانية وصدى دبيب مبهم ـ حتى رجح أن يكون مصدر كل هذا السكون المريب المحفوف بهذه الدمدمات الخافتة البعيدة ، وهو زفرة الضمير وشهقته .. !

وكان الجوُ غائمًا منذ الصباح ، فتمنى فى هذه اللحظة لو هطل المطر ، وقصف

الرعد ، ففى هذه الحالة سيلوذ هذا النفر القليل بالهروب داخل جحورهم كالفئران : ..

ولعن حظَّه التعس ! كيف يفكر كرجل زانٍ وهو يسعى سَعْى الشريف ؟! كيف يخاف من سيدة طاهرة هي زوجته غداً لا محالة ؟! كف انسل إلى نفسه هذا الخوف الغامض ؟ هل يخاف المحبُّ مَمَنْ يحب ؟! وارتاع قلبُه عندما خامره شعور جارف أشبه بالحدس . شعر أن خوفه ينطوى على البغض ! . على الحب والبغض معًا فى آن واحد ! كيف يكون هذا .. ولكنه سرعان ما راح يؤكد لنفسه أن الأمر لو لم يكن خطيرا لما خاطرتْ هى بكتابة هذه الرسالة ، ولما اضطرت الى تحديد هذا الموعد داخل شقتها !؟ .. الخطر الداهم هو الذى دفع بها إلى هذه المخاطرة . وهو خطر ليس واضحا له بكل أبعاده الآن .. ولكنه بعد قليل سيستمع إليها ويعرف منها ما يغمض عليه .. لا شك أنها معذورة كل العذر ، فلا ينبغى أن يظلمها قبل أن يعرف . وسيعرف بعد قليل . والخطر الذى دفعها الى الاستغاثة به وبالست جليلة كان الثعبان . وكان هذا وهمًا ؟ فهل تراها ما تزال واهمة ؟ وكم يدفع الناسُ ثمنا غاليا نتيجة رضوخهم لأوهامهم وهواجسهم ؟! ولكنه ، يحسن الآن إحساسا قويا أن حقائق تتجلسى بعد قليل هذه المرة ! فهو يعرف أنها ليست حمقاء بل هى ذكية وواسعة الخيال ، لا تقدم على هذه المخاطرة أو تدفعه إليها إلا إذا كان هناك أمر جَلل يفوق هذا الخطر بل هو الآن الذى يعول من الأمر ويضخم هذا الخطر ، وما هو بخطر مذكور ؟! ربما هى على حق فى نظرتها للأمور . فالمرأة كما عرف من قراءاته فى الكتب أكثر واقعية فى معالجة مشاكل دنياها ، فهى لا شك قد تعلقت المسألة بعد أن جابهها (سيد عليان) بكلام منكر . فكرت فى أن تحسم المسألة كما فكر هو لعلها من فرط ذعرها وصلت إلى حل عملى قبله .. ألا يحتمل أن تكون قد امتلأت بالاقتناع أنه الآن زوجها ولم يبقَ إلا إجراء الشكل الرسمى وهو التعجيل بعقد القران قبل انقضاء عام الحداد قطعًا للألسنة ؟! هذا محتمل ... ربما ضربت هى بالعُرف والتقاليد عرض الحائط أخذاً منها بالأسلم والأصوب ، وهى شريعة الله وهذا هو عين العقل !

لو كان هذا ما سيسمعه منها بعد قليل ، فإنه سينزل على الفور من شقتها وثبًا

، طائراً إلى بيت صديقه " شعبان " لينطلقا سويا صوب بيت المأذون أو مكتبه ! وفى المساء . مساء اليوم يكون عقد القران قد تمَّ فى مسكنه هناك فى الحى الآخر .. حى " امبروزو " ، هذا هو صوت العقل يناديك ، فلتلب النداء . ودَعْ عنك خوفَك من القيل والقال مادمتما على طريق الشريعة القويم . لا تسمع ولا ترد ولا تعارك . اذكر الله بقلبك قبل لسانك فقلب المومن من حصنه . ولا تغضب من سوء القول ، فالشيطان يأخذ بنى آدم عند الغضب وعند الهوى ويطوف عليهم فى أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . فقل أعوذ بالله منه . وإذا كانت عينك فى المرة السابقة قد أثمت ، فما من صوت أحب إلى الله من صوت عبدٍ مذنب تائب يقول : يارب ! وستحل لك غداً أو ربما مساء اليوم كما يبشرك قلبك الآن ..

مساء اليوم ؟! ... اليوم الخميس !

مساء اليوم موعده مع " وصفى " ! على أى حال ، لا يجب أن يتعجل الأمور فإذا تحققت البشرى ، عند ذلك يمكن الاعتذار عن هذا اللقاء المنتظر الذى لا معنى له . يمكن تدبر هذه المسألة لو صدق حدسه . إذن " فلتتوكل على الله " . ولا تدخل بيت من اختارها اللهُ لك ، سرًا ومتسللاً . أدخله قوى الجنان . ثابت الخطى ، رافعًا رأسك فى تؤدة وهدوء وصفاء . وإذا رآك حاقد أو فاسد على هذه الهيئة من العلانية الجليلة ، فسرعان ما يغض عنك الطرف خزيان . مَنْ مِن جيرانك لا يعلم أنك قد نويتَ الزواج منها ؟! " ورأى عينَ أنيسة العوراء تندس فى مخيلته بسطوة وإلحاح ، فمدَّ سبابته وفقأ بها عينها الأخرى .. وغاص إصبعه حتى آخره داخل محجرها .. !

كان الجو هادئًا ساكنا تماما . لكن صبيًا مشاكسا دخلَ الدكانَ واشترى منه كيسا من الملح ومضى جاريا .. وبعد دقائق .. أعاد قراءة رسالتها مرتين ، ثم دسَّها فى جيبه كرةً أخرى ونهض وتوضأ وصلى صلاة العصر ثم رمى ببصر إلى السماء عبر الزجاج فوق رأس بابه ، فلاحتْ له الغيومُ الداكنة وهى تنجاب زاحفة تجاه الجنوب فوق السور العالى المواجه .

الفصل الثاني والخمسون

الهابط محلقا

وفي هدأة الشارع ، أغلق بابه الزجاجي بمفتاح صغير ولم يتلفت يمنة أو يسرة . اتجه بخطوات ثابتة صوب باب بيتها . حاول جاهدا أن يبث القوة في فرائصه . كان البيت في الداخل ساكنا ، يسوده همود موحش ، تكتنفه ظلالٌ قاتمة . ومع ذلك ، أرعد قلبَه قلقٌ دفين . مرَّ بباب شقة " سيد عليان " في خفة وتحدٍ مشحوذ . لم يستغرق مروقُه في الدهاليز سوى لحظة خاطفة . وبدا له باب الجار وكأنه باب غرفة الإعدام . صعد السلم وهو يهتف في باطنه :

" كُنْ قوي القلب ! اذكر ربك ، يصونك المولى ! " .

وما أن همَّ برفع أصابعه لينقر بها زجاج بابها حتى لاح خيالها من ورائه فأمسك عن النَّقْر . وعلى الفور ، انفتح الباب حتى نصفه ، ورآها تستقبله في ثوب أسود محتشم قائلة :

ـ " أهلاً .. تفضل .. " .

ـ " أهلاً بك ... " .

تنحتْ قليلاً ودخل ، فاغلقتِ البابَ بهدوء . أشارتْ إلى كنبة في المدخل قائلة :

ـ " أتجلس هنا أم في الحجرة بالداخل . كما تحب ؟ "

فقال لها :

ـ " سيان .. " .

فابتسمت قائلة :

ـ " الصالة هنا بلاط ، رطبة لنجلس فى الداخل . "

وما أن خطتْ خطوتيْن تجاه الداخل حتى دعاه قلبُه المتهيب ليقول :

ـ " لا . لنجلس هنا .. " .

ـ " أتظننى أخشى أن يتلصص علينا أحدُ الجيران فيسمعنا من وراء باب الشقة ؟ أنا لا أخشاهم . ولكن بعض كلامنا يتناول أسرارنا الخاصة ولا يجوز أن تسمعه أذن غريب . فأنا لا أخاف منهم ولكنى احترم همومنا الخاصة " .

ـ " هل بلغتْ بهم الأمور إلى هذا الحد ؟! " .

ـ " وإلى أبعد من هذا .. " .

فقاوم مشاعره وقال بنبرة قوية :

ـ " إذن ، لنجلس فى الداخل .. " .

استلهم قوةَ نبرته من احتشام ثوبها الاسود وهى ترفل فيه بوقار وحياء . كان الثوب طويلا واسعا ذا أكمام طويلة ، يغطى كل جسمها من العنق وحتى الكعبيْن وضاعفت من ثبات أعصابه كلماتها الواثقة وهيئة قامتها الممشوقة وخطواتها الجادة ، نفخ هذا كله فيه روحًا من النقاء والشجاعة . ساقته إلى غرفة واسعة وجلست على سرير مهمل فى ركن وهى تدعوه للجلوس على مقعد قبالتها ، فجلس قائلا :

ـ " قرأت رسالتك ! ما الذى حدث ؟ " .

فهزّتْ رأسها هزّة مبهمة ، فأضاف :

ـ " أولاً ، أنا أعتذر عن تخلفى أمس . طرأتْ ظروف حتمت علىَّ إغلاق الدكان ... آسف جدا ... " .

وأوشك أن يربكه صمتُها ، لكنه قال بثبات :

ـ " رحتُ فى مشوار هام ، ومع ذلك رجعتُ ومررتُ فى الشارع تحت بيتك . ولما لم أرَ خيطًا من الضوء داخل شقتك أدركتُ أنك مازلت خارج مسكنك . قلقتُ عليك ، ما الذى حدث ؟! " .

ـ " الناس الرذال لا يتركون الناس الطيبين فى حالهم . أنا أيضا قلقتُ عليك لما رأيتُ دكانك مغلقًا أمس ! .

ـ " الحمد لله وآسف . وآسف جدا ، ليس من خُلقى والله أن أخلف موعداً .. " .

ـ " أعرف خُلقك جيدا . والطبع توقعتُ أن عُذراً إجباريا طارئا عاقك .... " .

وبعد لحظة صمت ، قال :

ـ " القلوب عند بعضها ! " .

ونهضتْ قائلة بابتسامة عذبة :

ـ " نشرب القهوة " .

وغادرت الحجرة . كان المصباح مضاءً . ونظر إلى نافذتها المغلقة والخصاص ، ثم أجال ناظريه بحياء فى ارجاء الحجرة . كان كل شىء نظيفا مرتبا . تضوع المكان بشذى طيب دغدغ حواسة . عادت بعد دقائق قليلة . ورآها تدخل حاملة " صينية " صنعت عليها فنجانين وكوبا من الماء وضعتها فى رفق وبانحناءة مهذبة ، فوق مائدة صغيرة قصيرة قائمة بينهما . وجلست فى مكانها معتمدة براحتيها على حافة السرير الذى سوّيت فُرشَهَ بعناية ، وقالت مطرقة :

ـ " عم حسان ! أنا آسفة لإزعاجى لك . كتبتُ لك الرسالة لأسباب .. " .

لم يفه بكلمة . رفَعتْ رأسَها ونظرتْ إليه مطرفة برموشها الوطفاء قائلة :

ـ " حدثت مشادةٌ كلامية بينى وبين جارى سيد عليان التمرجى ! " .

ـ " أتوقع هذا " .

ـ " أخبرنى أنه فاتحك فى الموضوع السخيف ! لكنه لم يذكر لى كلمة مما دار بينكما " .

ـ " رجل جاهل . أعمى القلب ! " .

ـ " لم أسكت له ، واجهتُه بكلامٍ أعنف من كلامه ! " .

ـ " متى واجهك ؟! " .

ـ " مساء أمس . بعد مغادرتى لبيت الست جليلة ، وجدته ينتظرنى هو وزوجته أنيسة بباب شقته .. تحت ! " .

وزوى حسان ما بين حاجبيه متسائلا :

ـ " وبعد ؟ ! " .

فقالت بعصبية :

ـ " قلت له .. (دخولُ الاستاذ حسان إلى شقتى ليس عيبا وهو ليس بالرجل الغريب كما تقول وأنا لا أقبل منكَ ولا من غيرك هذا الكلام . ماذا تظننى ؟! أنا أيضا أخاف عل حرمة البيت الذى أسكنه أكثر من أى مخلوق آخر . فهذا البيت أعزّ بيت عندى ، فما تزال تباركه أنفاسُ المرحومة أمى) ، كنت أحدثه وكأن قلبى يمضغ المُرَّ .. ! " .

ـ " ظالم ! .. العيب عيب فهمه للأمور . وهو جاهل لا يفهم ! " .

ـ " وأفهمته أن الأستاذ حسان لم يدخل شقتى إلا بناء على استغاثتى به . وحكيتُ له الظروف .. " .

ـ " وبعد ؟! " .

ـ "وقلتُ له : "أنا أحرص الناس هنا على حُسن سمعتي وكذلك الاستاذ حسان . وأنا وإن كنت لست رجلا إلا أنني أكسر رقبةَ مَنْ يمسُّني بأي سوء ! وسيدخل الاستاذ حسان شقتي مرةً أخرى ومرات لأنه رجل طاهر متديّن . وهو زوجي في الغد القريب .. ! " .

ـ " عظيم ! ... كدتُ أن أضربه في دكاني عندما واجهني بكلامه ! " .

فقالت بأناة :

ـ " قال لي : " أنتِ سيدة شريفة وعلى عيننا ورأسنا ولم نرَ منك شيئًا لا سمح الله ، ولكن هناك رجلا من أهل الحي قال لي كلامًا لم أرَ السكوت عليه ! " .

ـ اسمه (غلوش) ؟! " .

ـ " هو غلوش ! ذكر لي اسمَه فتذكرتُه . وشاركتنا أنيسة زوجتُه الكلام قالت لزوجها : غلوش يكره حسان لأنه تسبب في طرده من عمله بالوكالة سألتها : (كيف حدث هذا ؟) قالت : (شكاه حسان لمعلمه لإنه عاكسك في الشارع) . قلتُ لهما : حدث هذا . وخيراًما فعل الأستاذ حسان،ولذلك افترى غلوش علينا بالكذب !) ... " .

ـ " غلوش شرير ، أعمى وعامل كحّال ! شكوته لمعلمه لأنني أردتُ بهذا أن أحميك من شرّه .. " .

ـ تكبدتَ متاعب كثيرة من أجلي ! " .

ـ " لا متاعب على الاطلاق ! وبعد ؟ ... " .

ـ " تخاذل سيد عليان قليلا وقال لي : (إذا كان سيتزوجك فليتزوجك . كلام الناس كثير) . قلت له :

(كلام الناس غلط ، وأنا وحسان على الطريق الصواب وكل أمر بأوان ، وبإذنه تعالى) ... " .

ـ " وبعد ؟ " .

ـ " قال : (سيظهر الله الحقَّ على مرّ الأيام . وهو وحده عليم بما فى سرائر الناس) .. وسحب زوجته ودخل شقته .. " .

ـ " تصرفك صريح وسليم ! خيراً ما فعلتِ يا ست هناء ! " .

وداعبتْ بأنملتها خدَّها المتورد قائلة بصوت هادئ معتذر :

ـ " ذكرتُ لك فى رسالتى إن من الأفضل أن نتكلم فى هذا الموضوع فى شقتى هنا لا فى دكانك ، وذلك لأسباب أولها : أن صعودك إلى هنا بعد كلامى هذا مع سيد عليان هو رد سليم وحاسم على سوء الظن بنا . صعودك إلى هنا له هدف ، فلو كنت لا اسمح الله معيبا حسب تصورهم لما عاودت الكرة خاصة بعدما أثير من أقاويل .. "
ـ " حقا ، فالمعيب أو المذنب يحرص فى هذه الحالة على المداراة بالهروب أو تغطية الأمر بالمهادنة ! " .

ـ " تماما ! والأمر كذلك بالنسبة لى ، ولو كان هناك غضاضة كما يظنون لما استقبلتك فى بيتى هنا مرة أخرى . وفى هذا الموقف الذى يمسّ الكرامَة والكبرياء لابد من التحدى بالعقل لا بالضرب أو العراك ياعم حسان ، فلا نريد التورطَ فى مشاكل بأسلوب الصدام أو العنف .. " .

ـ " معكِ حق ! " .

ـ " عندما قلت له سيدخل الاستاذ حسان شقتى مرة ومرات تخاذل ومالَ إلى الاعتذار .. " .

ـ " الرجل يجابه الرجلَ فى هذا الموقف الصعب بفوران الدم . لكنكِ .. " .

ـ " لكنى أعرف أن بينى وبينه ـ كسيدة ـ حواجز تتيح لى فرصةً للتفكير والتدبر وترد له الصوابَ فى عقله وشكْم لسانه .. معك حق ، فعندما انفردت بنفسى فكرت فى الأمر مليًا وقررتُ أن من الحكمة ألا أنزل اليكَ اليوم فى دكانك . فقد يَفهم من هذا أننى أتحجج لمقابلتك بكونى زبونة عندك ، وهذا أسلوب العاجز غير المواثق من نقاء نفسه ، بل هذا كفيل بتأكيد شكوكهم . أن التماس أى تبرير أو أية ذريعة إنما يفاقم من ظنونهم ويتيح لكل بهلوان سيء النيّة أن يلعب على حبال الأكاذيب والشائعات ! لذلك عقدتُ العزمَ على أن أدعوك عندى اليوم ، أن تصعد أنتَ تحت أبصار الجميع وعلى مسامعهم إلى شقتى ، إلى هذا المكان الطاهر الذى لن يستطيع أن يدنسه الناس الرذال بألسنتهم ! .. " .

ـ " وبهذا التصرف الحكيم يرد اعتباره ، ونرد نحن اعتبارنا .. " .

وسادهما صمتٌ مريح ، ونظر إليها فرآها رؤية جديدة صافية واضحة كالشمس دافئة . زايلته غشاوتُه النّدية بعرق الخجل . طالعه وجهُها البَدْرى وقد أضاءته ابتسامةٌ عذبة غمرتْ وجنتيها الخوخيتين . فقال لها :

ـ " لى صديق ، قال لى كلمة حكمة : (كل ما يكدرك اليوم سرعان ما يصبح غداً نسيًا منسيًا .) وكم كدرنى هذا الموضوع . ولكنك اليوم حسمته حسمًا بذكاء قلبك الطاهر .. " .

ـ " أشكرك . يرجع الفضل اليكَ بلاشك لانك استجبتَ لدعوتى وضربتَ بكل الأقاويل عرض الحائط . أنا كتبتُ لك كلمتين على ورقة ، وليست العبرة بالكلمات العبرة بالعمل الشجاع فى صميم المحنة ! " .

ـ " والعمل لا قيمة له إن لم يقم على الفكرة السديدة .. " .

ـ " إذن ، أنا فكرتُ وأنتَ نفـدتَ ، وسـتـرى كـيف يخـرس الصـوابُ الألسنةَ الطويلة ! . " .

ـ " ولكن ياست هناء .. ؟ ! " .

ـ " أراك تريد أن تفصح عن أمر ؟! قُلْ ما عندك ... " .

ـ " نعم ، أن لنا أن نحدد موعـداً لعقد قراننا . هذا هو العمل الذى يعالج كل مشاكلنا . قلت أنت لـ " سيد عليان " : هو زوجى غداً . وليس مصادفة والله اننى أنا أيضًا نطقتُ بنفس هذه الكلمة فى أثناء كلامى معه أمس . فما رأيك أن نعقد قراننا خلال الاسبوع القادم ! . كنتُ أود أن أفاتحك بصراحة فى هذه المسألة منذ مدة . وستنتهى بعد يومين أو ثلاثة عمليات التجديد فى شقتى .. فى شقتنا .. لم يبقَ إلا أن تختارى حسب ذوقك الخاص ما يعجبك من أثاث جديد لثلاث حجرات . وليس أفضل من البساطة و ... " .

ـ " عم حسان ! اسمح لى أن أقول لك كلمة ولا تزعل منى .. " .

ـ " تفضلى .... " .

ـ " أقولها لك بصراحة لو تَمَّ هذا الأمر قبل موعد الذكرى السنوية الأولى على رحيل المرحوم لأفسد أهلُ زوجى حياتى .. " .

ـ " كيف يا ست هناء ؟! " .

ـ " أنا أدرى بنفوسهم منكَ ! اصبر .. بعد شهر نتدبر كلَّ أمورنا بالروية لم تروضنى تجارب حياتى الأليمة كما روضتنى على الصبر . !

ـ " الصبر جميل يا ست هناء .. " .

وصمت لحظات ، ثم قال :

ـ " لم يعد بكِ خوف من المكوث هنا وحدك ، وهذا تغيّر طيب مريح ! " .

فرمقته بنظرة فاحصة وقالت :

ـ " لا مفر من هذا . وأروض نفسى الآن على معالجة مخاوفى التى لا أخفى عليك أنها لم تزايلنى بعد ! " .

ـ " إذن ، لنتدبر الآن مسألة لقائنا ، أين ومتى ، لكى نتحدث وننظم شئوننا فى الأيام القادمة ! "

ـ " كما نحن . أنزلُ اليكَ وتصعد إليَّ . دَعِ الحياةَ تسير فى مجراها العادى . لنتقابل فى دكانك وفى شقتى وخارج الحى . وفى أى وقت ! " .

ـ " كلام طيب ... ولكن .. " .

ـ " ولكن ماذا يا حسان ؟! " .

ونظر إليها بعينين مغرورقتين بدمع الفرح ، وظل صامتًا ثوانى ، غائبا فى نشوة بهجة غامرة ، إذا سمعها لأول مرة تنطق اسمه بلا كلفة .. ثم قال متشجعا :

ـ " هناء ؟! " .

هزّتْ رأسها هزّة طفلية رائعة . ولمع شعرها الأصهب يتوهج ، وابتسامتها الملائكية تدعوه إلى الكلام ، فدسَّ يدَه فى جيب معطفه الداخلى وأخرج عُلبة صغيرة أنيقة وقدمها لها قائلا :

ـ " أرجو أن تقبلى منى هدية متواضعة ! " .

فنظرتْ إليه رافعةً حاجبيها مبتسمة ومدّتْ يدها الجميلة وتناولتها برقة وخجل قائلة :

ـ " مقبولة . أشكرك من قلبى " .

وفتحتها ، فاذا بخاتم ذهبي صغير ذي فصٍّ من العقيق يبرق فوق بطانة مخملية سماوية اللون داخل العلبة . كررت كلمات الشكر . فقال بصوت هامس وبرجاء :

ـ " هناء ؟! ... لنتقابل فى أي مكان .. ولكن .. ليس هنا بمفردنا ! " .

فتريثتْ لحظة قبل أن تقول له وهى تنظر فى عينيه نظرة طويلة عميقة :

ـ " ليكن ما تريد ! " .

ونهض فقامتْ . وغادرا الحجرةَ . واتجه صوب الباب الخارجي ، ومدَّ يده فى رقة مصافحا ، وهو يقول مطرقًا فى حياء :

ـ " انني سعيد ... " .

.... وهبط الدرج وكأنه طائر يحلق . كأنه فرخ جديد يطير بنجاح لأول مرة .. !

الفصل الثالث والخمسون

الطائر الخزافى المحترق

فى المساء ، التقى حسان بوصفى داخل المقهى حسب الميعاد . كان موقع المقهى على بُعد خمسين متراً تقريبا من ترعة " المحمودية " . وكان هذا الجو عاصفا قارس البرد . جلسا إلى مائدة صغيرة ، لائذين بركن بعيد عن الزبائن وضجيجهم ، يرتدى كل منهما معطفه مرفوع الياقة قال " وصفى " :

ـ " لا أخفى عنك اننى تخوفتُ ألا تحضر الليلة بسبب سوء الأحوال الجوية .

ولكن؛ من الرجال الذين لا يخلفون موعداً . كم أنا سعيد بصحبتك .. " .

ـ " شكرا يا أستاذ وصفى ! "

ـ " وكيف أحوالك ؟ .

ـ " عال . الحمد لله . وأنت ؟ " .

ـ " لست على ما يرام ، والاسباب كثيرة . ومَنْ منا السعيد فى هذا الزمن يا أستاذ حسان ؟ " .

وبعد برهة من الصمت ، سأل حسان :

ـ " هيه ! ما آخر كتاب قرأته ؟ "

ـ " لا أقرأ . أنا مشغول ببعض المهام . لكن آخر كتاب قرأته منذ فترة كان فى الشعر الصوفى ! "

ـ " وما رأيك فى التصوف ؟ ! " .

ـ " ينوّ القلبَ ويقربك من الله . " .

ـ " ألا ترى أن المتصوف بعزلته عن الحياة لا يشارك فى إصلاح حياة الناس ؟! " .

ـ " مَنْ قال هذا ؟! "

ـ " المتصوف مشغول بصفاء روحه وهموم قلبه وبمصيره وجده في الآخر{ . " .

ـ " غاية سامية ، لو سعى اليها كُل إنسان لصفتْ قلوب الناس من كل كدر ، وخَلَتِ الدنيا من الطمع والشر والدنايا . ؛

ـ " هل ينعم المتصوف بدوام الصحة والعافية والسعادة ؟ " .

ـ " ينعم اللهُ على المتصوف بنِعَم كثيرة وعطايا عظيمة فى الدنيا والآخرة . "

ـ " شُغْله الشاغل أن يفوز بالجنّة . ولكن كل فرد منا مسئول مسئولية خطيرة عن عالمنا المضطرب فى عصرنا هذا ، لأنه جزء من كل . فهو مسئول عن الأسرة الإنسانية جمعاء . أما المتصوف فينشد غايةً فردية شخصية . " .

ـ أأنت تتحدث عن استغلال الفرد من أجل الكل ؟! ولكن ، ما رأيك أن مذهبك هذا لا يحقق أى نفع للفرد ولا يجدى الجماعة بما يساوى بصلة !

ابتسم وصفى ، وقال :

ـ " أولا ليس هذا مذهبى ، وملعونة كل المذاهب يا أستاذ حسان ! " .

ـ " هل تحلم يا أستاذ وصفى بدولة عالمة أو بأمة إنسانية ؟ احلم كما تشاء ، لكن كم فى الأحلام من شطط وأوهام .. " .

ـ " لو كنت قادرا على الحلم لكان لى فى الحياة بعض العزاء . أصارحك أن القلب قد فرغ من كل حلم . ولكنك بالطبع لا تنبذ الأحلام ، فالصوفى يحلم بالوصول .. يحلم بالقرب من الله ودخول الجنة .. " .

ـ " التصوف ليس حُلما . أنه عمل وجهاد ! وجهاد المتصوف هو الجهاد الأكبر .. " .

ـ " فى سبيل ؟! " .

ـ " فى سبيل الله .. " .

ـ " من أجل .. ؟ ! " .

ـ " من أجل إصلاح شأنه فى دنياه ورضى الله عنه . " .

ـ " ليكسب دنياه ويفوز بالجنة فى الآخرة .. " .

ـ " لوجه الله ، وليس أسمى من هذه الغاية غاية أخرى .. " .

ـ " إيمانك يمنحك التوازنَ والراحَة .. " .

ـ " الحمد لله .. " .

ـ " لكن ، قَلْ لى يا أستاذ حسان ؟! "

ـ " نعم . "

ـ " لكل إنسان غاية فى الحياة . أتسمح لى أن أسألك ، ما هى غايتك أنت ؟! "

ـ " لست متصوفًا يا أستاذ وصفى . وليتنى مَمَنْ يمنَ اللهُ عليهم بالسكينة وطمأنينة القلب .

أنا لا أدّعى الحظوة ، ولستُ ممن اكتسب مقامًا صوفيا .

أنا من أهل الأحوال . إنسان عادى بسيط ينشد حياةً مستقرة برضَى الله جلَّ شأنه .. " .

ـ " أنت إنسان طيب وقلبك كبير . أدركتُ هذا منَ الوهلة الأولى ، فسعيتُ لصداقتك .

وهذا شرف عظيم لى .. "

ـ " استغفر الله .. "

ـ " فى المقابلة السابقة تعارفنا . واليوم نتفاهم . يفتح كل منا قلبه للآخر ، أؤكد لك أننا سنصير صديقيْن حميمين على مرّ الأيام ، وسيحب كُل منا الآخر حبَّ الأصدقاء الأوفياء . " .

ـ " كل الأخيار أخوة . " .

ـ " أصارحك يا أستاذ حسان ، أننى إنسان بائس لأننى أصبحتُ بلا غاية ! " .

ـ " لابد أن تكون لك غاية . " .

ـ " كنت واضح الوسائل والغايات . كنت متوازن النفس ، واثق ، راسخ الايمان بمبادئ . كنت أفكر بوضوح وصفاء وبمنطق سليم وأعمل بحماس عقلانى .

كنتُ " أنا القضية " ! أتفهمنى يا أستاذ حسان ؟! " .

- " بعض الفهم . . " .

- " من يدافع عن قضية ، من المحتمل أن يتخلى عنها تحت ضغط متغيرات معينة أو ظرف ما . ولكنى كنت مؤمنًا إيمانًا راسخا إننى : أنا القضية .

وكم من ثوار كانوا يدافعون عن قضيتهم وسرعان ما يتخلوا عنها أو خانوها .

ـ " وما قضيتك يا أستاذ وصفى ؟ ! "

ـ " الفارق خطير بين أن " أدافع عن القضية " وبين " أنا القضية " .. أنا القضية أينما وكيفما كنت ، فقيرا أو غنيا ، طليقا أو معتقلا ، فى السلطة أو خارجها .

أتسألنى ما هى قضيتى ؟ من أنا ؟ أقول ببساطة : العمل من أجل خير الإنسانية جمعاء . وكنت أتصور أننى لو شُنقت يوما فسأستمر حيًا مكافحا لا أموت! بالطبع أنا كفرد سأموت يومًا . ولكن لأننى « أنا القضية » فلن تموت القضية أبدا . وهذه هى الثورة الأبدية !

هل ترانى أنطق بكلام متبلبل ؟ !

- إذا كانت الثورة التى تعنيها أبدية ، فمتى إذن تتحقق غايتها ؟ متى إذن يتحقق الخير والعدل والمساواه للإنسانية جمعاء ياأستاذ وصفى ؟

- ليس الكمال على هذه الأرض ، فمن الصفات الجوهرية للحياة : النقص والفساد ولكن الثورة الأبدية تعنى استمرار التقدم والتغير الجذرى نحو الكمال ، وإن كنا لن نبلغ الكمال يوما ..

- هذا حلم الواهمين .

- " بل مصيبة المثاليين ، وكنت أظن أننى أشد الناس واقعية وأقربهم إلى حقائق الحياة ، لكن ما أبعدنى عن كل واقع وحقائق التغير سواء فى الماضى أو الحاضر ! "

- وبعد يا أستاذ وصفى ؟ .

- " صدمتُ صدمات فاجعة ، لم أفق منها إلا على كابوس رهيب ، فرأيت نفسى طائرا خرافيا بلا هوية ولا غاية ولا وسيلة . سقط عنى كل ريشى على أرض ولم أحلق فى سماء . وجدت نفسى معلقا فى عين شمس حارقة ، أتعذب فى بؤس . شمسى سوداء بلا وهج خارج الزمن والتاريخ . شمس أغشت بصرى وبصيرتى ، فلم أعد أرى إلا الظلام يحيف بى من كل جانب وما من بصيص يلوح . .

- " وكيف حدث ذلك هذا الانقلاب ؟ "

- " هذا الضياع . هذا المصير المؤسى ، له حكاية طويلة قد تستغرق منا جلسات أخرى . » . رق له قلب حسان ، فقطب وقال مشفقا :

- إذا كنت تنشد صداقتى ، فاسلك سبيل الله .

- لما رأيتك قلت لنفسى : (هذا إنسان هانىء البال . لعل صحبته تنقذك من الضلال .) . . " .

– " الله يهدى من يشاء . تقابلنا مرة على حصير المسجد ، وصلينا سويا الجمعة فهل أنت تواظب على الصلاة ؟ !

– " أؤمن بالله وأرجو أن تحثنى دائما على الاستمرار فى الصلاة ! " .

– الحمد لله . ولكن الكسل من كيد الشيطان . اذكر ربك على الدوام وسوف يزايلك شقاؤك هذا . هذه أحوال ليست غريبة على الإنسان . فلا تبتئسها ودع الملك للمالك ، فليس أرحم بالعباد من الله سبحانه ، وهو أرحم الراحمين . . ! .

وصمت حسان ونظر في وجه وصفى نظرة طويلة ، ثم قال له بصوت رقق :

ـ " أنتَ إنسان طيب . صريح شجاع فى مواجهة نقائصك ، فعليك أن تجاهد هوى النفس . وأنى أكبرت فيك نفسك اللوامة يوم هرعت من ورائى عقب صلاة الجمعة نادمًا على ما فعلت مستغفراً ربك طالبا صفحها ... حاسب نفسك دائما ، فالتائب من الذنب كمَنْ لا ذنب له ! " .

وسادهما الصمتُ فترة ، ثم قطعه وصفى قائلا :

ـ " يسعدنى أن ألتقى بك كثيرا وزود أن تزورنى يوما فى بيتى ، فليس المقهى بمكان أفضل من البيت . على أى حال ، دعنى أدعو نفسى الى بيتك حيث يكون لقاؤنا القادم ! "

ـ " على الرحب والسعة يا أستاذ وصفى ، ولكنى أصارحك أن شقتى ليست مهيأة هذه الأيام للقاء ، إذ تجرى بها بعض التجديدات ورائحة الدهان ستضايقك ! " .

تكلف وصفى الابتسام رافعا حاجبيه الكثيفين متسائلا :

ـ " أراك تعد العدّة للزواج فيما يبدو ؟! " .

ـ " نعم .. "

ـ " متى يكون يوم زفافك ؟ ألا يجوز أن أدعو نفسى أيضا للتشرف بحضور

حفل زفاف صديق ؟! " .

ـ " لن يكون زفافا بالمعنى المعروف . سأكتفي بعقد القران . وفى نفس ليلة العقد تنتقل العروسُ إلى شقتى بلا ضجة ولا زفاف . "

ـ " لماذا لا تفرح قلبك بحفل زفاف صداع ، كما يفعل الناس ؟! "

ـ " السن لا تسمح بهذا ولا الظروف ! " .

ـ " سنّ مَنْ ؟ العريس ؟! طبعًا أنت ما تزال فى عزّ الشباب . العروس ؟! ليس معقولا أن تتزوج بمَنْ هى أكبر منك سنًا . فما هى الظروف التى تحول دون الفرح ؟! " .

ـ " ظروف خاصة ! "

ـ " هل حددتَ ليلة عقد القران ؟! "

ـ " لا . " .

ـ " متى بالتقريب ؟! . "

ـ " بعد شهر على الأكثر .. ومَدَّ حسان علبةَ سجائره لوصفى الذى سحب منها سيجارة . وانحنى حسان ليشعلها له بقداحته ، فلاحظ وصفى أصابع حسان وقد ابتلتْ بالعرق ودبّت فيها رجفة خفيفة وطفق يدخنان ويحتسيان القهوة . وفجأة قال وصفى :

ـ " إذا دعوتك لحضور الذكرى السنوية الأولى لوفاة شقيقى ، هل تتكرم مشكوراً بالحضور يا أستاذ حسان ؟ "

فقال حسان بلا وعى

ـ " عِشْ وتذكر . والبقاء لله وحده . فسأله وصفي بعد لحظة صمت :

ـ " لكنك لم تسألنى متى ؟

ـ " متى ؟! "

ـ " بعد شهر على الأكثر ! " ونفث دخان سيجارته وأكمل :

ـ " أقصد فى الثالث من أبريل القادم .. وضح لحسان الآن ما رمى إليه وصفى وتاه الجواب اللائق فى غمار انفعاله وتشوشه وجيشان قلبه ، فقال وصفى بتؤدة :

ـ " هل تتكرم بالحضور يا أستاذ حسان ؟ ! " .

فلم يجد بدا من القول :

ـ " بإذن الله تعالى ... " .

ـ " سأعرفك بالبيت طبعا قبل ذلك الميعاد .. " . لم يعقب حسان ، إذا ضاعف من كدره المفاجئ أنه انزلق الى وعد لا يعرف أصدائه أو عواقبة . وشعر بدمه يجرى فى بدنه ساخنا حتى بلغ بخاره الحار جلده ، وانتابه حصار الصمت الثقيل . وشرد ذهنه وأدرك أنه لم يفلت من آثار حالته الآخذى فى التدهور الا بالبوح بما فى قلبه من كلام مكتوم . قال فجأة وهو يحملق فى ندبة وصفى وكأن الجرح القديم فى حاجبه الأيسر ينفتح وينشق ويتسع نازفا :

ـ " اسمع يا أستاذ وصفى ! " .

ولحظ حسان أن عينى وصفى ثابتتان تتفرسان فى وجهه وكأنه فى حالة ترقب وانتظار للإفصاح عن كلام متوقع :

ـ " اسمع ! أنت تعرف من التى سأتزوجها ؟... أمس تعارفنا . واليوم نتفاهم . ولا يتفاهم إلا الأصدقاء . رحبت بك صديقا ، فكن الصديق الوفى على الدوام ... "

ـ " صديقان حميمان وفيان على الدوام . " .

ـ " نعم ، بعد شهر على الأكثر سأتزوجها ! . " .

ـ " الصداقة عهد صادق ووفاء إلى الأبد ...."

ـ " لا شك فى هذا .. " .

ـ " إذا دعنى أصدقك القول صديقا وفيا .. " .

ـ " قل ما عندك .. "

ـ " إياك والغضب ! "

ـ " كلام الصديق الصادق الوفى لا يغضب . " .

ـ " ولو بدا فى ظاهر الأمر ، غير مقبول ؟! ".

ـ " قل ما فى الظاهر وما فى الباطن .. "

ـ " وأنت ممن يحبون الحقيقة ويحترمونها .. " .

ـ " قل ما عندك .. " .

ـ " مهما تكن الحقيقة قاسية ؟! .

ـ " قسوة الحقيقة عندى أفضل من نعومة الخداع ! " .

ـ " عظيم .. " .

وجذب وصفي من سيجارته نفسا عميقا ، ثم نفث فى زفرة بطيئة سحائب من الدخان ، تصاعدت فى فضاء الركن القصى بالمقهى فى التواء وكأنها جلود ثعابين رقيقة !

الفصل الرابع والخمسون

السؤال الأخير

- « أستاذ حسان ! اذا نطق لساني بكلمة الفلسفة ، أرجو ألا تتعجل الحكم على كلامي باللغو أو السفسطة . تقبّل منهجي بروحك السمحة ، واذا لم ترق لكَ طريقتي في الكلام فلكَ الحرية كل الحرية في النقد .. »

- « إني أسمعك .. »

- « كان مبدأ تعارفنا أن يتحدث كلٌ منا عن شخصه ، أما تفاهمنا من الآن فصاعداً ، فيسمح لنا بالكلام عن أطراف آخرين غير شخصي وشخصك ، ولكن بطريقة منطقية أرجو أن نتفق عليها منذ البدء . واني أتصور أن تفاهمنا الليلة يطرح تساؤلات . فهل تسمح لي أن أبدأ بطرح تساؤل ؟ » .

- « تفضل .. » .

- « كيف نعرف حقيقةً ما ؟ قلتَ لي في لقانا السابق ، انني مولع بالفلسفة . والفلسفة عندي تنظم تفكيري وأفكاري . أما مجالات إهتمامي فكثيرة ، وكانت على رأسها بالدهشة وطرح السؤال ؟ فدعنا اذن لا نبحث في لقائنا الليلة ، وهو لقاء تفاهمنا الأول ، عن جواب لأي سؤال .

اتفقنا ؟ ! .

- « غير واضح تماما ما تقول ، فأنت مولع أيضًا بالقيود ! » .

- « سأوضح . ليست هذه قيوداً ولكني في الحقيقة أصبحتُ مشتت الذهن موزّع النفس، وهذه طريقة تساعدني على تنظيم تفكيري. خُذْني على قَدر عقلي ! » .

- « عفوا ... » .

- « أتحدث معك بالطبع كصديق مخلص وسأفترض الآن أنني في موقفك . سألتنيَ في لقائنا السابق في بيتك ما إذا كنتُ أعتزم الزواج ، فدَعْني الآن أؤكد لك جوابي. إنني لو رأيتُ يومًا نفسي مشنوقًا لكان ذلك أهون عليَّ من أن أرى نفسي

متزوجًا . لست أدري فيم كنت أريد أن أتحدث بالضبط .. انني مشتت العقل فعلاً .. أقول : لا أتصوّر أنَ يقوم زواجُ ناجح على الاطلاق ... أقصد لا يقوم إلا على الصدق والصراحة والإيثار . تمام ؟ ! »

- « تمام ! .. » .

- « ولا يجوز أن أخفى عنها أمراً ولا أن تخفى عنى أمراً مضبوط ؟ » .

- « مضبوط ! » .

- « لسنا اثنين تحت سقف واحد ، فكل منا يتوحد فى الآخر ، فاذا بنا فى عشّ واحد شخصاً واحداً . أليس هذا هو الزواج الناجح والأمثل ؟ ! .

- « هو هذا ! .

- « إذن واحد + واحد = واحد ! .

أتذكر معنى هذه المعادلة الذى استنجته أنتَ مما طرحتهُ عليك فى لقائنا السابق ورميتَنى باللغو والسفسطة ؟ وأنت لا شك كنتَ معذورا ، فلم يكن منطقى آنذاك واضح المحتوى .. »

- « وليس واضحاً تماما حتى الآن » .

- « أوضح الآن بطريقتى ، بطرح تساؤلاتى .ليس للحقيقة وجه واحد . للحقيقة وجوه كثيرة . » .

- « كيف أفهم هذا ؟ ! .

- « صبراً يا أستاذ حسان . للحقيقة ألوان عديدة ومتدرجة ، وأختار منها معك الآن لونيْن : الأسود والأبيض . الصديق المخلص من يعين صديقَه وقت الشدة . والغُمّة تلد الهّمة . ولو كان الأمر بالنسبة اليَّ خلاف هذا ، فأنا بلاغُمَّة ولا هَمة . محنتى خور الروح وخواء القلب وانهيار كل شيء فى ناظرى . وأنت صديق نبيل القلب ، وأحتاج اليكَ كما تحتاج اليَّ ، لكن غونك لى فى محنتى أكثر نبلاً من عونى لك .

بالمناسبة يا أستاذ حسان ، هل قرأتَ كتاب « أم القرى » لعبد الرحمن الكواكبى ؟ .

- " لا ! .. " .

- " انه يهمك كمسلم ! وله كتاب صغير آخر اسمه « طبائع الاستبداد " يهمنا جميعا .. ! " .

وسكت وصفى هنيهة وهو بادى السهوم ، فقال حسان بقلق :

- " سأقرأهما يوماً .. أكمل كلامك ! .

- " أوه إكم يسرح ذهنى ويشتطبى الأمر . يبدو أن الفلسفة لا تجدى معى نفعاً .. آ ... دَعْك من أمرى الان . ماذا كنت أقول ؟ ! .

- " يدور كلأُمك حول حقيقة الصدق والصراحة والايثار بين الزوجين . " .

- " آ .. بالطبع أنتَ تود أن أعطى لكَ فكرة عن حياتها الزوجية السابقة مع المرحوم شقيقى ، فالفهم السليم يسهل التفاهم والتفاهم أساس الهناء ولا أقول السعادة فليس هناك سعادة بين زوجيْن على الاطلاق فيما أرى .. هل حدثتكَ هى عن حياتها الزوجية السابقة بما فيه الكفاية ؟ ! .

- " بصراحة لم تسنح الفرصة بعد ! " .

-" آ .. أقول : أن السعادة الزوجية فى رأيى معضلة . أمر مستحيل فى زمننا ، بل فى كل زمن ! وهى لم تكن سعيدة مع المرحوم شقيقى . لماذا ؟ هذا سؤال .

- " لماذا يا أستاذ وصفى ؟ ! : .

- " اتفقنا ألا نبحث الآن عن جواب لأى سؤال .. " .

- " لا . لم أتفق معك على هذا . "

- " خُذْنى على قَدر عقلى ! واذا لم نتفق لن يتسير لى الكلام ! " .

وسكت وصفى مطرقا ، فقال له حسان :

- " إذن تكلم ! " .

- " إذن اتفقنا ! " .

- " اتفقنا ! " .

- " الإنسان متناقض متلون متعدد الأهواء . متضارب الدوافع . كثير الوسائل والغايات . وأن كنت أنا قد أصبحت بلا هدف ولا غاية ولكنى صرتُ

مستثنيً من هذه القاعدة .. آ ... دَعْك مني .. ولكن الأمر كان كذلك بالنسبة اليهما . أقصد لم يكن بينهما إتفاق أو تفاهم أو توافق ، ولا عجب أن طبع كلٍّ منهما ناري . أما أنا فمن الطبع الناري والهوائي والمائي والطيني بعيد عنكَ ! .. سؤال ؟ ! " .

- " ما هو ! " .

- " لماذا كانت حياتُهما جحيمًا لا يُطاق ، مع تشابه طبع كلٍّ منهما ، الناري ؟! ، .

وسؤال آخر : هل جمال الزوجة وحده كافٍ لزوج ينشد الهناء ؟ ! " .

- " الجمال والكمال معًا ! " .

- " دَعْك من الجواب ، خُذْ سؤالا آخر . "

- " هيه ! " .

- " هُدْنة دقائق - إشرب قهوتك واشعل سيجارتيْن ، ورشف حسانُ قهوتهَ الباردة ، وقال :

- " أتسمح لي أن أسألك بدوري ، ثم نعود إلى أسئلتك وحديثك ؟ " .

- " أسئلة بلا أجوبة ! .

- " أما تزال تصرّ على أنْ تلزمني بمنطقك الصارم هذا ! ؟ " .

- " خُذْ سؤالاً آخر .. وقد اتفقنا .. " .

- " اتفقنا أن تطرح أنتَ أسئلتك بشرط أن تجيب عليها بعد ذلك . " .

فتراجع وصفي برأسه إلى الوراء قليلاً مستغرقًا في الضحك ، ثم قال :

- " صديق ذكي القلب والعقل إذن ، ألزمتني أنتَ بأن أقدم الاجوبة في لقاءاتنا القادمة .

ولكني أطرح السؤال لتتفكر فيه أنتَ ولتجيب عنه بنفسك ولنفسك ! " .

- " ألا ترى أن الجواب لا يهمني وحدي ؟ ! ألسنا صديقيْن ، ما يهمني يهمك ؟ ! " .

- " تمام ! غلبتني يا صديق ! هات ما عندك . " .

- " ما هو دافعك الحقيقى لمداهمتك لها ، لمحاولتك أقتحام شقتها وكَسْر زجاج بابها فى منتصف الليل ! ؟ " .

- " سؤال بسؤال . اتسمح ؟ ما هو جوابها هى - أولاً - على نفس هذا السؤال ؟ ! " .

- " هوى نفسك الامارة بالسوء ! فما جوابك أنتَ .. " .

- " أرجو أن تعرف الجوابَ بنفسك فيما بعد ! " .

- " لماذا تراقبها ؟ لماذا تتسقط أخبارنا ؟ ! .

- " أولا : لمصلحتك كصديق طيب يقدم على الزواج منها ! " .

- " وثانيا ؟ ! ".

- " لأكشف عن حقيقة ! " .

- " ما هى ؟ " .

- " لم أتيقن بعد حتى أفصح . وأنا لا أتكلم فى أمر إلا إذا تيقنتُ منه . " .

- " وعدتَ ألا تريها وجهك ، فهل أنتَ عند وعدك هذا ؟ " .

- " اذا وعدتُ وفيّتُ ، لا شك فى هذا . "

- " ومتى تكفّ عن مراقبتها وتتبع أخبارنا ؟ " .

- " فى اللحظة التى يتم فيها التوقيع على عقد قرانك ! " .

- " أسمح لى يا أستاذ وصفى أن أسدى إليك النُصح ؟ " .

- " بأن .. تكفّ عن مراقبتها . ليس من حقك " .

- ؛ هل تقصد : ليس من حقى أن أكون متطفلاً أو دخيلاً ؟ ؛ أليس كذلك ؟ ! " .

- " اذا كان الأمر يتعلق بمصلحتى ، فأن زواجى منها إنما هو من شئونى الخاصة يا أستاذ وصفى ، فلا يجوز . " .

- " بالطبع لا يجوز إذا كان الأمر يقف عند هذا الحدّ ، بل يكون من حقك أن تصفعنى وتبصق فى وجهى وتؤدّبنى ، ويكون من حقها أن تلجأ إلى البوليس وتردعنى قانونياً ، ولكنى أقول لك أن الأمر يتعلق بما هو أبعد من هذا ! " .

- " كلامك متناقض يا أستاذ وصفى . أأنتَ تريد أن تكشف عن حقيقة لم

تتيقن منها بعد ؟ ! فكيف يجوز لكَ إذن أن تسميها حقيقة ؟ وفى أى اتجاه يجرى كشفك عنها ؟ ! " .

– " التناقض طبيعة فى العقل . يجوز أننى متناقض . ولكن تناقضى لن يعوقنى عن التحقق . " .

– " ما هذا الذى تريد أن تحققه يا أستاذ وصفى ؟ " .

– " التحقق من حقيقة ! " .

– " التحقق من حقيقة ؟ إسمح لى أن أقول لك أن تفكيرك ليس سليمًا فى هذه المسألة ! " .

– " ومن منا فى كل لحظة ، يكون تفكيُره سليمًا مائة فى المائة ، ربما تعب عقلى واسترخى منطقى . هذا ما أشعر به الآن بالفعل ، فلم نعد نتفاهم بطريقة الاكتفاء بطرح الأسئلة . أرأيتَ ؟ أنتَ السبب ، تعجلنا الوصولَ إلى الأجوبة فلم نصل إلى شىء ! " .

– " أرأيتَ أنت أن الفلسفةَ لم تنفعك فى تنظيم تفكيرك ! " .

– " العيب عيبى وليس عيب الفلسفة أو المنطق . أنا إنسان مجهد ، روحى قلقة ، هائم ، مؤرق الضمير . وربما خَوَى قلبى من كل هذا .. أننى أدرك أحيانًا أننى لا أشعر بأى شعور .. وأتعبتك معى آسف يا أستاذ حسان .." .

واسترخى وصفى فى كرسيه ، وبَدا عليه القنوط والاعياء وطفق يدخن سيجارته فى هيئة مَنْ استولى عليه يأس قاتل ، ثم رَمى حسان بنظرة تائهة واجمة وقال له :

– " كلامنا هذا كله هراء . آسف . كلامى . كل كلام إنما يدور حول قشرة الحقيقة .. الحقيقة ؟ !

كل أمر هو باطل الأباطيل وقبض ريح . ما هى الحقيقة ؟ وأين هى ؟ أهى ملفوفةُ فى طلاسم ؟ ! دَعْنى من كل هذا .. أنا متعب جداً . ويحسن بنا أن نقوم الآن ! وهَمَّ بالنهوض ، لكن حسان قال له :

– " لنكمل حديثنا .. " .

فنظر إليه وصفى بعينيْن ناعستين محمّرتين ، قائلا :

– " أسف يا أستاذ حسان . ليتنى أستطيع أن أنام وأستريح . ويؤنبنى ضميرى على ما سببتهُ لكَ من متاعب فى حديثى معكَ الليلة .

أشعر بشعور أشبَه بالشعور بالذنب . كل مرادى أن أقدم لكَ عَونى بكل حُسْن النيّة . على أى حال لنا لقاء آخر وآخر ! ." .

وقام ووقف إلى المائدة مطرقًا فى ضجر ، فنهض حسان بدوره قائلا :

– " لا تأسف . يعجبنى فيك أنك صريح فى مواجهة نفسك . ولكنك معى لا تقول شيئًا ذا بال ! " .

وقال وصفى وهما بباب المقهى :

– " أراكَ تعدّ العدة للزواج ، على حين أنغص أنا عليكَ الأمور بلغوٍ وكلام متناقض . وأرجو فى مقابلاتنا القادمة أن يكون تفكيرى أكثر صفاء . " .

– " متى نلتقى يا أستاذ وصفى ؟ ! " .

– " فى أى وقت وفى أى مكان ، إلا فى دكانك طبعا ، أو نلتقى فى مكتبى بالجريدة ، ولكنى اذا ذهبت إلى هناك فلا أمكث طويلا . أنت لا تتصور مدى قَرَفى من عملى ولا تعرف أى جَوٍّ فاسد هناك .

ليكن لقاؤنا القادم فى بيتى . اليكَ بطاقة بها عنوان سكنى ، ليس بعيداً ، ولن تتوه .. " .

وأخرج من حقيبة يده السوداء المربعة بطاقة صغيرة وكتيبًا من القطع المتوسط وقال باعياء :

– " يشرفنى يا صديقى أن تحضر بمنزلى . ڤيلا " صغيرة فى حى" الابراهيمية " تطلّ على البحر .. لنجلس هناك بمفردنا ونتحدث على راحتنا . بالطبع البيت أفضل من المقهى ، كما يسعدنى أن أهدى لك كتيبًا متواضعا من تأليفى . طبعتهُ على نفقتى الخاصة أيام الدراسة فى سنة البكالوريوس ، أيام الشباب والأحلام . هو الكتاب الأول والأخير . أزجال .. شعْر شعبى فأنتَ تحب الشعر . إقراه ولا تحدثنى عنه ، فلا يستحق الرأى أو الكلام ككل شىء فى عالمنا . وأضاف مقهقهًا وهما يسيران فى عرض " شارع العميد " بحى " أمبروزو " :

– " إقراه ثم لفَّ فى أوراقه الجبنَ والزيتون والطُرشى ! " .

- " لم نقل إذن متى يكون لقاؤنا القادم بمنزلك بإذن الله ؟ ! " .

- " الأسبوع القام ، مساء الخميس القادم . " .

- " ليكن الخميس القادم بعد صلاة العشاء بإذن الله . " .

وسارا خطوات ، ثم قال وصفي وهو يمدّ يدَه لحسان مصافحا :

- " تصبح على خير وأنا خائف عليكَ يا صديقي لأني بدأتُ أحبك حب الصديق . خُذ سؤالاً أخيراً قبل أن أذهب : بعد ما غادرتْ هي مسكنَ جارتها التي أعتقل زوجها العامل المدعو " برقوق " ، وبعد ما خرجتْ من زقاق " أمْ غيلان " انطلقت داخل « تاكسى » ألم تَقُل لكَ أين ذهبتْ آنذاك ؟! " .

وانفلتتْ كفُّه ، وأشار بها محييًا وهو يقول :

- " في انتظارك مساء الخميس القادم بمنزلى ! "

ومضى وصفي في سبيله شبحًا هائمًا ، حتى غابَ في ظلام الشارع تاركًا حسان واقفًا وحدَه على الطوار في ذهول .. ! .

الفصل الخامس والخمسون

المشنوق فى سقف الفضاء

كانت مصاريع نوافذها مفتوحة على فضاء أردوازى غائم ، علي حين كان جالسًا داخل دكانه إلى مكتبه ، عاكفًا علي قراءة كتيب الزجل . وبدَتْ عيناه محمرّتين ، ملتهبتيْ الجفون وكان وجهه مكفهراً ، ويدخن سيجارته بعصبية . وقطع عليه بعضُ الزبائن قراءته مرات . لاَحَ (شرنبث) بالباب ، ألقى تحيةَ الصباح إنتحى ركنا بمدخل الباب جلس مقرفصًا . لم يتكلم مكثَ صامتًا عشر دقائق ، ثم سأل حسانَ موليًا له ظهرَه المحدودب ودون أن يدير إليه رأسه :

- " خلاص يا حسان ! " .

ولم يجاويه حسان بكلمة ، فاستطرد شرنبث قائلاً بترنم :

- " خلاص يا حسان ! المرجيحة ! شفت فى منامى أن السقف طار. ومن العار .. يا حسان أن أمدّ يدى لكل جار . شفتك أنت وأنا تحت السماء ، ذراعك بذراعى نزرع القلاع . قلاع المرجيحة يا حسان خلاص بكرة الفرج ، بكرة الهرج والمرج ! " ولم ينبس حسان بكلمة ، فنهض (شرنبث) ، واستدار ودخل الدكانَ واقترب من حسان وأشار اليه بأصابعه أن ينحنى ويد نو برأسه منه . وضع فمَه على أذُن حسان وأسَرَّ فيها بكلمات ثم انصرف . غادر الدكان واختفى ...

ساعة الظهر ، توضأ حسان . أغلق بابهَ الزجاجى ذهب إلى مسجد الحى . أدى صلاةَ الجمعة سمع الخطبة . انفض المصلّون وهناك سمع « الشيخ عبد المقصود » يتحدث إلى نفر قليل يقفون من حوله ، عن وجوب حجاب النساء والبنات وتعميم التحجب . سعى إليه وحيَّاه . ردَّ الشيخُ التحيةَ باقتضاب ، قال له حسان هامسًا :

- " أود أن أتحدث إليك ؟ ! " .

- " فيم تريد أن تتحدث ؟ ! " .

- " فى أمر يخصنّى " . نظر الشيخُ عبد المقصود فى وجهه بعتاب وقال بجفوة

- " ترانى أتحدث مع آخرين فى أمور الدين ، وهذا أهم ! " .

- " إذن آتى إليكَ فى وقت آخر " فلم يرد الشيخُ عبد المقصود عليه بكلمة .

غادر حسان المسجد " .

في ساعة المغرب ، فرغ من قراءة الكتيب الزجلى . دخلتْ « الست جليلة » ألقتْ السلام .

جلست . نطقت بكلام عابر . لم يهتم به حسان . بَدَا هائم الخاطر ، شارد الذهن . سمعها تقول " :

-أرأيتَ يا عم حسان؟أرأيتَ دقة شُغْل الدهّانين . بعد غد ، سينهيان عملَهما . الشقة فُلّ جنة باركَ اللهُ لكما . متى يكون « كتب الكتاب » يا عم حسان ليفرح بكما قلبى ؟ ! .

قال حسان بنبرة لم تخلُ من حدّة غير مقصودة :

– " الله أعلم ! "

لم تمكث " الست جليلة " طويلاً بالدكان . تبادلا كلمات قصيرة ، تركتْ فى نفسها توجساً وكدرا غامضًا .

بعد العشاء دخلت دكانهَ وجلستْ ، لمحتْ الكتيب فوق مكتبه . قرأتْ عنوانه واسم مؤلفه . بَدَتْ مأخوذة قالت مقطبة فى دهشة :

– " أعرف هذا الكتاب . هو كتاب الوَغد . كيف وقع فى يدك ؟ ! .

فقال مطرقًا وقد شعر بنذير الخصام :

– " أهداه لى ! " .

– " أهداه لك ؟ ! هل جاء إليكَ هنا ؟ ! " .

– " تقابلنا بعيداً عن هنا . "

– " كيف حدث هذا اللقاء ؟ " .

– " عندى لكِ كلام . كما لكِ منى عتاب ! " .

فتكلفتْ الابتسام وتمتمتْ بعينين شاردتين وبنبرة ملؤها الدَلّ واللطف ولا تخلو من القلق :

– " لكن ، مَنْ يصادق عدوى ليس حبيبًا ! " .

كاد أن ينطق بكلمة . تريث قليلاً . إذ كان لكلمتها وقع وجرس وطلاوة . ترك كلمتَها تمرح في قلبه حتى يذوق طعمَها الحلو ويستمرأه . صمت لحظات مطرقًا ، ثم سألها :

- " لم أنَمْ طوال ليلة أمس . أرقّنى السهادُ . شارد . تعب . لم أركِ وأنتِ داخلة عليَّ الآن . أريد أن أتحدث إليك . " .

ودخل زبون ، فقطع عليهما سياقَ الحديث . وبعد أن غادر الزبونُ الدكانَ ، رآها واقفة ، فقال لها :

- " أجلسى ، لدى كلام . "

- " من الواضح أن لديك كلامًا هاما . وأنا راجعة الآن من قضاء مشاوير أجهدتْنى . وأود ن أصعد إلى شقتى ، لأغتسل من عفار السوق وأريح جسمى من تعب المشى . " .

- " إذن ، ستنامين ؟ ! .

- " لا . أنا لا أنام فى مثل هذا الوقت المبكر من المساء بالعكس ، سأريح جسمى بالاسترخاء حتى ينشط وأسهر . وأنا فى أنتظارك بعد ساعة . "

- " فى انتظارى ؟ أين ؟ ! .

- " فى شقتى ! "

- " فى شقتك ! ؟ . "

- " نجلس ونتحدث . هنا لا نصفو للحديث ".

- " لكن ؟ ! " .

- " أعرف ما تزال تخشى ألسنة الناس . فمَنْ هؤلاء ؟ ! ومَنْ نحن : ! أنتَ فى الغد القريب زوجى يا حسان . والكل يعرف هذا . لم يبقَ ما نخشاه ولن نقع فى غلط .. " .

وسكتتْ لحظة ، وأجالتْ نظراتها فى وجهه المخطوف ، ثم أضافتْ وهى ترسل إليه ابتسامة عذبة :

- " الواثق لا يخطىء ! ولكن إذا أردتَ أننرجىء الحديث إلى يوم آخر فليكن

– " لا يحتمل الارجاء .. " .

– " إذن ، بعد ساعة . " .

– " أرجوك ! " .

– " صعودك يبطل القيل والقال " .

– " رفقًا ... ! " .

– " الخوف يؤكد الشكَ ويضخم الظنَّ ! " .

– " وسيد عليان : ! و ... " .

– " أطمئن . سيد عليان ليس هنا الليلة ولا فى الأيام القادمة ! " .

– " يبيت فى المستشفى ! "

– " نشب عـراكُ بينه وبين زوجتـه في منتـصف ليلة أمس . رَمى عليـهـا يمينًا بالطلاق ألا يرجع إلى البـيت وينام فـيـه وألا يعطى لهـا مـصروفـا إلا إذا جـاء إليـه أخوها في المستـشفى واعـتذر له عما بدر منه فى حقّ أخيـه وتنازل عن القضـية ضده بمكتب المحامى . " .

– " بين أهله وأهلها نزاع ، فما ذنب زوجته حتى يقاطعها ؟ ! "

– " دافعتْ عن أخيـها وعن أهلها فشـتمهم وضربها وسبَّ الدينَ سمع الجيرانُ صراخَها . رجل مجنون . " .

– " يسب الدينَ ويتشدق بكلام الله ! " .

– " سأصعد أنا الآن .. "

وتناولتْ حقيبتَها السوداء ولفافاتها ، وأضافت متسائلة :

– " إذن ، فى يوم آخر نتحدث ؟ ! .

زمَّ فمَه فى حيرة ، ثم عَضَّ بنابه شفتَه ولم ينبس بكلمة حتى أوشكت أن تنفلت من الباب خارجة ، لكنه قال لها :

– " سأجيء .. بعد ساعة ! "

نظر إلى ساعته على رسغه مرات ، وتابع دوران عقربيها مرات أخرى . انحنى على جردله وغسل رأسَه وجففه نظر إلى وجهه فى مرآة صغيرة مشروخة معلقة فى

ركن من الجدار . وقف شحاذ بباب دكانه ، هرع إليه ودسَّ في يده قرشًا . عاد إلي مكتبه وقرأ في عجلة ويذهن غائب سطورا في كتيب الزجل سمع أخلاطًا من أهازيج وأصوات غامضة تترامى من البُعد في الشارع إلى سمعه المضطرب : " أول ما نبدأ ونستفتح ... الحجر الصوّان ... يهودي أو نصراني أو عربي ... ما ذنبي ... دَعْ الملك للمالك . إضرب الكبير يتعلم الصغير . إبعد عن الشرّ وغَنِ له ... " .

كلماتُ ونبرات غريبة ، تصدر من أكتاف الشارع المعتمة ، ومن أكتاف روحه المرتعشة . وخيّل إليه أن صوت « شرنبث » من بينها ، وأنه سمع بعضها من قبل وتمتم وغمغم وتَلاَ في سرِّه آيات من سورة « يس » ردد دعوات طيبة . استعاذ بالله من الشيطان الرجيم . نظر إلى ساعته . قام . استطلع الطريقَ في الخارج . أطفأ نورَ دكانه أغلق بابيه ، الزجاجي والصاجي . رفع ياقة معطفه بحركة بائسة كاسف الوجه . رمى بطرف خفي نظرات مستريبة في الشارع الموحش الملتوى واتجه مثل جرذ مريض صوب بابها . كان بئر السُلم ملفوفًا في عباءة مظلمة حالكة . رائحة غريبة تقبض روحه خطوة خطوة حتى صعد ، فَبانَ علي مرمى بصره بصيصٌ يتلاطم في موج أسود صاقع . خطوات أخرى إلى فوق ... في نفس اللحظة ، داهمه إحساسٌ كحَزٍّ السكين يشق جلده المقشعر ، شعور أنه لا يصعد ولا يهبط كأنه معلق من رقبته بحبل مشدود في الغور الأصم من سقف الفضاء . تتدلى ساقاه عاريتين متفحمتين يتقطر منهما دمٌ أسود .ساقان تعصف بهما رياحُ سُدُم باردة ، تطوحهما فوق الدنيا النائمة نوم الموت في السفح السحيق المكتوم ... وومضتْ ذرةُ الضوء واتسع البصيصُ وانتشر في عينيه زَغبًا من النور الباهر . لاحتْ له وهو يصعد الدرجات الأخيرة الواقعة عند أسفل بابها المفتوح . نطقتْ بكلمة ترحاب لم تسقط في وعيه دخل . أغلق الباب من خلفه. انساب في خطاه وراءها إلى الداخل .. إلى نفس الحجرة . اقتعد نفس الكرسي . لا مست ركبته نفسُ المائدة الصغيرة ، فوقها طبق من فاكهة « برتقال » . سكين . فوطة صغيرة . كوب ماء سمعها تقول بصوت بعيد :

- " أهلا وسهلا .. "

رفع رأسَه قليلاً ، محمرّ الوجه . قال دون أن ينظر إليها :

- " أهلا بك يا ست هناء .. " .

- " تفضل . كأنك في بيتك ، بل هو بيتك ! " .

وشعر بثقل وجمود ، فقالت :

- " أقشّر لكَ ؟ " .

- " شكرا ... " .

مدَّتْ يدها الرقيقة . سحبتْ السكينَ بأناملها الناعمة نعومةَ المخمل الأبيض النقي المتورد ، وبيسراها التقطتْ برتقالة . ملأ سمعه صوتُها يقول :

- " ماذا أقدم لك ؟ برتقالاً ، شيئًا متواضعًا . كان لا بد من عشاء طيب على الأقل . "

- " لا شكرا . أنا شبعان . " .

دارتْ كفّاها حول البرتقالة ونصل السكين يقشر فيبين من تحت لحاء القشر غشاءُ الفصوص . مضت دقائق ، بين صمت ندى وكلمات عابرة مقتضبة . قدمتْ له الطبقَ وبه ثلاث برتقالات . وقالت :

- " أشاركك . عيش وملح . " .

رفع رأسه نظر إلى وجهها لأول مرة منذ دخل الحجرة التى لم يقع بعد أى ملمح من ملامحها فى بصره الغائب وراء غشاوة الخجل . نظر إلى وجهها وشعرها قائلا :

- " خير وبركة بإذن الله . " .

فجأة ، فتحت بابَ الحديث فى الموضوع ، سألته :

- " كيف لم تنم نومًا مريحا طوال ليلة أمس ، ما الذى أرقّكَ ؟ .

لم يعرف كيف يبدأ الكلام . تنحنح . تَريث لحظة ، ثم قال :

- " قلق فظيع ! " .

- " السبب ؟ ! " .

- " كلام ! " .

- " لديك كلام هام ومرتبط بمقابلتك لوصفى ؟ ! .

- " نعم " .

- " قُلْ لى : كيف التقيتما ؟ وأين ؟ ولماذا ؟ ! .

- " سعى إلىَّ ينشد صداقتى . تواعدنا وتقابلنا فى مقهى قريب من مسكنى . " .

- " متى ؟ " .

- " مساء أمس . " .

- " هيه ! وبعد ؟ ! " .

- " إنسان لا يُخشى جانبه إلى الحدّ الذى تتصورينه ! " .

- " إلى هذا الحدّ أنت حَسِن الظن به ؟ ! " .

- " إنسان وحيد وبائس فى داخله . ينشد صداقتى ، فهل أرفض ذلك ؟ بالطبع لا يليق .. " .

- " ونذالته ؟ هل نسيتَ ؟ ! " .

-"ندم وتاب .وهو عند وعده، لن يريكِ وجهَه.قال : (إذا وعدتُ وفيتُ) .. "

- " وهل تصدقه ؟ ! " .

- " يصدقه قلبى . " .

- " قلبك طيب . لكنى أعرفه خيراً منكَ . عشْنا فى بيت واحد ثلاث سنوات . حتى أخوه ، المرحوم كان يكرهه . وبعد ؟ ... فِيمَ تحدثتما حتى كدّرك هذا النذل ؟ " .

- " تحدثنا فى أمور عامة . رفض فى البدء أن ينبس بكلمة تتعلق بكِ .. " .

- " فى البدء ؟ ! .. لئيم ! ثم مسَّنى بالسوء ؟ ! "

- " لا . لم يمسّك بسوء . كل قاله لى عنكِ ، أنكِ لم تكونى سعيدة مع المرحوم زوجك ، لا تؤاخذيننى . "

- : هيه ! وبعد ؟ أهذا كل ما قاله عنى ؟ ! " .

- " وقال إن طبعك نارى . كما كان طبع المرحوم . " .

- : بمعنى ؟ ! " .

- " يقصد أنك عصبية كما كان المرحوم عصبيا ، ومن هنا كان النقار ! كما

فهمت ... " .

- " أهذا كل ما دار بينكما ؟ " .

- " لن أخرج من عندك إلا وقلتُ لك كل شيء . طبعى الصراحة . " .

- " نعم هذا طبعك " .

- " وهو أيضا صريح ! " .

- " هو ؟ ! هو أكبر كذاب ! "

- " كلامه متضارب ومع ذلك ليس كذابا ؟ ! " - لم أشعر أنه كذاب رغم تضارب كلامه ! " وتضارب كلامه بسبب تعبه وليس بسبب صدقه أو كذبه ! "

- " أنا أعرفه .. أعرفه . أنت لا تعرفه . وبعد ؟ "

- " وعرفَ أننا سنتزوج ؟ ! " .

- " هل عرف هذا حقا ؟ ! "

- " نعم . وأكدتُ له هذا ! .

- خيراً ما فعلتَ ! " .

- قلتُ له : وسيكون عقد قراننا بعد شهر على الأكثر . " .

- " ليكن " .

- " ودعانى لحضور الذكرى السنوية الأولى لوفاة المرحوم ، شقيقه ! " فامتقع وجهُها وقالت :

- " وهل تحضر يا حسان ؟ هل تدخل هذا البيت اللعين الذى خرجتُ أنا منه مهانةً معيَّرة من أمه بالفقر واليُتْم ، منبوذة من أخته الحاقدة ! " .

تحيَّر قلبه فقال :

- " قد اعتذر . "

- " لا بد أن تعتذر ! " .

- " كنت أظن وهو يدعونى أنك قد تحضرين الذكرى السنوية الأولى لوفاة

المرحـوم للوفـاء والواجـب ولكِ بعـد هـذه الـذكـرى الحـرية فـى تصـريف شـئـون حياتك بلا لوم ! " .

- " ليس بالذهاب إلى بيتهم يكون الوفاء أو الواجب . " .

وتشوّش ذهنُه ، ولم يعرف ماذا يقول ، لكنها سألته متجهمة :

- " وماذا قال عنى أيضا ؟ ! " .

فقال بسرعة :

- هذا كل ما قاله عنكِ !

- " ليس معقولا ، فهو كثير الكذب والافتراء ! وما الذى كدَّرك ؟ " .

- " هذا كل ما قاله عنكِ . ويبقى أمر واحد هو الذى أرقَّنى ! " .

- " ما هو ؟ ! " .

- " وَجَّهَ إلىَّ وصفى سؤالا فى آخر لحظة قبل افتراقنا . "

- " ما هو يا حسان ؟ ! . "

- " سألنى سؤالا . أصارحك أننى كنتُ أود أن أسألكِ إياه فى آخر لقاء معكِ هنا ، ولكنى نسيتُه أو تناسيتهُ . " .

- " ما هو هذا السؤال يا حسان ؟ ! " .

- " سـألنى : (أين ذهبتْ الست هناء داخل « تاكسى » عـقب مـغـادرتهـا مسكن « الست جليلة " فى بدء مساء أول أمس .. الأربعاء) ؟ ! .

الفصل السادس والخمسون

أنت أذكى منه

أجفلتْ وتشابكتْ أناملُ يديها فى عصبية ونظرتْ فى عينيه نظرةً ثاقبة عاتبة فأطرق فى حَرج بالغ .

وقالت فى لوم :

– " ألهذا السبب تقول إن لديك عتابًا علىَّ ؟ ! " .

فاندفع يقول دَفعًا لشعوره بالذنب :

– " قلت لى أنك بعد أن غادرتِ مسكن الست جليلة ، جئت إلى مسكنك هنا حيث واجهَكَ سيد عليان بكلامه ، ولم تذكرى لى كلمةً عن مشوارك داخل التاكسى ؟ ! "

– " أولا : مَنْ الذى أخبركَ أننى ركبتُ التاكسى ؟ ! " .

– " لوزة " بنت الست جليلة ! فالأطفال لا يعرفون الكذب يا ست هناء ؟ ! " .

فقالت بذكاء :

– " قُلْ لى يا هناء ... يا حسان ! " فابتسم وقال :

– " هناء ! عهدتُك كالأطفال لا تعرفين الكذب . " فقالتْ بحدة مفاجئة :

– " أنا لم أكذب ! ومَنْ الذى أخبر وصفى ؟ "

– " وأنا لا أقول أنك كذبت . بل أقول أنت لا تكذبين . أقول أخفيت . أما الذى أخبر وصفى فهو أحد جواسيسه المرتزقة . "

– " حتى أنتَ يا حسان .. تظلمنى ! "

– " أقول كتمت عنى أمراً أتعبنى ؟ ! ".

– " لم أكتمه عَمداً ، سهوتُ . "

– " لماذا ؟ ! "

- " لأنه بَدَا لى هَيِّنًا لا يُذكر ! بل لا يذكر إلا فى مناسبته ! ".

- " كيف ؟ ! "

- " سأوضح لكَ الآن ، لكن ماذا دار برأسكَ ؟ بل اسمح لى أن أقول لك :

كيف أدار النذلُ رأسَك بسؤال كهذا ؟ "

-" لم يمَسك بكلمة ، لا سمح الله ، مجرد سؤال ! "

- " هو لئيم خبيث . "

-" كيف ؟ "

- مجرد سؤال ! لكنه أوحى إليكَ بأمور أخرى ! " وسكتت مطرقةً . طفقت تهزّ رأسَها بتأثرٍ ثم أضافت بصوت متهدج :

- " هذا ظُلم ! " آثر حسان الصمتَ إذ لم يجد كلمةً فى رأسه ليردّ بها فى تلك اللحظة . كان وجُهه محمَراً ساخنا . وقالت بعصبية :

- " إذا كنتَ تعاتبنى لأننى سهوتُ عن ذكْر أمرٍ فى غاية التفاهة ، وتتهمنى بأننــى كتمـتـه عنكَ ، فلماذا كتمتَ أنتَ عنى أمرَ مقابلاتك لشخصٍ وقح دنىء كهذا ؟! فهل كانت مقابلتك هذه له ، وجلوسك وحديثك معه ، لأول مرة منذ أن قابلكَ بعد صلاة الجمعة مدعيًا الندم والتوبة عن فعلته الشنعاء ؟! التهب وجه حسان وتندى بحَبات العرق ، وقال متلعثمًا :

- « قابلنى مرة قبل لقائنا أمس .. من باب التعارف بيننا .. »

- تعارف ؟ ! " .

- ولم ينبس أيٌّ منا بكلمة عن أمورنا الخاصة ، وتحدثناً حديثًا عامًا .. عابرا ولم .. ولم أشاء أن أكدرك .. لم أشأ أن أفاتحك بكلمة عن شخص تخافينه خوفًا لامبرر له ! فرددت بانفعال حاد :

- أخافه ؟ ! .. أنا لا أخافه .. لم أعد أخاف منه . فليذهب فى داهية ! ... إسمع .. إسمع ياحسان . إما أنا وإما هو . أنت مخدوع فيه لأنك طيب القلب .

أتعرف مَنْ هو وصفي ؟ ... أهداكَ كتابًا من تأليفه . سعى اليك ينشد صداقتك .. إسمع ! أتعرف ماذا يريد هذا الكلب ؟ ! "

– ماذا يريد ؟ ! "

– أنه يوقع بيننا ياحسان ! "

– خطر ذلك بقلبي في أول لقائي به .. لكن ! ... "

– لكن قلبك لا يخطيء .. قُلْ هذا ... "

– ولأي غرض ؟ ! "

– " لأي غرض ؟ ! أقول لكَ . أسالك أولا : لماذا سعى إليكَ أنتَ بالذات ناشداً صداقتك ؟ ! ألم يخطر ببالك هذا السؤال . لماذا ترك كلٌ الناس في الدنيا من حوله ليسعى إلى حسان الذي يقع دكانه أمام مسكن هناء ؟ لماذا لم ينشد صداقة شخص من مئات الأشخاص من زملائه في الوسط الصحفي ؟ أو في محيط عائلته ؟ ! لماذا لم يذهب إلى أحد أقربائه أو زملاء دراسته أو إلى أحد أصدقائه الذين هجروه ونبذوه لأنه شخص كريه . لماذا أنتَ بالذات ؟ !

– الحقيقة لم يخطر ببالي هذا السؤال على هذا النحو ولكن ..

– أيخطر ببالك السؤال الذي تجيئني به الليلة متوجسا ؟ أهذا كلام معقول يا حسان ؟ !

– " لا لم أقصد . أرجوك .. إسمعي .. أرجوكِ ! . "

– أرجوك يا حسان .. إسمع أنت ! دقيقة من فضلك .. أتعرف لماذا أختارك أنت بالذات زاعمًا أنه ينشد صداقتك ؟ !

– إنه ، إنه يائس .. تَعِب .. ضال .. يائس .. ويشعر بالوحدة القاتلة !" .

– هو بالفعل ضال ومضلِّل .. يائس ؟ ! لماذا هو يائس ؟ !

– لأنه يعيش حياة بلا معنى ولا غاية يقول أنه كان يعيش من أجل قضية ؟ ! .. بل .. »

- " قضية ؟ ! أي قضية ! ؟ .

- " قضيته ، حسب كلامه ، هي حقّه في أن يشارك في بناء وطنه .. قضيته من أجل خير الإنسان . حدثتْ له في حَياته مصائب لم يفصح عنها ، لكنها قلبتْ ميزانَ حياته . "

- " قضية ؟ ! أيليق بمثل هذا الشخص أن يشارك في بناء وطنه ؟ وطنه يتبرأ منه ويرفضه كعضو فاسد ! أهو يتحدث عن الخير ؟ وهل هو إنسان ؟ إنه حيوان متوحش . إنه يجنّ اشتهاء منذ أن وقعتْ عيناه عليَّ ! أتسمي مَنْ يسعى لاغتصابي إنسانًا ؟ ! ولما فشل في هذا يريد الآن أن يتزوجني غصبًا ورغم أنفي ! هذا هو السبب ! سعى إليكَ لأنه عرف أنكَ ستتزوجني . يغار منكَ غيرةً جنونية . خُذْ حذرك منه إنه حيوان خطير شيطان ناعم . يسعى إلى الوقيعة بيننا لهذا دسّ سوالَ الخبيث في قلبك ليثير فيك الشكَ ، فيقع بيننا سوء التفاهم والقطيعة ! "

- " حاشا لله ! "

- " سرُّ سؤاله هذا هو أن يفرق بيننا ليخلو له الجوّ ولينفرد بفريسته ! "

- " لن يحدث هذا .. أبداً .. "

سكتتْ لحظات مطرقةً في تفكر ، ثم قالت فجأة :

- " لا مانع من أن تقابله مرةً أخرى . قابله في المقهى . دَعْكَ من ذهابك إليه في بيته المشئوم ! "

- " ولم لا ؟ إن بيني وبينه ميعاداً في بيته ، فكيف يتسنى لي تعديلَ مكان المقابلة ؟ حددنا الميعاد في بيته ، ليكن في بيته ! هذا لن يضير ! "

- " ليكن ! آه .. ليكن .. قابله لتعرف خبيئة نفسه السوداء .. وستتأكد بنفسك من غرضه . غرضه الوحيد أن يفرقّ بيننا ثم يعبث كما يريد .. أنه لم ييأس مني بعد . ويبدو أنه لن ييأس تمامًا إلا بالقضاء عليه ! " وأمسكتْ عن الكلام لحظه ثم اندفعتْ تقول :

– " لو عاود الكرةَ واقترب مني ، أقسم أنني سأمزق جسدهَ الكريه دفاعًا عن شرفي ! أنت لا تعرفني يا حسان . أنا فعلاً إمراة عصبية عند اللزوم لأنني شريفة .. والموت أهون عليَّ من الإهانة ! "

وأجهشت بالبكاء ، وظل حسان يردد :

– " ماذا جرى لك يا هناء ؟ كيف تبكين ؟ أنا السبب .. أنا السبب ! .. آسف . أنا مثلهم ! سيءَّ الظن . ظلمتك . سامحيني ! "

فقالت وهي تنشج بحرقة :

– " أسكت .. أسكت ! "

– " أنني مظلوم وأظلمك . كيف يحدث هذا ؟ كفى ! .. لا تبكى ! "

– " أنت لم تظلمني . أنت معذور . أنت طيب القلب . "

– كُفيّ عن البكاء .قلبي يتمزق . لا تضاعفي شعوري القاتل بالذنب ! كفى .. كفي .. ؛ وتكورت على حافة سريرها منخرطة في بكاءٍ مرير . وانفطر قلبُه وجاش صدرُه ، إذ رأى جسمها الجميل المستور في قميص بنفسجي طويل حشيم ، ينتفض انتفاضًا ، فهبَّ قائما ، متوتراً مرتبكًا . وربت على كتفها بأصابع مرتعشة متهيبة وهو يردد مشتت الحواس ، سليب الذهن :

– " كفي! كفي! لا تحرقي قلبك وقلبي . ملعون هذا النذل ! أنا مقتنع بكلامك أنا السبب . كفي . أنت مظلومة أنا آسف أرجوكِ . كفي .. كفي ! " فاض عارضُ وجهها المتورد في عينية ، فلم يشعر إلا وهو يمسك ذقنَها بأصابعه ورفع وجهها متصببًا بدموع حارة ، منكوشه الشَعْر ، محتقنة الوجه . مرتعشة الشفتيْن . وأحسن بخوار خفيف يسري في أو صاله ومفاصل ركبتيه وداخل قلبَه رعبُ غريب . تراجع خطوة ثم راح يمسح بمنديله دموعَها . جفف رموشها وخَدّيْها وأنفَسها وذقنها . ولم تكف يسراه عن ربت كتفيها . رأى نفسَه فجأة في مرآة الدولاب جالسًا لصقها على حافة السرير ، وخيّل إليه للحظةٍ خاطفه أنه في حُلم .. في كابوس . هَمَّ أن يقوم

ويخرج مغادراً الحجرة ، ولكنه انتبه وهمس فى باطنه : " هذا لا يليق .. عيب ! "

بعد قليل ، هدأتْ . فجأة ، أخذتْ يدُه بين كفَيها ، فسرَى فى جسمه خدر النشوة ، وقالت منهنهة :

– " ألا تعرف يا حسان أنه شيوعى ! ؟ "

فقال حسان بدهشة :

– " شيوعى ؟ ! "

– " شيوعى . كافر . بلا قلب ! "

فسرح حسان بخاطره لحظة وقال :

– " نعم . أحسستُ أنه غير مؤمن بالله . كاذب ! ملحد ! "

– " إما أنا وإما هو ! كيف تصادق وحشًا ؟ ! .. "

– " أنت . أنت أغلى وأعز إنسان عندى . فَمْن يكون هذا الملحد ؟ " فقالت وهى تأخذ يدَه بين راحتيها إلى صدرها بانفعال مَنْ تعانى الحاجة للعون والحنان :

– " لم يبقَ لى فى الدنيا كلها إلا حسان ! الدنيا كلها ظُلْم وظلام ! " وتاه عقلُه ، فقالت :

– " نعم ، كنت غير سعيدة مع شقيقه المرحوم . كم تحملتُ عذابًا مرًا ! "

– " هو أيضا قال لى هذا . قال إن حياتكما كانت جحيما لا يطاق . "

– " نعم ، كانت جحيما لا يطاق . وأعترف لكَ الآن بسرّ من أسرار حياتى الخاصة كان زوجى يعذّبنى . كان إنسانا شاذاً . كان يضربنى عندما يخلو البيتُ إلا منه ومنى . كان يعرّى جسمى ، ويكتّفنى بحزام ويحرق ظهرى بجَمْر سجائره . كان يرشق أعقاب سجائره المشتعلة فى لحم ظهرى ، فأصرخ فيتمادى فى تعذيبى متلذذاً بصراخى كلما تَعَالى .. شاذ وحش مثل أخيه . عائله مجنونة . كم أنا تعسة الحظ منذُ ولدتْ ! "

ارتعدتْ أوصالهُ واقشّعر بدنُه وخسفتْ عيناه ومكثَ واجمًا مأخوذاً وفكّتْ زراً من أزرار قيمصها الحريرى السميك المبطّن وقالت وهى تهمّ بخلعه :

- " أتريد أن ترى بعينيك ظهري المبّقع بآثار الحرق والتعذيب ؟ ! أتريد أن ترى جنونَ ووحشية عائلة وصفى ؟ ! هل أريك التشويه ؟ ! أم أراك تصدق كلامى ؟ !

فامتدتْ كفُّ حسان بلا وعى وأمسكت بالزِّر وبيديها فوق صدرها . كان يرتجف وهو يردد بارتياع وتأثر فادح :

- " كفى ! كفى يا هناء ! لا أريد أن أرى . لا .. غير معقول ! حرام !

أنا أصدق كلامك ! . أصدق ... " .

فاعتدلتْ فى جلستها علي حافة السرير ، وأمسكتْ يدَه بكفيْها وهى تقول ملتاعةً :

- " وأصارحك فى نفس الوقت وقبل أن تقدم على الزواج منى أن ظهرى مشّوه ! "

وقام منتفضًا فى توتر ، وهو يقول بحدة :

- " هناء ! ؟ أنتِ زوجتى ! وعلاقتنا تقوم على العاطفة السامية النبيلة !

أنت ملاك ! ... لماذا لا نكتب كتابنا غداً " .

فقالت بعزم :

- " لا . بالرغم من كل شيء ، فإن للموت إحتراما . الوفاء يرضينى . الواجب واجب مهما تكن الظروف .كان جلاداً ولكنه كان ضحية مرضه ، ليرحمه الله . هذه هى أخلاقى ! "

- " فليرحمنا الله جميعا ! .. أنتِ ! ؟ قلبك أنبل قلب ! "

-" لا يا حسان . بعد شهر نتزوج ! "

وصَحَا فجأة على إنتباه غزا عقلهَ إنتبه إلى كلام برق فى رأسه ، إلى كلام

جديد يغير من حالتها النفسية ، كلام يبشّر بالأمل والفرح ، فقال وهو يخطو أمامها في توتر وقد اعترى ساقيه خوار :

- " بعد غد ، تكون شقتى جاهزة تماما . أصبحتْ شقة عروسينْ .. جديدة بها سخّان وثلاجة وتلفزيون ونجف .. ونريد أن نشترى معًا أثاث ثلاث غرف .. وغسالة ولوازم التنجيد وأشياء أخرى .

ومنذ الآن ، لماذا لا نشترى ملابس ولُعب أول وليد لنا ؟ ! "

فقالت بأرتياح :

- " إن شاء الله .. قريبا .. "

وأخذا يستروحان بالحديث فى موضوع زواجهما المرتقب والإعداد له . استمر حديثُهما هذا قرابة ربع الساعة ، ثم عاودتْ الكلام من جديد حول وصفى ، قائلة :

- " حسبنا أولا إنهاء هذا الموضوع المكدر . أقول لك : قابله مرة أخرى .

لا مانع . قابله ، فربما يسعى للإيذاء ، ويجب أن نفتح أعيننا بحركاته ! "

- " بعد ما سمعته منك الآن أود ألا أرى وجهَه ! "

- " لا ! كنْ حصيفًا . وأنتَ أذكى منه ! "

- " لا يكفَّ عن مراقبتنا . "

- " أرايت ؟ ! وليس هذا غريبًا علىَّ ، بل هذا ما قلتهُ لك من قبل .. "

- " يقول أنه يستطلع الأمور بحُسن نية وللمصلحه وللخير .. "

- " أى خير ؟ ! وأى مصلحة ؟ ! "

- دَعيك من هذا كله . فهمتُ كل شيء الآن . كنتِ محقةً . لكنى مع ذلك أقول لك أن خوفك منه لا مبرر له ، لأنه لا يستطيع أن ينالَ منا أو يوقع بيننا وليس له علينا أى مأخذ .. دعيه لى ، فأنا سأسخّف كَل كلامه ، ولو فى عقر داره " .

- " استمع إليه . خُذْ منه ولا تُعطِه . متى يكون موعد لقائكما القادم ؟ ! "

- " مساء الخميس القادم .. "

- " ليتك تقابله قبل ذلك ، حتى نقطع عليه خطوط الرجعة ، ونفسد كل خططه الشريرة ! "

- " سأرى ذلك سأحاول . لا تقلقى ! "

وبعد فترة صمت قصيرة ،وقد أطمأن إلى هدوء حالتها ، وإن بَدَا عليها التعبُ ، قال :

- " والآن ، يحسن بى أن أنزل وأذهب إلى بيتى لانأم ، ولتستريحى أنت أيضا ! "

- نَمْ قرير العين ولا تقلق ، وانتبه لصحتك .." وقالت له مبتسمة وهما يسيران تجاه الباب :

- " أتعرف يا حسان لماذا ركبتُ التاكسى يومذاك ؟ ! "

- " غيَر مُهم أن أعرف ! "

- " بالعكس يجب أن تعرف أنزلنى التاكسى فى " محطة الرمل " دخلت بعضَ المحال العامة حيث تجولتُ ساعة واشتريتُ بعض لوازمى ، أهمها قطعة من القماش لتفصيلها ثوبًا جميلاً . سأفرّجه لكَ المرة القادمة فهل يليق أن ألبس السوادَ فى أجمل يوم من أيام حياتنا ؟ ! أبداً .. لن يكون هذا إنه ثوب وردى اللون ، ثوب ليلة عقد قراننا ، ليلة انتقالى به إلى بيتك ، إلى بيتنا بإذن الله .. " تهلل وجهُه وأشرق ، تبسّمت كلُ تقاطيعه ، ولم يتمالك نفسهَ من الفرح ، فانحنى على خَدّها المتلىء المورّد النضر وقبّله قبلة حانية ، لكنها طويلة صامته لاصقة . !

الفصل السابع والخمسون

بعد أيام

فى الطريق المظلم إلى بيته ، لثم بشفتيه كفَّه ، وملأ حواسه بشذى خدِّها ، فكم أسكره طيبُ القبلة وطعمها ؟ ! كان الليل بارداً ، فتدثر فى فراشه بأغطية ثقيلة فوقها اللحاف ، وطفق يقرأ فى كتاب على نور مصباحه المتدلى من سقف الحجرة المطليّة بطلاء رمادى فاتح براق ، وتساءل بقلب متألم : كيف تمادى في سوء الظن بها ؟ ! ورمق كفيه المسكتين بالكتاب المفتوح على حجْره ولم يصدق أنهما كانتا بين راحتيْها وفى حضنها منذ ساعة . إن مرآة دولابها تشهد على أن ما وقع الليلة حقيقة لا شك فيها . كيف تشهد مرآتُها على هذه الحقيقة ، وقد أصبحتْ بعيدة عنه الآن ؟ ! وكان ينظر فى مرآة الصوان القائم عن يمينه فى حجرته ، فرأى بداخلها صورةَ جدران الحجرة تعكس شعاعًا من الضوء يسقط فوق وجهه الغائب ناصلاً ملتمعًا . ظل يتأمله ساهمًا ، رأى وجهًا مشوّهًا . ولعن فى سرهٍ وصفى كما لعن اليوم الذى رآه فيه أول مرة على عتبة دكانه منتحلاً شخصية أخرى ، يوم أوهمه بأنه جاء ليحصر بعض البيانات الخاصة بالأملاك العقارية . كاذب مزيف ! كم كان وجهُها جميلاً لحظة أن قالت له : " نَمْ قرير العين ولا تقلق ، وانتبه لصحتك . " ولكن أين هو من النوم الليلة ؟ ! كيف عاش هذا الوجه الجميل ثلاث سنوات ، وسط عائلة ، كل أفرادها قساة القلوب ، مجانين ؟ ! وكم تحملتْ من عذاب وتعذيب ! ومع ذلك كله ، تقول بسماحة قلبها الرقيق " إن الوفاء يرضينى . الواجب واجب ... هذه هى أخلاقى ! ما أنبل قلَبها وأرق عواطفها . قلب شاعرة ، وعواطف أم رؤوم ! كيف فعل زوجها هذا ، كيف طاوعه قلبُه حتى يشوّه هذا الجمال الباهر بجمرات سجائره ؟ ! أى زوج مجنون ! شاذ . مريض . لن يرحمه اللهُ ولن يفلت من عقاب الله على ظلمه وقهره ! أى حظ تعس ذلك الذى ألقى بها فى بيت مجانين ! ربما كان عجزُه عن إنجاب أطفال منها هو الذى دفع به إلى كراهيتها وتعذيبها وتشويهها ! وربما كان تألمها وصراخها يحركان فى نفس زوجها المعقدة أحاسيس المتعة والنشوة . إن بين قمة الإيلام وثمالة اللذة شعرة كحدِّ النصل ! هو يعرف الألم . كم تألم قلبهُ لعذابها الليلة

وهي تبكي بين يديه وتنتفض . تعذّب لعذابها وهي تصارحه بهذا السرّ ! ومن قبل ، تعذبتْ كثيراً . وكم آلمها كلامُ سيد عليان ! وكيف واجهته بقلبٍ قوي . احترق بنار الهوان والحسرة ! كيف جابهتْ السخفَ بكبرياء وردّتْ على القحةِ بذكاء وشجاعة . أناس أشرار ! وقد انتقم الله له من سيد عليان ، فدبَّ في بيته الشقاق اللّهم لاشماتة ! وكأن جباراً مجهولا كان يدق كل عضو في بدنه ويَرضّه عندما اجهشت بالبكاء وارتجف جسمها . ارتعدتْ أوصاله ودبَّ في ركبتيه وَهَنٌ غريب، تلك اللحظة .لماذا ؟ كيف يجوز له وهو يتعذب لعذابها ومذلّتها أن يسترق النظرَ فيسرح خياله ويتوه عقله ؟ كيف وقع هذا ؟ أليست هذه هي المتعة الحرام ؟! " ليس هذا وجهك ، إنه وجه رجل آثم ! استغفر ربك ! أولم تقل له : (إنه ثوب وردي ليلة عقد قراننا ، ليلة انتقالي به إلى بيتك ، إلى بيتنا بإذن الله) . إذن ، كان يجب عليه أن ينفلت من بابها وينصرف على الفور ، هابطًا الدَرج مسرعًا . كيف وقع ما وقع ؟ ! لا شك أنها كانت بكلماتها هذه ، تذكره بالحلال لترقيبحواسه وتنأى به عن الخاطر الحرام ! فكيف زَلَّ وارتكب هذه المعصية على الخَدّ ، وهو على بُعد خطوة من الباب . لو مَدَّ يده لفتحه ، ولو فتحه لمنع نفسه من هذا الزلل . إنه في هذه اللحظة لم يرَ الباب ولم يرَ يده . ولم يشعر بشيء إلا وشفتاه فوق الخدّ ولا تغادرانه ! وهي التي قالت له : " .. وأنتَ أذكى منه . " فما ذكاء القلب يا حسان غير الطُّهر ؟ ليس قلبك محصنًا بالقدر الذي يصونك من الهوى ! كفى .. كفى تعذيبا لروحك . أغلق كتابك ونَمْ ! والا فأنت ستفتح بابك لكابوس وحشي رهيب ، وهو يوشك أن يدهمك فيرديك قتيلاً ! اهرب . أغمض عينيك ونَمْ ، فهذه ليلة أنتَ فيها هانئ القلب !

وأغمض عينيه .... فلم ينَمْ !

وطلع الصبح ، وقبل أن يرفع بابَ دكانه الصاجي ، رأى عبارة بَذيئةً جارحة مقرونة باسمه ، مكتوبة بالطباشير على جانب من الجدار المهدّم الملاصق لبابه ، خُطَّتْ بحروفٍ كبيرة واضحة . فتح الباب ودخل دكانه وجاء بقطعة من القماش مبللة بالماء ومسح الكلمات القبيحة بوجهٍ مكفهر ! في الظهر ، جاء إليه أحدُ الدهّانين في دكانه ، وحصل منه على مبلغ من حساب تشطيب طلاء شقته .

في العصر ، طرد بعضَ الغلمان الذين حاموا بالقرب من بابه حومانًا مريبا .. قبيل المغرب ، جاءتْ (الست جليلة) ، وتحدثتْ معه حديثًا قصيراً ..

وبعد صلاة العشاء ، رأى هناء تطالعه بقامتها المهيبة وتدخل الدكان في معطفها

الأسود ودار بينهما كلامٌ ملؤه الودّ والعطف والحنو . ولم تمكث معه سوى فترة قصيرة لم تتجاوز نصف الساعة ، وفاتحته بالكلام عن اللقاء الوشيك بينه وبين وصفى . فطلبت إليه أن يعجل بمقابلته قبل موعدها المحدد .

تبادلا الحديث فى هذا الأمر . وسألها حسان :

– " لكن ما هى الوسيلة الأسهل كى أقابله قبل يوم الخميس القادم ؟ ! . "

– " اتصل به تليفونيًا بمكتبه فى الجريدة .. " .

– " أو بمنزله ، لدىّ رقم تليفونه . ولكن .. " .

– " ولكن المهم أن يكون لديك من الأسباب والدواعى المعقولة التى تدفعك إليه لتعجل بمقابلته غدا بدلاً من يوم الخميس القادم ، فماذا ستقول له ؟ ! " .

– " المسألة بسيطة إذن ، سأقول له اشتقتُ إليك وأريد أن أقابلك مساء الغد بدلاً من ميعادنا يوم الخميس القادم ، وليكن ذلك فى نفس المقهى القريب من بيتى أو فى أى مقهى آخر .. "

– " لا ، ليس هذا سببًا معقولا يفسر تعجيلك يا حسان " .

وتفكّر حسان لحظة ثم قال بشىء من الضجر :

– " ما رأيك ! لا داعى للتعجيل بمقابلته ! لنترك ميعاد لقائى به كما هو مساء الخميس القادم ؟ ! "

– " لا . أولا أنت ستحاول معه تعديل مكان المقابلة . ثانيًا : يوم الخميس ميعاد بعيد ، فاليوم السبت . أسبوع تقريبًا ! " .

– " ولمَ لا ؟ ! "

– " أريد أن أجنبك دخول بيتهم المشئوم ، وأنتَ فى بيته لن تتوفر لك حريةُ الحديث معه . فأنت إنسان حَيِىٌّ بطبعك ، وقد تراعى اعتبارات أنت تحترمها بتأدبك على حين هو لا يحترمها ، كما قد يقاطع حديثَكما دخولُ شخص غريب عليك من ضيوفه أو أمه ، فيزيد هذا من حرجك ! "

- " لاَ . هو ذكر لى أننا سنكون فى هذا اللقاء على انفراد . " .

- " لم قال لكَ هذا القول ؟ ! " .

- " لم يقل هذا القول لأى سبب . قاله عرضًا فى حديثه ، وربما قاله لنفس الأسباب التى تذكرينها لى الآن لكى يطمئننى أن أحداً لن يقاطعنا ، وأن الحديثَ بيننا يتسم بالخصوصية ، فلا يليق أن يشاركنا أو يزاحمنا فيه شخصٌ ثالث . " .

- " على أى حال ، من الأفضل أن يكون لقاؤكما بعيداً عن بيته . وبالطبع أنتَ فى الحديث معه ستأخذ منه ولا تعطيه . فهو ماكر . خُذْ بالَك . وهو محاور مداور . ولكنك أذكى منه ، ولأفترض معكَ الآن أن لسانه الأهوج قد ينفلت بكلمة لا تعجبك ولا تتقبلها فأنت بالطبع لا بد أن تردّ عليه . فكيف تتسنى لك حريةُ الكلام وأنتَ فى بيته . أعرف أنك بالطبع لن تشتمه ، فأنت إنسان مهذب لا تعرف كيف تشتم ، وليس من خصالك العدوان .. و .. " .

فقاطعها قائلا :

- " أنت لا تعرفيننى إذن ! إذا أطال لسانه أقطعه ، واتقِ شر الحليم إذا غضب ! "

فقالت متضاحكة :

- " إذن ، أخاف من غضبك ! " .

فضحك . ولكنها استطردتْ بجدية :

- " أعنى أن قلبك متسامح ، وعلى أى حال ، ابذل كل جهدك أن تتحاشى الصدامَ به ، فهو عدوانى مجنون . وأنا أخاف عليكَ ، بل أربأ بكَ أن تشاجره . وعليك أن تحتفظ بصفاء ذهنك كى تضمن تفنيد مغالطاته وكى تكشف أكاذيبه وتدحض إدعاءاته بحرية عاقلة فهل يكون لك كل هذا وأنتَ فى بيته ؟ ! حاول أن تقابله خارج بيته . هذا أفضل . " .

- " كلامك معقول .. لكنى .. " .

- " أما أن تقابله قبل يوم الخميس ، فهذا أفضل أيضا لكى نوقف تحدياته لنا ، لكى يمنع تحرشه بنا ، لكى نصدّه عن الحومان حولنا ، فيروق بالنا فى الأيام القادمة ونتفرغ سريعًا لحياتنا الجديدة ولسعادتنا فى بيتنا .. قُلْ له إنك ستكون مشغولاً يوم

الخميس القادم بمهام تتعلق بزواجك ! هذه أسباب التعجيل بلقائه ! "

فتفكر حسان لحظة ، قال :

- " كلام معقول . إذن ، سأتصل به تليفونيا الليلة بعد أن أغلق دكانى .

وأقترح عليه أن نتقابل مساء الأحد .. غداً ، فى أى مقهى .. "

وابتسمتْ هناء وقالت له :

- " وإذا وجدتَ نفسك غير راغب فى مقابلته ، فليكن ! إذا أردتَ أن تعفى نفسك من كل متاعبى هذه ، ليكن . فماذا يهمنا منه ؟ ! إذا كنتَ لا تريد الاتصال به فلا تقابله على الاطلاق لتريح نفسك ؟ ! "

- " لا . إن بينى وبينه موعداً ، ومهما تكن الظروف فلا بد لى من مقابلته .

فما التعب فى هذا ؟ بالعكس ، لقاءاتى معه ستحل لك عقدةَ الخوف منه . ومتاعبك هى متاعبى ... وحتى يروق البال ! "

فقالت باندفاع :

- " أصارحك أننى لم أعد أخافه ! إننى فى حمايتك الآن لا أخاف أحداً . " فقال حسان بتحدٍ :

- " سأقابله وأتسلى به ! " .

- " لكن ، افترض يا حسان أنه راغَ منك خلال المكالمة التليفونية ، وأصرَّ على أن يكون لقاؤكما فى بيتهم الكئيب . قد يصر على هذا من باب تصميمه على التظاهر بتكريمك ، أظنكَ فى هذه الحالة ستقبل ؟ ! "

- " سأقبل طبعا . ولِمَ لا ؟ . "

همَّتْ بالكلام ، لكنها أمسكت عنه فجأة وظلت صامته دقائق متفكرة ، ثم قالت :

- " المهم عندى أن تغلبه بذكائك وأن تقنعه بأن لا جدوى من تطفله علينا وإذا كان هو رجلا صاحب قضية عامة كبرى كما يزعم لكَ ، فلا يليق به أن يتدخل فى شئون زواجك من سيدة تجرعتْ كؤوس المرّ ، وليس عليها لأحد من أهل بيته أى مطلب . يكفينى ما لا قيت من عذاب هناك . كُنْ حذراً ودقيقًا فى كلامك معه ولا تذكر له

شيئًا من أسرارنا . بالطبع أنتَ ستسهر معه مساء الغد ، إذن سأنتظرك ، مساء الاثنين ، بعد غد في شقتي .. وستحكي لي كلَّ ما سيدور بينكما من كلام حتى يطمئن قلبي . لكم أود أن نبدأ معًا حياتنا الزوجية بلا أي كدر . كم سببتُ لك من متاعب يا حسان ! " .

- " أشكرك . وكم أنا سعيد بهذا الكلام ، لكن أي متاعب في هذا يا هناء ؟ إنه يوم المُنى العظيم أن يرتاح بالك وبالي ونحن في بيتنا ... " .

- " هانَتْ الأمور . وسنتحدث قريبًا طبعًا عن الترتيبات الخاصة بالأثاث والتنجيد . واسمح لي أن أشاركك في هذا . لا تؤاخذني ، هذا أمر طبيعي وواجب . فالحياة الزوجية مشاركة وتعاون . " .

نظر إليها نظرة عتاب طويلة ، فأضافتْ :

-" لا تزعل من كلامي . لدي بعض الأساور الذهبية ، سأبيعها ! " .

فقال حسان بغضب :

- " أرجوك ! أرجوك يا هناء . كلامك هذا يعكّر دمي . إياك أن تنطقي بهذا الكلام مرة أخرى . فالخير لدي كثير والحمد لله . وبالمناسبة ، أصارحك أن الحصة العقارية التي ورثتها عن المرحوم والدي قد بعتُها منذ سنوات بمبلغ كبير وأودعت المالَ في البنك بنسبة استثمارية عالية كفوائد ! . "

- " ذكرتني بالبنك . اقترب موعدُ قبض معاشي الشهري ، فما رأيك ؟ ! . " وضحكت ، وتهلل وجهُه ، وقال لها :

- " إنني أحلم بالجلوس معك في ركننا الجميل بالمحل إياه ، ونتكلم في الشعر! "

- " إن شاء الله ولن يكون يوم الأحد " ولن يكون ممطراً كي نتمكن من التفرج في جولتنا على ما يلزمنا من أثاث "

- " ليكن غزير المطر ، حتى نستحم فيه كالبطّ " ليكن يوماً بارقًا راعداً ، لاأخشى الزلزال ما دمت معي !» "

فقالت مازحة :

-" أخاف عليك حتى من النسمة الباردة ، كَفَى الله الشرّ ! "

-" القلب الدافئ العامر بالحب لا يمرض صاحبه أبداً ! "

-" وبعد شهر سيطلع الربيع وتتجول في الحدائق عبر الأزهار والنسيم تحت الشمس الدافئة ! "

-" في شم النسيم يكون شهر عسلنا ! "

ووجد كفَّاه وقد امسكتا براحتيها ، ولكنه انتبه على الفور ورمى بناظريه خارج الدكان " لم يَرَ أحداً يمر ببابه ، ومع ذلك سحب كفَّيه في حياء " فقالت له :

-" بعد أيام ! "

-" سأسعدك ! كما سأسعد بك "

-" إن شاء الله "

وَرانَتْ فترةُ صمت جيّاشة ، ثم قال بنبرة مغايرة كأنه يقاوم شعوراً غامضاً دهمه فجأة :

-أتعرفين أنكِ ستقبضين معاشك لآخر مرة ؟ ! "

أعرف ! يسقط حقي في المعاش بمجرد زواجي منك . "

وحارعقله فلم يعرف ماذا يقول " أثقله صمته " لكنه قال :

-" احتفظي بكل ما لديك من أساور وذهب ، وسأزيدها بهدايا قيمة " أنتِ جديرة بها "

-" بل أنت أغلى هدية في قلبي ياحسان ! "

وتمالك نفسه وأطرق ساهما مخدراً فرأى تحت بصره يدها الناعمة البيضاء الموردة تمدها إليه للمصافحة ، وهي تقول بصوت هامس حبيب :

-"حسان ! زوجي الغالي ! سأنتظرك مساء بعد غد للعشاء عندي ! ولنتحدث ... تصبح على خير ! "

الفصل الثامن والخمسون

في بيت على المنحدر

رأى الساعة على رسغة قد تجاوزت التاسعة مساءً ، وشعر بحرج بالغ إذ أوشك أن يقدم على تنفيذ الاتصال التليفوني "

وعندما بلغ في سيره حي " امبروزو " ، أدرك أنه فكر طويلا وعلى استحياء في كيفية الاتصال تليفونيا ببيت وصفي الآن " وقد استبعد الاتصال به في مكتبه بالجريدة إذ توقع ألايجده هناك في هذه الساعة بعد أن كان يرجح منذ ساعة مكالمته في هذا المكتب " فمن أي مكان يتصل به الآن ؟

مشى يخترق الشوارع مسترقا النظرات إلى داخل الدكاكين " وكلما رأى تليفونا قائما في أحد المحال ومن حوله بعض الناس تردد وأحجم عن الدخول " بالطبع هو لم يشأ أن يتصل به من خلال أحد التليفونات الموجودة بأي محل في الحي الذي يقع فيه دكانه ، مخافة أن يلتقط أحد هنا أو هناك كلمة ما ، فتثير الشُّبهة أو الكلام ، مع أنه حرص على إعداد كلماته في رأسه .

ظل يدور في شوارع الحي باحثًا عن مكان مريح لتنفيذ اتصاله ، وكان يلعن وصفي في سرّه ، ويسائل نفسه : " ماذا وراء هذا الملحد الكاذب ؟ ! وأي حقيقة قاسية تلك التي يدعي أنه يريد أن يتيقن منها ؟ ولماذا أمسك عن ذكرها في مقابلته الأخيرة معه بالمقهى ؟ ! هو كاذب مائة في المائة ! والأطفال وحدهم هم الذين لا يعرفون الكذب . ولعن نفسه هو أيضا ورماها بالكذب . وقال لنفسه : " لم يكن ذهابك إلى بيت الست جليلة وسهرتك مع أولادها في تلك الليلة وهداياك لهم وحديثك معهم ، لم يكن كلُّ هذا صادقًا خالصًا لوجه الخير ، ولوجه الله .. وكم جئت ليلي بأسباب ملفقة ! أنتَ كاذب ووصولي ! وشدَّ بصرهَ ضوءٌ باهر إلى عتمة الشارع من داخل مخزن واسع لبيع المواسير والحدايد . لم يكن بداخله إلا رجل

طاعن في السِّنْ جلس إلى مكتبه ، فوقه تليفون . دخل وحَيًّا الرجلَ واستأذنه في استعمال التليفون وأخرج من جيب معطفه « الكارت » الصغير ، وأخذ يدير القرص مرات .. كان الخط مشغولا طفق يجرب ويجرب . وترامى إلى سمعه وهو يقف في قلق ، صوتٌ يصدر من وراء كوةٍ فاحمة فوق رأسه يقول : " انفخ ! انفخ في النار حتى تشتعل ! " .. وبعد دقيقة ردٌ عليه صوت نسائي يقول :

- " آلو .. آلو ، .. "

- " مساء الخير ...... الأستاذ وصفي موجود ؟ " .

-" لا يا أفندم . الأستاذ وصفي غير موجود في البيت الآن . مَنْ حضرتك ؟ " .

وكان الصوتُ الذي ردّ عليه هو صوت « الشغّالة » ، وقد أخبرتْه أن وصفي موجود الآن في مستشفى « المواساة » لزيارة والدته المريضة ، وأنه اتصل بها تليفونيًا منذ قليل وأخبرها أنه سيعود إلى البيت خلال نصف ساعة . وقال لها حسان إنه صديق له يدعى حسان ، وأنه سيعاود الاتصال به بعد نصف الساعة .

وجلس في ركنٍ بالمقهى القريب من منزله . واحتسى القهوة . وطفق يفكر في أمور دنياه .. ما الذي يريد أن يتحقق منه هذا الفضولي اللعين ؟ ! ولاح له وجه هناء صبوحًا وضّاحًا . ما أعذب ابتسامتها . كانت تقول له منذ ساعة : " أخاف عليكَ حتى من النسمة الباردة ، كفى الله الشرّ ... بعد أيام ... إن شاء الله .. سأنتظرك ... للعشاء عندي ... تصبح على خير ... أنت أغلى هدية في قلبي .. " وفرح قلبُه بكلامها عن الثوب الوردي وتذكر أنه قال للشيخ عبد المقصود البارحة بعد صلاة الجمعة أنه سيعاود المجيء إليه في المسجد في وقت آخر . وأخرج من جيبه قصاصات من الورق وأخذ يتفحص ما بها من مدّونات تخصّ لوازم وحسابات يوم عقد القران . وعبرتْ ذهنَه صورة وجهٍ كئيب ذي شعر أحمر . وجه الخنزير « غلوش » وانتقل في خياله إلى الليالي التي ستعقب عقد القران وإلى أيام الربيع الآتية الزاهرة . واسترسل يسلي نفسَه ويتعزّى حتى مضت مدةُ الانتظار . انقضى نصف الساعة لكنه مكث دقائق أخرى ، وربما لرغبته في ضمان رجوع وصفي إلى بيته . وتراءى له في خياله أنفُ غلوش الطويل ، فلمصه بكل أصابعه وأظفاره ، ولواه لويًّا عنيفًا ، وجدعه فانسلخ الأنف وسقط

دامِيًا في كفِّه ! ... وسرعان ما عاد حسان إلى المخزن ورفع سماعة التليفون ، وأدار القرص مرات ، فإذا بصوت يرد :

- " آلو .. أهلا . مساء الخير . لم أكن أتصور أن أسمع صوتك الآن يا أستاذ حسان . كم أنا سعيد بهذا .. "

وجرى الحديثُ بينهما وتمنى حسان أن يشفي الله والدته المريضة ، واستطاع أن يعدّل معه الميعاد ، فاتفقا على أن يزوره حسان في بيته المطل على البحر في حي « الإبراهيمية » حوالي الساعة الثامنة من مساء الغد . ولم يجد حسان مفراً من هذا . وأنهى وصفي الحديثَ التليفوني قائلا :

- " في انتظارك مساء الغد . وشكراً على سؤالك وعلى مبادرتك اللطيفة ليس في الدنيا عندي أجمل من الجلوس والحديث معك يا أستاذ حسان ... أهلا وسهلا ... "

في مساء اليوم التالي ، بعد صلاة العشاء ، غادر الترامَ هابطًا في محطة « الإبراهيمية » مشى في شوارع هادئة مقفرة . من شارع « بور سعيد » إلى شارع « الكوتاهية » حيث لفحته هبَّاتٌ قوية باردة من هواء البحر ، وشم رائحة اليود ، ثم عرج على شارع « تانيس » وهناك على ناصيته رأى تحت ضوء مصباح ، رجلا أصلع في السادسة والأربعين من عمره يمسك بمصاريع نافذة خشبية خلعتها الرياحُ . رآه على الرصيف منهمكًا يحاول إصلاح مفصلاّتها الصدئة بفعل رطوبة البحر وملحه . سأله : " أين شارع دى فارو " ؟ " . رفع الرجلُ وجههَ في حزنٍ وكدر وتعب ، وأشار إلى الشارع . كان على بُعد خطوات هابطا منحدراً نحو البحر . كان البحرُ ثائر الموج حالكًا إلا من زبد يعلو ويلتف . وملأ صوتٌ اصطخابه أذنيه ، ولمح قطتيْن تندفعان صوب حاجز « الكورنيش » ووقف أمام سور « ڤيللا » صغيرة يحيط بحديقة جدباء مهملة ، غارقة في وحشة رهيبة . بَدَتْ مهجورة كئيبة أشبه ببيت مصاص الدماء « دراكولا » وما أن رفع يدَه وكاد يضغط بأصابعه على زرْ ، حتى رأى نوراً شاحبًا سطع فجأة في الشرفة ، ولاحَ له من وراء أغصان عارية شبحُ وصفي يقول مرحبًا :

- " أهلا . أهلا وسهلاً يا أستاذ حسان ! "

وفي الداخل ، جلس على « فوتيل » وثير من الجلد الأسود في حجرة دافئة غير واسعة ، عتيقة الرياش ورأى الجدران كلها مكسوة بالرفوف ، مكدسة بالكتب والمجلدات ، كما رأى أمامه دولابا مليئا بالكتب ويمتد بطول وعرض الحائط . وقدم وصفي القهوة بنفسه قائلا وقد بدا مضطرب الهندام :

- أنا وحدي في البيت . انصرفت الشغالة منذ قليل لتزور أهلها .

- ألف سلامة على السيدة والدتك . ما بها ؟

- مريضة بالقلب . أدخلت المستشفى منذ مدة . وأختي تلازمها ليل نهار . حالتها خطيرة .

- ربنا يشفي كل مريض .

بدا وجه وصفي مكفهرا ، مشعث الشَّعْر ، قال :

- "ليس أغلى في الدنيا من الأم ياأستاذ حسان ! أنستني همومُ الوطن طوال السنوات الماضية أمي لم تكن تراني إلا رؤية عابرة . وطالما تمنتْ أن أشاركها مرةً تناول الطعام على مائدة واحدة أو أبادلها الحديث قليلا ولكني عدتُ إليها منذ فترة بعد فوات الأوان ، بعد أن راحت هي في غيبوبة المرض وبعد أن خلوت أنا من كل شئ !" - "لا تكن متشائما يا أستاذ وصفي . ستشفى بإذن الله " . فقال وصفي بحدَّةٍ غريبة :

- " لا ! حالتها ميئوس منها ! ولا مفر . أعرف هذا ! وصمت مطرقًا في حزن ، ثم قال :

- " كيف حالك يا أستاذ حسان ؟ ! أود أن أسالك سؤالا يلحّ عليَّ كثيرا : لماذا يموت الإنسان ؟ ! " .

فقال حسان متفكرا :

- " لوعاش كلُّ الناس منذ آدم ، فماذا يكون حال الدنيا ؟! "

- " ولماذا يولد الإنسان ؟! ليتنا ما كنا ! هذا عالم غريب . يولد فيه الإنسان ليشقَى ويتعذب ويذلّ ، ثم يموت ليُلقى فى حُفْرة طعمًا للديدان مثل رِمّة كلب ! ! هل للدنيا معنى ؟ ! وهناك منا مَنْ يشقَى فيها بموت الآخرين ، ويمكث منتظرا دورَه في الموت ، ولا يعرف متى يموت ؟ ! "

- " ومنا مَنْ يموت بسبب إذلال الآخرين له ! " .

-" لماذا لا يختار الناسُ كلهم مذلون ومذَلُّون يومًا واحداً يموتون فيه باختيارهم جميعًا دفعة واحدة ! ما جدوى السعى والنضال ؟ ! وما فائدة الحضارة ؟ ! فالإنسان الراقى النبيل القوى القاهر للموت والذل لم يُولد بعد ! " وأشار وصفى بسبابته إلى الكتب المكدسة فى الحجرة وقال ضاحكًا ضحكة حزينة :

- " ما فائدة كل هذه العلوم والآداب والفنون ؟ ! كل هذا وذاك هراء ، فما مغزى الحياة ؟ لماذا غرض ؟ ما معنى السيول المهلكة - مثلا - للإنسان والحيوان والزرع .. والأطفال ؟ ! أنا لم أعد أفهم للدنيا معنى أو غاية . هل لديك معنى لأى شيء تقنعنى به ؟ ! أراهنك .. ليس هناك معنى لأى معنى ! " .

فقال حسان برويّة :

- " هَون عليك يا أستاذ وصفى . إنك تفكر على هذا النحو لأنك حزين ، وربنا يشفى السيدة والدتك . وسيتغير حالك وستجد لكل شيء معنى وحكمة وغاية . فليهدأ بالك . " .

فقال وصفى بانفعال :

- " لا . لا . هذه التساؤلات تستبد بى من قبل أن تمرض أمى . إن موت الآخرين يعذّبنى . فى عام ١٩٦٨ مات بعضُ زملائى فى النضال تحت بصرى من أجل معنى إنسانى نبيل، من أجل غاية عظيمة. مات من قبلهم آخرون وسيموت بعدنا آخرون . ولكن الغايات العظيمة لا تُوجد إلا فى رؤوس المناضلين وهم يسقطون من أجلها على أرض عالم غريب . البذور تموت ولا تثمر . عالم ملىء بالفوضى والاضطراب والطمع والتناحر . عالم متوحش ! " .

- " أنتَ متشائم ويائس من رحمة الله . أرض الله أرض السلام .. أما أرض الأفكار الحمراء فهى أرض الشيطان . دَعْك منها يا أستاذ وصفى . أنت تدمر نفسك .. ارحم نفسك ! . "

وامتقع وجهُ وصفى وتفرس فى عينى حسان بنظرات جهنمية . ولكنه مكث صامتًا كاظمًا غضبه على مضض .

وبعد فترة صمت ثقيل متوتر ، قال حسان بصوت رقيق :

- " على فكرة يا أستاذ وصفى ، أنا قرأتُ كتابك . أزجالك طيبة وهى فى الحق تنم عن قلب كبير يحلم حلمًا عظيما بلغة الناس البسطاء " فمطَّ وصفى شفتيه وهزَّ رأسهَ قائلاً بيأس وأسف :

- " لا تحدثنى عن هذا الكتاب . كتبتُه وأنا فى أوج تألق رومانسيتى . أقصد عندما كنت فى ريعان شبابى وفورة حماسى ، أحلم بعالم جديد . فما فائدة الأحلام ؟ ! " .

- " أتقول عندما كنتَ فى ريعان شبابك ؟ أنتَ الآن ما تزال شابًا فتيًا . فماذا أقول عن نفسى إذن ؟ !

- " لا أخفى عليكَ أن السجن كان سببًا فى التعجيل بمشيبى . على العكس ، إن الإنسان الذى يُحرم من حقوقه السياسية ويسجن عقلُه ويُحجَر على أفكاره سنوات هو أتعس إنسان فى الدنيا . هذا سجن معنوى قتَّال . لا فائدة . لا فائدة من الجرى شمالا والسعى يمينا أو الرقص وسط السُّلم . ومَنْ كان سجينًا فإنه ينظر إلى العصافير فى السماء ! " .

- " مَنْ منا ينظر إلى فوق ؟ ! كلُّ العيون إلى أسفل كالدواجن تبحث عن الفُتات والديدان ، إلا عيون المؤمنين ! فالمؤمن وحدَه هو الذى يسمو قلبُه ولا يشعر بالقنوط أو العجز ! " .

- " مامعنى الحرية يا أستاذ حسان ؟ ! "

- " الحرية ببساطة هى أن يعيش الناس سعداء " .

- " أى الناس ؟ ! وأى سعادة ؟ أناس كثيرون يعيشون الآن فى مجتمعنا فى غاية الهناء ! . "

- " عظيم .. " .

فضحك وصفى ضحكات هستيرية ، فتحرّج حسان ، ثم قال وصفى بوجه جادٍ متجهم :

- " لا بد أنك سعيد يا أستاذ حسان ؟ ! "

- " الحمد لله ."

- " إذن ، دَعْنا من حديث لا طائل من ورائه غير وجع الدماغ ! فلماذا أكدر عليك صفْوك خاصةً وأنت تفكر فى الزواج وإنجاب الأطفال ! وقدَّم وصفى سيجارة لحسان . وطفقا يدخنان ويحتسيان القهوة . ثم قال وصفى :

- " إننى سعيد بكَ فى بيتى . وفعلتَ خيراً بحضورك اليوم . لم أسمع جيداً ما قلتَه لى فى التليفون . فما المانع أن نلتقى يوم الخميس القادم أيضا . فأنا بلا أصدقاء وأنت خير صديق فى هذا الزمن الخائن ! " تنحنح حسان وقال :

- " الحقيقة ، أنا مشغول يوم الخميس القادم بمهام تتعلق بزواجى ! " فهزَّ وصفى رأسه ، ثم قال ببرود :

- " مبروك . قَوَّاكَ اللهُ ، إذن ، أنتَ عرفتَ السكة إلى بيتى ورقم تليفونى معك ، وأنا قد أزورك فى بيتك فى أقرب وقت .. " كان وصفى فى حالة بالغة من الحزن والتشتت والضجر ، حتى ظنَّ حسان أنه أوشك أن يوعز إليه بالانصراف . وشعر حسان شعوراً صادقًا ملحًا بحاجته إلى الخروج من البيت ، إلا أنه لم يكن قد مضى على دخوله سوى دقائق معدودة ، كما أن المقابلة جاءت نتيجة لاتصال تليفونى من جانبه يعجل باللقاء ، فضلاً عن أن هذا التعجيل لا بد قد أوحى بأن وراءه موضوعًا خاصًا خفيًا . وشعر حسان فى هذه اللحظة أنه مستعد ذهنيًا لتبرير زيارته هذه ،

، ومن ثم يكون هذا مدخلاً لفتح باب الكلام. ولكنه سمع وصفى يدهمه بسؤال :

-" ولماذا! يتزوج الإنسان ؟ ! ألكى ينجب أطفالاً يعذبون فى عالم تعس ! ؟ "

- " الزواج لا بد منه لكل رجل وامراة . وهو قدر .. " .

فقال وصفى محاولاً المزاح رغم حزنه :

- " أهو قدر أم كدر ؟ ! ويقولون إنه شر لا بد منه ، والشر لا يُوتَى رغم أنفنا . الشّر طبيعى فى الإنسان كما فى الطيور الجارحة ! "

- " والخير يا أستاذ وصفى ؟ ! "

- " الخير ؟ ! الإنسان لا يفعل الخير إلا بدوافع المصلحة والأنانية والخوف ! .. "

- " وكذلك الشر ! "

- " إذن اتفقنا . الخير أو الشر هو تفكير استثمارى وسلوك نفعى إنتهازى فليس خير الإنسان لوجه الله ! "

- " لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم .. "

- " ثم رددناه أسفل سافلين . - وهديناه النجديْن . سؤال : لماذا تقدم أنت على الزواج ؟ ! " فبُوغتَ حسان بالسؤال ، لكنه قال بثبات :

- " ضرورة وحاجة ، فالزواج نصف الدين قبل كل شى . "

وسكت حسان . وطال الصمتُ بينهما ، شرد كلٌّ منهما لحظات ، وعلى حين فجأة ، قال وصفى كمَنْ تذكر أمراً كان منسيّا :

- " على فكرة ! هل سألتها ! السؤال ؟ ! "

ولم يكن سؤاله مفاجئا ، إذ كان حسان مشغولا بموضوع السؤال ويود أن يبادله الحديثَ فيه :

- " سألتها . لكن قُلْ لى : لماذا طرحتَ علىَّ هذا السؤال لأوجهه إليها ؟ "

- " لمصلحتك ! "

- " كيف ؟ "

- " ومع ذلك فهو سؤال لن تجروء هى على الإجابة عنه الإجابةَ الصادقة . "

- " لماذا ؟ "

- " أرجوك يا أستاذ حسان ، أنا لا أريد أن أطرق مسائل شديدة الخصوصية .. "

- " لا أفهم ما تعنى ، ألستَ بهذا السؤال تطرق فعلاً مسألة شديدة الخصوصية ؟ ! "

- " إننى أطرح سؤالا ولا أطرق جوابه . عليكَ أنتَ أن تتفكر فيه وتبحثه بنفسك . وأنت حرّ . فأنا لا أريد أن أكدرك أو أفسد عليكَ هناءك ! "

- " سألتنى فى لقائنا السابق ما إذا كنت أنا مستعداً أن أسمع منك « الحقيقة » حتى ولو كانت قاسية ، فوافقتُك على ذلك ، ولكنك لكم تَقل شيئا . ألستُ صديقك ؟ قُلْها بلا حرج ! "

- " كل ما أرجوه منك كصديق مخلص لك هو أن تفتح عينك ! "

- " كيف ؟ .

- " ما جوابها هى على سؤالى ؟ . " .

- " ذهبتْ فى ذلك المساء لتشترى فستانًا لمناسبة قراننا . فضحك وصفى ضحكة ساخرة وقال :

- " أتصدق هذا ؟ ! "

- " أصدقه بكل قلبى . "

-" أنت حر ! "

- " وما جوابك أنت ؟ " .

- " جوابى ؟ ! جوابى تجده فى أسئلتى . خُذْ سؤالا آخر لها وعليك أنتَ بنفسك ولنفسك أن تكتشف جوابه الصادق . ولكنها لن تنطق به ولن تذكره لك ! "

- " لا أفهم . مع ذلك ، هل أجده عندك ؟ " .

- " اسمع يا أستاذ حسان ! أتريد أن تعرف الجواب وتفهم حقًا ؟ ! "

- " طبعًا ... "

- " إذن ، خُذْ منى سؤالا آخر . وهذا السؤال أوجهه إليكَ أنتَ هذه المرة ! " ونفث وصفى دخانَ سيجارته فى عصبية ، ثم قال :

- " أنا أعرف أسراراً لا تعرفها أنتَ ، أنتَ تذكر بالطبع يوم صحبتك معها فى الشهر الماضى إلى البنك الأهلى لقبض معاشها ؟ ! " . سكت وصفى ثوانى . ولم ينبس حسان بكلمة ! فاستطرد وصفى قائلا فى هدوء بالغ :

- " ثم دخلتُما محل « لورانتوس » ، وجلستُما فى ركن تتحدثان . أنت تذكر بالطبع أنها فى أثناء جلوسها معكَ ، قامتْ فجأة مستأذنه وتركتْكَ جالسًا وحدك إلى المائدة ، غابتْ فى مكانٍ ما من المحل وبعد عشر دقائق عادتْ إليكَ. السؤال : ما سِرُّ قيامها هذا ؟ ما سِرُّ غيابها فى مكان ما من المحل ؟ لأى غرض ؟ ! "

فقطب حسان حاجبيْه فى حدة بالغة ، وضيَّق عينيه فى دهشة ووجوم ، ثم قال ممتقع الوجه :

- " ماذا تريد أن تقول يا أستاذ وصفى ؟ ! "

- " لا أقول شيئا . أنا أسال سؤالا ! "

- " إسال سؤالا معقولا . إذا كنتَ حقًا تعتبرنى صديقًا لكَ ، فأجبنى جوابًا معقولا على سؤالك الأول . "

- " جواب السؤال الأول هو نفس جواب السؤال الذى طرحته عليكَ الآن ! "

- " ألغاز ! أفصح ولا تغرقنى فى غموض ! "

- " أنا إنسان واضح ! وسأوضح لك بطريقتى كل شيخ وله طريقة ! هل تشككتَ

أنتَ فى هذا الأمر ؟ ! .

- " أى أمر ! ولماذا أتشكك ؟ ! "

- " ما بكَ يا أستاذ حسان ؟ ! أحدثكَ عن غيابها عنك وأنت جالس فى الركن وحدك فى محل « لورانتوس » يومذاك ! "

- " لا . لم ولن أتشكك يا أستاذ وصفى ! "

- "ليس المهم أن تشك ولكن الأهم أن تفيق! أنت تسألنى، فهل أتكلم أم أسكت ! ؟ "

- " تكلم ! "

- " سرُّ هذا السلوك يكشف لكَ ولى عن حقيقة . لا تتعجل الأمورَ ودَعْنى أتكلم بطريقتى . دَعْنى أسالك سؤالا آخر ! "

- " ما هو ؟ "

- " فى الأيام الأولى من دخولها حى « النزهة » وشقة أمها أمام دكانك ، كانت شديدة الخوف والحذر . تمام ؟ ! "

- " تمام ! كانت تخاف منكَ وما تزال !" .

- " وما تزال ؟ ! جميل ! "

- " جميل ! وما وجه الجمال فى خوفها منكَ ؟ ! أيرضيك أن تخاف منك ؟ .. "

- " دَعْك من هذا الآن . أنت لا شك بعد تعارفك بها توددتَ إليها بحكم الجوار وبكل حُسْن النيّة أو تقربتْ هى إليكَ بكل سوء النية ، فهل فاتحتها فى طلب يدها آنذاك ؟ ! "

- " حصل ! ولكن أى سوء نيّة ؟ ! "

- " قالت : لنرجىء هذا الكلام فيما بعد !"

- " فيما بعد ! لماذا طابَ لها الإرجاء فى ذلك الوقت ؟ ! "

- " لأنها تحترم ذكرى المرحوم زوجها ، ولأنها لم تكن قد عرفتني بعد بالقدر الكافى للثقة والاقتناع فيما يبدو ، وهذا حقها ! "

فقال وصفى بحدة :

- " تحترم ذكرى شقيقى ؟ ! المهم ! تغير حالها من الخوف والحذر والتسويف . فما حالها اليوم ؟ علمتْ هى منك أننى ندمتُ على محاولتى اقتحام شقتها .. فهل تظن أنها قد صدقتْ كلامى هذا واطمأن قلبُها من ناحيتى ؟ ! "

- " أبداً . ظلّتْ خائفة منك ، لأنك .. "

ولم يكمل حسان ، فاستطرد وصفى قائلا :

- " والآن ، هل هى ما تزال خائفة منى ؟ ! " .

- " أشعر أنها ما تزال خائفة وإن كانت تنفى بدافع طمأنينتها الوشيكة فى حمى رجل هو زوجها فى الغَد القريب . ألا تعرف طبيعة المرأة ؟ المرأة مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة ، يريد الأمن . أنت بصراحة ... " .

فقاطعه وصفى قائلا :

- " أعرف طبيعة المرأة جيداً على الرغم من أننى لم أتزوج ولن أتزوج ! أتقول إنها لا تخافنى ؟ ! ما رأيك أنها ترتعد منى رعبًا ؟ ! "

- " لماذا ؟ ! "

- " تخاف ولكنها بذكائها وجدَتْ الوسيلةَ التى تغطى بها خوفَها ! هى تخرج من شقتها هذه الأيام وتتحرك هنا وهناك وكأنها قد تحررتْ فعلا من خوفها ، بل تتخذ من موضوع زواجكما وسيلة للتمويه والتضليل ! " .

- " التمويه والتضليل ؟ ! أنتَ لا تتحدث بوضوح .. "

- " آسف يا صديقى فأنا أحدثك وقلبى مذبوح . أنا مشتت العقل . فدَعْنى أقول ما أقول كما أقول . وستعرف كم أنا صديق مخلص لكَ . بعد أن كانت تتكتم معكَ موضوعَ الزواج ، هى الآن فرحة بأن يعرف كلُّ الناس أنها ستتزوج من حسان ! وهذا هو السبب فى أنها تصدتْ لكلام جاركم « سيد عليان » بصوت عال وبجرأة مَنْ تحتمى إلى الحلال . ألم تقل له : (حسان زوجى . فليصعد إذن إلى شقتى فى أى وقت . بيتى بيته) ! ؟ .. " .

- " مَنْ الذى يجيئك بأخبارنا يا أستاذ وصفى ؟ أهو غلوش ؟ ! "

- " غلوش أو غير غلوش . كيف نسيتَ أننى صحفى أو ليس هذا هو المهم الآن . هى الآن تجاهر بهذا وكأنها تود أن تقول لى : (انشر يا وصفى خبرَ زواجى من حسان فى صفحة « المجتمع ») ! ولكنى أعرف الحقيقة ! "

- " أى حقيقة ! ؟ أنتَ لا تقول شيئا .. غلوش كذّاب ! "

- " ولماذا دفعتكَ الليلةَ للحضور عندى هنا ؟ ! إنها هى التى تتعجل الأمور لتستطلع أشياء خافية عليها من خلالك يا أستاذ حسان ! " .

- " أنت لا تقول شيئا . غلوش كذاب ! وأما أنك مخدوع بكذبه أو أنتَ توقع بينى وبينها يا أستاذ وصفى . وسبب الوقيعة أقوله لك بكل وضوح ، فأنت تريدها . أنت تريد الزواجَ منها ! "

فعاود وصفى ضحكاته الهستيرية ، على حين بَدَا حسان متوتراً . كاسف الوجه . وكفَّ وصفى عن الضحك فجأة قال بهدوء حزين ساخر :

- "أنا أريد أن أتزوج من هذه التى تحمل قلب ذئبة ؟ ! لا مؤاخذة يا أستاذ حسان ! "

فقال حسان بغضبٍ مكظوم :

- " بل أنت الذئب ! أنت بلا قلب ! على رغم ما بكَ من رقة الشاعر . أما هى فتحب الشِّعْر حبًا صادقًا وهذه سمة من سماتها التى تدفعك إليها . ناهيك عن

جمالها ! هذا مطلبك وهدفك . بل هذه غايتك . أنت إذن لا تعيش بلا غاية ! ؟ "

وكان حسان قد نهض واقفًا تأهبًا للانصراف ! فقال وصفى متسائلا بسخرية :

- " الشَّعْر ؟ ! أهى تحب الشَّعر ؟ هدف ؟ غاية ؟ ! إذن سقطتْ امبراطوريتى واضمحلتْ ! وكم تدهور حالى ؟ ! أهى تحب الشِّعر ؟ ! أنتَ الذى تراها جميلة بعين خيالك الشِّعْرى البرىء . كم داخلها الغرور بجمالها الوحشى هذا وبثنائك المبهور : خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء ، اجلس يا أستاذ حسان ، أنا لا أغضب منك . اجلس ، فلم ينتهِ حديثنا بعد ، فما يزال لدىّ كلام لك ! " فجلس حسان متهاويًا ، وقال ملتهب الوجه :

- " لماذا تكذب ؟ لماذا تصر على الوقيعة بينى وبينها ؟ ! "

فقال وصفى بإنكار بارد :

- " ألكى أتزوجها ؟ ! اسمع إذن ما أقول لكَ ! أولاً أنا لن أتزوج ابداً لأسباب عقلية ونفسية وعضوية ! أنا أعتقد أن إنجاب الأطفال فى عالمنا هذا جريمة شنعاء . وأن المرأة مخلوق هوائى متقلب هش - حيوان بشع ، سريع الاستهواء .. المرأة نكد وكرب وعدوة كل فكر وكل قضية عامة مع أننى أصبحت بلا قضية ولا فكر وأنا أتقزز من المرأة وأنفر منها لأننى أراها رؤية عارية مغايرة لا كما تراها أنتَ . أما السبب العضوى ، فأصارحك أننى رجل مصاب بالعنة والعقم ! وفقدتُ كل اشتهاء لأى شى فى الدنيا .. كما أننى أحترق ولن أعيش طويلاً ! "

- " إذن ، لماذا تطاردها وتلاحقها ؟ ! لماذا حاولت أن تغتصب منها اعترافا بحبها لك وهى .. هى لا تشعر تجاهك إلا بالكراهية ؟ ! "

فزوى وصفى ما بيْن حاجبيه ونظر نظرة ثاقبة طويلة مستريبة فى وجه حسان ثم سأله

- " ماذا قلتَ ؟ ! حاولتُ ماذا ؟ ! اعتراف ؟ ! اعتراف بالحب ! ؟ وهَزَّ رأسَه فى أسى وابتسم ابتسامة مريرة ثم قال بنبرة هادئة :

- " لا . لا لم يحدث هذا أبداً . "

- " أنا لم أفهم منك شيئا واضحًا . تسأل ولا تجيب تتكلم ولا تفصح . وهذا أسلوب غير سوى وليس هو الأسلوب الذى يتبع بين الأصدقاء . فأنا مقتنع حتى الآن أنك تستهدف الوقيعةَ لسبب يخصُّك أو لسبب آخر خاف على ، فيجب أن توضح الأمور . فهذا موقف لا يرضى الله .. " فقال وصفى باندفاع :

- " لماذا تدخل اللهَ فى كل أمر نطرقه ؟ ! " .

فهز حسان رأسَه وقال بتحدٍ :

- " أنت فعلا ملحد يا أستاذ وصفى ! مع أنك قلتَ لى من قبل إنك تؤمن بالله ! لماذا كذبتَ ؟ ! "

- " أولا ، أنالا أكذب . ثانيًا : أنا أؤمن بالله الذى لا يؤمن به إلا الصادقون ! "

- " أنت شيوعى ! "

- " أقالت لكَ هذا أيضا ؟ ! كم تود هى أن تلقى بى فى السجن حتى الموت ! لا يا أستاذ حسان . لم أعد شيوعيًا . لم أعد أنتمى إلى أى أيدزيولوجية ملعونة كل الأيديولوجيات ! لستُ شيوعيا ولا رأسماليا ، لست يمينيا ولا وسط ، ولا ليبراليًا ولا راديكاليا ولا فوضويًا .. ولا عبثيًا .. ! " .

- " أنت انتقامى إذن ؟ ! "

- " كأن الانتقامَ قد أصبح له مذهب ! لماذا تقول هذه الكلمة يا أستاذ حسان وأنا أحدثك حديث الصديق . ! " .

- " أى حديث هذا ؟ ! أصارحكَ القول إنها تعذبت كثيراً . ألا يكفيها ما لاقتْ

من عذاب وتعذيب !

- " أى عذاب وأى تعذيب ؟ ! "

- " ستضطرنى يا أستاذ وصفى إلى الخوض فى حديث ذى شجون وجراح لن تندمل ! "

- " قُلْ ما عندك ، فإننا نتكلم بروح رياضية راقية ، وأنا أواجه الحقائق الضارية بقلب جسور .. تكلم بلا حرج ! "

- " أصارحك أنها لاقت تعذيبًا فى حياتها الزوجية فى بيتكم هذا ! "

- " بيتنا هذا هو الذى أواها من الفقر والمذلة .. " .

- " وأنت أيضا تعيرها الآن بالفقر ! أنتَ يا رجل الفكر تقول هذا . أنتَ يا مَنْ تريد أن تغير من بؤس العالم وشقائه ؟! أنتَ من المثقفين الذين يقولون كلامًا معسولا ولا يفعلون ! لا مؤاخذة يا أستاذ وصفى ! "

- " أنا أتقبل كلامكَ هذا لأنك صديق طيب ، حَسن الطوية . ولا أغضب منكَ مهما تقل .. لكنى أؤكد لكَ أنها عذبتْ زوجَها المرحوم شقيقى بقدر يفوق كثيراً ما لقيتْ هى على يديه من سلوك عصبى ! "

فقال حسان بحدة وانفعال :

- " سلوك عصبى ؟ ! آسف أن أضطر إلى مصارحتك بأمر رهيب ، بأن هناك دليلا قاطعًا على وحشية لا تليق بسلوك إنسان متمدين ؟ ! أرجو أن تقبل كلامى هذا ! بروح رياضية راقية ! "

- " ما هذا الدليل ؟ وما هذه الوحشية ؟ ! "

فقال حسان باندفاع غير واعٍ :

- " الدليل ؟ ! تلك التشوهات التى بظهرها . آثار حَرق بجمرات سجائر المرحوم ! "

فقال وصفى مربدّ الوجه :

- " هل تفتح ملف الأدلة ؟ ! لا تستفزّنى ! "

وتراجع وصفى وغاص فى « الفوتيل » الأسود ، فى هيئة مَنْ انتابه شبهُ انهيار :

- " أعـرف أنهـا هى التى تقـول لكَ هذا ؟ بالطبع أنتَ لم ترَ هذه التـشـوهات المزعومة ؟ ! لا تؤاخذنى ! ولكن اسمع .. اسمع يا أستاذ حسان ، أراهنك رهان الرجال على براءة المرحوم من تهمة « السادية » هذه ! أنا لا أدافع عنه ، فهو لم يخلُ ، رحمه اللهُ ، من عيوب ومساوىء ككل إنسان .. "

- " قلت بلسانك إن حياتها الزوجية كانت جحيما لا يُطاق ! "

- " هذا صحيح ! وما هو حق أقوله ولو على نفسى . لكنى لا أتصور أن المرحوم كان يعذبها إلى هذا الحد من التعذيب . أنا لا أنكر أنه كان يضربها ! "

- " هذا يؤكد صدق كلامها إذن ! "

- " ليس كلَّ الصدق ! "

- " من يضرب لا يتورع عن الحرق ! "

فقال وصفى بحدة :

- " أراهن ! "

وكان حسان يجفف عرقًا تصبب على جبينه كانت الحجرة ساخنة ومعبقة بالدخان ، على حين كان وصفى يستطرد قائلا بصوت ممطوط مرهق :

- " ارجع لسؤالى يا أستاذ حسان . لماذا ركبتْ التاكسى فى ذلك المساء ؟ ولماذا قامتْ فى أثناء جلوسها معكَ فى ركن « لورانتوس » وغابت عشر دقائق تقريبًا فى ذلك الصباح ؟ ! ولماذا تدعى الآن أن ظهرها مشوه بالحروق ؟ ! ولماذا تستخدمكَ مطية لحسابها الخاص ؟ ! كما ستجد أنت فى دخيلتك أكثر من عشرة أسئلة سرية أخرى تمور وتفور بها نفسك الطيبة !

الفصل التاسع والخمسون

الوجه والظهر

أصرَّ " وصفي على أن يصحب حسان خطوات على الطريق . وسارا جنبًا إلى جنب صعوداً وسط الشارع الضيق الخالي ، يهبُّ من ورائهما هواء عاصف يعبث بعطفيهما ويملأهما ، ويكاد يطوحهما ويطيّرهما كغُرابيْن . كان وصفي لا يكفّ عن الكلام ، على حين كان حسان قد سقط في هوّة من الصمت المريب في كتف ظلمة الشارع . لكنه كان يرهف سمعَه مضطربًا على الرغم من صوت البحر الهادر . سمع وصفي يقول :

- " أناس كثيرون في هذا العالم التعس ، يستشعرون الراحةَ في غيبوبة اللامبالاة . عادةً منذ آلاف السنين . كثيرون يسعدون بالمخدرات وكثيرون هم زبائن عند مروجي الأوهام . من الأوهام سطوة الكذب وعبادة الصَنَم والانخداع بالانبهار ! "

فقال حسان بغيظ من تحت ياقة معطفة وهبّات الريح تلطم أذنيه وتنفخ فيهما :

- "ومنها الجَرى اللاهث عبثًا وراء حقيقة "،ما هى إلاوهم وسرابكدنيانا ! "

- " كلُ فرد منا عالم قائم بذاته "

- " ومع ذلك فهو عبد لسلطان الجميع . مملوك والكل مماليك . فمَنْ منا الملك أو السلطان ؟ ! "

- " ليس فينا مَنْ هو فريد متفرد . أما السلطان فهو القوة الغاشمة .

هو الوهم الكبير . وفي هذا عزلتنا ومصيرنا وقدرنا ! "

- " هل تؤمن بالقدر ؟ ! "

- " القدر ! ؟ ليس بالضرورة أن يكون القدر قوة غيبية ! "

- " الله وحده سبحانه الذي بيده كل قضاء وكل أمر .

- " إذا اختلفنا فى أمر يا أستاذ حسان ، هل تغضب منى ! .

- " بصراحة ! أنا لا أصادق ملحداً يا أستاذ وصفي ! "

- " أنا لستُ ملحداً على النحو الذى تظن ! " .

- " الله وحده يعلم ما فى السرائر ! " .

- " إذن ، دَعْ ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! " .

- " أنا لا أحسابك . "

- " لكنك فيما يبدو ، تنوى القطيعةَ والاحتجابَ عنى ! "

وهمهم حسان وتمتم بكلمات ضاعتْ فى غمار عَصف الهواء وهدير البحر . وسارا خطوات فى صمت وكأنهما فى جنازة . وما أن بلغا ناصيةَ الشارع حتى توقف حسان ورمى بطرفٍ خفى كسير ، الشارعَ الموحش المنحدر والقطط التى تجرى نحو البحر الثائر ، وقال وهو يمدُّ يدَه للمصافحة :

- " أشكرك يا أستاذ وصفى . وأرجو الشفاء للسيدة والدتك . "

- " بل شكراً لك أنت على تكرمك بالحضور . لكنى أرجوك ألا تغضب منى . فمهما يشتط بنا القولُ فالحقيقة التى لا مراء فيها أننى أعتز بك صادقًا فالكلام يطير فى الهواء ، مهما اشتعل فيه من لهب .. " .

فقاطعه حسان :

-"بعضُ الهواء الخفيف يذكى النارَ ، فما بالك بالعاصفة التى نحن فيها ؟ ! "

فقال وصفى مفتعلاً ضحكة خافتة :

- " نعم ، بعض النسيم يذكى النار لكن العاصفة تطفئها على حدّ قول شاعر كبير ! وأما الصداقة الحقة، فهى فعل خلاق . تأمل جِذْر كلمة الصداقة فى لغتنا الجميلة ! الصداقة حدث تاريخى من شأنه أن يغير من مسار التاريخ البشرى للاتجاه به نحو وجود جديد بخد فيه الإنسان « السوبرمان » قد بنى عالمه الراقى النبيل ! فمتى تغيير التاريخ فى بلادنا ؟ ! ومتى شئت أن نلتقى فأنا طوعَ أمرك ولو أنت قاطعتنى فلن أقاطعكَ أنا ! "

.... وافترقا .. !

مشى حسان بخطوات متعجلة يلفح هواء الليل وجهَه العابس ويقرّس برده جسمَه كله . مشى غائب البصر كأعمى يجوس طرقات مدينة غريبة .

اعـتـزم فى أثناء الحديث فى بيت (وصـفى) أن يذهب إليـهـا .. أن يقـابلهـا الليلة وليس غداً ! إذن مرة أخرى قبل الموعد . قبل مساء الغد . ليكن ذهابه إليها الليلة بلا دعوة . ليكن الآن !

- " ما الذى حدث ؟فكم تبدو متكدراً ! "

- " حديث عابر ! "

- " لا . غير معقول . لا بد أن الوغدَ قد عكر دمَك ! "

قال مطرقاً :

- " إنه يوقع بيننا ! "

- " ماذا قال لكَ ! "

- " قال كلاماً ! "

- " بالطبع أنت رددتَ له سؤاله السخيف ، فهل ذكرتَ له جوابى ؟! "

- " وسألنى سؤالا آخر ! "

- " ما هو ؟ "

- " هو سؤال أسخف ! "

- " أود أن أعرف ! "

ورفعتْ طرفَ قميص نومها ووضعته على الطرف الآخر فغطّتْ ركبتيها وساقيها ونظرتْ إليـه تتنتظر جواباً . لكنه كان غارقاً فى صمت مريب . فقالت بنبرة رقيـقة تستحثه على الكلام :

- " أنتَ لا تستطيع أن تخفى عن هناء أمراً ! "

- " أنا لا أخفى . ولكنى متوتر الأعصاب . ذهنى مشوش .. "

- " لأنه عكر دَمك بكلام ، فـإذا تكلمتَ ارتاح بالك . مـاذا قـال لك ؟ " وأشعل سيـجارةً من عقب أخرى ، ونفث دخانَها ، واختطف نظرةَ إليـها فـرآها تهز ساقيْها فى قلق عصبى . قال :

- " أخبارنا تصله أولاً فـأولاً . عرف أننا جلسنا سوياً فى الشهـر الماضى فى

ركن بمحل « لورانتوس » ! .. "

فقالت ممتقعة الوجه :

- " وبعد ؟ ! "

- " وعرف كل تفاصيل تحركاتنا فى ذلك الصباح ! "

- " كلب ! "

- " ثم سألنى .. "

- " قال ؟ ! "

- " قال : (ما سبب قيامها خلال جلوسها معكَ فى ذلك الصباح ؟ !) .. "

- " و ... ؟ ! "

وهو يسأل ويثرثر ، ولكنه لا .. هو .. هو يوقع بيننا يا هناء .. "

- " بالطبع هو يوقع بيننا . وسؤاله هذا سخيف لا شك ! ماذا قال أيضا ؟ ! "
ورفع حسان وجهَه المكفهر ونظر إلى هناء ، فرآها مأخوذةً ساهمة . ورمق بنظرة حزينة وجهَها ونحرها وصدرها الناهد وثبت عينيه لحظات على أجزاء عارية من كتفيها . كان يحملق بغرابة . ولحظت ذلك فسألته :

- " لماذا تنظر إلى هكذا يا حسان ؟ فى عينيك كلام .. "

فهزَّ رأسه فى أسى وقال بتعلثم مطرقًا :

- " لا أعرف .. ماذا أقول ؟ !

- " بل أنت تعرف ! جئتَ إلى وقد انتويتَ الكلام ! "

- " قبل أن تفتحى لى بابك كان صدرى يلتهب ويغلى .. " .

- " وما يزال قلبك يتعذب . نعم كنتَ تطرق البابَ بعصبية ، وقد نسيتَ حذرك من الجيران .. ولما فتحتُ لك البابَ رأيتك فى غاية الكدر فاستنتجت أشياء .. ! "

- " ما هى ؟ ! "

- " استنتجت طبعًا أن الوغدَ قد دسَّ السمَّ فى العشاء الذى لم نتناوله بعد ! .. سم الوقيعة ! "

- " أليست الحقيقة أنه يوقع بيننا يا هناء ؟ ! "

- " بلا شك ! وماذا غير هذا ؟ أأنتَ تسأل هذا السؤال ؟ ! "

فزفز زفرةً حارة وتنهد شاهقًا فى حزن وكمد ، ثم قال :

-"واجهته بأكثر من سؤال. سألتُه : لماذا تصرّ على التلصص وتسقط أخبارنا ؟ قلتُ له : أنتَ بصراحة تطمع فى هناء ، أتريد أن تتزوجها ؟ "

-" ماذا كان جوابه عندما سألته عن سبب تلصصه ومراقبته ؟ ! "

- " قال .. قال إنه يبغى الخير .. " .

- " أى خير ؟ ! "

- " ونفى طعمَه ورغبتَه فى الزواج . وذكر أسبابا .. "

- " ما هى ؟ ! "

- قال إنه لن يتزوج لأنه لا يثق بامرأة على وجه الدنيا .. "

- " لماذا لا يثق ؟ ! "

- " هكذا هو موقفه من النساء .. ينفر منهن .. وذكر أيضا سببا آخر ! " .

- " ما هو ؟ ! "

وفرك كفّيه فى توتر واحمرّ وجههُ .. ثم قال باندفاع :

- " قال .. " .

- " قال ؟ ! " .

- " قال أنه مريض ؟ .. "

- " مريض ؟ ! "

- " لم يقل إنه مريض ! ولكنه ذكر سببًا يعنى أنه مريض .. "

- " ما هو ؟ ! "

- " سبب يمنعه فعلاً من مجرد التفكير فى الزواج ! "

- " لا تخجل من ذكر أمور لا بد من توضيحها ! "

- " مريض بمرض يبعده حتمًا عن النساء ! و .. "

- " و .. ؟ "

- " ويدفعه دفعًا لنبذ الزواج ! " .

- " كاذب ! "

- " كاذب ؟ ! "

- " أتشك أنه يكذب يا حسان ! "

- " هو كاذب ! ولكن .. "

- " ولكن ؟ ! "

- " كاذب في أمور أخرى . ولكن كيف .. كيف يقول إنسان عن نفسه هذا الكلام ؟ "

- "هذا وغد دنيء نذل، لا يتورع عن التوسل في الدسّ والوقيعة بأي وسيلة ! "

- " غير معقول ! "

- " وإن يكن مريضا حقًا ، فهو مثل أخيه ! "

- " هناء ! "

- " مثل أخيه أخوه شاذ . ولكن لم يمنعه شذوذه من الزواج ! لم يمنعه من ضربي وتعذيبي ! "

- " هناء ! "

ورآها تمسح دموعا عن خَدّيْها ، وهي تقول بانفعال وتكاد أن تهم بالبكاء :

- " أتعرف أن أخاه قد حاول مرة قتلي ! "

- " كيف ؟ ! "

- " عائلة من الشواذ المجانين ! "

- " كيف حاول قتلك ؟ ! "

- " قبل موته بشهور قليلة ، قال لي : اليوم أنا مرهق بسبب العمل المتواصل

وأنتِ لا تتنزهين . نريد اليوم . أنا وأنتِ ، أن نقضي يومًا في الخلاء للترويح . والعمل يستغرق كل وقتي وجهدي . اليوم لكِ ! "

-" وبعد ؟ ! "

- " قال : لننطلق في رحلة صيد . وأخذني داخل سيارته وانطلق بي إلى مشارف المدينة .. إلى .."

- " إلى أين ؟ ! "

- " إلى أرض خلاء ..... إلى ضاحية « الملاحات » .. "

- " وراء حَي « محرم بك » .. ! "

- " بل انطلق بي أبعد من هذا . وكان يقود سيارتَه بسرعة جنونية . تَوغَّل بي بعيداً عن طريق مصر - الإسكندرية الصحراوي . ظل ينفذ في مجاهل البحيرات والمستنقعات .. هناك .. ثم استقر في مكان موحش حيث لا إنس ولا جان . بل هو الشيطان الأكبر .. "

- " وبعد ؟ ! "

- " وراح يتسلى بصيد البطّ وطيور « الغرّ » ببندقيته . هذه هوايته القديمة . واستدرجني بلطف وراء حِرْش من البوص والأعشاب الخشنة المطلة على مستنقع عميق كئيب حيث لا يوجد إنسان ولا حيوان غيره . وفجأة ! " .

سكتتْ هناء برهة ، على حين كان حسان يستمع في وجوم ، ثم أردفت قائلة :

- " وفجأة وجدتُ نفسي أنزلق انزلاقا سريعًا من حيث لا أدري .

سقطتُ في المياه . وكدتُ أغرق . ولم أره لا أمامي ولا خلفي ، لكني تشبثت بأشياء .. ببعض الأحجار التي انفلتتْ متدحرجة تحت قدمي ، ثم بقطعة من الخشب بارزة من حافة اليابسة لمحتها في اللحظة الأخيرة ! "

– " هل هو الذى دفعكِ إلى المياه ؟ ! "

– " هو الذى سحب الأحجار من تحت قدمى أثناء وقوفه خلفى لكى أسقط . سحبها دون أن أشعر به لكني تشبثت بأشياء واستطعتُ أن أقوم . خرجت من الماء قبل أن تغوص ساقاى فى العُمْق . كانت ملابسى قد ابتلتْ . كنتُ أرتعش . جريت فى رعب ، لم أره من حولى . ووثبت داخل سيارته . وأخبرتُه أن الحادث كان بسبب عدم حذرى وجهلى بموطن الخطر فى ذلك المكان ! .. كان يومًا رهيبًا . ! "

– " ولماذا أراد قتلكِ ؟ ! "

– " لأن حياتنا كانت جحيما .. لا تفاهم بيننا . إجرام وزاثى ! " وارعشت بدنَها الذكرى الأليمة ، وغاصتْ فى تلافيف الفراش ، ثم استطردت بصمت متهدج :

– " حياتى كلها شقاء وتعاسة ! من ملجأ للأيتام إلى سَكن كالقبو تحت سفح « عامور السوارى » ثم إلى حجرتيْن فى حى « غربال » مع أم ماتتْ من عناء الكدح وشقاء الكفاح .. ثم إلى بيت المجانين وسط إناس قلوبهم متحجرة .. وحوش .. افترسونى .. أهانونى – أذلونى . ظُلْم . ظلم ! ،، وغصتْ بالبكاء ، وانتحبتْ ، ثم انفجر نشيجها وارتعدت أوصالها رعدات عصبية ثم تكورتْ فوق الفراش . وتطوى جسمها وتقبض وأخذ ينتفض . ودفنتْ رأسَها وشَعْرَها فى صدرها ، وأحاطتْ ركبتيهْا بذراعيها تقلّصتْ وتشنجتْ ، وعَلاَ نحيبها موجعًا ، ورآها تنتفض فى زلزلة كمَنْ انتابها صَرعُ ! وكلما هَدْهَدها براحته على كتفها ، يرجوها أن تهدأ وتكف عن البكاء ، علاَ نحيبُها الهاذى حتى قَاربَ الصراخَ .

– أرجوك يا هناء . كفى ! " .

– " عذبتُك معى . " .

– " كفى . بكاؤكِ نأر فى قلبى ! "

- " ما ذنبكَ أنت ! "

- " كفى ! كفى ! "

- " حياتى كلها مصائب ! "

- " كفى ! ارحمى نفسَك . "

- " مصائب وهموم ! "

- " ارحمى نفسك وارحمينى ! " .

ولم يشعر إلا ورأسها وشعرها وعنقها فى حُضْنِه ! طوقها بذراعيه فى اندفاع وبلا وعى . استكانتْ بدموعها فى صدره كقط يائس ضال .. ساخنة منتفضة . ولثَمَ خديْها وجبينَها . كان قميص نومها رقيقًا لكنه لم يكن شفافًآ . انتابتْه حمى ، فضغط بقوة يحتضنها ولا يكفّ عن مداعبة ذقنها ولثْم خدّيها فى حنان جياش تجاوزَ اللطف ، وتأهتْ مفصحة عن وجعٍ بخدِّها وَخَزَه زرٌّ معطفه ، فخلعتْه وزحفْت ذراعاها واحتضنته وهى ما تزال منخرطة فى بكاءٍ مرير . وبادلتْه القُبلات فى تعاسة بالغة ، لكن عينيه كانتا تطلان من فوق كتفيها على ظهرها المستتر وراء قميصها غير الشفاف ، وهَمَّ بأصابعه المرتعشة ، محاولاً سحب طرفه العلوى إلى أسفل ، فلم ينسحب . ضَاقَ صدرُه لاهثا . فكفَّ عن محاولته التى لم تستغرق أكثر من ثلاث ثوان . وغرق فى عرق متصبب . ولم يشعر إلا وهى تنطرح على ظهرها وتجذبه إليها ..

ومضتْ دقائق ، وكأن الدنيا كلها عَمَاء جمرى . وفى الظلمة الغريبة خلع بيديه المرتعشتيْن نطاقَ قميصها . سحبه عن كتفيها وشدَّه إلى أسفل . وحاول أن يتقلب بها يمنةً أو يسرة ، لكنها كانت متشبثة به فى قوة وهى تنَهْنِه . وسرعان ما رَانَ عليها هدوء غريب ، مع ذلك ، كان هو متشبثا بشىء آخر فى رأسه ، بفكرة متسلطة بفكرة استولتْ على عقله المبدد وحواسه المتوترة من قبل أن تفتح له بابَها !

وتراكمتْ على كيانه أثقال وأصداء ، وكأن صوتَ البحر يصطخب فى باطنه المحترق ويلاطم موجهُ المؤار هشيمَ جثمانه ، وكأن الهواء يعصف برماد كيانه فيذروه هباء .

غرق مشّوشًا لا هثًا فى غَورٍ سحيق رسب ملتاثًا كحفنةٍ من الأقذار فى أعماق سوداء سواد الفحم وصعب عليه أن يستخلص فكرتَه من دماغه الهلامى اللزج . لكنه فى غيبوبته استطاع أن يتذكر أنه خلع قميصَها حتى خصريْها وأنها ما تزال منطرحة . ها هى على ظَهرها .. وها هو وجهها تحت وجهه فى دغل شَعْرها المبتل بالعرق والدموع .. وجهها ليس وجهها البَدّرى ! "

وفجأةً رأى كالإلهام ضوءاً خاطفًا سطع فى دماغه . بَرقَ وَوَمَض . عضَّ على نواجذه ثم صاحَ منتفضاً ناهضاً منتصبًا فى فزع :

– " هناء ! الثعبان ! تحت اللحاف بيننا .. الثعبان ! " .

فانتترت فى رعبٍ وهلع واثبة وثبةً مجنونة سريعة سرعة البرق مغادرة السرير . وعيناه جاحظتان تتابعانها فى تفّرس مجنون . وبالباب وقفتْ ثوانى محملقة تشهق ، فاغرة الفَمفى هلع ولا تقوى حتى على الصراخ . كانت تنتتفض كالريشة المعصوفة . وتهاوَى مرتميًا على جانب السرير فى خورِ كوسادةٍ مبللة . وكانت هى قد اختفتْ . كان رأسهُ وكتفاه وصدره على حافة الفراش ، على حين كانت ساقاه ممددتيْن على الأرض فى انهيار .. فَبَدا مثل قتيل ! وسمع لهاثَه ، زفيَره وشهيقَه . من خلال ثنايا اللحاف وأطواء معطفه الملقى فوق السرير ، تحت عينيه المسبلتيْن فى خدر وصداع ، أدرك أنها اختفتْ من الحجرة ... وترامى إلى أذنيه صوتُ ترشرشِ مياه صنبور ... !

والتقط معطفَه واندفع مترنحًا وانصرف ! ..

الفصل الستون

العصافير البيضاء

وفاجأه وجهُ شبح على الدرج فى بئر السلم . وجهُ مطموس مظلم ، وبصق فى وجهه نافخًا زافراً بلا صوت .. بلا كلمة ! كانت هذه المفاجأة مروعة وكان من المحتمل أن ينخلع لها قلبهُ لولا أنه كان ضائعًا داخل نفسه ضياعًا رهيبًا ، فَبَدا غير آبه بما حدث له ، ومع ذلك ضاعف ذلك الحدثُ المقزز المخيف من شعوره بالقهر والانسحاق ، لم ينطق الصوتُ بكلمة ولم يرد هو عليه بحرف ! وانكفأ هناك على حوض الحمام فى شقته وتقيأ . ولما رفع رأسَه فى إعياء رأى وجهَه داخل المرآة مشوهًا رأى جلدَ وجهه المتخدد يتشقق وينث صديداً ، فبصق عليه بدوره ! وكأنه لمح أثرَ جرحٍ قديم يشقّ حاجبه الأيسر ، فبصق مرةً أخرى ، وتقوض جسمُه وتقبّض ، وراح فى نوبة قيء أخرى ! ولكنه لم يفرغ شيئا من جوفه ! لم يفرغ سوى سائل أخضر ذى مَذاق مُرّ !

ولم يفتح الدكان . ظل أيامًا مغلقًا . جاء مرة وفتحه ، وعجب لهذا الأمر وساءل نفسه : " جئتُ هنا لأمر ما ، كيف نسيتهُ ! - وعاد من حيث جاء . والأقاويل تتناقلها الألسنة وتلوك الشائعات كمضغة سائغة . وأكوام الزبالة والرِمَم تلقى على بابه وتسدّه ، والغلمان يقذفونه بالحصى والطوب ويهللون بكلام ! ..

ومن طريق خلفى ، سعى إلى الشيخ عبد المقصود ، ودخل المسجد بخطى ذليلة قاتم النفس .

- ما هذا الذى فعلتَه بنفسك ؟ ! "

- " سأبيع الدكان ! "

- " وإلى أين ؟ ! "

- " أبحث عن آخر فى أرض أخرى ، أرض الله واسعة . " .

- " والزواج منها ! ؟ "

- " قال رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، الساعى على الأرملة والمسكين

كالمجاهد في سبيل الله .. ".

- " نعم .. "

- " وقال صلى الله عليه وسلم : خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت يتيم يساء إليه ! "

- " نعم .. "

- " وبلغتك الأخبار أننى دخلتُ بيتها ! "

- " سمعتُ ما ساءنى أشدَّ السوء ! " .

- " وعلمتُ أنك صدقتَ كلامَ أهل السوء .. "

- " جاءنى الكلام ببيّنة واعترافك الآن ! "

- " دخلته ولم أرتكب معصية بنيّةِ ارتكاب الإثم ! "

- " دخلت بيتَها وكان الشيطان ثالثكما . حذرتك وأنذرتُك :

(إياكم وخضراء الدمن) ! فلم تطع وعرفك الناسُ فى الأيام الأخيرة الماضية بسرية سلوكك الشائن ! "

- " نيّة المؤمن خير من عمله ؟ ! "

- " قال الله تعالى : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن " .

أنت لا تفهم ! "

- " أنا لم ارتكب كبيرة يا شيخ عبد المقصود ! "

- " ما ظهر يعنى ما كبر ، وما بطن يعنى ما صغر . ومن الصغيرة : النظر ! ناهيك عن اللمس والقبل . وقالوا إنك تجاوزت كل هذا ! "

- " ظلم يا شيخ عبد المقصود ! "

- " قلبك متورم بالذنب ، ورأسك غارق فى الطين . ولم يكن إيمانك بالله قائما على أساس ثابت راسخ ! "

- " قلبى موجع من الظُّلم ! "

- " بل لأنه سكر من خمر هواها . إن مَنْ جلس فى المسجد ، فإنما يجالس ربَّه فما حقّه أن يقول إلا صدقاً .. فأنتَ كاذب ! "

- " ظُلم . وكنت أريد أن أرى .. أن .. لم .. لم أرَ .. "

- " لم تر ماذا ؟ ! "

- " لم أرَ .. لم أرَ يا شيخ عبد المقصود ! .. أنت .. ":

- " ألمَّ بك طرفُ الجنون ! أعمى الفسقُ عينيك . عار ووصمة ! "

- " أنا لم أرَ .. أنتَ ظالم . أنت ظالم يا شيخ عبد المقصود مثلهم ! "

- " أخـــرج .. أخـــرج من بيت الله الطاهر ، فـأنت لستَ ابن أبيك الشـيخ البكرى ! "

.. واتجه حسان صوب الباب منهار القلب ، كاسف الوجه . تخبَّط فى خطاه وكان دمُه يجيش ويغلى . وانفلتت فردةُ حذاء من تحت إبطه وسقطتْ على العتبة وكاد أن يتركها ويمشى وهو يهذى :

" لم أرَ ..... لم أرَ ..... ! " .

وفى العصر والبرد يهرهر جسمَه الهفّ ، دخل فناء مبنى مدرسة « الشيخ محمد عبده » وكان خاليًا إلا من برك مياه المطر المتراكمة وسأل عن صديقه « شعبان أفندى » فلم يجده فى حجرته كما تعوّد ولا فى أى مكان آخر من المدرسة . قال له زميل هناك أنه سافر فى رحلة مدرسية إلى « أسوان » " !

ووقف حسان بالباب الخارجي وحده ، والدنيا تميل وتنوء تحت العاصفة وقف ينظر إلى الأشجار والعصافير وهى تتنقل من فرع إلى فرع ، وتطير فى الهواء البارد حرَّةً فرحة . رأى كلَّ ما حوله غريبًا مكتسيًا بلون الكآبة الأردوازى تارة ، مسربلاًبروح التوثب المنعش تارة أخرى،وأخرج من جيبه قلماً وقصاصة ورق بيضاء . أسندها إلى سور المدرسة ، وكتب وكأن بكاءً حاراً يتردد فى صدره المحزون :

" عزيزى وصديقى الوحيد فى هذه الدنيا الظالمة

الأستاذ شعبان قنديل

" تحياتي وأشواقي . وحمداً لله على سلامتك . أكتب لكَ هذه الرسالة وأنت الآن " " فى أسوان . أتركها مع زميل لكَ لحين عودتك . أرجو أن تكون شمس أسوان قد " امتصتْ من بدنك الطاهر رطوبةَ الإسكندرية . تمنيتُ أن تكون بجانبى هنا الآن .. أنا أموت عذاباً .. زل جسمى وذلت روحى . ليتنى أموت الآن فاستريح . عندما تعود بالسلامة ، لا تنسَ أن تسأل " " عن قبرى . أقرأ على جثمانى الفاتحةَ وادعُ الله أن يرحمنى برحمته الواسعة " الله وحده أرحم الراحمين .. أنا مظلوم ....

صديقك : حسان »

وطوى الورقةَ . وتنبّه إلى عدم وجود ظَرْف معه ليدس داخله الرسالةَ ، فكتب على جانب من ظهر الورقة كلمتيْن : " شخصى وسرّى " . ومشى خطوتيّن ثم توقف كاد أن يعود إلى زميل صديقه داخل مبنى المدرسة ومشى خطوات أخرى ، ثم توقف فتجمد فى وقفته واجمًا ذاهلاً . وطالتْ وقفتُه فى الفناء الساكن الخالى .. ثم مزق الورقةَ بعصبية وعزم طارىء ، مزقها مزقًا صغيرة ، وطوّح بها فى الهواء فتطايرتْ كعصافير بيضاء .. وسار يسلك سبيلَه إلى الدكان متحديًا .. !

وقالت له الست جليلة :

– " تَمَّ كلُ شى .. الشقة الآن تلمع وتبرق . أى خدمة أخرى ياعم حسان ؟ ! ألف مبروك دَعْك من كلام المجانين ! متى عقد القران ؟ ! "

– " بعد أيام ! "

لم يدخل دكانَه خلال ساعات طويلة إلا نفَر قليل ، بينهم مَنْ غمزَ ومَنْ لمز كفَّ الزبائنُ عن دخول دكانه ! بعضهم دخل وطلب أشياء وأخذها دون أن يدفع ، والبعض قال له : " على الحساب .. « شكك » ! الدفع فيما بعد !) – وكان حسان أصبح عديم الكلام .. ولكن .. دخلتْ هناء الدكان . وبعد أن اشترتْ منه شيئًا ، قالت له هامسة :

– " لماذا لا أراك ؟ لماذا تخاصمنى ؟ ! "

فقال بصوت مريض :

- " سنتقابل .. " .

- " متى ؟ "

- " فى أقرب وقت .. "

- " إنسَ ما حدث .. "

- " ما حدث لا يُنسى .. "

- " انتظرك الليلة ! "

- " ربما .. "

- " إنسَ .. "

- " سأهجر الدكان ، وهذا الحى اللعين . "

- " وبعد ؟ ! "

- " وستغادرين شقتك سنرحل معًا . "

- "تعالَ لنتحدث ونتدبر الأمر ! تعال الليلة..فى أى وقت ستجدنى صاحية ! "

- " سأجىء ! .. "

الفصل الحادي والستون

حلم شرنبث

جالسه « شرنبث » دقائق داخل الدكان . وتكلم كلامًا قليلاً غامضًا ، ولم ينبس حسان بكلمة ، فقال شرنبث وهو يدَعك راعفَ أنفه الأقعن :

– " قلتْ للمعلم حميدو الضلم ، الأرض أرضى وأرضك . لكن مَنْ بيده الأمر فيعطينا حصتنا من الرمل والحديد والخشب والأسمنت ؟ لا أنا ولا أنت . كيف نبنى البيتَ جوار المرجيحة ؟ شمَّر ذراعَه وقال لى : (أقطعه إذا لم أبنه بعرقى !) – قلتُ له : (أحلق أنا « شَنَبى » لو قدرت مشيت على ماء البحر وجريت ولم أغرق . قال لى : (كل البحر عرقى) نظرتُ نظرة بعيدة . شُفْت قلعةً جديدة . فوقها « حميدو » نادى علىَّ بذراعه . قال لى : (يا شرنبث ! ادخل . هذا بيتى بنيتُه بعرق جبينى) انحنيت وطرت فى ماء البحر . شُفْت بين أصابعى الحافية وجهى مفلوقاً . شُفْت « شنبى » محلوقًا . نادى « حميدو » علىّ كان رأسه مرفوعاً لكن ذراعه مقطوعة ! كلمنى يا حسان ! "

قال حسان يجاريه بصوت ضعيف :

– " والبيت ؟ والقلعة ؟ "

– " لا بيت ولا قلعة ! البحر هائج وأمواجه فى السماء السابعة ، ونار « والعة » والشمس طالعة ! " .

وضحك شرنبث ضحكةً مقتضبة ، ولم يضحك حسان .

وفى العصر ، أغلق دكانهَ . وكانت رياحُ العاصفة قد هدأتْ ، إلا أن الغيوم كانت تخفى وراءها قرصَ الشمس الآخذ فى المغيب . راح حسان يتمشى على حافة ترعة « المحمودية » شارد العقل ، كسير القلب . وجلس على كرسى مجدول من

الحوض على باب مقهى صغير ، حجرة ضيّقة مربعة ، خالية إلا من بعض الصعاليك العاطلين يلعبون الورقَ فى صمت . كان كرسيه تحت شجرة جميز مطلّة على الترعة . وسرح بصرُه فى المياه البنيّة الداكنة وهى تجرى فى بطء وتسحب على سطحها الملوث بعضَ الأعشاب وقشور عيدان القصب وتساءل فى حزن : " لم يكن هذا الماء فى منبعه ملوثًا ، فلماذا تغيّر حالها وحال الدنيا ؟ ولماذا تدفعه إلى « وصفى » دفعًا فى خوف وقلق ؟ لا ، إنها تركت له حريةَ الاختيار . ألم تقل له : « إذا كنتَ لا تريد الاتصال به فلا تقابله .. " ولماذا تخفى عنه أموراً لا يجوز كتمانها عنه ؟ لماذا أصرّتْ على الفرار من الحجرة دون أن تدير له ظهرها ؟ ! مع أنها منذ يومين فكّتْ أزرار قميصها وقالت له : « هل أريك ؟ أم أراك تصدق كلامى ؟ ! .. " لا بد أنها أدركتْ مارمى إليه بخدعة الثعبان ، وربما ظنّتْ أنه هو الآخر أصبح فريسة الوهم ، خاصة أن خوفه كان واضحا ، هل أدركت سرَّ خوفه هذا ؟ ! إلى أى حدّ يكون وصفى على حق ؟ وإذا كانت قد كذبت مرةً فأنت أيضا كذبتَ ! لم يكن بينكما ثعبان ! لم يكن بينكما إلا الصفاء . كيف انقلبتْ الدنيا كلها فوق رأسه دفعه واحدة ؟ الشقة جاهزة الآن للزواج . وكيف تكره هى زوجها وأسرته كل هذه الكراهية ، على حين هى لا تتنازل عن إصرارها على احترام ذكراه ، وعلى ألا يتمّ زواجهما إلا بعد انقضاء الذكرى السنوية الأولى لوفاته ؟ ! ولماذا روتْ له حكايةَ محاولته قتلها ؟ وتذكر كلامها : " الموت أهون علىَّ من الإهانة ! " وإذا لم يكن وصفى طامعاً فى جمالها اشتهاءً ،فماذا وراءه غير هذا ؟ لماذا يمطره بتساؤلات تثير فى روعة الظنَ وترديه فى متاهات الشك ؟ ! .. وصفى كاذب منذ الوهلة الأولى التى رأى فيها وجهَه الكئيب بباب دكانه حينما انتحل شخصية أخرى ؟ ! وأنت أيضا يا حسان كاذب فى عالم بشع كله كذب ! .

يفتح دكانه فلا يمكث فيه غير وقت قصير . ويغلقه ويهيم على وجهه . لا يطيق أن يستقر فى مكان ..

وبعد صلاة الجمعة فى زاويه مغمورة بزقاقٍ من أزقة حى « امبروزو » ، استقل الترام وجَالَ جولةً فى أرجاء حديقة « الحيوان » ، فارتياده لهذه الحديقة عادة قديمة . كان ذلك فى الزمان القديم ، فهو عندما يضيق بالناس يشعر بالبساطة والسكينة

بين الحيوانات الوادعة والطيور الملونة . وساءل نفسَه هناك : " كيف أحب الببغاء على حين أنا محب للصمت ! " أمضى ساعةً هناك ، ثم عاد وفتح دكانه ..

بعد قليل ، ظهر « سيد عليان » لأول مرة بعد اللقاء العصيب دخل الدكان مطرقًا وألقى السلام . وقال لحسان :

- جئتُ لأعتذر لك عما بدر منى ، فهل تسامحنى ياعم حسان ؟ ! "

- " سامحك الله ! "

- " كان ما يُقال فى الشارع ويُشاع فى الحى ، من تحت رأسى أنا ولكن السبب الحقيقى هو غلوش ! "

- " الظالم ينتقم منه الله ! " .

- " ولمحتْه زوجتى أمس نازلاً من الطابق الذى تسكنه الست هناء ! "

- " مَنْ ؟ ! "

- " غلوش . الله يخرب بيته ! "

- " ولماذا صعد إليها ! ؟ "

- " لم تكن فى شقتها ساعةَ أن لمحتَه زوجتى نازلاً ، لم تره وهو يصعد . آسف على ما وقع منى يا عم حسان ! "

لم ينبس حسان بكلمة . فأضاف سيد عليان :

- هذا الولد مجرم ! "

- " مَنْ ؟ ! "

- " غلوش ! هل اتفقتما على الزواج قريبًا ؟ ! "

- " سأتزوجها ! قريباً ... "

- " تزوجها إذن وتوكل على الله . ظلمتُك وظلمتها . استغفر الله . أما غلوش فأنا أود أن أراه لأضربه بالجزمة ! كان الله فى عونك ! "

وغادر سيد عليان الدكان . وكان حسان يشعر بدوار وصداع . وضع راحته على جبينه الملتهب وزفر زفرةً حارة ، ثم مالبث أن قام وأغلق الدكان .. وغادر الشارعَ والحي ..

وقبيل المغرب ، في أثناء خروجه من الحمام ، سمع رنينَ الجرس . فتح الباب فرأى وصفي أمامه . تصافحافي فتور . وتقدمه حسان وتبعه الآخر مطأطيء الرأس ، بادي الكدر ، مهموما ، مشعث الشَعر ، دخلا في حجرة أخرى واسعة نظيفة تحت أضواء نجفه كريستالية جديدة . وما أن جلسا حتى قال وصفي بصوتٍ كسير :

- " هل جئتُك في وقت غير مناسب ؟ ! " .

- " أبداً ... "

- " أراكَ تستعد للنزول ، هل أنت مرتبط بمواعيد أو مشوار ؟ ! "

- " لا . " .

- " ما بكَ ؟ "

- " مرهق ! " .

- " اتحتاج إلى النوم ؟ "

- " لا أنام . "

- " فعلا ، يبدو عليك التعب . لماذا لا تنام ؟ ! " .

- " الأرق ! "

- " أصبحتَ مثلي ! أنا لا أنام إلا بالعقاقير .."بالتريبتوزول وحتى هذه أصبحتْ لا تجدى معي ! " .

وصمت وصفي لحظةً مطرقًا ، ثم قال وهو يشدّ رباطَ عنقه :

- " انتظرتُك طوال الأيام الماضية ، توقعتُ أن تزورني في بيتي مرة أخرى !

ولم أتوقع أن تخاصمني وتحتجب عني ، فجئتُ لأسأل وأطمئن .. "

- " أنا مريض ! "

- " لا بأس عليك " .

- " وكيف حال السيدة والدتك ؟ ! "

فهزَّ رأسه وقال بيأس :

- " صحتها تتدهور من سيء إلى أسواء . حالتها خطيرة ! "

- " ربنا يشفي ! "

- " أراك مكتئبًا ؟ ! "

- " حرارتي مرتفعة . أشعر بهبوط ! "

- " ألف سلامة . لابد أن تذهب إلى طبيب ! "

- " أتناول دواءً مهدئًا للأعصاب ! "

وأجالَ وصفي ناظريه في أرجاء الحجرة المطلّية بدهان لامع براق ، فرأى في أحد الأركان ثلاجةً وجهاز تليفزيون جديدين ، وأشياء أخرى في لفافات وعلب . وكان الدهان ذا رائحة نفّاذة . ورمى وصفي ببصره خارج الحجرة متلصصًا على هدى ضوء قوي ، ثم قال :

- " أتمرض وأنت جاهز للزواج ؟ كَمْ كلفك كل هذا وذاك ؟ ! لم يردّ عليه حسان بكلمة ، اكتفى ببسط كفّيه في الهواء وكأنه يقول : (كلّفني كثيراً من المال ، لا أعرف بالضبط !) ، وطال صمتُهما ، فقال وصفي :

- يبدو أنك أرجأتَ موضوع الزواج ؟ ! "

- " لا ! "

- " إذن ، متى ؟ ! "

- " أنت تعرف على وجه التقريب ! "

- " أنا أسال على وجه التحديد " .

- " كل شيء بأمر الله " .

- " وماذا فعلتْ هى ؟ ! "

- " فيمَ ؟ ! "

- " هل هى جاهزة للزواج ؟ ! "

- " نعم ! "

- " لا أظن ذلك ! "

- " كيف يا أستاذ وصفى ! ؟

- " اسمع يا أستاذ حسان ! هل تتزوجها برغم الفضائح التى تتناقلها الألسنةُ فى الحى هناك ؟ "

- " آ ... بلغك هذا طبعًا ... ! أكاذيب وليست فضائح ! "

- أكاذيب أو فضائح ، فالأثر واحد طبعًا أنا لا أصدق أنك ترتكب هذه المعصية التى يصمونك بها ! ضميرك الدينى يصونك من الزلَل ! لكنى أسألك : إلى متى تتصورها ملاكًا قدسيًا .. ؟ ! "

- " أسكت ! يا أستاذ وصفى ! "

- "لن أسكت لأنك صديقي ! إذا كانت الحقيقة مؤلمة فإن أخفاءها جريمة شنعاء ، وصدمتها علاج وشفاء ! أنتَ مريض ! ومرضك كمرض كل الناس فى بلدنا هى تتفرعن عليك . وأنتَ طيّب . أنت مريض بسببها ، وأنتَ تجّهز للزواج ، أنما تسعى إلى الموت وتتهيأ لجنازتك . لن أسكت ! "

طفح صدره بالمرارة والضجر ، فقال :

- إما أن تسكت أو تتكلم ، أقصد ، إذا كنتَ صديقى حقًا ، تكلم بكل صراحة ووضوح . " .

- بكل صراحة ووضوح طبعًا ! "

فقال حسان بحدة أكثر وبغضب أشد :

- أقسم بالله العظيم يا أستاذ وصفى ، إذا لم تفصح فى كلامك بالدليل سأعرف كيف .. سأحملك المسئولية .. لن أتحمل أكثر من هذا .. ! "

- أقسم بالله العظيم يا أستاذ حسان أنك ستعتز بى صديقًا مخلصًا ينقذك من ورطة .. ! " .

- ورطة ! ؟ " .

- مضى زمنُ التعارف والألفةُ والفلسفة والثرثرة ، كما مضى بلا رجعة زمنُ الأسئلة بلا أجوبة .. بعد الألفة حب الأصدقاء والإخلاص . أصبحنا أصدقاء بلا كلفة ولا حواجز بيننا . أنتَ فى حالة مشبّعة بكل سؤال . وستنفجر إن لم تعرف كل جواب .. أعرف هذا .. وفى الحال ، سأقول لك كلَّ شيء . وسامحك اللهُ أنك تشككتَ فى إخلاصى لكَ أقول لك الحقيقة .. وأمضى . وقد لا ترى وجهى إلا يوم الحساب ! .

الفصل الثاني والستون

الموعد الكاذب

فقال له حسان بعزم:

- **أولاً:** حلفك باطل لأنك شيوعي ! ومن ثم ، أنتَ لا تؤمن بيوم الحساب ! " .

فنظر إليه وصفي نظرةً حارة طويلة ولم يفه بكلمة ! فأسند حسان رأسه المصدوع على راحته مقطباً ، وعضّ بنابه على شفته ، ثم قال بحدة وتحدٍ وضجر :

- تكلـــــــم ! "

- أمي تموت بسبب هناء ! ذبحة القلب . الهّم كله عشّشَ في قلوبنا بسبب هناء ! ".

وفَكَّ وصفي رباطَ عنقه بقبضته بشدة وعصبية ومجابهة وأردف قائلا :

- أنا تعمدتُ أن أعتذر في يوم من الأيام ، يوم أن صلينا الجمعة سوياً .. اعتذرتُ عن اقتحامي شقتها . تعمدتُ أن أبدي لكَ ندمي واضطررتُ أن أقول لكَ يومذاك أنها سيدة فاضلة وأن قلبها طاهر . أنا لم أتعوّد الكذَب ولكني في ذلك اليوم كذبتُ كذبةً بيضاء لحكمة بيضاء . وكنتُ موقناً أنك ستبلغها كلامي هذا الذي كنتُ أتصور أنه سيطمئن قلبها ويقلل من خوفها مني إلى حدٍّ ما . قصدتُ بذلك أن أعطي لها الأمانَ . ولكنها ، مع ذلك ، كانت حذرة لشعورها العميق بالذنب .. إلا أنها وقعتْ ! .

- وقعت ؟ ! وأي ذنب تقصد ؟!

- وقعت برغم حذرها . - أقصد .. لن تفلت . اسمع ولا تتعجل ! أنتَ حتى الآن لم تعرف الجوابَ الصادق على سؤالي الأول ! فهي عندما تركتك جالساً وحدك في الركن بمحل " لورانتوس " ، قامت وتكلمت عبر تليفون المحل ! .

- " تليفون المحل ؟! " .

- " تكلمت عبر تليفون موضوع داخل " كابينة " مستترة هناك في غياهب المكان ، بعيدة عن العيون والآذان . أنتَ لا تعرف بالطبع سرَّ هذه المكالمة ؟ اتصلتْ " بالدكتور

نجيب الصدفى " فى صيدليته وتحدثتْ اليه حديثاً يكشف عن نياتها ! "

- الدكتور نجيب الصدفى ؟ نيّاتها ؟ ! "

- هذا الصيدلي ، هو الذى كانت تتردد عليه منذ عامين لحقنها بنفسه بحقن لعلاج مرض عصبى فى أثناء حياتها الزوجية طبعا ! مات المرحوم شقيقى ولم يعرف سرّها . أنا وحدى الذى تشككتُ فى علاقتها به ! " اربدّ وجهُ حسان ، وقال بصوت خافت ضائع :

- " علاقتها به ! ؟ " .

- هو عشيقها منذ مدة طويلة يا أستاذ حسان ! وربما كانت تربطهما علاقةُ حب من قبل زواجها من المرحوم شقيقى . أقول ربما .. لكن ما أعرفه يقيناً هو أن شقيقى عرف كيف يستأثر بقلبها عندما كانت موظفة فى إحدى الشركات ، بهرها بشبابه وثرائه وهى الفقيرة .. وضيعة الأصل ! وربما تكون قد عرفت " الدكتور نجيب الصدفى " بعد الزواج لفترة . لا أعرف متى نشأتْ علاقـةُ الحب بينهما على وجه التحديد ! . لكنى عرفتُ أنها كانت تتردد عليه تحت ستار حقنها داخل صيدليته ورأيتُها ذات يوم بعينى رأسى جالسة معه داخل الصيدلية وراء الحاجزء دبَّ فى قلبى الشكُ يومذاك ، حتى رأيتُها أكثر من مرة تبادله الحديث ضاحكةً مستغرقة فى هذر الكلام وسَقطه . وكان هو يلاطفها . " .

- " يـــلاطـفـهـا ! ؟ " .

- " يمسك يديها بين يديه ويضحك ، وهى تضحك . ويتحدثان بشكل ينمّ عن علاقة حميمة دافئة بينهما . ولا أعرف ماذا كانا يقولان فى تلك الأيام ! ثم وضح لى فيما بعد أنها تجالسه داخل صيدليته ويتحدثان ويضحكان ويتلاطفان بلاكلفة ! راقبتهما فى صمت وأنا أكاد أجن . لم أجرؤ على أن أفاتح شقيقى بكلمة خاصةً إن مكتبه التجارى كان قد أوشك على إعلان افلاسه . خسر كل رأسماله . وكان ذلك من دواعى جحودها وغدرها . لم أفاتحه بكلمة . فهو عصبى ، تحملتُ عنه كلَّ الهَم وجنون الغيرة ولا أكذب عليك إذا قلتُ لك أنه كان يشكو دائما من ارتفاع الضغط ، خشيتُ علية من الصدمة ، فاخفيتُ عنه هذه المسألة ، فكيف ألمح له بكلمة ؟ ! ولكن نهرتها وصفعتُها سراً ، وانكرتْ هى وجود أى علاقة بينها وبين الدكتور الصدفى ! وسافرتُ

فى بعثة صحفية ولما عدتُ فوجئتُ وصدمتُ بوفاته ! قالوا : مات بهبوط فى القلب ! داخلَ قلبى الشكُ فى موته ميتة طبيعية ! استولى علىَّ شعورُ قوى ملحَ أن هذه المجرمة لابد قد قتلته للتخلص منه ، وليخلو لها الجو مع عشيقها . ولكن كيف ؟ ! هذا ما فكرتُ فيه . وظللتُ أراقبها . كانت حذرة جداً . لكنها عاودتْ الشكوى من مرضها العصبى . وعلى فكرة ، هى مصابة فعلاً بنوع من الجنون .. المهم ، عاودتْ ترددها على نفس الصيدلية . لماذا نفس الصيدلية ؟ وتذرعتْ بنفس الذريعة .. وراقبتُ ذلك . كانت صادقة بعض الصدق . كانت بالفعل تحقن على يدى الدكتور نجيب الصدفى بالحقن . لكن مرات ترددها على الصيدلية كانت لا تتناسب وارشاد تذكرة طبيبها التى تحدد " حقنة كل ثلاثة أيام " ، على حين كانت هى تخرج من البيت كل يوم ! وتتردد عليه كل يومين ، وأحيانا كل يوم ! وفى لحظة شك طاغْ وجدتُ نفس أتساءل ؟ (لمَ لا تكون قد دسَّتْ سماً من تركيب عشيقها الصيدلى هذا ؟ !) . ووجدتُ نفس فى مواجهة تحد لا مفرّ منه . وتفاقم شكى . وصارتْ هذه المسألة قضيتى ! فخططتُ لها خطة . واستطعتُ بنقودى أن أجند مساعدَ الصيدلية لمراقبتها ، وقد استوحيتُ هذه الفكرة يوم سمعتُه مرة فى الطريق يشتم ويسبّ صاحبَ الصيدلية ! المهم ، نجحتُ فى دفعه إلى التنصت عليهما خلسة ومعرفة ما يدور بينهما . وما يزال هذا المساعد يعمل حتى الآنْ بالصيدلية . ولما شعرتْ هى اننى أتشكك فى أمرها وأسعى إلى كشفها وأوشك أن أفضحها ، هجرتْ البيتَ إلى شقة أمها ! هذا بعض سرِّها يا أستاذ حسان ! " .

– " بِمَ جاءك مساعدُ الصيدلية ؟ ! . "

– " بصراحة ! لم يأتِ إلَى بدليل ينمّ عن تواطوء بينهما . فى بيته تليفون ولابد أن الاتصالات السرية والكلام على الراحة وتنسيقه قد تمّ بينهما فى الأيام الماضية من خلال هذا التليفون الذى أصبح عاطلاً أو معطلاً عن عَمد لا أعرف بالضبط ! وهى حذرة جداً ، وأقول لك بصراحة وفى حدود معلوماتى أنها لم تدخل بيته مرةً واحدة . ومساعد الصيدلية ولد خائب ! " .

فقال حسان ودماغه يدور فى الحمى والاعياء :

– دليلك ؟ ! .

كان وصفي في حالة بالغة من الإرهاق والتشتت ، فصاح منفعلاً بغضب :

- بالرغم من جهودي المضنية ، إلا أنني لم أصل إلى أى دليل مادي للإدانة ! ولكن عدم وجود الدليل عندى لاينفي حدوثَ القتل على نحو ما ! كل مالديَّ شبهات لايُعتد بها قانونياً . كانت ترتعد خوفاً . وكنتُ أريد أن أجبرها على الاعتراف . أردتُ أن أدفعها إلى حالة الانهيار لتعترف بنفسها على نفسها قبل أن أبلغ النيابة العامة ! لكنها هربتْ مني . هي ذكية . خيالها خصب واسع . لكنها ليست أذكى مني ! أمي تموت بسببها . وشقيقتي قد تلحق بشقيقي من بعد أمي كمداً وقهراً . ولا أطيق أن أتصوَّر اللحظة التي أجد فيها نفسي وحيداً في عالم كريه ، تاركاً القاتلة طليقة ترتع مع عشيقها ؟ ! " .

- " الدليل ؟ ! "

- " لدى دليل على علاقتها بالدكتور نجيب الصدفي ! " .

- " ما هو ؟ ! "

- لماذا ركبتْ التاكسي سرّاً في أول ذلك المساء ، بعد خروجها من مسكن تلك السيدة التي سُجن زوجها " أحمد برقوق " ؟ أين ذهبتْ آنذاك ؟ قابلته في ذلك المساء حيث قَوّى قلبَها بكلام .. "

- " أين تقابلا ؟ ! " .

- " داخل استراحة فندق " سيسل " بمحطة الرمل ، في ركن بعيد . لم تستغرق المقابلة أكثر من نصف ساعة . وعلى فكرة ، سبق لها أن باتتْ ليلة واحدة في لوكاندة تكاد أن تكون مغمورة ، في " المنشية " .. باتتْ في حجرة وحدها ، لكنها ترددتْ عليه في حجرة مجاورة ! والحق أن معلوماتي عن هذه الليلة غير كاملة . لكن هذا حدث .. وما يهمني أن أقوله لكَ الآن أنني متفرغ لأمريْن ، الأول هو التردد على أمي في المستشفى والثاني هو ترصد هذه المجرمة : هناء ! لم يعد هنا أو هناك ما يشغلني غير هذا . فهو موضوع حياتي وكرامتي ! وكرامة أسرتي . أقول قَوَّى شريكُها في الجريمة قلبَها بكلام . ولاحظتُ أن سلوكها ، قد تغيّر من الخوف والحذر إلى شئ من الجرأة المقنّعة المضَلّلة .. " .

- " كيف ؟ ! "

- " لعبت لعبة ! " .

- " ما هى ؟ ! " .

- " لعبتْ بك أنتَ ! أنتَ لعبتها ! لا تؤاخذنى ، هذه هى الحقيقة ! هى الآن تجاهر بأنها ستتزوجك لتبعد الشبهةَ عن نيّتها المبيّتة للزواج من عشيقها .. بالطبع هى لن تتزوجه الآن . ولن تتزوجه هنا فى مصر ! وعندما علمتُ منذ فترة أن الدكتور نجيب الصدفى ينوى بيعَ صيدليته أدركتُ أنَ ذلك انما يخفى وراءه سّراً . وقد باعَها فعلاً ، منذ أيام لصيدلى آخر . وسرعان ماعرفتُ أنه عقد العزمَ على مغادرة البلاد سّراً بعد أيام وهى أيضا ! " .

- " وهى أيضا ؟ ! .

- " لكَ أن تعرف منى الآن سّر كلامها مع سيد عليان ، جاركم ، بصوت عال ، قائلة له أن حسان يُعدّ الآن " زوجى " وأن حسان من حقه أن يدخل " شقتى " ويخرج منها فى أى وقت ! لكَ أن تعرف الآن أن كلامها هذا إنما هو للتضليل والتمويه . تريد بذلك أن تمسح ما فى رأسى ، وما فى رأس كل شاكٍّ ، من إتهام لها ! ماتزال تريد أن تزيل الشكَ من دماغى ، وأن يعرف كلُ الناس أن الذى ستتزوجه هو رجل لم تكن تعرفه قبل وفاة زوجها ، ولم يكن يمت لها بصلة ما قبل هجرها لبيتنا . هى تسعى بذلك إلى هذا ، لكى تسقط عنها الشبهات التي أمسك أنا بخيوطها بكل عناد . هى تفعل كل هذا فى الفترة الأخيرة لكى تتيح لنفسها فرصة مريحة للتحرك بلا خوف . وهذا سّر تنقلها الآن هنا وهناك متظاهرة باللامبالاة والبراءة . ولكنها مع ذلك ماتزال فى باطنها خائفة . ولن يزايلها خوفُها إلا عندما تجد نفسها داخل الطائرة وخارج الحدود المصرية ! " .

- " خارج الحدود المصرية ؟ ! "

- " نعم . ولكن هل يكون لها هذا ؟ هل تفلت من يدى ؟ هل تهرب منا ؟ ! " .

- " ليس لديك دليل على صحة ما تقول ! ؟ " .

فعاود وصفى صراخه :

- " أقول لك أن مالدى شبهات ! لكن الأدلة التى لدى هى أدلة قاطعة على عشقها الأثيم ! وهذا لايقع تحت طائلة القانون . أعرف هذا جيداً ، ولايكفى دليلاً ولا قرينة على القتل .. قضيتى فى هذا خاسرة ، ولستُ مغفلاً حتى أعطيها فرصة الدفاع لكى تخذلنى فى المحاكم ! .. لكن صبراً .. لن يعلقها فى حبل المشنقة إلا وصفى ! " . فقال حسان مربد الوجه ، منهار القلب :

- " قُلْ دليلك على هذا والإ ..." .

- " اكثر من دليل لك .. خُذْ واحداً .. ! "

ورمى وصفى على حِجْر حسان صورةً فوتوغرافية ، التقطها حسان بيد مرتعشة متصببة بالعرق . نظر فى الصورة بوجهٍ ممتقع مخطوف وصدره يشهق وكأن قلبَه يُذبح ذبحاً رأى فى الصورة " وجه هناء ووجه عشيقها خَداً على خَدّ " . شاب وسيم . يبتسمان . صورة نصفية حتى الصدر . هى هناء بعينيها وأنفها وحاجبيها وذقنها وجبينها وخدّها الملتصق بخد هذا الشخص الغريب . هو هذا الخَدّ الذى قَبّله منذ أيام . جاش صدُره بلهبٍ حار شَبَّ فى عظامه وحرق قلبَه . واستحالتْ كلُ أعصابه جمراً هشّاً . وغامتْ عيناه . وكان وصفى يقول له بتهكم لاذع ، بلا رحمة :

" أليستْ هى هناء بجمالها وطُهرها وبراءتها ؟! والصورة التى فى يدك صورة متشحمة مستورة ، فما بالك بصورتها التى لم ترها إلا عين الله الساهرة ، صورتها وهما على إنفراد فى خلوة ! " .

وظل حسان ممسكا بالصورة بين أصابعه بقوة ، وقد تقّوض وانهار وليس به من الوعى إلا ذبالة واهنة .. ووصفى مايزال يتحدث ويردد كلاماً لم يعد حسان يسمع منه كلمة ! ولكنه مع ذلك ، استطاع أن ينطق بكلمة واحدة ، فى ذهول فادح وعيناه تبرقان داخل حجاجيهما فى خَبل زجاجى مستكن :

- " وبعد ؟ ! .

- رُدّ علىّ ياصديقى ! أليستْ هذه هى هناء بكل وضوح الشمس ؟ ! " . لم يرد عليه حسان ، فصاح فيه وصفى قائلاً :

" هات الصورة ! : .

وكأن حسان لم يسمعه أو هو لم يسمعه فعلا . لكن وصفى أضاف بصوت خافت :

- " أ أنت معى ؟ ! .

- " أكمل ! " .

- " أنظر جيداً . ظَهر الصورة بلا تاريخ . متى التقطتْ لهما ؟ كيف التقطتْ ؟ أين التقطت ؟ لا أعرف ! " .

- " أكمل ! " .

- " وهى لا تعرف اننى حصلتُ على هذه الصورة ! " .

- " كيف ؟ كيف حصلتَ عليها ؟ " .

- " حصلتُ عليها مقابل أربعين جنيها قال لى مساعد الصيدلية أنه رأى صورة لهما معا تبرز من محفظة الدكتور نجيب الصدفى . قلتُ له : لوجئتَ إلىَّ بها لدفعتُ لك أربعين جنيها ، فجاءنى بها ودفعتُ له . ولكنها دليل لكَ وليست دليلاً يناصر قضيتى ! : .

- " وبعد ؟ ! " .

- " العاشقان يعدأن العدةَ للسفر . سيغادران البلاد . " .

كان وجهُ حسان قد ارتاع واربد ثم ابيّض من فرط الشحوب . .

- " نجحتْ المجرمةُ فى استغلالك أسوأ استغلال . اتخذتك مطية لأغراضها القذرة . دفعتك إلى شباك حبها جاهرت بزواجكما الذى كان وشيكاِ (!) بأكذوبة . وسّختْ سمعتك . أثارتْ ضدك رأيا عاما فى الشارع هناك ، كان يحترمك ويحبك . دفعتك إلى ما تأنفه نفسك الطاهرة ! : .

- " لا أفهم " .

- قُل لى الحق ! ماذا فعلت بك وأنتما فى شقتها ... فى الليل ... وحدكما ! " .

- " ماذا فعلتْ ؟ ! لم تفعل شيئا ! "

- " ماذا فعلتُ أنت ؟ !

كان حسان منهاراً ، يتصبب عرقا . فاقد العقل . عييّ اللسان ، فَقَد كلّ قدرة على المواجهة :

- " ماذا فعلتُ ؟ ! لا شئ ! "

- " ماذا فعلتما ؟ أنت تكذب يا حسان ، وليس هذا من طبعك النقى الشجاع الأصيل ! " .

- " وأنت أيضا تكذب .. !

وقام حسان بلا وعي ، والصورة في يده . مشى خطوتيْن مترنحًا وكاد يتهاوى على الأرض من فرط ما به من انهيار وتقوّض وخور ! نهض وصفى وأسنده وأمسك به وهو يقول :

- " أنتَ مريض ! " .

- كلنا مرضى ! كلنا كذابون ! " .

- " يلقون على دكانك الزبالة والخراء والرِمَم أكواماً . والأولاد فى الحارة يكتبون كلمات فاحشة على الجدران ويقذفون بابَك بالحجارة ! " .

- " هُمْ زبالة " .

- " ويقولون حسان فاسق ، وعشيقته فاجرة ! " .

- " هم رِمَم . وأنا رمَّة ! أنا جيفة نتنة . وأنت كذاب .. كذَاب ورِمّة مثلى ..... كلنا رمم ! كلاب ... كلاب ! " .

- سامحك الله .... إهدأ ... إهدأ ياحسان ... أنا لستُ كذاباً ... متى يصحو عقلك وتفيق وتقتنع ! ... فى جيبى حقائق أخرى . هى ستسافر وتهجرك . خدعتك . لن تتزوجها ! ظلت تلعب لعبة التسويف والمماطلة فى الزواج منك .. فى تحديد موعده حتى قرب موعدُ سفرها ، فجاهرتْ بحبكما وزواجكما الوشيك لتبعد الشبهةَ ولمصلحتها وحدها ، وما هذا الزواج الوشيك إلا الفرار الوشيك . وعدتك بالزواج قريباً لأن موعدَ سفرها تحدد تقريبياً قبل الموعد الكاذب ! " .

- " الموعد الكاذب ؟ ! " .

- " موعد عقد قرانكما ! لماذا دفعتك دفعاً إلى التعجيل بزيارتى فى بيتى قبل موعدنا . كان غرضها أن تستطلع أنتَ لها أخبار شكوكى واتجاهات تحركى ونتائج مراقبتى لها ! استغلتكَ استغلالاً مهيناً فاحشاً . خانتك أسوأ خيانة ! هذه الفاجرة .. القاتلة ! وَمَنْ تفعل هذا كله لا تتورع عن قتل زوجها .. قتلته بالتسميم البطئ ! " .

غمغم حسان فى انهيار !

- وعقد قرانى ؟ ! " .

وكأن وصفى لم يسمعه ، فظل يستطرد كالمحموم :

- " لم تذهب - فى أول مساء ذلك اليوم - لشراء ثوب عقد القران ! كاذبة . قابلته لتدبير أمورهما معا . ذهبتْ إلى عشيقها الدكتور نجيب الصدفى ليقّوى قلبَها ، أعصابَها بكلام . تحتاج عنده لحقن إعادة الثقة بنفسها وخداع نفسها ببراءة موقفها . ولابد أنه قال لها أنها أبعد ما تكون عن أية مسئولية جنائية ! وهذا صحيح حتى الآن ! فليس لدىّ دليل مادى واحد على القتل ! أين كنتُ أنا ؟ ! آه .. ياحسان ! ليتنى توقعت ! لكنى ما توقعت منها كلّ هذا الشرّ . كنت مسافراً لمدة طويلة فى بعثة صحفية إلى بعض دول أوربا .. ولما عدتُ ، ماذا وجدتُ ؟ وجدته فى القبر مدفوناً منذ أكثر من أربعة أشهر ! لم يكن أحد من أهلى يعرف فى أى بلد كنت وقت الوفاة على وجه التحديد ، ومع ذلك كانوا سيبرقون إلى مكتب الجريدة فى " لندن " لابلاغى بالنبأ . لكنهم استدركوا وعدلوا . ومات ! قُتل .. وَتمّ دفنه ! لابد أنها كانت تدسّ له السُمّ ذرةً درة ، فلم يظهر عليه أى عرض من أعراض التسمم . الكل يصدق أنه مات بهبوط فى القلب نتيجة مرضة بارتفاع ضغط الدم وارهاق العمل ، الكل يصدق هذا إلا أنا ولم يكن فى بيتنا إلا أمى العاجزة وأختى البائسة ! " .

والتقط وصفى أنفاسَه . شهق وزفر فى حسرة ويأس :

- وتصنّعتْ المجرمةُ معهما سلوكاً يتسم باللطف والتودد قبل موته وبعد قتله ! عرفتُ منهما انها اتبعتْ أسلوبَها هذا فى سلوكها الماكر معهما . أنه لطف مصطنع وهدوء الرعب الدفين ، هدوء مقرون بالرضوخ والمهادنة وكسب الثقة . إحساس عميق بالجرم الشنيع حاولتْ استرضاء أمى وأختى وهى التى لم تكن على وفاق معهما . كما

حاولت استرضائى أنا أيضا بطرق خسيسة مثلما فعلتْ وتفعل معكَ وأكثر .. ! " فصاحَ حسان صيحةً واحدة مريضة مجنونة :

- " اسكت ! " .

- " لن أسكت ! بالعكس ، أنت تريد كلَّ الحقيقة بكل وضوح الشمس . أنت لا تتحمل الحقيقةَ الآن . معك حق . لكن الحقيقة الكاملة تشفيكَ وتفيقك . لكنى أشقى منك . أنا فقدتُ كل شئ . أما أنت ، فماذا فقدتَ ؟ فقدتَ امرأة فاجرة ! ؟ أنا أتعس منكَ وأمى تموت قهراً . يوم مات المرحوم أغمى عليها ولم تسلم من المرض الوبيل منذ هذا اليوم . بل يتفاقم مرضها وستموت اليوم أو غداً .. ! "

- قلبى .... قلبى يتوقف ! "

- " ستفيق من الصدمة إذا عرفتَ كل الحقيقة ! أما أنا فلن أفيق أبدا ... إلا على حبل ! أنا فقدتُ كل شئ . حرمتُ من أهليتى السياسية دون أن أرتكب أى جرم . حُرمتُ من الشقيق وها هى أمى تحتضر وستلحق بها أختى . أشعر أننى لاجذر لى ولافَرع ولاثمرةَ ولا أريج من بعد أمى ! أنا أشقى منك ! "

وسكت وصفى فسادَ الصمتُ . كان كل منهما يجفف عرقَه . لم تكن حالة وصفى أقل سوءاً من حالة حسان . بعد عشر دقائق من الصمت المرهق نطق حسان بكلمة ، قال :

- لكــن ! " .

فنظر إليه وصفى بحزن بالغ وسأله بصوت خافت :

- " لكن ماذا ياحسان ، ياصديق المحنة ! ؟ "

- " كيف عرفتَ أنها ستسافر ؟ متى ؟ ! " .

- " عرفتُ ذلك من مصلحة الجوازات والجنسية ! " .

- " متى ستسافر ؟ "

- " سيسافران فى يوم واحد ، وعلى طائرة واحدة وإلى بلد واحدا "

- " متى ستسافر ؟ ! " .

- عرفتُ من مكتب شركة مصر للطيران ، سيسافران من مطار القاهرة الدولى . طبعا لكل منهما جواز سفر مستقل ! " .

- " والتأشيرات ؟ ! "

- " تمت ! "

- " والتذكرة ؟ ! .

- " ولكل منهما تذكرة مستقلة ! "

- " متى ؟ ! .

- " يوم ٢٩ مارس الجارى . لم يبقَ غير أيام قليلة . وقد يغيّران يوم السفر . هذا محتمل جداً . وستعرف أنتَ بنفسك هذا بالتحديد . راقبها وسترى بنفسك ! "

- " كيف ؟ مادليلك على .. "

- " أمازلت تسأل عن دليل .. خُذْ ! "

وألقى فى حِجْره بصورة فوتوغرافية من جواز سفر ، وهو يقول :

- " اقرأ . تفرّج . هذه بعض صور من صفحات جواز سفر عشيقها التى جاءنى بها مساعُده السابق نظير أربعين جنيها أخرى .. أتعابه . سرق الجواز لمدة نصف ساعة وصوّر بعض صفحاته وأعاده اليه خفية ! " .

وراحتْ عيناه تنظران فى الصفحات هنا وهناك . وقرأها فى تشتت مجنون . وبعد لحظات ، قال بخَبل :

- كيف سرقه ؟ ! "

- " سرقه منذ فترة قصيرة قبل أن يسلم الدكتور نجيب الصدفى الصيدلية للمشترى الجديد ! : .

- " وجواز سفرها هى ؟ ! " .

- يحاول غلوش أن يجيئنى به ، لم يفلح فى ذلك حتى الآن ولا أظنه سيوفق ! " .

- " غلــوش ؟ ! " .

- " أنت الذى ستعرف كيف تلتقطه من شقتها وتؤخر سفرها وتحبط فرارها .. أنت ياحسان .. رُدَّ اعتبارك ولو بفعل بسيط ! "

- " ولماذا لـم يجئك مساعـدُ الصيدلية بجوازه هـو ، لماذا جـاءك بصـور من صفحاته ؟ ! "

- " هكـذا تصرف ! وخاف أن ينكشف الأمر . وفوجئتُ به يجيئنى بالصور فقط ! وهـذا أفضـل حتى لاتثير شكوكهما . وفات الوقت على أى حال ليعاود المحاولة ! المهـم .

يجب أن تضع فى اعتبارك أنها قد تتعمد الهروبَ منكَ هذه الأيام ، فى نفس الوقت الذى تتظاهر بالاقبال عليك والترحاب بك وتخديرك بكلامها المعسول وإغرائها تحرص كل الحرص على ألا تكشف أى بادرة من بوادر تأهبها للسفر والفرار ! آه ... لو أمسكتُ أنا بدليل قاطع ضدها فسأبلغ النيابة العامة فوراً وسيرفع اليها محام مرموق عنى مذكرة لمحاكمتها .. لن تفلت من أيدينا ياحسان ! " .

الفصل الثالث والستون

النـــوم

وران صمتٌ ثقيل ، وحسان منهار على كرسيه . ووصفى ينظر إليه فى تعبٍ وحزن ويأس . قال :

- " لن تهرب الكلبة ! لن تفلت المجرمة من حبل المشنقة ! ليس فى يدى دليل حتى الآن . لا أستطيع أن أمنعها من السفر . ليس فى يدى أى مانع قانونى . لا أملك هذا . ستهرب . ولكنك أنتَ ! " .

وسكت وصفى متفرساً فى وجه حسان وكأنه يحاول أن يقرأ مايجيش فى خبيئته ويمور ، ثم أضاف :

- " لابد أنكَ تتساءل : كيف أؤكد لك أن المرحوم مات مسموماً بيد هناء على حين ليس لدى دليل واحد على هذا ؟ لكن شعورى لايكذب أبداً ياحسان . ويبقى لك عندى ياصديقى دليل آخر ! " .

- " ما هو ؟ ! " .

- " خانتك " خيانةً أخرى وأنتَ جالس فى الصباح منذ شهر تقريباً فى محل " لورانتوس " ! أنت لم ترها وهى تتكلم خلال التليفون بالطبع ! ؟ "

- " محل " لورانتوس " ؟ ! .. لا ! .... تليفون ؟ ! " .

- " " تركتك فى أحد الأركان هناك دقائق . هل حدث هذا الفعل ؟ ! "

- " حدث ! ... أكمل ! " .

- " كنتَ لاشك هائماً فى مكانك وحدك ، حالماً حُلم رجل طيب .

أتعرف ماذا قالت له فى ذلك الصباح ؟ ! " .

- " لِمَنْ ؟ ! ماذا قالت ؟ ! " .

- " قالت لعشيقها طبعا . قالت له : (حسان وقع فى غرامى ! وهو يهذى بالشعِر !) . "

- " " أهذى بالشعر ! " .

- " هى التى تحب الشعرَ ، تقول هذا ! وقالت له (البقّال يشاغبنى كالولد المراهق !) .... "

- " البقال ؟ ! أشاغبها ! ولد ... مراهق ! ؟ .

- " لم تخرج فى صحبتك فى ذلك الصباح بقلب صادق . سخرتْ فى مكالمتها التليفونية منك ! قالت أن حسان يحب الليل فى عزّ النهار ليحلم ! " . أنتبه حسان فجأة ، ثم صاح بادى القَهر والانسحاق . :

- " هذا صحيح ! " .

فاستطرد وصفى قائلاً :

- " كان عشيقها يردد بعضَ كلامها ساخراً . ويبدو أنها حدثته أيضا عن إلحاحك فى الزواج منها ! "

لأن عشيقها ردَّ عليها قائلاً : دعيه يحلم ! لن نخسر شيئا ، بل هذا أفضل ! حسان هذا رجل طيب ويصعب عليَّ حاله ، فلا تعذبيه ولا تحددى له موعداً لعقد القران الآن . ليس هذا وقته ! " وكان صدرُ حسان قد خَلاَ تماماً من الهواء . حاول أن يتنفس ، لكنه بَدَا مخنوقاً . وبعد لحظات قال بصوت مرتعش جاف :

- " كيف عرفتَ هذه الـ .... " .

ولوّح حسان بكفّه منهار الكيان ولم يكمل ، فاسترسلَ وصفى محتقن الوجه :

- " كنتُ قد جربتُ تليفونَ بيته وقت ذاك . وجدتُه معطلا . توقعتُ اتصالاتهما من خلال تليفون صيدليته . نبهتُ مساعَده إلى ضرورة التقاط كل كبيرة وصغيرة مما يدور هناك سواء بالنسبة للاتصالات التليفونية أو التحركات . ضاعفتُ له حوافزه . لكل نبأ ثمن . لكل كلمة تلقى بعض الضوء مكافأة . لكنه ولد خائب

لـــم يجئنى بما هو أهم من كل هذا . لم أعتـمد عليـه وحده . كـما أننى لا أغـفل ولا أهمد . المهم ، تحدثا أكثر من مرة قبل أن يسلم عشيقُها صيدليتَه للمشترى الجديد . تحـدثا بطريقة غـامضة عن أوراق وعن حقن . ورُدد اسمك وحكاية عن ثعبان وكلام عن رسالة لابد أن تكتب لك أو كُتَبتْ لك . ونصحهاَ بمعالجة " المرض " " بالتراضى " ، فضلا عن الحقن . واستـغرقا فى الضحك عندما ردد الدكتـور نجيب الصدفى أقوالاً ذكـرتًها أنـتَ لها . يبدو أنها قالت له (أن حسان يصفنى باننى (قمران) لا قمرا واحد !) ... ! "

فعاود حسان صيحته الهستيرية قائلا :

– " حدث هذا فعلا ! " .

– " أنت بالطبع لم تذكر لى من قبل شيئاً من هذا ! " .

– " لم أذكر منه حرفاً واحدا لأى مخلوق ، إلا لها هى وحدها ! "

– " فشل الولدُ الخائب ، مساعدُه فى فهم بعض الأمور . إن حذرها غير معقول . بالطبع هى لا تفكر وحدها . يتـأزر عقلهـا وعـقله معـاً فى تدبيـر الأمـور . ولكن هذا الحذرو الخوف والسفـر الوشـيك ، وكل هذه الخـفـايا ، أنما تؤكـد انهـا فعلتْ فعلتـهـا بالاشتراك معه ! " . وسكت لحظة ، ثم ردد قائلا :

– " ماذا يبقى من الحقائق المشينة ! ؟ .

وسادهما صـمتُ غـريب فـترة طويلة ، ثم رفع وصفى وجهَه وسأل حـسان بصوت كسير .

– فيمَ تفكر ؟ " .

– لاَ أفكر ! " .

– إذن ، ماذا ستفعل ؟ " .

– " لا شئ ! " .

– " أشعر أنك لن تسكت ! .

- " لا أعرف ! " .

- " لكنكَ لن تتركنى وحدى فى المحنة ! " .

- " أى محنة ! ؟ " .

- " محنتى ومحنتك ! أنا لن أتركك وحدك . كُنْ على إتصال بى خلال الأيام أو الساعات القادمة .. فقد يجدّ جديد . بل من المؤكد أن الآيام القليلة القادمة ستكون حاسمة ! . "

- " جديد ؟ ! " .

- " هل تريد أن تخرج معى الآن ! ربما ينشّطك الخروجُ . دَعْنا نجول جولة ! سأريك الصيدليةَ التى باعها . وسأريك بيتَه . "

- " بيت مَنْ ؟ ! "

- " بيت عشيقها . وسأتيح لكَ الفرصةَ لتراه بعينيك . سترى عشيقَها الذى رأيته الآن فى الصورة ، خَدّه على خدّها . هل تريد أن ترى مساعده . مايزال يعمل فى نفس الصيدلية ؟ ! " .

- " دَعْنى ! أريد أن أنام . أنا مريض ! " .

- " أنت مصدوم ! أنا أقدّر هذا .. أنتَ مريض بحالة نفسية والخروج قد يفيقك ، قد يبدّل من حالة كآبتك . وهل تنام حقا ؟ ! " .

- " أننى نائم فعلاً ! " .

- " ومتى تقابلها فى شقتها ؟ ! " .

- " لا أعرف . دعنى الآن ! " .

- " كُنْ مناضلاً من أجل قضيتك ، كما أفعل أنا . تذكر عراكك من أجل كرامتك وحريتك أيام كنت موظفاًفى مراقبة التموين ! " .

- " لن أتكلم إلا فى اللحظة المناسبة ! " .

- " كُنْ ! " .

فصرخ فيه حسان صرخةً غريبة . علَتْ وجهَه صُفرةُ الموت . وقعتْ عيناه الزائغتان في خبل على النَدَبة التي تشقّ الحاجب الأيسر :

" كفى ! أنتَ تدفع بي إلى الجنون في رداء الصداقة ! "

..... وغام بصُره . وأغمى عليه ! .

الفصل الرابع والستون

التنازل

رأى بابَ دكانه ملطخاً بحفن من الخراء ، وتسدّه أكوامٌ جديدة من القمامة . ورأى اسمه واسمها مخطوطين بالقار الأسود على الجدار الأصفر ، مقرونين بكلمات بذيئة فاحشة . لم يمسح المكتوب . لم يفتح باب دكانه . استدار ومشى دائخا مذهولاً ، نحيل الجسم ، مصفر الوجه ، مشى بحذاء السور مثل كلب أجرب منبوذ . أحس بشئ ما يتمسح بمعطفه . التفت فرأى كهلا بساق واحد ، يستند إلى عكازه . قال بمذلة :

- « سامحنى ياعم حسان ! أنا الذى سرقتُ منذ شهور القروش من دُرج مكتبك . كان أولادى يتضورون جوعا ! سامحنى !». فقال له حسان وهو يغضّ الطرفَ عنه :

- « سامحتك من زمان !

سامحنا الله جميعا .. » .

- « واصبر على ما أصابك . إن ذلك من عزم الأمور . »

لم يرد عليه بكلمة . تركه وراءه وخرج من شارع « البرازخ » . واقتعد كرسيا مطلا على ترعة المحمودية .. ثم جال فى أرجاء حديقة الحيوان . كانت خالية تقريبا . نظر إلى الطيور الملونة الساكنة داخل أقفاصها ! ومشى بعيدا فى ممرات هادئة موحشة بين أشجار عالية . وجلس على العشب تحت شجرة وحيدا . تغرورق عيناه بدمعة . ينظر إلى الدنيا من حوله مأخوذا . لايدرى من أمره شيئا وشفتاه تتمتمان بكلمات مبهمة ، ويهز رأسه باستغراب حزين . ورأى كفه نائمة على ساقه الممددة فى خور .

تأملها لحظات طويلة . بدت له مخلوقًا غريبا منفصلا عن جسده كله . رآها كعقرب أسمر ينفث السم فى بدنه . ارتعدت أوصاله تحت هبات ريح المغرب الشتوى الأردوازى . أدرك أن روحه أيضا تسممت وأنه يرتعش ويبرد برودة الموت . نظر إلى أشرعة المراكب من فوق هامات الأشجار تشق السحب القاتمة فى انسياب بطىء فوق البرّ القبلى . وتخايلتْ له أشتاتُ صور غامضة موغلةٌ فى الماضى القديم . شعر شعوراً عميقا غريبا أن الدنيا كلها لعبة . خدعة . وأن كل ما حدث ليس إلا وهماً .. وأن كل شئ مايلبث أن يتباعد ويغيم ثم يغيب . ساوره الشكّ فى حقيقة كل ما حوله من أشياء تتنفس وتتحرك وتثبت فى ناظريه صلبة . فلماذا لايكون وصفى بالاتفاق مع هناء مع غلوش مع الشيخ عبد المقصود مع سيد عليان مع الدكتور نجيب الصدفى ومساعده ومع كل غلمان الشارع ، قد تآمروا ضده ، ففعلوا به مافعلوا ؟ لماذا لايخجلون من وجودهم ؟ ! لا .. إن كل ما حدث لم يحدث . وتساقط رذاذُ المطر على رأسه ومعطفه واختلط بعرقه المتصبب على وجهه . هبّتْ رياحُ غبراء . لم يقوَ على القيام . وليس فى الحديقة مخلوق . لا إنسان هنا ولا حيوان .. الأشجار تتمايل كمَرَدة جبارة . كرهط من الجان . يلوح بين قاماتها القاتمة المهيبة وجهُ عزرائيل . يسمع حفيفاً هامساً . يجئ الآن مَلَكُ الموت ليقبض روحَه . توشك أن تدهمك غصّةُ الموت وسكرته . موت الفجاءة راحة للمؤمن . ولكنك لست مؤمناً ياحسان . أنتَ بلا عقل ولا دين - موت الفجاءة أسف على الفاجر ! هل تموت كعصفور حين يُقلَى على نار المقلى ؟ اللهم هوّن عليَّ كربَ الموت ! خير لروح الفاجر أن تموت حرقاً لتتطهر ! لكن النار مصير فى الدنيا والآخرة .

ومشى بمحاذاة ترعة " المحمودية " وسط أكوام من القمامة ، تُجلَب من أنحاء المدينة ، وسط أكشاك خشبية ، يعيش داخلها أناسٌ بؤساء . ووقف طويلاً وسط

" الكوبرى " بين البرّين ، البحرى والقبلى ، مستنداً إلى الحاجز الحديدى . يرمق المياهَ وهى تجرى تحت بصره عكرة عميقة فى لون الطمى . هنا طراوة الهواء تريح الجسمَ ، لكن النفس مشبوبة بنار داخلية لاهبة . كانت المياه تجرف فى تيارها النفايات والجيف . مَرَّ به رجلان . قال أحدهما :

- " إيه ياعم حسان ! لماذا تقف هنا فى عزّ البرد والتراب الأصفر ؟ ! "

وقال الآخر لزميله بصوتٍ يترامى من بعيد :

- " رجل مهلوس العقل ! " .

نظر إليهما بعد أن تباعدا عنه قليلاً نظرةً كسيرة . لم يتعرف عليهما . رآهما فى هيئة باهتة شاحبة يتباعدان فى حركة أثارتْ ضيقَه وأعصابه شعر بآلام مبرحة فى صدره وذراعه الأيسر وأسفل ظهره . أحسّ بجفاف حلقه . وعجب لوجوده فى هذا المكان وفى هذا الوقت . وألَحّتْ عليه أفكارٌ وانبجستْ فى رأسه بعد أن ظلتْ تنقف فيه ، حتى كادتْ تفلقه فلقاً محموماً ! .

* * *

فى الصباح ، واجه عاصفة ترابية حارة ، حجبتِ الرؤيةَ . مع ذلك ، كان مدفوعاً بقوة عاتية إلى التجوال . اخترق بعضَ الشوارع والأزقة . تذكر فجأة أنه مَرَّ يوماً من هنا فى صباه بصحبة أمه . كان يهرع فى ذيل ملاءتها اللّف . كان صبيًا بائساً يشعر بحزنها الصامت بالرغم من صغَر سنِّه . وارتطم حذاؤه ببعض الأحجار لا يدرى لماذا تنتابه حسرةٌ غامضة عندما يرى بيتًا يُهدّم وتعمل فيه الفؤوس والمعاول ! وسمع أحدَ العمال يقول : " ما يحنّ على العود إلا قشره . " ... واستقل تاكسياً ودخل البنك وسحب منه كلَّ رصيده !

* * *

ولما عاد إلى حى " أمبروزو " ، دخل متجراً كبيراً " للمانيفاتورا " وصافح صاحبَه . تحدث إليه . أعطاه نقوداً . أخذ منه إيصالاً وأوراقاً أخرى . وغادر المتجرَ والرجل يشيّعه بنظرات مشفقة ويضرب كفًا بكفّ !

وفى شقته ، لبث مدة ينعم النظرَ فى المرآة . فى وجهه . رآه وجه ابن آوى . أمسك بملقاط وانتزع بعضَ الشعيرات البيضاء من لمّته ، ثم مَطَّ شفتيه فى عبوس حاد ، ثم أمسك بطنه بكلتا قبضتيه !

* * *

وفى ساعة من اليوم التالى ، صحبه وصفى وجَالاَ معاً جولة فى شوارع الحى الذى تقع فيه " ڤيللته " الصغيرة . ورأى كل شئ وكل وجه بغرابة ووجوم ! .. ثم أعاده وصفى داخل تاكسى إلى بيته .. إلى سريره . ناوله دواءه .. ارتمى حسان على فراشه متهالكاً وغطَّ فى النوم وشخَّر . لم يكن يكف عن النوم فى تلك الآونة .

وطلع الصباح .. ولم يغادر فراشَه ، ثم حانتْ ساعةُ الظهر وهو مايزال طريحا .. عاد إليه وصفى وساعده على الوضوء ، فصلّى . تحدثا قليلاً ، ثم خرجا معاً وتناولا الغذاء فى مطعم . بعد ذلك ، جلسا وجهاً لوجه فى محل " إيليت " ساعة العصر . كان حسان لايكف عن النظر إلى باب محل " لورانتوس " بعينين يكاد يطفر منهما الدمع !

واستقلا سيارة أجرة . أوصله وصفى إلى شقته مرة أخرى ثم استأذنه للذهاب إلى (مستشفى المواساة) لزيارة أمه ، فهو يزورها كلّ يوم ، مرتين أو ثلاثًا . بقى حسان وحده فى شقته ، فتفاقم حزنُه .. بعد فترة طويلة ، رَنَّ جرسُ الباب ، قام وفتحه . رأى

الست جليلة . دخلتْ . عـادِ وتهاوى على سـريره جالسـاً . جلستْ بجـانبـه . تحـدثت . كانت خافضة الرأس . رفعته . نظرت إلى وجهه الذابل . وجه ميت . تحدثت :

- " ما الذى جرى فى الدنيا ياعم حسان ! ؟ " .

لم يرد . قام واتجه نحو صوان قديم ، فسحب منه بعضَ الأوراق وعـاد إلى فراشه . ظل صامتاً حوالى ربع الساعـة . لم ينبس أحدهمـا بكلمة . وأخيراً قـال لها وكأنه قد صَحَا فجأة من سبات عميق :

- " هاتى أولادك كلهم هنا ! " .

لم تفهم ، فلم تنبس بكلمة .

- " أرجوكِ ياست جليلة " .

- " نعم . " . - " لأجل خاطرى . " .

- " نعم . " .

- " أليس لى خاطر عندك ؟ " .

- " تحت أمرك . خاطرك فوق رأسى ! " .

فقال لها وهو يحدق فى الأرض :

- " هاتى أولادك . واسكنى شقتى هنا من الليلة . "

- " الأولاد فى شقتنا هناك . "

- " شقتكم ليست مسكنًا ! " .

لم ترد ، فصاح بعصبية :

- " شقتكم قبر ! أولادك أولادى . زوجك أخى ! "

فقالت متأوهة فى حسرة :

- " متى يفرج عنه ؟ ! " .

- " فرج الله قريب ! أنتِ أختى ياست جليلة .. "

- " نعم ، أنا أختك ... بل أنا والدتك ! " .

- " إذا كنتِ أختى حقاً ، اسكنى أنتِ وأولادك شقتى هنا ابتداء من صباح الغد ! "

- " كيف تقول هذا الكلام ياعم حسان . الشقة شقتك وشقة عروستك الست هناء ! " .

فصرخ صرخةً مروّعة ، ارتاع لها قلبُ المرأة المسكينة ! " .

وبعد دقائق هدأتْ أعصابُه وقال :

- " أتعبتُك معى ياست جليلة ، زوجك مسجون ، .. رجل عظيم .. رجل قضية ! " .

- " يسمع منك المولى . لا تهتم بما يحدث وما يُقال ! لا تعكر دمَك بسبب جيران مجانين ! " .

- أطلب منك خدمة . وأنتِ لم ترفضى لى طلباً أبداً ، فكيف ترفضين آخر خدمة ؟ "

- " آخر خدمة ؟ ! "

- " أنا مسافر .. والشقة شقتك أنتِ وأولادك . وهبتُها لكم . وأنتِ تستحقينها فأنت التى تعبتِ فى تجديدها وإصلاحها ! والمال مال الله ! " .

- " والعروسة ؟ الست هناء ؟ ! .

فقال بهدوء غريب :

- " لنا شقة أخرى . فى مكان بعيد . بعيد عن شارع البرازخ . بعيد عن حى " أمبروزو " . بعيد جداً . هاتى عفشك فوق عفشى كله هنا . ليكن النَقْل ابتداء من صباح الغد ! خُذى ياست جليلة ! " ومَدَّ إليها يدَه ببعض الأوراق ، بينها أوراق مالية ، قائلا :

- " خُذِى هذا الإيصال ؛ فضلك على عظيم لا يُنسى . وها هو عقد إيجار جديد أصبح باسم زوجك . تفاهمتُ مع صاحب البيت ، فهو رجل طيب . طاوعنى ووافق على ذلك . خُذى . تكاليفَ نَقْل عفشك كله . خُذى قيمة إيجار مقدماً لمدة سنة وأكثر . خُذى . كل هذا المال لكم . وعفشى كله هنا ملكك . ملك " الأسطى أحمد برقوق " . ملك أولادك لوزة وبلبل وسعدية وسعاد . المُلك لله وحده ! " .

وتنهد حسان فى عمق ، ثم أضاف :

- " أرجو أن تعدينى بتنفيذ هذا الطلب . هذه الخِدمة ، قبل أن تغادرى البيت الآن ! أنهيتُ اتفاقى مع صاحب البيت فهو رجل تاجر " مانيفاتورا " ميسور الحال . طيب القلب " . كانت دموعها تسيل على خدّيها ، كما اغرورقتْ عيناه بالدمع الساخن ، واستطرد قائلا :

- " وأنا معكم حتى أتدبر أمورى وأبعد ! . " .

- " إلى أين ستسافران ياعم حسان ! ؟ " .

- " أرض الله واسعة ياست جليلة ! " .

ولم تغادر الست جليلة شقةَ حسان ، إلا بعد أن سمع منها كلمةَ الوعد بالتنفيذ ابتداء من صباح الغد !

* * *

وفي مواجهة البحر العاصف ، دخل بصحبة وصفى " الڤيللا " شبه المهجورة وجلسنا فى حجرة المكتبة مرة أخرى . تحدثنا حديثاً فاتراً متقطعاً ، وصمتنا طويلا . كان من الواضح أن غيبوبة مذهلة مستولية على رأسيْهما ! كان وصفى بادى الحزن واليأس . يغيب فى ذهول . يغمغم . يمطّ شفتيه . يهزّ رأسَه . يحاور نفسَه . يسكت . انفلت همسُه الباطنى " البلد ضاعتْ ! وكل شئ .. " .

نظر إلى حسان متمتماً :

- " أمى تموت يا حسان ! " .

وكان يدخن بشراهة ، ويذرع الحجرة جيئة وذهابا فى عصبية بالغة ، كأن ناراً تشبّ فى صدره وتحيله رماداً . وتهاوى على " الفوتيل " الأسود . وطال سكوتُهما . لكنه قطع الصمتَ والضجر زافراً وهو يقول :

- " ليتنا نعود أطفالاً لنمرح فى صفاء ... ما رأيك أن نلعب لعبة ؟ ! " .

- " نلعب ؟ ! " .

- " لعبة " بصراحة " ! يطرح أحدنا سؤالاً ، يجيب عليه كلٌّ منا جواباً بكل الشجاعة الأدبية وبالصراحة فى مواجهة النفس ، ثم يردّ كلٌّ منا بدوره على الآخر بصفة انتقادية من نفس النوع أو الجنس ، مثلا : " ما هو أسوأ عيب من عيوب طباعك ؟ ! " .

- " أجب عليه أنتَ أولاً ! " .

- " من الصعب عليَّ أن أنسى الإساءة وأن أصفو صفاء الطفل ! "

فردَّ حسان منتقداً :

- " جَمَل ! " .

- " نفس السؤال لكَ أنتَ ! ما أسوأ عيوبك يا حسان ؟ ! " .

فقال حسان بفتور :

- " من السهل أن أثور وأن أتهيّج ! " .

فردَّ وصفى متضاحكاً بعصبية :

- " ديك ! " .

فاحمرّ وجهُ حسان المصفرّ ، ومع ذلك استمرا دقائق قليلة فى اللُّعبة التى انتهتْ

بصمت ثقيل . وسادهما إحساسٌ كابوسيٌ باليأس والكرب ! ثم تحدث وصفى وكأنه يرثى نفسَه قائلا :

- أنا لستُ مسلما بعقلى ، فهل أنتَ مسلم بروحك وجسمك ؟ ! ومَنْ منا الطاهر حقاً فى هذا الزمن النجس ! ؟ كيف تحكم على إيمان إنسان بصدقه أو كذبه ؟ هذا من شأن الله وحده ... أشعر أن قلبى قد ضاع منى منذ خرج منه الإيمان الصادق ! . " .

- " ملحـد ! " .

- " هل تعتبر غير المؤمن ملحداً ؟ ! .. أتمنى أن أرى نور الله فى قلبى ، لكننى أموت كمداً فى ظلمات غريبة . قلبى يتمزق بسبب ضياعى . ضياعى فى الخور والسمّ .. أرفض كل شئ وكل شئ يرفضنى . هذا قدرى المشئوم .. مصيرى أسود ! "

سكت وصفى لحظات ، ثم مسح بإبهامه على حاجبه ذى النَّدَبَة وغمغم :

- يقول شاعر حديث لا بأس ببعض شعره ، لا أذكره جيداً :

فى العالم المملوء أخطاء

مطالب وحدك ألا تخطئا

اسمع يا حسان ! هل هناك أمل بعد الجنون وقبل الموت ! " .

لم يرد حسان ، سيطر عليهما الصمتُ ، ثم استأنف وصفى الحديثَ . كان لا يكف عن رثاء نفسه . قال لحسان إنه لم يعد حريصًا على شئ ، ولا يريد أن يمتلك شيئا ، وهو كثيراً ما يقف هذه الأيام فى شرفة بيته هنا ، فى مهب العاصفة الشتوية مواجهًا الأمواج الهادرة ليستنشق هواء البحر المشبَّع برائحة " اليود " النفَّاذة ، ولم يبقَ فى

كيانه كله إلا شهوة الانتقام ! وهو لو عاصر يوماً طلوعَ الشمس ، لرجا أن تدفئ جسمَه البائس الذى سيُرمَى فى أعماقِ حُفرة القبر قريبا ، مثل رِمَّة كلب !

* * *

وأحسّ حسان أن صحته قد تحسنتْ قليلا ، فنزل بعد نوم طويل فى مسكنه ، وتجول فى بعض الأزقة ، فيما وراء محال " العلف " و " العطارة " ، وأعطى بعضَ الأطفال العابثين هناك بعضَ القروش فى سخاء حتى برقتْ عيونُهم بالدهشة والفرح ! ثم تجول فى شوارع وسط المدينة . وما أن بلغ " شارع صفية زغلول " حتى لاحَ له بابُ محل " لورانتوس " فتوقف هنيهة متفكراً ، ثم دخل واجتاز الممَر ، وأجال ناظريه فى أكناف الأركان الغائصة فى دوامة من الأضواء الملَونة . وخَطَا خطوات إلى الداخل . وبَداَ وكأنه يبحث عن شئ ما ، فسأله أحدُ عمال المحل :

- " أى خِدمة يا أفندى ؟ ! " .

- " التليفون من فضلك ! " .

فأشار الرجل إلى " كابينة " صغيرة فى ركن قصى ، متوارية وراء الظلال ، قائلا :

- " التليفون عطلان ، لكن جرِّب حظَّك ! " .

فسأله حسان بلا وعى :

- " عطلان ؟ منذ متى ؟ منذ شهريْن مثلا ؟ ! .

فقال الرجلُ ضاحكا :

- " لا ! منذ يومين فقط ! " .

ووجـد نفسَـه مـدفـوعـاً إلى قـرص التليـفـون ، فـأداره عـدة دورات بعـد أن رفع السماعة :

- " الأستاذ وصفى من فضلك ؟ ! .

- " غير موجود فى البيت يا افندم ! مَنْ سيادتك ؟ ! " .

- " أنا صديقه حسان ، أين أجده الآن ؟ ! " .

- " قد يكون فى مكتبه بالجريدة ! " .

- " شكراً . سأتصل به مرة أخرى .. " .

وأغلق الخطَّ بأصابعه فى ضجر ، وما تزال السماعة فى يمناه تحت شفتيه . ورمق السماعةَ بنظرة كارهة ومطَّ شفتيه ، وأسبل جفنيه مقطباً ، ثم ألقى بالسماعة فى مكانها بحدةٍ عصبية . واجتاز الممَّر فى إعياء . غادر المحل وسار على مهل . لم يكن مكتب جريدة " البيان " بعيداً ، فاتجه إلى مبناه رأسًا . وصعد الدرجَ وسأل موظف الاستعلامات عن الأستاذ وصفى ، فقال له :

- " مكتبه عن يسارك فى آخر الممر ، لا أعرف إن كان موجوداً الآن .. ادخل واسأل عنه .. " .

وأطلَّ من باب حجرة مكتبه ، فوجد بداخله ثلاثة من زملاء المكتب ، بينهم حسناء . كانوا يتناقشون ويضحكون . لم يلمحه أحدهم . توارى ، فتداعتْ فى رأسه بعضُ كلمات وصفى عن الجـو الصحفى . أحسّ بالهيبة والسطوة . شعر ببؤسه ،

فهمس في باطنه : " لو وقَعتْ وحوكِمَتْ ، فستُشنق أو تُسجن إلى الأبد ، وسأموت أنا مع بعدها كمداً ، مهانًا ذليلاً ... إذن ، صُنْ كرامتَك وسط الدنيا التى أهانتك ! " .

وما أن استدار حتى فوجئ بوجه (غلوش) فى مواجهته !

- " غلوش ؟ ! " .

- " أهــلا عـــم حسان .. تفضل ! لابد أنك تسأل عن صديقك الحميم الأستاذ وصفى ! ؟ " .

- " أيـــن هـــو ؟ ! " .

- " لم يحضر . أي خدمة ؟ أى رسالة أبلغها له ؟ ! " .

- " ماذا تفعل هنا ؟ " .

- " أنا أعمل " ساعيًا " هنا ، وفى " بوفيـه " الجريدة بفضل مساعى الأستاذ وصفى ، الله يعمر بيته ! " .

- " كـــــذا ! " .

- " الـدنيا أرزاق . ربنـا لا ينسى عبـدَه . فنجان قـهـوة معتبر بيدى ياعم حسان ؟ ! " . لم يرد عليه بكلمة . لم يصافحه . استدار ومضى مسرعًا فى ارتباك ولهوجة . وكاد يتعثر وهو يهبط السُّلم !

*   *   *

وما أن هبط المغيبُ ، حتى اتجه صوب دكانه . ورمق فى غرابة " لافتته " التى تعلو بابه ولا يعلوها شئ . فتح البابَ وحذاؤه ينغرس فى كوم من الزبالة . وأضاء المصباحَ ، فبَدَتْ باحةُ الدكان فى ناظريه قبراً أغبر مقبضاً لا يُطاق ، وكأنه لم يُفتح منذ ألف عام . وأغلق بابه الزجاجى عليه ، وجلس إلى مكتبه الصغير لا يفعل شيئا . لماذا جاء هنا ؟ كان كل ما حوله يبدو غريباً ، وكأنه يدخل هذا المكان لأول مرة دخول لص متسلل أو قاتل هارب ..... وإذا بشبحها يلوح له وراء زجاج الباب . رفع رأسَه مجفلاً وضيّق عينيه فرآها تنقر الزجاجَ بأصابعها . كان الزجاج مغبشاً بالتراب الأصفر ..

- " ما الذى جرى لك يا حسان ؟ " .

- " .... " .

- " لا أعرف كيف أراك ! " .

- " .... ! " .

- " كلما نظرت ، رأيتُ دكانَك مغلقاً ! " .

- " .... ! " .

- " لماذا لا تتكلم ؟ ! أقرأ فى عينيك كلاماً .. ! " .

- " .... ! " .

- " نجح الوغدُ فى الوقيعة بيننا ! فى دماغك أمور لم أعد أفهمها . ! " .

- " .... ! " .

- " إذن ، أنتَ لم تعد تريد أن تكلم هناء ؟ ! أنتَ تعذبنى .. ! " .

- " .... ! " .

- " أنا هناء التى تكلمك ! " .

- " .... ! " .

- " على أى حال ، أنا فى انتظارك الآن فى شقتى ، فلم يعد المكانُ هنا يصلح للقاء ولا للكلام . ولم تعد شقة أمى هنا تصلح للسكنى . أصبح الحى كله لا يُطاق ! .. تعالَ الآن فوق ! فعندى جديد لك ! . " .

فهمس حسان همساً مريضا لم تسمعه ...... ثم شيّعها بنظرات غريبة برقت بها عيناه فى محجريهما الغائرين ! ورآها تبتعد وتتضاءل وتغوص فى العاصفة الترابية الصفراء ! ورأى حبّات الرمال الهوجاء كحبات الأرز تقرع زجاجَ الباب وتحدث صوتاً رهيبًا يمور داخل روحه المضطربة !

الفصل الخامس والستون

الليلة الأخيرة

لم يرفع أصابعَه العَظْمية عن صدره ! أنصت إلى كلامها داخل حجرتها .. نفس الحجرة . سقطتْ عيناه على وجهها فلم يرَه وجه هناء . بَدَت له للحظاتٍ دميمة ، مرفوعة الحاجبيْن ، مذمومة الشفتيْن ، غائرة الخدّين . ينضح جلدُ وجهها وعنقها ونحرها ويديها بُصفْرة الموت . رأى وجهَها وجهَ بُومة !

- " الجديد في الأمر أنني أصارحك أن شقة أمي هنا لم تعد تصلح للسكنى . وأهل الحي هنا أوغاد .... وأنتَ ... أنت لم تعد حسان الذي أعرفه ! " .

وكان يضع يدَه على قلبه ويتنفس خفيةً في صعوبة . وتحركتْ أصابعُه حركةً ثعبانية بطيئة . تقلصتْ فتقبضتْ ، ثم اجتذبتْ قبضتُه قماشَ معطفه على صدره في رعدة لا إرادية مريضة .

- " هل أقول للناس الليلةَ عقد قراننا ؟ ! "

نطق حسان بهذه الكلمات وسكت ، فقطبتْ في دهشة ناظرة إليه نظرةً طويلة متسائلة ، ثم أمالتْ رأسَها قليلاً تمعن النظرَ في وجهه وعينيه ، وما لبثتْ أن ابتسمت ابتسامة قبيحة مغتصبة فبانَتْ أسنانُها أنياباً زرقاء ، وقالت :

- " غريب ما تقول ! ماذا دار بينك وبين وصفي ؟ ! " .

- " قال كلاماً .... تستطعين أنتِ وحدك تكذيبه ! " .

- " مــا هــــو ؟ ! " .

- " لستُ فى حالة تسمح بالخوض فيه ! " .

- " كيف إذن أكذّبه ؟ ! " .

- " أن نعقد الليلة ! " .

- " كيف يجوز هذا الكلام ؟ ! " .

- " الليلة وليس غداً . "

- " كيف .... " .

- " لن أحتمل فراقَك ! " .

- " فراقى ! ؟ " .

- " لن أحتمل .... " .

- " حسان ! أسبوع واحد يمضى ثم ندخل ! . " .

- " لابد .... لابد أن .... " .

- " ماذا تريد أن تقول ياحسان ! ؟

- " سؤال ! لماذا دفعتِ بى لمقابلة وصفى قبل موعدى معه ؟ ! " .

- " لنعرف ما تنطوى عليه نفسُه من مكائد ضدنا ! " .

- " ضدك وحدك ! " .

وامتقع وجهُها ، وابيَضَ من فرط الشحوب بياضاً مكدوماً ، وأطرقتْ طويلا ، ثم رفعتْ رأسها وغمغمتْ في هوان :

– " ماذا قال لكَ وصفى ؟ ! تكلم يا حسان ! " .

فقال صائحاً بوجه مومياء :

– " لماذا قلتِ لى منذ أيام أن وصفى لن ييأس إلا بالقضاء عليه ؟ ! "

ماذا كان يدور بخلدك فى تلك اللحظات ؟ ! .

– " لن يهدأ قواه إلا الله ! عذّبنى كما عذّبنى أهلُه . أهله الذين لم يرحموا أمى وهى مريضة مرض الموت . رفضوا إيواءها فى منزلهم . كنت أريد أن تكون تحت رعايتى المستمرة . لكنهم أجبرونى وقتذاك على إدخالها المستشفى – القسم المجانى ! – ذليلة مهانة وهى تحتضر ! " .

رانَ الصمتُ . انتابه دوار . تقلصتْ معدتُه . أحس بالغثيان ، وبالرغم من إعيائه الشديد ، كان يتفحص بعينيه المحمّرتين أشياء غامضة تحت السرير ..... !

قامتْ .. داعبتْ بأناملها شَعرَ رأسه الذى غاص فى شذى قميصها المكهرب الناعم . وخالطتْ رأسَه كلماتُ صديقه " شعبان " ، فكيف يستعد ويتهيأ لامرأة أرملة مجرّبة ! كما أحرقتْ قلبَه ضحكاتٌ مجلجلة ، فتبدى له وجهُ وصفى وهو يضحك ويقول : " ديك ! " . لم يتمالك نفسَه . فجاة ، ارتعد بدنُه وهبَّ ناهضاً فى وجل ، جاحظ العينينْ فى خَبل ، وجسمه كله ينتفض . يتصبب عرقاً ، وما تزال قبضتُه ممسكة بشئ ما تحت معطفه . مكث متجمداً فى وقفته لحظات وسط الحجرة التى مادتْ

واتسعتْ وانبعجتْ وتباعدتْ جدرانُها وأثاثها .... ثم انطلق مسرعاً صوب الباب . وهناك وقف وتلفت إليها . تفرّس فى وجهها بعينين تبرقان بشررٍ رهيب وتتوهجان فى جنون . وكانت تنطق بكلمات لم يسمعها ... التقطت أذناه شذوراً متناثرةً : " لكِ عندى مفاجأة ... أجمل منى .. أنا لا أصلح لكِ ... أنتِ خير منى ! " . وفتح البابَ ، وانفلتَ إلى خارج الشقة هابطاً فى الظلمة كغُرابٍ أسود .... !

* * *

هبطتْ درجةُ الحرارة الخماسينية هبوطاً كبيراً .. وكان الجوّ فى الشارع مكفهراً عاصفاً ... تبلغ سرعةُ الرياح أكثر من ستين ميلاً فى الساعة . المطر ينهمر سيولاً . دخل دكانَه مرتعد الأوصال . أغلق بابَه الزجاجى عليه . اندفع داخل مخزنه ، طرح جسمه على جوالات الأرز والسكر لايعى من أمره شيئاً . كان يهذى ويوورور فى الكلام : " جسمى نتن . روحى تعفنتْ . النار تطهّرها . خنزير فاسق . ديك . هزأة .. أين شعبان ؟ ! " . ومن خلال حبّات العرق المتقاطرة على رموشه وجفنيه ، ومن خلال شقٍّ رفيع فى الحاجز الخشبى لمخزنه ، رأى شبحَها . سمع نقرَ أصابعها على بابه الزجاجى . رآها وخيّل إليه أنه يسمع صوتَ النقر . لم يكن يسمع غير عواء الرياح . لم يقم ليفتح . هل يعلو صوتُ النقرات ؟ .. اندفع .. هاتفاً فى باطنه : " تعالى ! وليكن .. " . فتح البابَ فَدَخَلتْ بقميص نومها من فوقه معطفها الأسود مفتوحاً . شَدَّ البابَ الصاجى إلى نصفه . أغلق الباب الزجاجى عليهما بالمزلاج . مشى متطوحاً ، متجهًا نحو الجُبّ . طرح جسمَه فى تهالك على الجوالات وهى تتبعه من ورائه قائلة :

– " ماذا دهاكَ يا حسان ؟ ! أنتَ مريض . الجوّ فظيع . الصقيع يقتلك ! كم تأخر بكِ الوقتُ ! إغلق دكانَك ... هيا ! " .

- " كم الساعة الآن ؟ ! " .

- " الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل ! " .

- " كيف .... " .

لم يكمل ، فقالتْ له وهى تمسح بمنديلها عرقَه المتصبب عن جبينه ووجهه :

- " لا مخلوق فى الشارع . الجوّ مقلوب بعاصفة لم يهب على المدينة مثلها من قبل ... " .

- " كيف سرقنا الوقتُ ! " .

- " الجوّ فى دكانك بارد جداً . البلاط هنا ينثّ صقيعًا قاتلاً . لن تبقى هنا طويلاً .. قُمْ ! .. " .

- " لن نبقى طويلاً ! لا أستطيع أن أقوم الآن . استريح قليلاً ! " .

- " تستطيع أن تتساند عليَّ . ونصعد سوياً . نَمْ عندى الليلة ! لا مَفَر . غير معقول أن تذهب إلى بيتك الآن وأنتَ فى هذه الحال . أنتَ مريض . لن تجد مواصلة إلى بيتك . نَمْ عندى الليلة ! " .

- " كيف .. كيف تجرؤين ؟ ! " .

- " لا مخلوق فى الشارع . لم يرنى أحد ! " .

وانحنتْ عليه وهى لا تكفّ عن مسح عرقه ، فأمسك راحتَها بكفِّه اليُمنى مغمض العينين مرتعشاً . وسوّتْ له بيسراها شعرَه المشعث المنكوش والتصق صدرُها بصدره .

لكن وجهها كان ما يزال وجهَ بومة ! كما كان هو ما يزال قابضاً بكفِّه اليسرى على شئ تحت معطفه بتشبث ملحّ غريب ، وقلبه يخفق خفقاناً متلاحقاً لاهثاً . كان ينقف في دماغه همسٌ هاذٍ : " كل شئ يتم ويكتمل في لحظة واحدة ! " .

- " هـل تحس بألـم ؟ ! " .

- " .... ! " .

- " تنام عندي الليلة . نحن في حُكم الزوجيْن ! " .

- " الليلة ! " .

- " لا يهمك كلام الناس ! " .

- " لكنك .. " .

وأحاط كتفيها بذراعيه وجذبهما نحوه ، فتمدد جسمُها لصقه ، جنبًا إلى جنب . واستطاع أن يستدير . قال بهمسه المريض :

- " لكنكِ غداً .. تتركينني ! " .

فانتفضتْ متسائلة :

- " غداً أتركك ! ؟ ما هذا الكلام ؟ ! " .

- " أنتِ على سَفر بعد يوميْن ! "

فاربدّ وجهُها وقالتْ بذعر :

- " أقال لكَ هذا ؟ ! " .

- " وقوله حقيقة ! " .

فغابتْ عيناها في غياهب مجهولة ، ثم قالت وهي تحاول أن تتملص من تحت جسمه :

- " نَمْ عندي الليلة . غداً تفيق ونتحدث ! الكلام يتعبك الآن ! " .

كان قد أحكم إسارها . قالْ وقد اكتسى وجهه وحاجباه بصُفرة التراب الصحراوي :

- " بل السكوت يقتلني . لنتحدث قليلا . استريحي معي الآن .. " .

- " قُمْ ! تساند عليَّ .. " .

وأنزلتْ بحركة عصبية متصلبة ساقيْها عن الجوالات وهي تحاول جاهدة أن تخلّص جانباً من جسمها ، فاستدار شبه دورة وأحكم بدنَها كله تحت كتفيه وصدره وذراعيه ، فتأوهتْ .

- " أنتَ تمسكني بقوة . تؤلمني . ماذا جرى ؟ ! " .

- " حقائبك جاهزة للسفر ! " .

- " سنسافر معاً يا حسان ! " .

- " كذّابة ! لماذا أخفيتِ عني حقيقةَ الاعتراف ! ؟ " .

- " آي ! آي ! لا أفهمك . خفّف عني جسمَك . لا تصدقه ! أي اعتراف ؟ ! سنسافر معاً ! " .

- " وصفي كذب وصدق ! " .

- " أنت تؤلمنى ! ارفع جسمَك عنى ! " .

وكادت أن تنزلق ... لكن قوةً عاتية أحاطتْ بها من كل جانب بإحكام .

- " صدقتِ ! سنسافر معاً بعيداً عن هذا الحى . عن المدينة كلها . عن الجحيم .. ! " .

- " تؤلمنى أشدَّ الألم . أرجوك . سنسافر معاً يا حسان ! " .

- " كلانا من الجحيم إلى جهنم ! .. نحن فى حُكم الزوجيْن ؟ ! " .

وهوى على شفتيْها منقضًا . لمَّهما بشفتيْه في شبه عَضَّة . قبَّلهما قبلةً طويلة نهمة ، فأطبق الفكّين .

- " أنتَ مريض إفمن أين أتتك كلُ هذه القوة ؟! "

" وأسبلت جفنيها . لاَحَ له حاجبهَا الأيسر تشقّه نَدبَة شوهاء ، وجرى ريقُه فى حلقه مراً . همس :

- " شفيتُ الآن ! " .

كان قد خلع نصفَ معطفها ، وفكَّ أزرار قميصها العلوية . دسَّ كفَّه وذراعه المشمرة . تسلل بهما إلى ظهرها العارى ، وهى لا تكفَّ عن التوجع . كانت عيناه تنظران بحدة وتركيز ، على حين كان ضوءُ المصباح ينهمر فوقها متأرجحًا .. لابد أن يتم الفعلُ . احرص على ألا تترك لها فرصةً لتطلق صرخة !

- " أرجوك يا حسان ! ليس الوقت ولا المكان ! " .

صاح حسان صيحة مكتومة مبحوحة بكمدٍ وقلب منهار مرتعش :

- " مَنْ هو الدكتور نجيب الصدفى ؟ ! " .

فارتعشتْ شفتاها وقد هرب منها الدمُ المتورد . برقتْ عيناها رُعباً وارتياعاً .
غمغمتْ بألمٍ حاد فادح :

- " صيـــدلى ! " .

- " ما علاقتكِ به ؟ ! " .

- " كان يحقننى بحقن ! " .

- " حقـــن ؟ ! " .

- " حُقن لعلاج أعصابى . أتلفَها زوجى ... المرحوم ! " .

- " المرحوم ؟ ! المرحوم تجارته أفلستْ ! " .

همَّتْ بالنطق وعيناها تجحظان ، فوضع كفَّ يسراه على فمها . حاولتْ أن تستدير وتتحرك وتفلتَ من إساره ، فلم تقوَ !

- " ومَنْ زوجك الغالى ؟ ! " .

- " أنتَ ...... أنتَ ! " .

- " كـــذّابـــة ! " .

ضغط بكفٍّ يسراه على فمها المرتعش .

- " آى ! آى ! " .

ستضيع الصرخةُ فى عواء العاصفة . عضّته فقالتْ :

- " جواز سفرى ! معكَ ! يا حسان ! . " .

لم يرَ حسان شبحَ شخص غير واضح الملامح ، مجهول . وقف فى الظلام العاصف تحت نصف الباب الصاجى وطرق البابَ الزجاجى طرقات متلاحقة . لم يرَه . لم يسمع طرقاته . لم يسمع صيحتَه الضائعة أدراج الرياح المولولة :

- " ماتتْ أم وصفى ! وصفى شَنق نفسَه ! " .

كان الهمسُ الهاذى ينتقف فى دماغه .. فى كيانه كله : " الفعلُ يتمٌ فى لحظة واحدة . بدفعة واحدة .. ثم .. ثم ... " . ولم يرَ الطارقُ المجهول أحداً فى الداخل . لاَحَ له الدكانُ خاوياً ، قَطَع الأملَ ، فمضى يضرب فى ظلمة شارع البرازخ ، فى مهب الريح وخطف البرقُ وقصف الرعدُ وسيول المطر !

وفتَّح حسانُ عينيه فى اتساع . نظر مرات أخرى إلى الظهر ، فى أثناء هذا استلَّتْ قبضتُه خفيةً من تحت معطفه سكينَ الحلوى الهذوم ! بَرقَ نصلُها تحت النور الشاحب المبعثر . انغرز حَدُّها فى جوالِ تحت جنبيهما ، فانسالَ رشاشُ السكر على بلاط الجبِّ الملوث ببقع الزيت ! .. " إن ذلك من عزم الأمور ! " . تراءى له فى صعوبة بالغة تحت بصره وشفتيه وأنفاسه الحارة المترددة فى لهاث مجنون متلاحق ، تراءى له لحمُ ظَهرِها وضَّاءاً صافياً متورداً . تَبدَّى له أرجوانياً شفّافاً : " أنا هزأة ! أنتِ القَمران ! المحاق المشنوق ! " تحاش النظرَ فى عينيها البارقتين وراء غشاوة زرقاء حتى لا يضعف قلبُه . كان يرتعد . نظر فى جنون بطرفٍ خفى إلى نَصل سكينه المسنون . بَرقَ الحَدُّ ، التمع ، خطف بصرَه المختبل . تركه يتسلل إلى لحمها تحت الثدى الأيسر . كانتْ أسنانُها منغرزة فى لحم كفّه ! كلمات تنفلت فى صعوبة من تحت ضروسها ممتزجة بلعابها المكتوم ! أطلقتْ صرخةً متأوهة طويلة ، صرخة ألم من الحلق والصدر .

احتبستْ بعضُ حروفها وارتطمتْ فى لحاء القصبة الهوائية :

- " آي ! آي ! ارحم .. ا .. ر .. حـ .. م ... " .

فشهق شهقةً مجنونة :

- " يرحمنا اللهُ جميعا .. ! " .

وغرز النصلَ المسنون بقوة .. دفعة واحدة . فارتعش ذقنُها !

- " أنتِ فتنة ! " .

انساب النصلُ تحت نصف كرة اللحم الأبيض المتورد . غرزَه بعنف . تركه يغوص في نعومة . انتفض الثدى وتقبّض فوق سبابته ، ارتعش جلدُه ، قَفَّتْ مسامهُ على طرف إبهامه . ترك النصل ينامُ داخل اللحم الساخن اللزج دقائق .....

- " آي .. و .. هـ .. آه .. آي .. ! " .

كانت ترجُّه رَجًا ، تحاول أن تتلوى . لكن جسمه كان ثقيلاً .. ثقيلاً كالجبل . أحسَّ بانقباض ممتع يمسك به مسكاً ساحراً . دَعْ السحرَ يمتلكك امتلاكاً . من أين لكَ هذه القوة ؟ ! .. فأنتَ مريض . وسحب السكين إلى الخارج . إلى منتصفها .. تخدرتْ يدُه ثقل ساعدُه . لكنه أدخل السكينَ حتى أول المقبض الخشبى مرةً أخرى .. ثم مرات .. اضرب ضرباتك بعنفوان شبابك الذابل . شبابك أهدرته كهولتُك . أهانته الدنيا . ضَرب ، فأحسَّ بنصل السكين يخبط كاملاً فى الداخل ، فى كلِّ اتجاهٍ مجراه .. وشلالٌ لاهب من الدم يندفق . يخالطه عرقُه وزبد لعابه ، يرتعش تحت انتفاضات بدنه المجنون . أغرق الدمُ قبضتَه . سَالَ على ذراعه المشمرة ، كالموجة الفائرة .

انساب على كتفيه وظهره . أغرق بدنه شبه العارى وبدنها . غاب رأسُه فى دوار ساحق ، تردد بين وجعٍ بلغتْ شدتهُ حدَّ ارتعاش أطرافه وبرودة نخاع عظامه ، وبين دغدغةٍ فى كل حواسه كأنه ريشة دامية معصوفة يعبث بمسام جلده كله شهيقٌ وزفيرُ شيطان ، فيزلزله ارتجافٌ متصل مترضرض .

.. لا ترفع عنها ثقلك وقوتك قيد أنملة .. وأحسَّ رويداً باسترخاء وخفّة .. ونام .. أو كأنه نام .. زمنًا . هدأتْ أنفاسُه . بسط أصابعَه اللزجة . دقق بصرَه الغائم . رأى مقبضَ السكين بارزاً فى صلابة غريبة تحت تكوّر الثدى .. ساكناً .. كل شئ ساكن . رأى طيفَ ابتسامة غريبة ترفّ على شفتيها . تلاشتْ قبضةُ الوجع . تراخى الجسدُ . همد . رأى من خلال دم متقاطر " شامةً " فى شكل تفاحة . لا . لا تنظر إليها . لن تجدها . ستطير . ستجد جثمانها ملفوفاً فى سحب أرجوانية متلبدة . لا تكتفِ بكفنها الأحمر هذا . مدَّ يدك واجذب حصيرةَ الصلاة .. الجردَل مقلوب . ابسط الجثةَ على الأرض . أين الماء ؟ دحرِجها فوق الحصيرة . اطوِها طيًا . هذا كفنها . لا . اتركها الآن قليلا . الباب الزجاجى مغلق . مَنْ ذَا الذى يطرقه فى هذه الساعة ؟ ! دسَّ عينيه خلال شقٍّ فى الحاجز الخشبى . لاَحَ له شبحُ طارق بالباب . تقدم خطوة . ثم خطوتين وهو يتفرس ويحملق . انسابتْ خطاه صوب الباب . نظرِ إلى الظلام وراء الباب . رأى الطارقَ وراء الزجاج . رآها هى . رأى وجهَ هناء . وجهاً بدريًا ، يبتسم . رآها واقفة بلا معطف أسود . رآها مرتدية ثوباً وزدياً طويلا يتماوج فى مهب ريح عاتية . رآها تلوّح له بيمناها أن افتح .. افتح .. رآها تمسك بيسراها شيئاً .. ما هذا ؟ ! آه .. بطاقة التموين .. افتح .. افتح يا حسان . الدنيا برد بالخارج ... المطر غزير .. افتح .. رياح الخماسين .. رمال صفراء .. افتح .. وكاد يمدّ قبضته

ليفتح ، فرآها غارقة فى الدم .. لا .. لن أفتح .. طرفتْ رموشُه . اختفى الوجهُ ، والثوبُ الوردى . لا شئ سوى الزجاج تنعكس عليه دواخلُ الدكان . وومض البرقُ . قعقع الرعدُ . ولمح صورةَ أبيه المعلقة على الجدار ، يطلّ عليه بلحيته البيضاء . نظر إليه وغمغم فى هذيان . طوى السكونُ كلَّ شئ . تراجع خطوات . أهذا صوت الصدى ؟ ! تبعثر نورُ المصباح المتطاوح . فارتْ فى عينيه ذراتٌ من الضوء ملوّنة بألوان جناح هدهد . شحبَ الضوءُ . صار فى لون الرمال . ازرقّتْ زُرقة العَظم المُنتِن . اسودّتْ سوادَ الغربان . رأى نفسَه مايزال راقداً فوق الجثة . لماذا انفرج فمُها ؟ ! .. قُمْ ! ها هو فنطاس الجاز . قُمْ رابط الجأش . ليس فى الشارع ، ولا فى الحى صوتٌ أو نامة . نام الغلمانُ الشياطين . ليس فى الخارج إلا هرهرة ريح العاصفة الهوجاء ، تسفسف الدنيا كلها . كل الأشياء والرفوف والجدران والميزان تزفر مع زفير صدره وتشهق مع شهيق قلبه . رأى جثمانَها ساجياً فى وحشة السكون . كان فمها نصفَ مفتوح بين فكّيْن متجمديْن ، وعيناها زجاجيتين فى نتوء أزرق . خَبَا بريقُهما . نظر إلى البطن فانخفض بصرُه . سيتعفن وينتفخ بالهواء الفاسد . كان سينتفخ يوماً وبداخله الجنين . ابن له ! رأى شقّا منفرجاً . لمحه لمحاً خاطفاً وقد صار جُحراً متخدداً متهدلاً عفناً كريها ، " يشغى " بالعقارب الزرقاء .. كلُ مستور وَهْم ! وتقبّض جهازه الهضمى كله . ضغط على رئتيه ضغطاً ساحقا . احتبستْ أنفاسه لحظات . ما هذه الظلمة الباردة الخشنة العفنة اللزجة ؟ ! قُمْ ! وكُفّ عن النظر إليها . لا تنظر فى عينيها . اسمع . اسمع ، هذا صوت الشيخ عبد المقصود يترامى فى الفضاء البارد ، يؤذن آذان الفجر . الله أكبر . لا إله إلا الله . لكن الدنيا ظلام . الجردل مقلوب . الباب ! ؟ الباب الصاجى نصف مفتوح . إغلقه ! قام . خرج من المخزن . مشئ متموج الجسم ،

متطوحاً ، متقبضاً ، مهدماً . تعثر في طرف الحصيرة . انتفض . تقدم وكأنه يزحف في قار مخاطي لزج . تسمر وسط الباحة طويلا . نظر إلى الباب الصاجي . رآه نصف مغلق . نصف مفتوح . ظل واقفاً لا يتحرك . لا يفكر في شئ . دماغه خاو من كل خاطر . لا يشعر بأي ألم . بأي حزن . سرى في كيانه هواء . صار خفيفَ البدن كعصفور . كل شئ وهم . كل شئ يجب أن يتطهر . الشعور بالطُّهر الوشيك يبشّر بالصحوة وبالنور بعد النار . في الداخل . في الجبّ ، يوجد فنطاس الجاز ! وفتح البابَ الزجاجي . رفع ذراعيه المشمرتين الداميتين . جذب البابَ الصاجي . لم ينجذب . حاول مرات فطاوعه . شدهُّ إلى أسفل . هبط به حتى حذاءيه الملوثيْن بدمٍ قرمزي . لا تفتحه أبداً . لن تفتحه أبداً .. لن يُفتح .. أبداً .. أبداً .. !

خاتمة الأرجوحة

** وشبّتْ نارٌ ، ذكّتْها رياحُ الخماسين . أكلتْ الدكانَ المغلق الأبواب ومَنْ فيه .

لاكـتِ الألسنـةُ الكلامَ والتعليقات . وجد سكـانُ شـارع البـرازخ وأهالى النـزهة " " و " أميروزو " والأحياء المجاورة والبعيدة ، موضوعاً لتسلية جديدة . تركوا كلَّ حديث إلا الكلام فى حكاية " حسان وهناء " !

* فـى الفُـرْن :

– وجدوهما عاريين محروقين !

– إلا الجردل والميزان .

* فـى المَجْيَـرة :

– سكَنتْ جليلة شقةَ حسان الجديدة .

– فتح الله عليها وعوَّض أولادها خيراً .

– زوجها الأسطى أحمد برقوق مسجون ، مصيره مجهول .

– ربنا يفرج عنه . وربَّ ضارة نافعة .

* فـى المسجـد :

– " الشيخ عبد المقصود الرملى " يتحدث .

– تعالَ نسمعه ، ماذا يقول ؟

– يا شيخ عبد المقصود . أنتَ لا تذكر سيرةَ حسان بكلمة !

– أنا مشغول بما هو أهم وأجدى ؟

* في مدرسة الشيخ محمد عبده :

- حمداً لله على سلامتك يا شعبان أفندى !

- أنا لا أصدق ماحدث . كم أنا حزين أشدَّ الحزن ! لعبتْ هناء لعبةَ حكام البلد !

* في مكتب جريدة " البيان " :

- يا غلوش ! هات قهوة !

- حادث مروّع !

- ماتتْ أمه .

- لم يحتمل الصدمةَ ! رحمه الله !

- وهل يرحم اللهُ كافراً ؟ !

** واتسعتْ أرضُ الحِرية . قام " شرنبث " بتركيب قلاع " مرجيحته " الجديدة على أرض الدكان !

نصبها فبَدَتْ في العراء مثل ناطور طويل بالغ النحافة .

** يوم " شم النسيم " يوم المهرجان . ملأ " شرنبث " جيبَه بالقروش والملاليم . ركب أولادُ حى " النُزْهة " الأرجوحة .

وقف يدفع قرصَها الخشبى إلى الهواء .. إلى حضن نسمات الربيع . وفوق القرص ، كان الأولاد يرتفعون في الفضاء . يصيحون . يضحكون . كان القرصُ من تحت كفَّيْه الصغيرتين وساعديه القصيرين ، مكتوباً عليه " بقالة الاعتماد " !

كـان " شـرنبث " لا ينى عن دفعه دفعاً قوياً ليعلو كلما وهنتْ حركتُه وتراختْ حباله .

** كان يغنى وقلبه يجيش بالفرح والحزن والأهازيج .

ارتفع القرصُ إلى أعلى نحو سماء صافية لا زرودية شفّافة بلا سحب .

يشهق الأولادُ . يتصايحون . يهللون . وكأن الأرجوحة دوامة توشك أن تدور دورة كاملة ، فيحلمون بأن تظل تدور وتدور بلا نهاية .. وإلى الأبد !



تعريف موجز بمؤلف رواية « شتاء جريح »

• حسنى محمد بدوى

روائى وكاتب قصة قصيرة - ولد بالأسكندرية عام ١٩٣١

• خريج قسم الفلسفة جامعة الأسكندرية ١٩٥٩

• آثر العمل موظفًا على العمل بالصحافة - أحيل إلى المعاش عام ٩١ وكانت آخر وظائفه مديراً عامًا للادارة العامة للمعلومات والتوثيق بهيئة ميناء الأسكندرية .

• كانت بداية معالجته ونشره للقصة القصيرة فى سن مبكره ، فى مستهل الخمسينات ، ولم ينقطع حتى الآن عن كتاباته القصصية ونشر عدداً وفيراً من قصصة ومقالاته وترجماته الأدبية فى كبرى المجلات والصحف المصرية ، منها : « الرسالة الجديدة » و « الأدب » (لأمين الخولى) و « المساء » والملحق الأدبى لـ « الأخبار » و « الكاتب » و « الطليعة » و « الشباب وعلوم المستقبل » و « إبداع » وملحق الجمعة لجريدة « الأهرام » وغيرها .. ومن المجلات والصحف العربية : « العربى » و « العربى الصغير » و « البيان » و « الكويت » - و « الدوحة » و « الراية » و « التربية » و « الأمة » - و « الثورة » السورية - و (« الأداب » و « الأدب » البيروتيتين) - و « والمجلة العربية للعلوم » - و « والمجلة العربية » و « الحرس الوطنى » و « القافلة » و « المنهل » و « الخفچى » و « الشرق » السعودية .. وغيرها ..

● لــه مجموعة قصصية مشتركة بعنوان « قصص قصيرة » عن كتابات معاصرة . ومن قصصه العديدة جمع ١٣ قصة تضمنتها مجموعته « وجه الصبيّة » صادرة عن الهيئة العامة للكتاب (عام ١٩٨٧) .

● لــه روايتان ، هما (١) « شتاء جريح » كتبها فى شتاء ١٩٨٠/٧٩ طبع المجلس الأعلى للثقافة ، و (٢) « بدرية الأسكندرية » قدمها لهيئة قصور الثقافة لنشرها فى سلسلة (أصوات أدبية) ، ورواية طويلة ثالثة لم يدفع بها للنشر بعد ...

● مبتعد عن الأضواء ، زاهد فى الشهرة ، لاينتمى إلى ثلة ، لايتوكأ على ناقد ، مهتم بالإجادة ..

● ترجم ونشر نماذج من القصص العالمى ، منها لموباسان ، وأو . هنرى ، وهـ . ج . ويلز ، وهـ . هـ . مونرو « ساكى » ، " ومكتب البريد " لطاغور و « الموت فى البندقية » رواية قصيرة لتوماس مان ...

● حصل على عدة جوائز فى القصة القصيرة ..

● متزوج وله ابنتان .. وأحفاد ..

● ت : ٥٠٥١٨٨٨

الفهـرس

الموضوع		رقم الصفحة
الفصل الثامن عشر :	ساعة مع شعبان أفندى	٩٣
الفصل التاسع عشر :	الاعتراف	١٠٣
الفصل العشرون :	ادخل بيتك	١٠٧
الفصل الحادى والعشرون :	البكاء	١١٣
الفصل الثانى والعشرون :	الأبواب الموصدة	١١٩
الفصل الثالث والعشرون :	العزلة	١٢٥
الفصل الرابع والعشرون :	الملة	١٣٣
الفصل الخامس والعشرون :	سر الأم	١٤١
الفصل السادس والعشرون :	الكوب الثالث	١٤٥
الفصل السابع والعشرون :	فى المقهى	١٤٩
الفصل الثامن والعشرون :	الغريمان	١٥١
الفصل التاسع والعشرون :	ما وراء غلوش	١٥٥
الفصل الثلاثون :	دقائق فى الوكالة	١٥٩
الفصل الحادى والثلاثون :	حديث الأشواق	١٦٣
الفصل الثانى والثلاثون :	حبل الحلال	١٧٣
الفصل الثالث والثلاثون :	القبر	١٧٩
الفصل الرابع والثلاثون :	فى ركن الأحلام	١٨٣

الموضـــوع	رقم الصفحة

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٤٧٣ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 235 - 999 - 5)

تصويب الأخطاء المطبعية

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠	١٢	سنّي	سنّه	٢٧٠	٢٥	تبلغ	تبلّع
١٣	٤	إن	إنه	٢٧١	٢١	ملرا	منلرًا
٣٩	١	عامود	عمود	٢٧٨	٣	كفه	كتفه
٤١	١٨	فقال	فقالت	٢٧٨	١٩	وجمته	وجعته
٥١	٨	العامود	العمود	٢٧٩	١١	طبقًا	طيفًا
٥٢	٢	توقة	توقه	٢٧٩	١٢	أفق	رفق
٦٣	٢٢	الحدث	الحديث	٢٧٩	١٩	عالى	تعالى
٦٣	٢٦	متراصيا	متراصًا	٢٨١	٢١	بالعجيل	بالتعجيل
٦٩	١٩	ثلاث	وثلاثة	٢٨٣	٨	متفرجين	متفرجون
٨٤	٨	فال	فلا	٢٨٤	٢	معه	معها
٨٤	١٤	متوحشًا	متوشحًا	٢٨٧	١٣	مغادر	مغادراً
١١٤	٧	الطبية	الطيبة	٢٩٤	٨	حديثًا	حديثها
١٣٠	٨	ثَمّ !	نَمْ !	٢٩٧	١	تلوج	تلهج
١٥٣	٢٢	وراءه	وراءِ	٢٩٨	٢	يغرى	يفرى
١٦٧	١٣	بحفوة	بجفوة	٢٩٨	١٠	فاضطرت	فاضطرب
٢٤٥	١٤	لحمة	شحمة	٣٠٢	١٨	قاصية	قصاصة
٢٤٥	١٨	انزلقا	انزلقتا	٣٠٩	٤	لاتمح	لاتسمح
٢٤٩	١٦	خُلمت	خُلِعَتْ	٣١٠	٩	يخوفها	يخونها
٢٤٩	٢٤	لغوة	الغفوة	٣١١	١٨	تعلقت	تعقلت
٢٥٤	٢٢	صحته	صمته	٣٢٦	٨	واثق	واثقًا
٢٧٠	٩	بجرى	جرى	٣٢٧	١٥	يحيف	يحيق
٢٧٠	١٨	أمورا	أمور !	٣٢٨	١٣	وزود	وأودّ

● زمنُ هذه الرواية هو شتاء ٧٦ / ١٩٧٧ ، مثخن بجراح شخصياتهـا يُواجه بطلها « حسّان » بضعفه الإنسانى - وهو إبن الطبقة المتوسطة المصرية بتناقضاتها وأهوائها - صراعاً فتّاكاً يتردّى به فى حبائـل الإحبـاط ، وهو المتمسك ببراءتـه وحريته ، والموهوب بحدسه المتنبئ .

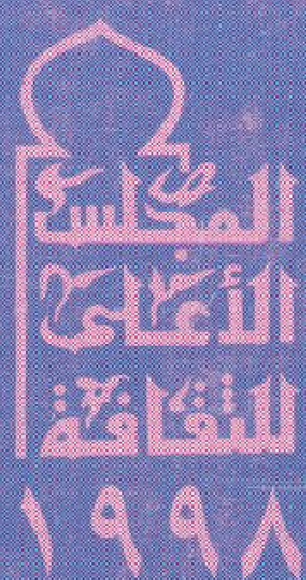
● وإذا كان مؤلفُ الرواية مولعاً بالإسكندرية فى الشتاء ، فهو فى روايته هذه يدخل بنا مِنْ برزخٍ لا يَرحَم إلى جحيم الإسكندرية الأخرى فى شتاء المأساة ..

دراما السقوط !

● فهل يملك القارئُ الشجاعةَ على قراءتها حتى النهاية فيفوز بالمتعَة والجائزة ممتطياً أُرجوحة قد تدور بهِ دَوَراناً أبدياً !

● وقد تثير « شتاء جريح » الكثير من التساؤلات .. على سبيل المثال : ماذا بعد عواصف الشتاء فوق أطلالٍ من رماد الحريق الدامى ؟ ماذا لو حلَّ الربيعُ بسكان « شارع البرازخ » وبأبنائهم ، أبطال هذه الرواية !





تصميم الغلاف / عبد العزيز السماحى